سيرة رسول الله
صلى الله عليه وسلم

كتابات جديدة للسيرة النبوية ،
مع مراجعات واقتباسات من
أمهات كتب السيرة ، وبخاصة
سيره ابن هشام .

بقلم

محمد عبد المنعم خفاجي

الجزء الأول

دار الطباعة المحمدية
بالأزهر - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

« يا أيُّها النَّبِيُّ إنَّا أرْسَلْناكَ شاهِداً ومُبَشِّراً ونَذِيراً ، ودَاعِياً إلى اللهِ بإذْنِهِ ، وسِراجاً مُنِيراً ؛ وبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ بأنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً ، ولاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ والمُنَافِقِينَ ، ودَعْ أذاهُمْ ، وتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وكَفَى باللهِ وَكِيلاً »

٤٥ — ٤٨ من سورة الأحزاب

كتبت هذه السيرة النبوية في أوقات متطاولة ، وانتهيت من مراجعتها يوم الخميس الحادى عشر من ربيع الأول ١٣٩١ هـ - السادس من مايو ١٩٧١ م .

وقد مضى على ميلاد رسول صلى الله عليه وسلم ١٤٤٤ عاما هجريا ، و ١٤٠٠ عاما ميلاديا .

وكان الفراغ من كتابتها بمدينة الرياض

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الصديق القارىء لهذا الكتاب :

أشرق الله قلبي وقلبك بأنوار اليقين ، ولطف لى ولك بما لطف بأوليائه المتقين ، ووفقنى وإياك إلى مرضاته وتجنب عقابه وعتابه يوم الدين ، ومنحنى وإياك عزة رؤيته ومشاهدة جلاله فى جنة المؤمنين الفائزين .

وبعد :

فإن هذا السفر قليل فى جانب رسول رب العالمين ، ضئيل فى التأريخ لحياة سيد المرسلين ، وخاتم النبيين .

ومَن من الكاتبين يملك القدرة على الاستيعاب فى الكتابة عن نبى الإسلام ، أو يقدر على الاستقصاء فى تدوين سيرة محمد بن عبد الله العطرة الزكية الطاهرة الخالدة على مرور الأيام والأعوام ؟ صلى الله عليه وسلم ، صلاة وسلاما دائمين مادامت الأرض والسماوات .

وليس مادونته هنا فى هذا الكتاب إلا قطرة من بحر ، ولمحة من فجر ، وزهرة من خميلة ، ولألاءة من شعاع الشمس المنيرة الجميلة .

وأين القلم الذى يتسنى له أن يكتب ، والبيان الذى يقدر على أن يدنوا من حمى النبوة ويقرب ؛ والفكر الذى يستطيع أن يحوم فى أفق عنه كل فكر يحجب . ؟

وأنا فراشة فى مجال النور تخترق وتحترق ، وسابح فى عباب من المحيط تجتمع عليه أمواجه وتفترق ، وسارٍ فى آفاق مديدة لايبلغ مداها أحد حين ينطلق .

وسبحان الله ، قصرت عن إدراك عظمة محمد بن عبد الله كل العقول ، وبحسبها أنها تكتسب عن العظمة والجلال والقدسية والنبوة فى شخص الرسول، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

ولطالما عشت أقدم ثم أحجم ، وأهم ثم أرجع حين أعزم ؛ وأقول : متى يحين الوقت ، ومتى يشرق بالنور المنزل والبيت ؛ وأقول : ماأسعدنى إذا كتبت سيرة رسول الله وياليت .

ومضت الأيام ، ومرت الأعوام ، وحل الموعد ، ودنوت من المورد ؛ وصدعت بالأمر ، وأخذت أعيش فى أيام أحلى من السحر ، وكتبت وليس كل ما كتبت وأكتب ، إلا مقدمة فى كتاب ، ورقما من أرقام كثيرة فى سجل من حساب .

وحسبى اعترافا بالقصور ، مادونته فى هذه السطور .

وماذا أقول ؟ ويقصر عن عظمته كل ما أقول ؛ والدنيا كلها من حولى اهتزت بعظمة هذا النبى العربى الرسول . صلوات الله وسلامه عليه دائما أبدا إلى يوم الدين .

سدد الله الخطا ، ووفق إلى السؤل والمبتغى ، وما ، توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

محمد بن عبد الله

— ١ —

خاتم النبين

وسيد المرسلين

صلى الله عليه وسلم صلاة وسلاما دائمين إلى يوم الدين

وماذا نقول عن نبي الإسلام ؟

وقد وهبه الله ما وهبه من فضيلة النبوة والرسالة والخلة والمحبة والاصطفاء والإسراء ، والرؤية والقرب والدنو ، والوحى والشفاعة والوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود والبراق والمعراج والبعث إلى الأحمر والأسود ؛ والصلاة بالأنبياء ، والشهادة بين الرسل والأمم ، وسيادة ولد آدم ، ولواء الحمد ، والبشارة والنذارة والمكانة عند ذى العرش والطاعة ، ثم الأمانة والهداية ورحمة من رب العالمين (١) .

ومنحه الله عز وجل ما منحه :

من إعطاء الرضى والسؤل والكوثر ، وإتمام النعمة ، والعفو عما تقدم وما تأخر ، وشرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر ، وعزة النصر ، ونزول السكينة ، والتأييد بالملائكة ، وإيتاء الكتاب والحكمة والسبع المثانى والقرآن العظيم ، وتزكية الأمة ، والدعاء إلى الله ، وصلاة الله تعالى والملائكة ، والحكم بين الناس بما أراه الله ؛ ووضع الإصر والأغلال عنهم ؛

(١) ص ٣٧ الشفاء للقاضى عياض – ١٩٥٠ مطبعة مصطفى الحلبي بالقاهرة .

والقسم باسمه ، وإجابة دعوته ، وانشقاق القمر ، والنصر بالرعب ، والعصمة من الناس (١) .

إلى مالا يحيط به حصر ، ولا يبلغ مداه إنسان ، من عظمة هذا الرسول الكريم ، وجلال هذا العربى العظيم ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أجمعين .

إلى ما أعد الله له فى الدار الآخرة ، من منازل الكرامة ، ودرجات القدس ، ومراتب السعادة ، والحسنى وزيادة ، مما تقف دونه العقول ، ويحار دون إدراكه الوهم والفكر والخاطر والعقل واللب والجنان والفؤاد .

اللهم احشرنا فى زمرته ، وأمتنا على شريعته ، وامنحنا من لدنك برد اليقين ، والاطمئنان الثابت الصادق إلى هذا الدين ، ولا تحرمنا شيئاً من خير الدنيا والآخرة ياإله العالمين .

وصلى الله وسلم على هذا النبى العربى الأمين ، محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وذريته أجمعين .

— ٢ —

وعن واثلة بن الأسقع قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل ، واصطفى من ولد اسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم .

وعن ابن عمر من حديث نبوى :

لم يزل الله تعالى ينقلنى من الأصلاب الكريمة ، والأرواح الطاهرة ، حتى أخرجنى من أبوى .

---

(١) المرجع السابق .

— ٣ —

وعن ابن عباس قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى قسم الخلق قسمين ، فجعلنى من خيرهم قسما ، فذلك قوله تعالى : أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، فأنا من أصحاب اليمين ، وأنا خير أصحاب اليمين .

ثم جعل القسمين أثلاثا : فجعلنى فى خيرها ثلثا ، وذلك قوله تعالى : « فأصحاب الميمنة . وأصحاب المشأمة ، والسابقون السابقون » ، فأنا من السابقين ، وأنا خير السابقين .

ثم جعل الأثلاث قبائل ، فجعلنى من خيرها قبيلة ، وذلك قوله تعالى : « وجعلناكم شعوبا وقبائل » ، فأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله ولا فخر .

ثم جعل القبائل بيوتا ، فجعلنى من خيرها بيتا ، فذلك قوله تعالى : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » (١) .

— ٤ —

وعن ابن عباس ، عن رسول الله قال :

لما خلق الله آدم أهبطنى فى صلبه إلى الأرض ، وجعلنى فى صلب نوح فى السفينة ، وقذف بى فى النار فى صلب ابراهيم .

ثم لم يزل ينقلنى فى الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة ، حتى أخرجنى بين أبوى ، لم يلتقيا على سفاح قط .

وإلى هذا أشار العباس بن عبد المطلب حيث يقول :

وأنت لما ولدت أشرقت الأر ض وضاءت بنورك الأفق
فنحن فى ذلك الضياء وفى الـ نور وسبل الرشاد نخترق
يابرد نار الخليل ياسببا لعصمة النار وهى تحترق (٢)

---

(١) ٩٩ الشفاء (٢) ١٠٠ المرجع .

كتاب السيرة النبوية وما يتصل بها

١ – كتب العلماء المسلمون المحققون فى السيرة النبوية من بعد وفاة الرسول – صلى الله عليه وسلم – حتى اليوم كتبا كثيرة ، بلغت من الشهرة والدقة والعمق والتحليل مبلغا كبيراً .

والكتابة فى السيرة النبوية والغزوات والفتوحات الإسلامية كانت أظهر وأسبق الكتابات التاريخية عند العلماء المسلمين ، منذ بدء عصر التدوين فى النصف الأخير من العهد الأموى وماتلاه من عصور ، ولا يكاد يخلو كتاب تاريخى إسلامى من التعرض للسيرة النبوية بالدراسة .

وحين جمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عهد عمر بن عبد العزيز فى كتاب أفرد باب من أبوابه باسم « المغازى والسير » ، وصنع ذلك المحدثون . . ويظن أن عوادا الكلبى هو أول من استعمل كلمة سيرة بمعنى تاريخ حياة ، كما أن ياقوتا الحموى هو أول من استعمل كلمة ترجمة بمعنى حياة الشخص .. ولقد كثر المؤرخون للسيرة النبوية ، فألف بعضهم كتبا فى المغازى ، وألف آخرون كتبا فى السيرة .

وأول من كتب فى السيرة النبوية عروة بن الزبير (٢٣ – ٩٤ هـ) وأبان بن عثمان (٨٥ أو ٩٥ هـ) ، وتلاه : عاصم بن قتادة المدنى الأنصارى (١٢٠ هـ) ، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهرى[١] (– ١٢٤ هـ) ، وعبدالله ابن أبى بكر بن حزم الأنصارى (١٣٥ هـ) ، وتلاهم : محمد بن اسحاق شيخ كتاب السيرة (٨٥ – ١٥٢ هـ)[٢] ، وسيرته أصل لكتاب ابن

---

(١) له كتاب فى المغازى مفقود .

(٢) له كتاب « فتوح مصر واعمالها » طبع فى مصر عام ١٢٧٥ هـ ، وكتابه فى السيرة ثلاثة أقسام : المبتدأ وقصص الأنبياء – السيرة – المغازى

هشام[1]، وثم البكائى ١٨٣ هـ، والواقدى (٢٠٧ هـ) الذى ألف كتاب المغازى، ومحمد بن سعد صاحب كتاب «الطبقات الكبرى» (٢٣ هـ)، وعبد الملك ابن هشام (٢١٨هـ) صاحب كتاب «سيرة ابن هشام» المشهور، وهو أقدم كتاب فى السيرة وصل إلى أيدينا .

٢ — كتب قديمة فى السيرة النبوية، وهى كثيرة ومنها :

— الشفا فى تعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض ٥٤٤ هـ .

— السيرة الحلبية (انسان العيون فى سيرة الأمين المأمون) لنور الدين الحلبى المتوفى عام ١٠٤٤ هـ .

— السيرة لابن كثير المتوفى ٧٧٤ هـ ، وهى مثبتة فى كتابه التاريخى الكبير «البداية والنهاية» .

— الزهر الباسم فى سيرة أبى القاسم للمؤرخ مغلطاى (٧٦٢ هـ) .

— عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير لابن سيد الناس (٧٣٤).

— المواهب اللدنية للقسطلانى (٩٢٣هـ)

— إمتاع الاسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع - فى ستة مجلدات، للمقريزى (٨٤٥ هـ) وهو مطبوع .

— الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية لابن النفيس علاء الدين على القرشى - طبع فى مطبعة اكسفورد بتحقيق بعض المستشرقين .

— حجة الوداع لابن حزم - طبع بتحقيق ممدوح حق .

٣— كتب تاريخية قديمة أفردت للسيرة النبوية فصولا وهى كثيرة منها:

---

(١) يوجد نسخة مخطوطة من كتاب ابن اسحاق فى مكتبة القرويين بفاس برقم ٧٢٧ وهى رواية يونس بن بكير (١٩٩هـ = ٨١٤ م) (٣ : ١١ و ١٢ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان) .

— تاريخ اليعقوبى (٢٧٨ هـ) .

— تاريخ الطبرى (٣١٠ هـ) .

— الكامل لابن الأثير (٦٣٠ هـ) مطبوع فى تسعة أجزاء فى مصر وفى ثلاثة عشر جزءا فى أوربا مع الفهارس .

— تاريخ أبى الفداء (٦٧٢ — ٧٣٢ هـ) .

— تاريخ الإسلام للذهبى (٧٤٨هـ) .

— البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) .

— الخميس فى أحوال أنفس نفيس للديار بكرى (٩٩٠ هـ) .

٤ — كتب حديثة مؤلفة فى السيرة النبوية :

— محمد رسول الله ، أحمد تيمور باشا .

— الأنوار المحمدية للنبهانى .

— نور اليقين فى سيرة سيدنا محمد سيد المرسلين للشيخ محمد الخضرى (١٩٢٤) .

— محمد المثل الكامل - ٤ مجلدات - محمد محمد جاد المولى .

— الرسالة الخالدة ، وبطل الأبطال - وهنا كتابان لعبد الرحمن عزام .

— ثورة الإسلام وبطل الأنبياء ، محمد لطفى جمعة .

— حياة محمد لهيكل (١٩٥٤) وله كتاب (فى منزل الوحى) .

— محمد لتوفيق الحكيم (مسرحية) .

— عبقرية محمد : للعقاد ، وله كتاب «مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية» .

— سيرة النبى - صلى الله عليه وسلم - بدأ به الشيخ شبلى النعمان ، وأتمه سليمان الندوى بالأوردية - نشر منه ستة مجلدات حتى الآن ، ولم يترجم إلى العربية بعد .

— حياة خاتم المرسلين ، محمد فريد وجدى .

— حياة محمد ورسالته ، محمد على الهندى ـ ترجمه إلى العربية عفيفى البعلبكى .

— سيرة الرسول عليه السلام فى جزءين ـ وكتاب « عصر النبى وبيئته قبل البعثة » : محمد عزة دروزة .

— محمد : لمحمد رضا

— على هامش السيرة : لطه حسين

— محمد الثائر الأعظم : لفتحى رضوان

— فقه السيرة : محمد الغزالى

— فقه السيرة : محمد سعيد رمضان

— الرسول : عبد الحليم محمود

— انسانيات محمد ـ محمد والمسيح : خالد محمد خالد

— أم النبى ـ نساء النبى ـ بنات النبى : بنت الشاطىء

— محمد القائد : محمد عبد الفتاح إبراهيم

— محمد المحارب : محمد فرج

— نساء صنعن التاريخ ، تراجم لنساء رسول الله وبعض الصحابيات ، وهو لمزين حتى الكاتبة الإسلامية

— نساء محمد : سنية قراعة

— خديجة أم المؤمنين : عبد الحميد الزهراوى

— فلسفة تاريخ محمد : محمد جميل بيهم

— محمد الرسالة والرسول : نظمى لوقا

— محمد رسولا نبيا : عبد الرزاق نوفل

— الإلياذة الإسلامية : أحمد محرم - ملحمة شعرية

— دول العرب وعظماء الاسلام : أحمد شوقى - ديوان شعرى

— سيرة سيد المرسلين - محمود ابو الفيض المنوفى (جزءان)

— السيرة المحمدية الخالدة ، (العصر المكى) ، لأحمد عز الدين خلف الله

— محمد رسول الحرية لعبد الرحمن الشرقاوى

— عظمة الرسول ، محمد عطيه الابراشى (جزءان)

— السياسة الاسلامية فى عهد النبوة ، لعبد المتعال الصعيدى

— محمد فى طفولته وصباه لمحمد شوكت التونى

— حياة سيد العرب : لبا سلامة - ٤ أجزاء (١)

٥ — كتب استشراقية فى السيرة النبوية :

— حياة محمد للمستشرق در منغم - ترجمة عادل زعيتر

— محمد رسول الله ، لناصر الدين دينييه (توفى عام ١٩٢١) ولسليمان الجزائرى ، ترجمة عبد الحليم محمود ومحمد عبد الحليم

— الاسلام الصراط المستقيم لجماعةمن رجال الفكر الاسلامى ، باللغة الانجليزية وترجمه إلى العربية محمود عبد الله .

---

(١) كتب عبد الرحمن البليهى ثلاث مقالات فى جريدة الدعوة التى تصدر بالرياض عن كتاب السيرة النبوة ، وذلك فى شهر شعبان ١٣٩٠ ه ، وكانت أمامنا أثناء كتابة هذا البحث ، ولا شك أنها تعد من المراجع التى يمكن الاستئناس بها فى هذا المجال .

— حوليات الاسلام لكاتانى الإيطالى - بالايطالية عن ، السيرة والخلفاء الراشدين فى ١٢ جزءا ، لم يترجم إلى العربية .

— المثل الأعلى فى الأنبياء بالانجليزية لخوجه كمال الدين ، ترجمة أمين محمود الشريف .

— الابطال لكارلايل الانجليزى

— محمد فى مكة لمونتجومرى وات (مترجم إلى العربية)

— حياة محمد - واشنجتون أرفنج - ترجمة الخربوطلى .

٦ — كتب فى المغازى ومايتصل بها :

— المغازى لامام المغازى موسى ابن عقبة الاسدى ١٤١ هـ/٧٥٨م، مفقود.

— المغازى لابى معشر السندى ١٧٠ هـ - مفقود.

— المغازى للواقدى ، وهو مطبوع بتحقيق جونس فى دار المعارف بمصر حيث نشرته كلية اكسفورد .

— المغازى لعبد الله بن محمد الحرانى ٢٣٤ هـ / ٨٤٩ م

المغازى لابن خالويه ١٧١ هـ - مفقود

— الاكتفا ، فى مغازى رسول الله والثلاثة الخلفاء للكلاعى - تحقيق مصطفى عبد الواحد .

— الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر (٤٦٣) هـ - تحقيق شوقى ضيف .

— فتوح الشام للأزدى (١) (أواسط القرن الثانى الهجرى)

---

(١) طبع فى كلكتا فى الهند عام ١٨٥٤ - فى ٢٦٠ صفحة ، وفى بغداد بتحقيق عبد المنعم عبد الله عامر .

— فتوح البلدان للبلاذرى (٢٧٩ ﻫ) وهو مطبوع

— فتوح الشام للواقدى (٢٠٧ ﻫ) طبع طبعات كثيرة .

— فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم (٢٩٤ ﻫ) وهو مطبوع بتحقيق عبد المنعم عامر .

— وللواقدى كتاب فتح مصر والاسكندرية (طبع فى ليدن ١٨٢٥

— دروس من غزوة أحد - عبد العزيز كامل

— فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم بتحقيق المستشرق الامريكى تورى (طبع ليدن) - ولابن عبد الحكم كتاب فى سيرة عمر بن عبد العزيز (طبع دمشق) .

— فتوح أفريقية للواقدى وهو مطبوع فى تونس فى جزءين

— الفتوحات الاسلامية لدحلان مفتى مكة - مطبوع فى جزءين .

— معارك الاسلام الفاصلة لمحمد أحمد باشميل

— قادة فتح الشام ومصر - قادة فتح بلاد فارس - قادة فتح العراق والجزيرة - قادة فتح المغرب العربى ، وهى كلها لمحمود شيت خطاب .

— الفتح الاسلامى فى العراق والجزيرة لعبد الحميد حسين (طبع بغداد)

— حركة الفتح الاسلامى فى القرن الأول لشكرى فيصل .

٧ — كتب فى تراجم الصحابة والتابعين :

— الطبقات الكبرى لابن سعد (١٦٨ - ٢٣٠ ﻫ) ثمانية مجلدات

— الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر القرطبي ٤٦٣ ﻫ - ٤ مجلدات ، وهو مطبوع بتحقيق البجاوى .

— حلية الأولياء لابن أبى نعيم الأصفهانى - عشرة مجلدات . وقدتوفى

ابن أبى نعيم عام ٤٣٠ هـ ، وقد اختصره ابن الجوزى (٥٩٧ هـ) فى كتابه « صفوة الصفوة » الذى يقع فى ستة مجلدات وهو مطبوع .

— الاصابة فى تمييز أسماء الصحابة لابن حجر ٨٥٢ هـ - ٤ أجزاء
— أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير المحدث (٦٣٠ هـ)
— التجريد فى أسماء الصحابة للذهبى (٧٤٨ هـ) فى جزءين ، مطبوع
— سير الأعلام النبلاء للذهبى ٧٤٨ هـ - طبع منه جزءان .
— خريجو مدرسة محمد لإبراهيم الواعظ (طبع بغداد)
— أصحاب محمد - عبد الحليم عباس
— تراجم الصحابة - محمود أمين النواوى
— أبو بكر - الفاروق - عثمان بن عفان ، وهى كلها لمحمد حسين هيكل
— أبو بكر - عمر - عثمان ، وهى كلها لمحمد رضا .
— العبقريات : للعقاد .

وبتأثير كتب طبقات الصحابة والتابعين ألفت كتب الطبقات فى مختلف فروع العلم ، فهناك طبقات الصوفية - وطبقات الفقهاء - وطبقات اللغويين والنحويين - وطبقات الأدباء - وطبقات الشعراء - طبقات الحكماء ، والاطباء وغيرهم كالقضاء والولاة من مثل : ولاة مصر للكندى ، وكتاب الولاة والقضاة للكندى أيضا (٣٥٠ هـ) .

وتبع ذلك ظهور كتب الوفيات وفى مقدمتها الكتاب الجليل « وفيات الأعيان » لابن خلكان (٦٨١ هـ) وهو فى ثلاثة أجزاء ، والوافى بالوفيات للصفدى وقد طبعته جمعية المستشرقين الالمانية بعناية المستشرقين ريتر ، فظهر منه أربعة أجزاء ، والمجلدان الخامس والسادس تحت الطبع .

سـيرة ابن هشام(١) :

تناول أبو محمد عبد الملك بن هشام (٢١٨ هـ) فى كتابه « سيرة النبى صلى الله عليه وسلم »، وهو المعروف بسيرة ابن هشام نسب الرسول صلوات الله عليه ، وحياته منذ مولده إلى بعثته ، ومن بعثه إلى الهجرة النبوية ، ومن الهجرة الشريفة إلى وفاته صلى الله ، بمزيد من التفصيل والتحقيق والشرح ، معتمداً فى ذلك على مادونه العلماء قبله من روايات فى السيرة النبوية ، وعلى سيرة ابن اسحاق (٨٥— ١٥٢ هـ) ، وعلى القرآن الكريم والحديث النبوى وعلى ماتلقاه مشافهة من شيوخه فى العلم ، وقد كان يقف أمام الروايات ، المختلفة موقف المحص والناقد والمحقق والمرجح، مشيرا إلى الآراء الصحيحة والاخبار المحققة . وقد شرح هذه السيرة الامام السهيلى (٥٠٨ — ٥٨١) .

وطبعت هذه السيرة طبعات كثيرة ، ويعتمد عليها كل المؤرخين كمصدر أساسى فى سيرة رسول الله عليه وقد اختصرها كثيرون منهم :

١ — ابن المرحل الشافعى فى كتاب ألفه عام ٦١١ هـ وسماه : الذخيرة فى مختصر السيرة .

٢ — أحمد الواسطى من كتاب ألفه سنة ٧١١ هـ وسماه مختصر سيرة ابن هشام .

ونظمها شعرا كثيرون منهم : محمـد الديرينى (٦٦٣ هـ) ومحمـد بن الشهيد (٧٩٣ هـ) فى كتاب سماه : « الفتح القريب فى سيرة الحبيب » .

---

(١) راجع ترجمة ابن هشام فى وفيات الأعيان ١ : ٢٩٠ ، حسن المحاضرة للسيوطى ١ : ٢٥٤

الطبقات الكبرى لابن سعد :

من أهم المصادر التاريخية وأقدمها ، مؤلفه هو محمد بن سعد بن منيع الزهرى (١٦٨ - ٢٣٠ هـ) ، واسم الكتاب طبقات الصحابة والتابعين « أو الطبقات الكبرى » وهو ثمانية أجزاء :

١ — الأول فى السيرة النبوية .

٢ — والثانى فى المغازى .

٣ — والثالث فى تراجم البدريين من الصحابة .

٤ — والرابع فى تراجم الأنصار والمهاجرين ممن لم يشهدوا بدرا وأسلموا قبل فتح مكة .

٥ — والخامس فى تراجم أهل مكة من التابعين ، ومن كان منهم ومن الصحابة فى مكة والطائف واليمن واليمامة والبحرين .

٦ — والسادس : فى تراجم الصحابة من الكوفيين .

٧ — والسابع : فى تراجم الصحابة من البصريين .

٨ — والثامن : فى تراجم الصحابة من النساء .

وللكتاب أهمية كبرى فى كل مايكتب عن الاسلام وتاريخ المسلمين إلى نهاية القرن الأول الهجرى ، وفيه كثير من المعلومات التاريخية ، عن العصر الجاهلى .

أقدم كتب التاريخ الإسلامى بعد سيرة ابن هشام :

١ — لعل كتاب السيرة كانوا أسبق المؤرخين الاسلاميين ظهورا ،

ولما تم لهم تدوينها أخذا يكتبون فى تاريخ مكة البلد الحرام . وتاريخ المدينة :

فكتب ابن زبالة ١٩٩ هـ « تاريخ المدينة » .

وكتب يحي العلوى ٢٧٧ هـ كتاب « أخبار المدينة » .

وكتب الأزرقى (٢٤٤ هـ : ٨٥٨ م) كتابه أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار . وهو مطبوع .

كما كتب الفاكهى (٢٧٢ هـ : ٨٨٩ م) كتابا فى أخبار مكة أيضا ، ومنه مختارات جمعها وستنفلد المستشرق الألمانى ، وطبعها فى ليبزج عام ١٨٥٩ ، وقد تم طبعها أخيرا فى بيروت .

ثم أخذوا يكتبون عن المدن الأخرى ، وفى مقدمتها بغداد (تاريخ بغداد) لابن طيفور (٢٧٢ هـ) وراجع تاريخ بغداد للخطيب البغدادى (٤ أجزاء)[1] وأول من ألف فى تاريخ الإسلام هارون البزاز ٢٤٩ هـ

---

(١) لمحب الدين بن النجار (٥٧٨ — ٦٤٣ هـ) ذيل تاريخ بغداد فى ٣٠ مجلدا ، ولابن الدمياطى مختصر له سماه المستفاد من تاريخ بغداد ، مخطوط فى دار الكتب المصرية - وألف ابن عساكر الدمشقى (٥٧١ هـ) تاريخ دمشق ، طبع منه المجلد ١ و٢ و١٠ بتحقيق المنجد ، ولعمر بن شبة (٢٦٢ هـ) كتاب « أخبار البصرة » وله كتاب اسمه الجمهرة ويحتوى على قصص تاريخية ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية وراجع مقالا عن خطط المدينة لصالح العلى - نشر فى مجلة العرب التى يصدرها الشيخ حمد الجاسر فى الرياض - عدد جمادى الثانية ١٣٨٧ هـ المجلد الأول

بعض حقائق التاريخ فى الجزيرة العربية

- وفاة ابراهيم نحو عام ١٨٢٠ ق م
- وفاة اسماعيل نحو عام ١٧٧٣ ق م
- الدولة المعينية فى اليمن ٣٠٠٠ — ١٠٠٠ ق م
- الدولة السبئية فى اليمن ١٠٠٠ -- ١١٥ ق م
- دولة التبابعة فى اليمن ٣٠٠ -- ٥٢٥ م
- الغزو الحبشى لليمن ٥٢٥ — ٥٧٥ م
- وآخر ملوك الفرس على اليمن هو باذان الذى أسلم عام ٦ هـ-٦٢٨ م
- هذا وآخر ملوك الفرس الساسانيين هو يزدجر الذى ملك فى ١٦ يونيو عام ٦٣٢ م : ١٠ هـ ; وقتل عام ٣٠ هـ

تدمر :

- عصر مجد تدمر ١٣٠ — ٢٧٠
- سقوط تدمر ٢٧٢ م
- أذينة ملك تدمر قتل عام ٤٦٧
- قتلت زنوبيا زوجة أذينة سنة ٢٨٢ م
- سقوط بطرا ١٠٥ م

ملوك الحيرة :

- امرؤ القيس بن عمرو (٢٨٨ -- ٣٢٨ م)
- النعمان الأول ملك الحيرة (ابن امرىء القيس بن عمرو) ٤٠٥ - ٤١٨ م
- المنذر الأول ٤١٨ — ٤٦٢ م

. المنذر الثانى	٥٠٥ — ٥٢٠ م
. المنذر الثالث	٥٢٠ — ٥٥٤ م
. عمرو بن هند	٥٥٤ — ٥٦٩ م
. النعمان الثانى	٥٦٩ — ٥٨٠ م
. النعمان الثالث	٤٨٠ — ٦٠٢ م
. إياس بن قبيصة الطائى	٦٠٢ — ٦١١ م

ملوك كندة :

حجر بن عمرو آكل المرار ٤٨٠ م

الحارث بن عمرو

امرؤ القيس بن حجر الكندى (٥٦ م)

من ملوك الغساسنة :

الحارث الأكبر الغسانى	٥٢٩ — ٥٦٩ م
المنذر بن الحارث	٥٦٩ — ٥٨٣ م
جبلة بن الأيهم	٦٢٩ — ٦٣٦ م

تاريخ الإسلام

— ١ —

يوم الهجرة الخالدة ، هو اليوم الخالد .

وهو مشرق المجد الإسلامى . الذى شاد صروحه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه الأبرار الأحرار الطاهرون

وهو كذلك مطلع التاريخ المجيد .

يروى أنه رفع إلى عمر بن الخطاب خليفة المسلمين رضى الله عنه صك بتاريخ شعبان ، فقال عمر : أى شعبان هو ؟ ثم جمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستشارهم فى أمر الأوقات ، فقالوا : يجب أن نتعرف الحيلة فى ذلك من رسوم الفرس ، فاستحضروا الهرمزان الفارسى ، واستعلموه ذلك ، فقال : إن لنا تاريخا نسميه « ماه روز » أى حساب الشهور والأيام ، فعربوا الكلمة فقالوا : « مؤرخ ، وأرخ تأريخا » ، وقال عمر لأصحاب رسول الله : ضعوا للناس تاريخا يتعاملون به ، فقال بعضهم : اكتبوا على تاريخ الروم ، وقال آخرون : اكتبوا على تاريخ الفرس . . وأخذوا يفكرون فى الأمر مليا .

وجاءت دواع أخرى لوضع تاريخ للإسلام يؤرخ به المسلمون كل أوقاتهم ، ومن ذلك أن أبا موسى الأشعرى كتب إلى الخليفة عمر يقول له : إنه تأتينا منك كتب ـ أى رسائل ـ ليس لها تاريخ .

وجمع عمر رضى الله عنه ـ على عادته من الشورى ـ أصحاب رسول الله ، واستشارهم ، وانتهى الأمر بالمسلمين إلى اتخاذ الهجرة مبدأ للتاريخ الإسلامى ،

لأن أظهر الأوقات ، وأبعدها من الشبه ، وأوثقها صلة بالإسلام والمسلمين، هو حادث الهجرة النبوية الشريفة كما يقول البيرونى فى كتابه «الآثار الباقية» . وقد أجمعوا على المحرم لأنه «منصرف الناس من حجهم كما يقول الطبرى (١) .

— ٢ —

وهنا يسترعى انتباهنا عدة أمور :

الأمر الأول : النظام الشورى الإسلامى الذى كان يسير عليه عمر والمسلمون فى عصور مجد الإسلام ، وكان عمر يدعم هذا النظام فى عقول المسلمين ، فى كل وقت وكل مناسبة ، حتى إنه ليروى أنه كان يجابهه الكثير من الأزمات والمشكلات ، فكان يجمع أصحاب رسول الله عند كل حادثة يستشيرهم فى الحل ، وبعد ذلك يجمع شباب المسلمين وأحداثهم ، ويعرض عليهم المشكلة نفسها ، يربيهم على الشورى ، ويربى عقولهم على التفكير السليم فى الأزمات ، ويمتحن شدة ذكائهم فى مجابهة الأحداث ، ولله درك ياعمر ، لقد ضربت للمسلمين المثل الرفيعة ، تأكيدا لنهج الإسلام الأمثل ، وروحه العظيم ، حتى وجدنا أمثال ابن شهاب الزهرى يقول لتلاميذه :

« لاتحقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم ، فإن عمر كان إذا نزل به الأمر المعضل دعا الفتيان واستشارهم يبتغى حدة عقولهم » .

الأمر الثانى : عظمة حادث الهجرة فى حياة الإسلام والمسلمين ، حتى أجمع المسلمون من صحابة رسول الله على اتخاذه مبدأ للتاريخ الإسلامى ، فالهجرة هى بدء استقرار المسلمين والتفافهم إلى إقامة مجتمع إسلامى كامل ، تنفذ فيه تعاليم الإسلام روحا ونظما ، تشريعا وتطبيقا ، عملا وسلوكا ، وهى

---

(١) ٢ : ١١١ الطبرى .

بدء تكون الدولة الإسلامية فى المدينة، التى كانت أول دول الإسلام على الاطلاق، وكان رئيسها هو صاحب الرسالة العظمى، وهو النبي الذى نزل الوحى عليه من السماء، صلى الله عليه وسلم.

لم تكن الهجرة فرارا من اضطهاد، أو رغبة فى التماس راحة، أو إيثارا الحياة خالية من المحن والخطوب، التى كان المشركون فى مكة يصبونها على رؤوس المسلمين؛ ولم تكن محاولة ناجحة من الرسول الأعظم لإنقاذ حياته التى تآمر عليها المشركون، فحسب.. إنما كانت فوق ذلك، ومع ذلك، وقبل ذلك، طريقا لحياة جديدة للإسلام نفسه، ولتجمع جديد للمسلمين الأولين، ولاقامة مجتمع إسلامى متكامل من كل جوانبه فى المدينة النبوية الكريمة المنورة

ولهذا كله أجمع المسلمون فى عهد عمر بن الخطاب على اتخاذ الهجرة النبوية الشريفة مطلعا للتاريخ الإسلامى المجيد.

الأمر الثالث: لم يكن للعرب تاريخ ثابت قبل صنيع عمر بن الخطاب. فقبل الإسلام كان بعض العرب يؤرخون بالوقائع المشهورة، والأيام المذكورة، الكائنة بينهم، فكانت قريش تؤرخ بالأحداث الكبيرة فى حياة العرب: كيوم الفجار، وحلف الفضول وموت هشام بن المغيرة المخزومى إجلالا له، وحادث الفيل، ولقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وقريش تؤرخ بموت هشام بن المغيرة، وبعام الفيل كما يقول المسعودى فى كتابه «التنبيه والاشراف» - ض ١٨٠ - ومن الأحداث الكبرى التى كانت قريش تؤرخ بها: موت كعب بن لؤى (٦٨٣ ق هـ - ٤٠ ق م) وعام الغدر (١٦٣ ق هـ - ٤٦٤ م) وهو العام الذى نهب فيه بنو يربوع لكسوة التى بعث بها ملوك حمير الكعبة.

ومن الأحداث الكبيرة فى حياة قريش التى أرخت بها: يوم الفجار

(٢٣ ق هـ - ٥٨٩ م) ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ابن العشرين آنذاك ، وحضره وهو شاب .

وكذلك بناء الكعبة على حكم النبي صلوات الله عليه (١٧ ق هـ - ٦٠٥م) والرسول صلى الله عليه وسلم فى الخامسة والثلاثين من عمره ، وبين بناء الكعبة والبعثة النبوية خمس سنين .

ولقد ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد حادث الفيل بخمسين يوما .

وبعد البعثة النبوية الشريفة حدثت أحداث ضخام كبرى فى حياة العرب وقريش والرسول ، ولكن لم يؤرخ بها..ومن هذه الأحداث نزول القرآن الكريم على الرسول الأعظم فى غار حراء فى السنة الأربعين للميلاد النبوى ، وقبل الهجرة النبوية بثلاثة عشر عاما ، وذلك عام ٦١٠ م .. ومنها مثلا وفاة أبى طالب فى السنة العاشرة من مبعثه صلى الله عليه وسلم ، وبعد وفاته بثلاثة أيام توفيت خديجة زوج الرسول الكريم، وذلك للسنة العاشرة من البعثة ، وفى العام الخمسين للميلاد النبوى ، وقبل الهجرة بثلاثة أعوام ، ويوافق عام ٦١٩ م ، وعمر أبى طالب حين وفاته بضع وثمانون سنة ، وعمر خديجة خمسة وستون عاما .

ومن الأحداث الكبرى كذلك : خروج الرسول إلى الطائف لدعوة أهلها إلى الإسلام وذلك فى العام الواحد والخمسين من ميلاده النبوى .

ـ ٣ ـ

ولقـــد سمى الرسول والمسلمون كل سنة بين الهجرة النبوية ووفاته صلوات الله عليه باسم مخصوص بها .

فالسنة الأولى بعد الهجرة سموها سنة الإذن ، أى الإذن بالقتال .

وسموا السنة الثانية سنة الأمر ، أى بالقتال ، لنزول الأمر فيها .

والسنة الثانية من الهجرة مشهورة إذ حدثت فيها فى السابع عشر من رمضان غزوة بدر الكبرى ، وفيها فى شعبان فرض الصوم ، وفيها حولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة .

والسنة الثالثة التمحيص ، وفيها غزوة أحد التى محص الله بها المسلمين الصادقين وفيها تزوج الرسول صلوات الله عليه حفصة بنت عمر ، وتزوج زينب بنت خزيمة (أم المساكين) ، وولد فيها الحسن بن على .

وسموا السنة الرابعة سنة الترفئة ، وفيها كانت غزوة بنى النضير ، وتحريم الخمر ، وفيها ولد الحسين بن على .

والسنة الخامسة من الهجرة سموها سنة الزلزال أو سنة الأحزاب ، ففيها وقعت غزوة الخندق ، وغزوة قريظة من اليهود ، وغزوة دومة الجندل وهى أولى غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم الروم ، وفيها حادث الإفك ، وفيها نزلت آية التيمم .

وسموا السنة السادسة سنة الاستئناس ، ففيها كان صلح الحديبية وبيعة الرضوان ، وفيها انتصر الروم على الفرس(١) ، تحقيقا لوعد الله الصادق : « غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم ، وعد الله ، لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون » .

وسموا السنة السابعة سنة الاستغلاب ، وفيها وقعت غزوة خيبر فى شهر المحرم . وفيها قدم جعفر بن أبى طالب من الحبشة ، وفيها كذلك وضع اليهود

---

(١) يروى أن هذا النصر كان بعد غزوة بدر ، أى عام ٦٢٤ م ـ وهى توافق السنة الثانية للهجرة النبوية .

السم فى طعام رسول الله بعد غزوة خيبر ، واستمر الرسول صلوات الله عليه متأثرا به ـ مع أنه لفظ الطعام المسموم ـ حتى وفاته ، وقال يوم وفاته: هذا الأوان وجدت انقطاع أبهرى من الاكلة التى أكلتها بخيبر ، وكان المسلمون يرون أن رسول الله مات شهيدا ، مع ماجمع صلى الله عليه وسلم من الرسالة والجهاد فى سبيل الله ـ وفيها بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء يدعوهم بدعوة الإسلام : وفيها تزوج الرسول صلوات الله ميمونة الهلالية خالة عبد الله بن عباس .

وسموا السنة الثامنة من الهجرة سنة الفتح لفتح مكة فيها ، وقيل : سميت سنة الاستواء ، أى ظهور قوة الإسلام بفتح مكة ـ وفيها كانت كذلك غزوة حنين .

والتاسعة سموها سنة البراءة ، وفيها فى رجب كانت غزوة تبوك ، وفى شعبان من هذه السنة توفيت أم كلثوم ابنة رسول الله صلوات عليه ـ وسبب تسميتها بسنة البراءة يفسره لنا نزول سورة براءة فى هذا العام ، وفيها قدمت الوفود على رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلن دخولها فى الإسلام .

أما العاشرة فسميت سنة الوداع ، وفيها حجة الوداع ، وخطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم عرفة من هذه السنة ، وهى الخطبة المشهورة التى سميت خطبة الوداع أيضا ، وتسمى خطبة التشريق كذلك .

ثم كانت سنة الوفاة ، وفاة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم . . واختلف المسلمون فى سن رسول الله صلوات الله عليه حين توفى ، فقال قوم كان ابن خمس وستين ، وقال آخرون : ابن ثلاث وستين وهو المشهور ، وقيل : كان ابن ستين ، وروى ذلك الجاحظ فى كتابه « العثمانية » ص ٢٩٧

وكانت مدة إقامة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد الرسالة خمسة عشر عاما على ما رواه ابن عباس ، والمشهور : ثلاثة عشر عاما وروى عن

ابن عباس أيضا ، وقيل ، عشر سنين ، ورواه عروة بن الزبير ، وهو قول الحسن البصرى وسعيد بن المسيب على مايذكر الجاحظ فى كتابه « العثمانية » أيضا ص ٢٩٧

— ٤ —

وافتتح أبو بكر عهده بحرب أهل الردة ، وهو الفتح الأكبر ، وقتل مسلمة ، وأسر طلحة ، وأنفذ أبو بكر بعد وفاة الرسول جيش أسامة ، وقال قولته المشهورة لو بقيت وحدى حتى تأكلنى الكلاب ، ما أخرت جيشا أمر ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم بانفاذه والوحى ينزل عليه ؛ وكان بعض الصحابة قد أشار عليه بتأخير إنفاذه ليكون قوة المسلمين بعد ماحدث من ردة العرب ، ولكن أبا بكر غزا العدو ومنع الحوزة ، وحمى الذمار ، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

وكان جمع القرآن فى عهد أبى بكر من أشهر أحداث الإسلام وأيامه ، وكان لأبى بكر وعمر وزيد بن ثابت وعلى بن أبى طالب فى ذلك القدح المعلى ، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

وجاء عمر ، فدون الدواوين ، وجند الأجناد ، ومصر الأمصار ، وبلغت خيله أفريقية ، وأوطأ خيله خراسان وأقصى كرمان وأزال ملك بنى ساسان وانتصرت جيوشه على الروم انتصارات مذهلة ، كان منها انتصار اليرموك وفتح مصر ، وسواحل افريقية الشمالية وسواحل الشام .

وفى العام السابع عشر من الهجرة اتخذ عمر هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم مطلعا للتاريخ الإسلامى .

— ٥ —

إن حادث الهجرة من أكبر الأحداث العالمية فى تاريخ البشرية كلها ، إلى ماله من أعظم الآثار فى تاريخ الإسلام والمسلمين . . وهو بحق جدير بهذا الشرف العظيم الذى ناله بإجماع المسلمين فى عهد عمر عليه وعلى اتخاذه مطلعا للتاريخ الإسلامى المجيد .

وقد أصبح بعد ذلك هو أشهر التواريخ العالمية ، وذاع استعماله فى كل ركن من أركان الأرض على أيام مجد الإسلام وقوة دونته ، واتخذه المسلمون منذ ذلك الوقت حتى اليوم فاتحة أحداث تاريخ الإسلام .

واليوم تمضى على الهجرة النبوية الشريفة ، هجرته صلى الله عليه وسلم ومعه صاحبه أبو بكر رضى الله عنه ، من مكة إلى المدينة ، من المؤامرة الكبرى التى دبرها المشركون ليلة الهجرة ، لاغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وللقضاء بعد ذلك على كل مسلم يعبد الله فى الأرض ، ولوأد حركة الإسلام ومسيرته الخالدة... اليوم تمضى على هذا الحدث الكبير أربعة عشر قرنا من الزمان إلاعشرة أعوام . وهو حدث ضخم ، وذكرى باقية على مر الأيام والأعصار والأجيال والدهور .

وجدير بنا اليوم أن نتأمل مدلول الهجرة ومضمونها ومعجزتها الباقية .

وأدعو الله أن يحتفل المسلمون بذكرى مرور أربعة عشر قرنا كاملة على الهجرة بعد قريب بإذن الله ، وقد عاد المسلمون إلى ماضيهم وكتابهم ودينهم العظيم ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، وقد انتصروا على عدوهم البغيض ، الصهيونية العنصرية العالمية الممثلة فى اسرائيل : بيوم من أيام الله الخالدة ، كيوم اليرموك ، وعلى يدى قائد عظيم ، كخالد ، وخليفة كعمر . .

ــ ٦ ــ

ولقد كان العرب يسمون الشهور بأسماء معروفة لديهم :

فالشهر الأول المحرم كانوا يقولون عنه (المؤتمر) أخذا من أمر القوم إذا كثروا بمعنى أنهم يحرمون فيه القتال ، فيكثرون ، وقيل أخذا من الائتمار بمعنى أنه يؤتمر فيه بترك الحرب . أما تسميته بالمحرم فذلك لأنهم كانوا يحرمون فيه القتال .

والشهر الثانى وهو صفر كانوا يسمونه النجر أو النجار ، أى الأصل بمعنى أنه أصل للحرب ، لأنها عندهم تبدأ فيه بعد المحرم ، أو من النجر وهو السوق الشديد ، لشدة سوقهم الخيل إلى الحرب فيه ، أو من النجر وهو شدة الحر لشدة حرارة الحرب فيه ، أما عن تسميته بصفر فيقال : إنه سمى كذلك لأنهم كانوا يغيرون فيه على بلاد يقال لها الصفرية .

والشهر الثالث ربيع الأول كانوا يسمونه بـ (خوان) لأن الحرب تشد فيه فتخونهم فتنقصهم وعن تسميته بربيع الأول قيل ذلك لأنهم كانوا يحصلون فيه ما أصابوه من صفر ، والربيع فى اللغة : الخصب .

والشهر الرابع ربيع الآخر : وكانوا يقولون فيه (وبصان) أخذا من الوبيص ، وهو البريق ، لبريق الحديد فيه .

والشهر الخامس . وهو جمادى الأولى : كانوا يسمونه (حنين) لأنهم كانوا يحنون فيه إلى أوطانهم ، وسمى جمادى الأولى لجمود الماء فيه ، لأن الوقت الذى سمى فيه بذلك كان الماء فيه جامدا لشدة البرد

والشهر السادس كانوا يسمونه ربى وربه ، لأنه يجتمع به جماعة من الشهور التى ليست بحرم ، وهى ما بعد صفر ، قال أبو عبيد : ربان كل شىء جماعته . فسمى جمادى الآخرة .

والشهر السابع : وهو شهر رجب : كانوا يسمونه (الاصم) لما تقدم من أنه لا يسمع فيه صوت السلاح ولا الاستغاثات. وسمى رجب لتعظيمهم له أخذا من الترجيب وهو التعظيم .

والشهر الثامن : شعبان وقيل فيه (عادل) بمعنى أنهم يعدلون فيه عن الإقامة لتشعبهم فى القبائل . وسمى بشعبان لذلك . لتشعبهم فيه لكثرة الغارات .

والشهر التاسع : وهو رمضان : وكانوا يقولون له (ناتق) : لكثرة المال عندهم فيه لاغارتهم على الأموال فى الذى قبله ، وعرف باسمه رمضان أخذا من الرمضاء لأنه وافق وقت تسميته زمن الحر .

والشهر العاشر : شوال : وعرف بقولهم عنه (وعل) : أخذا من قولهم (وعل) - بفتح الواو والعين - إلى كذا ، إذا لجأ إليه لأنهم يهربون فيه من الغارات ، لأن بعده الأشهر الحرم، فيلجأون فيه إلى أمكنة يتحصنون فيها. وعرف باسمه شوال أخذا من شالت الأبل بأذنابها : إذا حملت ، لكونه أول شهور الحج ، وقيل من شال يشول إذا ارتفع ، ولذلك كانت الجاهلية تكره التزويج فيه لما فيه من معنى الإشالة والرفع إلى أن جاء الاسلام بإبطال ذلك ، قالت عائشة رضى الله عنها فيما ثبت فى صحيح مسلم : تزوجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شوال وبنى بى فى شوال ، فأى نسائه كان أحظى عنده منى .

والشهر الحادى عشر : ذوالقعدة . وكانوا يقولون (ورنة) والواو فيه مقلوبة من همزة أخذا من أرن إذا تحرك ، لأنه الوقت الذى يتحركون فيه إلى الحج ، أومن الأرون ، وهو : الدنو ، لقربه من الحج ، وسمى بذى القعدة لأنهم كانوا يقعدون فيه عن القتال لكونه من الأشهر الحرم .

والشهر الثانى عشر : ذوالحجة : عرف لديهم باسم (برك) بوزن عمر لأنه معدول عن بارك أوعلى التكثير وهو مأخوذ من البركة ، لأن الحج فيه ، أو من برك الجمل ، لأنه الوقت الذى تبرك فيه الإبل للموسم .

وسمى بذى الحجة لأن الحج فيه(١) .

---

(١) من مقال لشكرى العنانى - مجلة المنهل عدد أبريل ١٩٧١

القسم الأول

من السيرة النبوية

حياة الرسول صلى الله عليه وسلم
من الميلاد النبوى — حتى صفر من عام ٢ هـ

الباب الأول

النسب النبوى ـــ والميلاد الشريف

الفصل الأول

يوم الذكرى

— ١ —

ذكرى ميلاد محمد بن عبدالله ، خاتم المرسلين ، وسيد النبيين ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

ذكرى البعث الأكبر ، الذى شمل الانسانية بميلاده ، وبما انتهى إليه الميلاد من البعثة المحمدية الشريفة .

ذكرى مرور ١٤٤٤ عاما هجريا على هذا الحدث التاريخى العظيم .

وذكرى مرور ١٤٠٠ عاما ميلاديا على هذه المعجزة الكبرى التى أرادها الله عزوجل لخير الدين والدنيا والآخرة والأولى؛ وماذا تعنى هذه الذكرى ؟ إن الاسلام الذى حرر الضعفاء والارقاء والمستعبدين ورفع من كرامة الانسان على الأرض ، وأعز الشرف والفضيلة ، والقيم والآداب والأخلاق، وأعلى من شأن العقل والفكر والتقدم والبناء ، وحقق أروع الانتصارات فى كل مجالات الحياة على طول عصور التاريخ ، وأقام دولة سامقة عظيمة لم يتح لأعظم القواد والملوك والحاكمين أن يقيموا مثلها أبدا ، والذى قام على التوحيد المطلق وحارب الشرك والوثنية والجاهلية الأولى ، وأثل أعظم الحضارات ، ونشر مختلف الثقافات بين الناس كافة .

هذا الدين العظيم ، الذى حمل أروع رسالة فى الحياة ، وأعظم عقيدة عرفتها الانسانية ، وأكرم شريعة نزلت من السماء إلى الأرض .

هذا الدين الخالد .. لايزال قادرا على أن يؤدى دوره فى الحياة ورسالته

بين الناس ، يسعد ولا يشقى ، يهدى ولا يضل ، يجمع ولا يفرق ، يبنى ولا يهدم يرفع من شأن العقل ، ويعلى من أمر الحياة ، وينظم من أمور الناس .

هذا الدين السماوى الجليل .. لا يزال كما كان ، وكما نزل من السماء ، قادرا على أن يصنع المعجزات ، ويأتى بأضخم الآيات ، ويبنى أكبر الحضارات .

هذا الدين الالهى الأمجد ، لا يزال فى قدرته أن يقود العالم إلى شاطىء السلام ، والخير والحرية والرفاهية . ونحن المسلمين نذكر فى هذه الأيام ، وفى لحظة الميلاد الكريم النبوى ، ماحققه رسولنا الأجل الأكبر من انتصارات على امتداد الأيام ، وما صنعه من بطولات فى نضاله لقوى الشر والشرك والضلال والوثنية .

ونذكر مع ذلك هذه الليلة العظيمة التى أشرق فيها النور الإلهى على الأرض بميلاد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

ذكرى ، وما أروعها من ذكرى ، تذكرنا بعظمة الإسلام ، ونبى الاسلام محمد صلى الله عليه وسلم .

ونحن فى هـــذا اليوم نرفع اكف الضراعة إلى الله أن يعز الاسلام والمسلمين ، ويمحق الطغاة والطاغين على مر الأيام والسنين ، إنه سميع مجيب الدعاء .

— ٢ —

فى اليوم الأخير من ١٤٤٤ عاما هجريا مضت على ميلاد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم .

وفى اللحظة الأخيرة من ١٤٠٠ عام ميلادى مرت على هذا الميلاد الكريم الجليل ... نقف وقفة المعتبر بأحداث التاريخ . المعتز بمفاخر الإسلام وأمة الإسلام ، المفتخر بنضال سيد الأنبياء ، وخاتم المرسلين ، محمد صلى الله عليه وسلم .

ماذا نذكر من أحداث ؟

وماذا نعى من عبر ؟

أنذكر يوم الميلاد بعظمته وجلاله وكبريائه ؟

أنذكر النشأة المحمدية بكبريائها وبطولاتها ومثلها ؟

أنذكر البعثة المحمدية بما صحبها من نزول القرآن ، وهداية الله للانسان ومن إنكار على الشرك والمشركين، والوثنية والوثنيين، والجاهلية والجاهليين؟

أنذكر ماأعقب ذلك من انتشار الدعوة ، وكفاح رسول الله والمسلمين الأولين من أجل تبليغها للناس كافة ، ثم ماتلا ذلك من هجرته صلى الله عليه وسلم ، ثم انتصارات الإسلام التى بدأت ببدر وانتهت بفتح مكة وبغيرها من خالد الانتصارات ؟

أم نذكر الإسلام العظيم ، وكيف أعز الإنسانية ، ورفع من كرامة الإنسان ، وحرر الضعفاء والارقاء والمستعبدين فى الأرض ، ونشر السلام والإخاء والمساواة والتعاون والإيثار والحرية فى الدنيا كافة ؟

أنذكر ديننا الكريم الذى ربى أبطالا وأجيالا ، أقامت على الأرض أعظم الامبراطوريات ، وأجل الحضارات ؟

أنذكر كيف هز الاسلام الدنيا وحل مشكلات العالم ، وانتصر فى معاركه مع الجمود والتأخر والجهل والفقر والظلام ؟

كل ذلك نذكره فى هذا اليوم الكبير ، ونذكر معه انتصارات الاسلام على مرور الأجيال ، ونذكر معه كذلك انتصارات تالية ؛ سوف تجىء وتجىء وتجىء بإذن الله ، مهما دأبت قوى الشر فى الأرض على أن تطفىء نور الله ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولوكره الكافرون .

إن مفاخر الإسـلام لاتنتهى أبدا - بإذن الله - مادامت الأرض والسماوات ، هذه المفاخر التى بقيت على الزمن ، وخلدت على الأيام ، وأصبحت نشيدا جميلا فى مسامع الحياة والانسانية .

هذه المفاخر التى يقول عنها (لامارتين) المفكر الشاعر الفرنسى المعروف.

« إن حياة مثل حياة محمد ، وقوة كقوة تأمله وتفكيره ، وجهاده ، ووثبته على خرافات أمته ، وجاهلية شعبه ، وبأسه فى لقاء مالقيه من عبدة الأوثان ، وإيمانه بالظفر ، وإعلاء كلمته ، ورباطة جأشه لتثبيت أركان العقيدة الإسلامية .

إن كل ذلك أدلة على أنه لم يكن يضمر خداعا ، أو يعيش على باطل . فهو خطيب ورسول ومشرع ، وهاد الإنسان إلى العقل ، وناشر للعقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب ، ومؤسس دين لا فرية فيه ، ولا صور ، ولا رقيات .

فأى رجل أدرك من العظمة الإنسانية ، مثلما أدرك ! وأى آفاق بلغ من مراتب الكمال ما بلغ » .

وصدق الله العظيم حيث يقول :

« يا أيها النبى ، إنا أرسلناك شاهداً ، ومبشراً ، ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه ، وسراجا منيرا ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا . »

الميلاد النبوى العظيم

— ١ —

١٤٤٤ عاما هجريا

و ١٤٠٠ عاما ميلاديا

مرت على الميلاد العظيم

ميلاد رسول الإنسانية

وخاتم الأنبياء

ونبى الإسلام

محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم

ويالها من ذكرى

وياله من ميلاد

وما أعظمه مجدا ارتدى به المسلمون طول هذه الحقبة الطويلة من تاريخهم المجيد ؛ وما أجله وأكرمه وأعزه دينا بعث به محمد بن عبد الله العربى القرشى إلى الناس كافة ، فأنقذ الإنسانية من ضلالها وجاهليتها ، ورفع من كرمة الإنسان فى الأرض والحياة ، وأعز القيم والمثل والفضائل والأخلاق والآداب الكريمة التى أصبحت نبراسا يضىء سبيل العيش وطريق الناس فى الأرض ، وصراطهم إلى الخير والفخر والشرف والحرية والإخاء والإباء .

صلى الله عليه وسلم ، صلاة وسلاما دائمين أبدا ، مادامت الأرض والسماوات ، صلاة ينفعنا أجرها ، ويشملنا ذكرها ، ويضىء لنا بيداء

الحياة جلالها وفخرها ؛ وسلاما تهتز له الدنيا ، وتعتز به الحياة ، ويدوى جماله وسحره وعطره فى كل مكان .

— ٢ —

هذه الذكرى العاطرة

هذا الميلاد الأكرم

هذا البدء الجديد للإنسانية والعالم والناس

هذا البعث الإلهى الجليل الخالد

ماذا نقول عنه ؛ وبماذا نصفه ، وبأى عقل وميزان ندرك أثره وخطره وعظمته ؟

اللهم قد عجز البيان ، وعى اللسان ، وحصر الجنان ؛ ولم يبق إلا مدك وإلهامك ووحيك وما وصفت به نبيك فى كتابك الحكيم .

— ٣ —

وفى هذه الذكرى ، وفى هذا الميلاد ، الذى نشهده ، يخرج هذا الكتاب « سيرة الرسول الأعظم »

وفى هذه الذكرى قلت هذه القصيدة النبوية :

ملحمة الأجيال

في ذكرى مرور ١٤٤٤ عاما هجريا و ١٤٠٠ عاما ميلاديا

على ميلاد رسول الله

أنت ياعيد بالمنى جذلان   وأنا فيك ضاحك نشوان
إن تبديت فالحياة عيون   أو تحدثت فالورى آذان
ينتشى الدهر شاهدا وسميعا   ريك الخلد والربى تزدان
فيك للسحر والجمال معان   دونها الشعر ساحرا والبيان
والربيع الجميل منك شذاه   منك ياعيد الروح والريحان
أين آذار منك ياعيد حاكت   بده وشى الزهر أو نيسان
وإذا ماأشرقت يبتسم الكو   ن، ويرنو لك العلا والزمان
أنت بالمجد والجلال غنى   أنت بالدين والهدى ملآن
ويدوى الوجود ياعيد بالذكـ   ـرى ، ويشدو بحمدها الإيمان
لم ير الدهر مثلها أبدا ذكـ   ـرى وعتها العصور والأزمان
قدمت فالأيام فيها وضاء   ومشت والأيام منها حسان
ونشيد القرون ملحمة الأجـ   ـيال غنى انتصارها الإنسان
رددتها الدنيا وفاما ، وشعت   بسناها الأمصار والبلدان
من شذاها ومن حلاها ومن رو   عتها كان ذلك المهرجان
وعلى مجدها الحضارات قامت   وسمت أمة ، وعز مكان
سلم الفرس والهنود المقاليـ   ـد إليها ، والروم واليونان
وعنا المالكون : لاقيصر يسـ   ـقى المنايا ولا أنوشروان
وتولى الأقيال ، باد الطواغيـ   ـت ، فأين العروش والإيوان ؟
وهنا فى قلب الجزيرة غنى   للنجاشى والفرس قبل القيان
ثم راحوا وراح للروم دولا   ت ، فلا (حيرة) ولا (جولان)
ومضى (هوذة) و (أبرهة) ، والـ   ـحارث الغسانى والنعمان

وطوت ملكهم خطوب الليالى   نسيته الأيام والنسيان
حدث الفيل أعقبته انتصارا   ت بذى (قار) حار فيها الزمان
ومشى الرمل ضاحكا يتغنى   بعلاها ، والبيد والكثبان
لو رأيت الصحراء وهى شتات   ورأيت الصحراء وهى كيان
ورأيت الصحراء قد أصبحت بر   كان بعث من خلفه بركان
ورأيت الحياة تمشى وتمشى   حولها مثلما مشى الطوفان
قلت : ماذا أرى هنا ؟ أخيال   وأنا فى الأحلام أم يقظان ؟
قلت : حسبى ، فتلك معجزة الله   به تجلت ، تبارك الرحمان
حدث (مكه) السلام به غد   ت ، وغنى غناءها الركبان
ومشت فى الدنيا الرواة به فى   فها طاب السحر والألحان
بذرى بيت فى الشعاب هناك ال   بشر والبشرى والمنى والأمان
والسنا حوله يضىء الدياجى   والحنايا تحوطه والحنان
وقفت ورقاوان قد هزجا بال   نغم الحلو فانتشى الصوان
واشمخر البيت الرفيع . وخرت   حوله تهوى ، ثم تهوى ، الرعان
وبركن فى البيت (آمنة) مذ   هولة حولها الرؤى والعيان
وعلى ثغرها ابتسامات آما   ل وضاء وقلبها فرحان
هى لا تدرى ماهناك . ولا يـ   ـدرى سواها ، وسار ، سار البنان
ليرى فوق رأسها تاج مجد   حوله تاج حوله تيجان
ويداها ، ويالها ، فى يديها   صار فى قبضتيهما الصولجان
ورنت نحو الطفل يسبح فى نـ   ـر من النور ماؤه ظمآن
ثم مدت إليه راحتها تمـ   ـتار عطرا ، وطفلها وسنان
طبعت قبلة على خده يقـ   ـتادها الشوق والهوى اللهفان
وأتى جده يبارك الأم (م) ويمشى من حوله عدنان
وانحنى نحو المهد فى فمه حلـ   ـو تسابيح ذوبها الشكران
ومشى بالمهد العظيم إلى الكعـ   ـبة فاهتز الحجر والأركان

وأحاطته الكعبة النور بالنو ... ر وغضت جفونها الأوثان
عهدها باد ، والزمان جديد ... حولها يمشى الوحى والتبيان
أحمد الحق والهدى والموازي ... ن أتى فاستوى به الميزان
وأتى الدين فيه كل جليل ... وعظيم ، وآيه الفرقان
لم يعد ذلك اليوم للشر ... ك بقاء ، ولا له أعوان
أحمد يومه بشير به فالد ... ين والدنيا عنده صنوان
الورى والحياة عزا به وال ... ناس والفكر والنهى والجنان
وبه ساد المسلمون وعزوا ... مثلما عز العقل والوجدان
ليس هذا ملكا ولا دولة ، لا ... هو ياقوم دعوة وأذان
إنه الوحى والرسالة جاءا ... إنه الذكر ، أين منه البيان ؟
وهو النور والشريعة والآما ... ل ، ومجد لاينتهى ، ورهان
وسباق فى الخير لله ، للإن ... سان ، لاشرك ، لا ، ولا طغيان
وهو للمشركين حرب عوان ... وهو توحيد ، جل ، لا كفران
مثل أعلى للحياة ونهج ... مستقيم ، ميزانه الإحسان
وبه العالم اهتدى من ضلال ... وبه الناس للرشاد استبانوا
هو للشعب شعلة من مضاء ... هو للفرد النبل والعنفوان
وهو للأمة الطموح سنان ... وسلاح فى الروع واطمئنان
كلما مرت الليالى خطوبا ... مدلهمات ، قلت : جاء الأوان
وأتى النصر فجره لاح والنو ... ر بدا فى الظلام ، والربان
ومضى اليأس والهزيمة والحز ... ن ، وليـــل الشقاء ، والعدوان
وانتهينا إليك ياقدس جئنا ... قادنا الشوق عاصفا والطعان
وانحنينا نقبل المسجد الأق ... صى ، ومنا قد ماتت الأحزان
دون ماضينا قد عشقنا المنايا ... وبإيماننا علا القرآن
وقريب ماكان منا بعيدا ... ذلك الحـــلم رده الإيمان

١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م

من همزية البوصيرى

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء
لم يساووك فى علاك وقد حا ل سناً منك دونهم وسناء
إنما مثلوا صفاتك للنا س كما مثل النجوم الماء
أنت مصباح كل فضل فما تصــدر إلا عن ضوئك الأضواء
لم تزل فى ضمائر الكون تختا ر لك الأمهات والآباء
ما مضت فترة من الرسل إلا بشرت قومها بك الأنبياء
تتباهى بك العصور وتسمو بك علياء بعدها علياء
وبدا للوجود منك كريم من كريم آباؤه كرماء
نسب تحسب العلا بحلاه قلدتها نجومها الجوزاء
حبذا عقد سؤدد وفخار أنت فيه اليتيمة العصماء
ومحيا كالشمس منك مضىء أسفرت عنه ليلة غراء
ليلة المولد الذى كان للدين ســرور بيومه وازدهاء
مولد كان منه فى طالع الكفر وبال عليهم ووباء
فهنيئاً له لآمنة الفضل الذى شرفت به حواء
يوم نالت بوضعه ابنة وهب من فخار مالم تنله النساء
وأتت قومها بأفضل مما حملت قبل مريم العذراء
رافعاً رأسه وفى ذلك الرفــع إلى كل سؤدد إيماء
رامقاً طرفه السماء ومرمى عين من شأنه العلو العلاء
وتدلت زهر النجوم إليه فأضاءت بضــوئها الأرجاء

الميلاد النبوي الشريف

— ١ —

١ — من المعلوم عند كثير من المؤرخين ، وهو نحوى رواية الزهرى[١] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد عام ٥٦٩ - ٥٧٠ م بعد الفيل بنحو ١٧ - ١٨ سنة أى أن عام الفيل كان[٢] عام ٥٥٢ م .

٢ — وقيل : ولد رسول الله بعد الفيل بأربعين سنة[٣] ، وقيل : بثلاثين سنة[٤] .

٣ — وعن ابن عباس أنه ولد بعـــد الفيل بخمس عشرة سنة[٥] ، أو بعشر سنين[٦] .

٤ — ورواية الحسن البصرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم توفى

---

(١) ١ / ٢٨ تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر - ١ / ٢٢ تاريخ الإسلام الذهبى - ورقة ١٢٩ جمهرة نسب قريش للزبير بن بكار مخطوط .

(٢) فى عام الفيل أقوال ثلاثة .

ا — أنه كان عام ٥٧٠ م وأن الرسول ولد عام الفيل بعده بخمسين يوما وهو قول جمهور المؤرخين

ب — أنه كان عام ٥٤٧ م لقول ابن الكلبى أن الرسول ولد بعد عام الفيل بثلاث وعشرين سنة .

جـ — أنه كان عام ٥٥٢ م وهو مايؤخذ من رواية الزهرى (راجع التعليق رقم ١ فى هذه الصفحة)

(٣) هو رواية مقاتل (٢ / ٢٦٢ البداية والنهاية لابن كثير)

(٤) ٢ / ٢٦٢ البداية والنهاية لابن كثير

(٥) ٢ / ٢٦٠ البداية والنهاية لابن كثير

(٦) ١ / ٢٠٣ السيرة لابن كثير

وعمره ٦٥ عاما ، فيكون ميلاده الشريف عام ٥٦٩ - ٥٧٠ م ، وعن ابن عباس وغيره : أنه صلى الله عليه وسلم توفى وعمره ٦٣ عاما فيكون ميلاده عام ٥٧٠ م .

وهذا مستمد من مقالة نشرها الدكتور خالد العسلى فى مجلة المنهل عدد محرم ١٣٧ ﻫ ص ١٣ ورجع فيها إلى كثير من المصادر والنقوش فى تحديد عام الفيل .

— ٢ —

ومن ذلك ندرك أن الرسول صلى الله عليه وسلم ولد فى عام الفيل على رأى ، وهناك آراء أخرى فى أنه ولد بعد عام الفيل بسنوات كثيرة (٤٠ سنة ، أو ٣٠ سنة ، أو ١٥ سنة أو ١٠ سنوات) .

— ٣ —

وكذلك اختلف فى عمر الرسول صلى الله عليه وسلم حين نزول الوحى ، قال ابن المسيب : عمره ثلاث وأربعون سنة ، وقال أنس بن مالك (١) وعروة وابن عباس (٢) : أربعون سنة (راجع ٢ / ٢٠١ تاريخ الطبرى ،

---

(١) عن أنس : بعثه الله عز وجل على رأس أربعين ، فأقام بمكة عشر سنين وبالمدينة عشر سنين ، وتوفاه الله على رأس ستين سنة (٢ : ١٧٤ و ١٧٥ مختصر صحيح مسلم للمنذرى) - وعن أنس : قبض رسول الله وهو ابن ثلاث وستين - ٢ : ١٨٢ المرجع .

(٢) عن ابن عباس : أقام رسول الله بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه ، وبالمدينة عشرا ، ومات وهو ابن ثلاث وستين - وعنه كذلك : أقام رسول الله بمكة خمس عشرة سنة : يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين ، وثمان سنين يوحى إليه ، وأقام بالمدينة عشرا (٢ : ١٨١ المرجع السابق) .

٢ / ١٦ الكامل لابن الأثير – ٣ / ٦٠ العبر لابن خلدون – ٣ / ٢٠١ البداية لابن كثير ، ١ / ٦٩ تاريخ الإسلام للذهبي) .

— ٤ —

وفي كتاب « الأوائل لأبي هلال العسكري » ص ٢٧: أن رسول الله ولد بعد خمسين يوما من حادث الفيل ، وكان قدوم الفيل مكة يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة بقيت من محرم ، وولد رسول الله يوم الاثنين لثمان خلون من شهر ربيع الأول وهو اليوم العشرون من نيسان وقيل العاشر من نيسان ، وقد مضت من ملك أنوشروان أربع وثلاثون سنة وثمانية أشهر ، وكان رسول الله يقول : ولدت في زمن الملك العادل أنو شروان ، ومن أيام ملوك الروم على عهد قسطنطين ، ومن أيام ملوك اليمن في أول سنة من ملك أبرهة (II) ، ولثمان سنين وثمانية أشهر من ملك أبي هند عمرو بن هند ، وملك الشام الغساني يومئذ هو الحارث الغساني .

والمدة بين عام الفيل وموت كعب بن لؤي ٥٢٠ عاما كما يقول أبو هلال في كتابه « الأوائل ص ١٢٢ » .

الفصل الثاني

النسب النبوي الشريف

١ — والد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم هو عبد الله

ابن عبد المطلب(١)
ابن هاشم(٢)
ابن عبد مناف (٣)
ابن قصي (٤)
ابن كلاب
ابن مرة
ابن كعب (- ٦٠ م)
ابن لؤي
ابن غالب
ابن فهر
ابن مالك
ابن النضر
ابن كنانة

---

(١) اسمه . شيبة
(٢) اسمه :عمرو
(٣) اسمه : المغيرة
(٤) اسمه : زيد

ابن خزيمة

ابن مدركة(١)

ابن إلياس

ابن مضر

ابن نزار

ابن معد

ابن عدنان

وينتهى نسبه الشريف إلى : إسماعيل(٢)

ابن ابراهيم خليل الرحمن ، الذى ينتهى نسبه إلى نوح عليه السلام ، إلى إدريس عليه السلام ، إلى شيث بن آدم أبى البشر صلى الله عليه وسلم (٣) - ولإسماعيل ولأمه هاجر فجر الله عز وجل ماء بئر زمزم المعظمة .

٢ — وأمه صلى الله عليه وسلم هى : آمنة

بنت وهب سيد بنى زهرة نسباً وشرفا .

---

(١) اسمه : عامر

(٢) عن عروة بن الزبير (٢٣ – ٩٤ هـ) : ما وجدنا أحدا يعرف مابين عدنان وإسماعيل - وعن ابن عباس (٦٨ هـ) : بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبا لايعرفون - وعن عمر بن الخطاب : إنما ننتسب إلى عدنان ، وما فوق ذلك لاندرى ماهو .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انتسب إلى عدنان ولم يتجاوزه - وعن ابن عباس : أنه صلى الله عليه وسلم لما بلغ عدنان ، قال : كذب النسابون - عن محقق سيرة ابن هشام الشيخ محيى الدين عبد الحميد .

(٣) من وفاة نوح إلى اليوم يقدره بعض العلماء بنحو سبعة آلاف عام ، ومن طوفان نوح إلى آدم عليه السلام نحو ٢٢٤٢ سنه - ص ٤٧ ندوة المحاضرات عن موسم ١٣٨٧ هـ رابطة العالم الإسلامى .

ابن عبد مناف

ابن زهرة

ابن كلاب

ابن مرة

ابن كعب

ابن لؤى

ابن غالب

ابن فهر

٣ — ويجتمع نسب أبويه الشريفين فى كلاب بن مرة ـ وهو نسب عريق ، ومحتد عظيم ، لم ينل أحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثله ، ولا ارتدى بشر بما يشبه سناءه وبهاءه ورواءه .

إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام

ابن هاجر ، ووديعة (١) أبيه إبرهيم عليه السلام عند بيته الحرام(٢) ، وكان عون أبيه ابراهيم فى رفع قواعد البيت « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منا ، إنك أنت السميع العليم »(٣) ، واسماعيل هو ذبيح الله كما يذكر ذلك ، أكثر العلماء(٤) .

(١) تقص ذلك الآيات (٣٧ - ٤١ من سورة إبراهيم)

(٢) والأصح فيما يروى العلماء أن البيت بناه آدم عليه السلام ، وطمسه الطوفان ، وأعاد إبراهيم واسماعيل بناءه فيكون تاريخه منذ آدم إلى اليوم أكثر من تسعة آلاف عام ـ ٤٧ ندوة محاضرات رابطة العالم الإسلامى عام ١٣٨٧ هـ ـ وكان بناء إبراهيم للبيت عام ١٨٨٥ ق م .

(٣) ١٢٧ سورة البقرة .

(٤) راجع الآيات ١٠١ - ١١١ من سورة الصافات :

وقد عاش مائة وثلاثين سنة ، ثم مات ، رحمة الله وبركاته عليه ، ودفن في الحجر مع أمه هاجر ، رحمهم الله(١) .

وولى بعده البيت ابنه ثابت بن اسماعيل ماشاء الله أن يليه ، ثم ولى بعده البيت مضاض بن عمرو الجرهمى ، وكان أهل مكة يومئذ بنو اسماعيل ، وبنو ثابت ، مع جدهم مضاض بن عمرو ، وأخوالهم من جرهم ، وكانت جرهم وأبناء عمومتهم قطوراءهم أغلب أهل مكة ، وكانت جرهم وقطوراء مهاجرة من اليمن ، فنزلت مكة ، وهى بلد ذو ماء وشجر ، فأعجبت واستقرت بها ، وأقام مضاض وجرهم بأعلى مكة من جانب قيقعان ، ونزلت قطوراء ورئيسها السميدع بأسفل مكة بأجياد ، وكانت ولاية البيت فى يدى مضاض ، وقامت بينهما حروب انتهت بتسليم أمر مكة إلى مضاض ـ فصار

---

(١) قدمت جرهم مكة قبل الهجرة بنحو ٢٥٠٨ عاما ـ أى نحو أربعة آلاف عام قبل اليوم ، وساكنتهم أم اسماعيل ، عليه السلام فيها ، وجدد إسماعيل هو وأبوه إبراهيم بناء الكعبة ، ورفعا قواعدها .. ومكة ورد اسمها فى المزمور ٨٤ من العهد القديم : « طوبى لأناس عزهم بك طرق بيتك فى قلوبهم عابرين فى واد بمكة » ـ وفى انجيل متى الإصحاح ٢١ : « أما قرأتم فى الكتب الحجر الذى صار رأس الزاوية من قبل الرب كان هذا ، وهو عجيب فى أعيننا وكذلك أقول: إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل ثماره ـ ومكا وردت فى اللغة البابلية ، وهى فى اللسان السبأى: مكرابا ، وفى السريانية والأغريقية : ماكورابا . وقد سكنت جرهم حول البيت ، ثم غلبهم أبناء اسماعيل ، ثم نزح الخزاعيون من اليمن بعد انهيار سد مأرب (١٢٠ قم) فسكنوا مكة ، وصاروا سادتها بعد أن أجلوا جرهما منها ، ومنهم عمرو بن لحى الخزاعى الذى أدخل الوثنية إلى الجزيرة العربية من الشام ، ثم انتقلت ولاية مكة من خزاعة إلى قصى فى مستهل القرن الخامس الميلادى .

ملكا له . ومعه بنو اسماعيل وبنو ثابت ، ثم كثر أولاد إسماعيل بمكة ، وأخوالهم من جرهم ولاة البيت والحكام بمكة ، فلما ضاقت مكة على ولد اسماعيل انتشروا فى البلاد ، ثم بغت جرهم ، فحاربتهم خزاعة وأخرجتهم منها .

عدنان

تفرقت القبائل من ولد إسماعيل عليه السلام من عدنان ، الجد الأعلى لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد ولد عدنان ابنين : معدا ، وعكا ؛ وعك تلقب أبناؤه بغسان ، وقد هاجروا إلى اليمن ونزلوا بغسان — وهو اسم ماء بسد مأرب باليمن — فسموا به . أما معد فهو الذى تنتهى إليه شجرة النسب النبوى الزكى قبل عدنان ، ويبدأ تاريخ العدنانيين منذ القرن التاسع عشر قبل الميلاد .

معد بن عدنان

ولد معد أربعة أبناء : نزارا وقضاعة ، وإياداً ، وقنص بن معد

نزار بن معد

ولد نزار ثلاثة أبناء : مضر بن نزار ، وربيعة بن نزار ، وأنمار بن نزار . وقيل : له ولد رابع هو إياد ، قال أبو دواد الإيادى :

وفتو حسن أوجههم من إياد بن نزار بن معد

وقد انقسمت القبائل العدنانية من نزار ، وأشهرها : ربيعة ومضر . ومن ربيعة : عبد القيس وبكر وتغلب ، ومن مضر : قيس عيلان من إلياس ابن مضر .

مضر بن نزار

ولد لمضر بن نزار رجلان : إلياس ، وعيلان .

إلياس بن مضر

ولد له ثلاثة : مدركة(١) ، وطابخة(٢) وقمعة .

مدركة بن إلياس

يروى أن مدركة — واسمه عامر — كان هو وأخوه طابخة فى إبل لهما يرعيانها ، فاقتنصا صيدا ، فأخذا يطهوانه ، وعدت عادية على إبلهما ، فقال عامر لأخيه ، أتدرك الإبل أم تطبخ هذا الصيد ! فقال : بل أطبخ ، فلحق عامر بالإبل فجاء بها ، فلما راحا على أبيهما حدثاه بشأنهما ، فقال لعامر : أنت مدركة ، وقال لأخيه : أنت طابخة .

وقد ولد لمدركة ولدان خزيمة وهذيل .

ويروى أن هذيل بن مدركة اتخذوا الأصنام وفارقوا دين اسماعيل ، فاتخذوا « سواعا » ، وكان لهم برهاط(٣) .. كما اتخذت كلب بن وبرة من قضاعة (ودا) وكان لهم بدومة الجندل(٤) ، واتخذ بعض طيء ومذحج (يغوث) بجرش ؛ واتخذت بعض بطون همدان (يعوق) بأرض همدان فى اليمن ؛ واتخذت قريش صنما على بئر فى جوف الكعبة يقال له (هبل) وكان لها إساف (ونائلة) أيضا على موضع زمزم .

ويروى أن أول من غير دين إسماعيل ، فنصب الأوثان ، وبحر البحيرة ،

---

(١) اسمه : عامر .
(٢) اسمه : عمرو
(٣) اسم موضع .
(٤) اسم موضع بالقرب من الشام .

وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامى(١) ؛ هو عمرو بن لحى الخزاعى يذكرون أنه خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره ، فرأى أهلها يعبدون الأصنام ، فقال لهم : أفلا تعطونى صنما منهما ، فأسير به إلى أرض العرب ؛ فيعبدونه ؛ فأعطوه صنما يقال له « هبل » ، فقدم به مكة ، فنصبه ، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .

واتخذ أهل كل دار فى دارهم صنما يعبدونه فإذا أراد الرجل منهم سفرا تمسح به حين يركب ، وإذا قدم من سفره تمسح به كذلك ؛ فلما بعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بالتوحيد ، قالت قريش فى عجب : « أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشىء عجاب »(٢) .

واتخذت العرب بيوتا أخرى(٣) مع الكعبة تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب ، وتهدى إليها كما تهدى للكعبة ، وتطوف بها كطوافها

---

(١) السائبة : الناقة تلد عشر إناث متتابعة ليس بينهن ذكر ، فإذا كانت كذلك سيبت فلم تركب ، ولم يشرب لبنها إلا ضيف ، ولا يجز وبرها .

والبحيرة . هى بنت السائبة التى تولد لها بعد عشر إناث ، فتشق أذنها ، ويخلى سبيلها مع أمها .

والوصيلة : الشاة إذا جاءت بعشر إناث فى خمسة أبطن ليس بينهن ذكر ، سميت وصيلة ، فما تلد بعد ذلك فهو للذكور فيهم دون إناثهم ، إلا أن يموت منها شىء فيشتركوا فى أكله ، ذكورهم وأناثهم على السواء .

والحامى : الفحل يولد له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر ، فيحمى ظهره ، فلا يركب ، ولا يجز وبره . ويخلى سبيله ، يلقح الإبل ، لا ينتفع منه بغير ذلك .

(٢) آية ٥ من سورة (ص) .

(٣) سدنة : جمع سادن وهو خادم البيت . والحجاب : جمع حاجب وهو البواب .

بها وتنحر عندها ، وإن كانت تقدم الكعبة عليها ، وتعرف فضلها ، لأنها بيت إبراهيم ومسجده ، وتسمى هذه البيوت « الطواغيت » ، فكانت (العزى) لقريش وبنى كنانة بنخلة ، وكانت أعظم الأصنام عند قريش ، وكانت (اللات) لثقيف فى الطائف ، و« مناة » للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب ، وكانت على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد ؛ و (ذو الخلصة) لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة ، (وفلس) لطيء بجبلى طيء ، وكان لحمير وأهل اليمن بيت بصنعاء يقال له (رئام) ، وغيرها .

خزيمة بن مدركة

ولد له أربعة أبناء : كنانة ، وأسد ، وأسدة بن خزيمة ، والهون .

وفى عصر خزيمة كان تبع ملك اليمن هو حسان بن تبان أسعد(١) ابن كلى كرب بن زيد(٢) ، وقد حكم حسان من عام ٤٢٠ م بعد والده .

---

(١) يكنى أبا كرب ، وهو تبع الآخر (٣٨٥ — ٤٢٠م) راجع : ٤٠٣ طبرى ج ١ طبعة التجارية ١٩٣٩

(٢) كان زيد هو تبع الأول . وكان التبابعة من الدولة الحميرية فى اليمن (١٢٠ ق م — ٥٠٠ م) . وقد حكم اليمن عدة دول هى :

ا ـ دولة المعينيين (١٢٠٠ — ٨٠٠ ق م) .

ب ـ دولة سبأ (٨٠٠ - ١٢٠ ق م) .

جـ ـ الدوله الحميرية ١٢٠ ق م - ٥٠٠م ، وتنقسم إلى قسمين :

الاول : ينتهى حكمهم فى أواخر القرن الثالث الميلادى .

والثانى : يسمى ملوكهم التبابعة ، وآخرهم ذو نواس (٥١٥-٥٢٥م) صاحب الأخدود الذى عذب فيه أهل نجران لعدم تركهم النصرانية واتباعهم دينه الرسمى اليهودية، وقد أحرق الكتاب المقدس، مما دعا إلى غضب الحبشة فقامت بحملة حربية على اليمن دفاعا عن النصرانية ، وكانت بقيادة ارياط وأبرهة ، فاستولوا على =

وكان والده تبان أسعد أبو كرب قد قدم المدينة ، وأدخلها فى حكمه ونصب عليها ابنا له ، فاغتاله أهلها ، طلبا لحريتهم ، فقدم تبان إليها ، وهو مصمم على الانتقام من أهلها ، فحاربوه ، وكانوا يقاتلونه بالنهار ، ويقرونه(١) بالليل ، فكان يتعجب من ذلك ويقول : والله إن قومنا هؤلاء لكرام . . ونال يهود المدينة من الحرب شر مستطير ، فخرج حبران راهبان منهم من قريظة : إلى تبان أسعد ، فقالا له :

— أيها الملك لاتحارب يثرب ، فإنك إن أبيت إلاما تريد منعها الله منك ولم نأمن عليك عاجل العقوبة .

— ولم ذلك ؟ قالها تبع لهما .

— هى مهاجر نبى يخرج من هذا الحرم من قريش فى آخر الزمان ، تكون داره وقراره .

فانتهى تبع عن حرب المدينة . . ولكنه دخل فى اليهودية دين هذين الراهبين .

وكان تبع وقومه قبل ذلك أصحاب أوثان يعبدونها ، فدخل اليهودية ؛ واصطحب معه الراهبين لينشراها فى بلاده . .

وسار إلى اليمن ، فمر بمكة ، وهى طريقه إلى بلاده ، فأتاه نفر من هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد ، فقالوا له :

= اليمن عام ٥٢٥م ، وحكمها أرياط ، ثم أبرهة الذى بنى كنيسة عظيمة بصنعاء لصرف العرب عن الكعبة إليها ، ثم غزا مكة ليهدم الكعبة ، فأهلكه الله هو وجيشه وذلك عام ٥٧٠ م ، وملك بعده ابنه يكسوم ، ثم قام سيف بن ذى يزن وحارب الحبشيين وأخرجهم من اليمن بمساعدة الفرس له الذين أمدوه بجيش بقيادة « وهرز » .

(١) قرى الضيف يقريه : أكرمه .

— أيها الملك ، ألا ندلك على بيت مال ، أغفلته الملوك قبلك ، فيه اللؤلؤ والزبرجد ، والياقوت ، والذهب والفضة ؟

— بلى . . قالها الملك لهم .

— بيت بمكة يعبده أهلها ، ويصلون عنده .

وأراد الهذليون من مشورتهم أن يعمل بها الملك فيهلكه الله ، لما عرفوا من هلاك من أراده بسوء من الملوك ، وبغى عنده . وكاد الملك يعمل بمشورتهم ، ولكنه استشار الحبرين ، فنصحاه بالامتناع عن ذلك ، وقالا له : ما أرادوا إلا هلاكك وهلاك جندك ، فإنا ما نعلم بيتا لله اتخذ في الأرض لنفسه غيره ، ولئن فعلت ما أشاروا به عليك لتهلكن ، وليهلكن من معك جميعا .

— قال : فما ذا تشيران إذاً ، وماذا تأمران أن أصنعه إذا أنا قدمت على هذا البيت ؟

— قالا : تصنع عنده ما يصنع أهله ، تطوف به ، وتعظمه ، وتكرمه ، وتحلق رأسك عنده ، وتذل له ، حتى تخرج من عنده .

— قال لهما : ولماذا لا تفعلان ذلك ؟

قالا : أما والله إنه لبيت أبينا ابراهيم ، وإنه لكما أخبرناك ، ولكن أهله حالوا بيننا وبينه ، بالأوثان التي نصبوها حوله ، وهم أهل شرك .

فعرف الملك تبع تبان أسعد صدق حديثهما ، فقبض على الهذليين وقطع أيديهم وأرجلهم ، ثم سار حتى قدم مكة ، فطاف بالبيت ، ونحر عنده ، وحلق رأسه ، وأقام بمكة ستة أيام(١) ، ينحر بها للناس ، ويطعم أهلها ،

---

(١) يبدو أنه أقام عشرة شهور ، إذ يروى له شعر يقول فيه : =

وكسا البيت ، ويزعم بعض الرواة أنه أول من كساه ، وأوصى به ولاته من جرهم (١) ، وأمرهم بتطهيره ، ثم خرج إلى اليمن هو وجيشه ، ومعه الراهبان ، وأمر قومه بالدخول فى اليهودية ، فأبوا عليه ، حتى يحاكموه إلى النار التى كانوا يعبدونها (٢) .

ويروى أنه حدثت فى اليمن ثورة على تبع تبان أسعد ، بعد اعتناقه اليهودية ، فلما دنا من اليمن ليدخلها حالت حمير بينه وبين ذلك ، وقالوا له : لاتدخلها علينا ، وقد فارقت ديننا ، فعرض عليهم اليهودية ، وقال : إنه خير من دينكم ، فقالوا : فحاكمنا إلى النار ، فخرج قومه بأوثانهم ومايتقربون به فى دينهم ، وخرج تبع ومعه الحبران بمصاحفهما (٣) فى أعناقهما ، وقعدوا للنار ، فلما نال الحميريين لهبها (٤) حادوا عنها وهابوها ، فأمرهم رؤساؤهم بالصبر على حرها ، فصبروا حتى غشيتهم ، فأكلتهم وما معهم من أوثان وقرابين ؛ ولم تمس الحبرين وما فى أعناقهما من مصاحف ، إلا ببعض حرها ، فعند ذلك دخلت حمير فى اليهودية ، وهدم تبع « رئام » الذى بناه أهل اليمن فى صنعاء للعبادة ليماثلوا به الكعبة المعظمة فى مكة .

= وكسونا البيت الذى حرم الله ... به ملاء منضدا وبرودا
فأقمنا به من الشهر عشرا ... وجعلنا لبابه إقليدا
ونحرنا بالشعب ستة ألف ... فترى الناس نحوهن ورودا
ثم سرنا عنه نؤم سهيلا ... فرفعنا لواءنا معقودا

ويروى أن قصة تبع كانت قبل الإسلام بسبعمائة عام ، وهو خطأ ، إذ الظاهر أنها حدثت نحو عام ٤٠٠ م أى قبل الإسلام بنحو ٢٢٠ عاما .

(١) معنى ذلك أن مكة دخلت كالمدينة فى نفوذه وسلطانه .

(٢) يبدو أنه قد انتقلت عبادة النار إليهم من الفرس .

(٣) يبدو أن لفظة المصحف ،كانت تطلق على الكتاب المنزل ، أى كتاب، ثم قصر فى الإسلام استعمالها اسما للقرآن الكريم دون سواه من الكتب المنزلة .

(٤) أى مالوا .

ومات تبع فحكم اليمن بعده ابنه حسان ، وقد قاد الجيوش لحرب العرب والعجم ، فثار عليه جيشه وقتلوه ، وولوا مكانه أخاه عمرا ، الذى قفل بالجيش راجعا إلى بلاده ، وحدثت فتن وثورات ، انتهت بأن ملك أهل اليمن زرعة ذا نواس عليهم ، وهو أخو حسان ، واجتمعت عليه قبائل اليمن كلها ، فكان آخر ملوك حمير ، وهو صاحب الأخدود ، وظل ملكا عليهم زمانا ، وكان دينه دين أبيه ، وهو اليهودية ، وكانت النصرانية ذائعة فى نجران ، نشرها فيها قسيس صالح من النصارى يسمى فيميون ، أو غير هذا الاسم ، فسار إليها ذو نواس بجنوده ، فدعا أهل نجران إلى اليهودية ، وخيرهم بين ذلك والقتل ، واختاروا القتل ، فحفر لهم الأخدود وأشعله نارا ، فحرق من حرق بالنار ، وقتل من قتل بالسيف ، ومثل بهم ، ويروى أنه قتل منهم عشرين ألفا ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم « قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » .

ونجا رجال من نجران ، أتوا قيصر ملك الروم ، فاستنصروه على ذى نواس فقال لهم : إن بلادكم بعيدة منا ، ولكنى سأكتب لكم إلى ملك الحبشة ، فإنه مثلى على النصرانية ، وهو أقرب إلى بلادكم ، وكتب إليه يأمره بنصر أهل نجران ، والثأر لهم ، وذهبوا إليه بكتاب قيصر ، فبعث معهم سبعين ألفا من جنده ، وأسند قيادة الجيش إلى قائد من قواده ، هو أرياط ، ويعاونه فى قيادة الجيش قائد آخر هو أبرهة ، وركب الجيش السفن حتى نزلوا بساحل اليمن ، ونشب القتال بينهم وبين ذى نواس وجيشه ، وهزم ذو نواس ، فهرب إلى البحر ، ومات غريقا ، واستولى أرياط على اليمن ، فملكها ، وذلك عام ٥٢٥ من الميلاد .

وكان سطيح الكاهن قد تنبأ بهذا الحدث الجلل ، فقال : « ليهبطن

أرضكم الحبش ، فليملكن ما بين أبين إلى[1] جرش ».. كما تنبأ به شق الكاهن أيضا ، فقال : « لينزلن أرضكم السودان ، فليغلبن على كل طفلة البنان ، فليملكن ما بين أبين إلى نجران » .

وأقام أرياط ملكا على اليمن سنين ، ثم قتله أبرهة ، وتولى ملك اليمن مكانه ، فغضب عليه النجاشى ، وصمم على الانتقام منه ، ثم استرضى أبرهة مليكه حتى رضى عنه .

وحاول أبرهة أن يصرف العرب عن الكعبة ، فبنى كنيسة لم ير مثلها فى زمانها ، وكتب إلى النجاشى : إنما قد بنيت لك ، أيها الملك ، كنيسة ، لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب » .

وسار أبرهة بجيش لجب إلى مكة ، وهو راكب على الفيل ، يريد دخولها وهدم الكعبة بيت الله .

وسمعت بذلك العرب ، فأعظموه ، ورأوا ذلك خطبا جللا ، ورأوا الجهاد فى سبيل الله حقا عليهم ، إذ سمعوا أنه خرج بجيشه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام .

وفى طريقه إلى مكة خرجت عليه قبائل من أهل اليمن لمحاربته ، ولكنها لم تنل منه ، وخرجت عليه قبائل من قبائل العرب ، وخرج عليه الكثيرون من أهل الطائف فيما يروى الرواة ، فإن بعضهم قالوا له :

أيها الملك ، إنما نحن عبيدك ، سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك خلاف ، وليس بيتنا هذا البيت الذى تريد[2] ، إنما تريد البيت الذى بمكة » .

---

(١) بلدان فى اليمن ، وجرش بالقرب من أبها وهى معقل الأزد ، وسيأتى ذكر لها فيما بعد .

(٢) يعنون ، اللات ، وهو بيتهم الذى بنوه للعبادة

وفى هذا يقول ضرار بن الخطاب الفهرى :

وفرت ثقيف إلى «لاتها» بمنقلب الخائب الخاسر

وسار أبرهة بجيشه ستين ألفا حتى نزل فى المغمس[1] ، على ثلثى فرسخ من مكة ، وأغارت سراياه على أموال لقريش ، فيها مائتا بعير لعبدالمطلب ابن هاشم .. ونترك تتمة ذلك إلى ما يلى من الحديث .

كنانة بن خزيمة

ولد له أربعة : النضر ، ومالك ، وعبد مناة ، وملكان .

النضر بن كنانة

النضر هو قريش . فمن كان من ولده فهو قرشى ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشى ، وأمه بره بنت مرة بن أد بن طابخة بن إلياس .

ويقال : بل فهر بن مالك بن النضر هو قريش ، فمن كان من ولده فهو قرشى ومن لم يكن من ولده فليس بقرشى (٢) .

وقد ولد للنضر ولدان : مالك ، ويخلد ، وقيل : ولد له ثالث ، وهو الصلت .

مالك بن النضر

ولد له فهر

---

(١) موضع قرب مكة من طريق الطائف

(٢) سميت قريش قريشا من التقرش وهو التجارة ، والاكتساب وجمع القروش ، ويقال : سميت بذلك لتجمعها بعد تفرق ، والتقرش : التجمع .

وقد انقسمت قريش إلى قبائل كثيرة أشهرها : جمع وسهم وعدى ، ومخزوم وتيم ، وزهرة بن كلاب ، وعبد الدار بن قصى ، وأسد بن عبد العزى بن قصى ، وعبد مناف بن قصى .

فهر بن مالك

ولد له أربعة : غالب ، ومحارب ، والحارث ، وأسد ؛ وأمهم ليلى بنت سعد بن هذيل بن مدركة .

غالب بن فهر

ولد له ولدان : لؤى ، وتيم ، وأمهما سلمى بنت عمرو الخزاعى ، ويقال : ولد له كذلك منها : قيس .

لؤى بن غالب

ولد له أربعة : كعب ، وعامر ، وسامة[١] ، وعوف[٢] .

كعب بن لؤى[٣]

ولد له ثلاثة : مرة ، وعدى ، وهصيص ؛ وأمهم : وحشية بنت شيبان ابن محارب بن فهر . وهو أول من سمى يوم الجمعة جمعة ، وكانت تسمى من قبل : عروبة .

مرة بن كعب

ولد له كذلك ثلاثة : كلاب ، وتيم ، ويقظة .

---

(١) خرج إلى عمان مهاجرا لخلاف بينه وبين أخيه عامر فمات فى الطريق ، بلسع حية .

(٢) خرج فى قافلة لقريش ، فلما كان بأرض غطفان ، نزل بها وتزوج منها ، وأقام فيهم ، فشاع نسبه فى آل ذبيان من غطفان .

(٣) لما مات كعب بن لؤى أكبروا موته فلم تزل كنانة تؤرخ بموته إلى عام الفيل (٢٢٦ /١ البيان والتبيين) ـ وكان كعب من خطباء العرب ، وكذلك هاشم ابن عبد مناف ، وعبد المطلب ، وأبو طالب .

كلاب بن مرة

ولد له : قصى ، وزهرة بن كلاب : وأمهما : فاطمة بنت سعد بن سيل أحد بنى الجدرة ، من جعثمة الأزد ، وسموا الجدرة لأن عامر بن عمرو بن جعثمة تزوج بنت ابن مضاض الجرهمى ، وكانت جرهم أصحاب الكعبة ، فبنى الكعبة جدارا ، فسمى عامر بذلك الجادر ، وقيل لولده : الجدرة .

قصى بن كلاب

جمع شتات قريش ، ووحد كلمتهم ، وأخذ ولاية البيت الحرام ، وجدد بناء الكعبة ، وبنى دار الندوة ، وصارت له السيادة على قريش والعرب ، له رياسة دار الندوة ، واللواء فلا تعقد راية الحرب إلا بيده ، والحجابة ، وهى حجابة الكعبة لايفتح بابها إلاهو ، وهو الذى يلى أمر خدمتها ، وله سقاية الحاج ورفادتهم(١) .

وولد لقصى أربعة أبناء وامرأتان : عبد مناف ، وعبد الدار ، وعبد العزى ، وعبد قصى بن قصى ، وبرة بنت قصى ، وتخمر بنت قصى ، وأمهم: حبى بنت حليل الخزاعى .

وقد انتقلت لقصى ولاية مكة والبيت الحرام فى مستهل القرن الخامس الميلادى بوفاة حليل الخزاعى ولا وارث له إلا ابنته حبى . وهى زوج قصى وقد عظم أمر قريش على يديه .

---

(١) السقاية : هى الحياض التى كانوا يملأونها بالماء ، ويحلونها بشىء من التمر والزبيب ليشرب منها الناس إذا وردوا مكة .

والرفادة : هى الطعام الذى كان يصنع للحجاج على سبيل الضيافة . وكانت قريش تعاون قصيا على هذه المآثر .

وقصى : هو أول من أوقد النار بالمزدلفة حتى يراها من يندفع من عرفة (٢٨ الأوائل لأبى هلال) .

عبد مناف بن قصى

ولد له أربعة : هاشم ، وعبد شمس ، والمطلب ، وأمهم عاتكة بنت مرة من سليم بن منصور بن عكرمة ؛ ونوفل ، وأمه واقدة بنت عمرو المازنية من مازن بن منصور بن عكرمة .

وولد له كذلك : أبو عمرو ، وتماضر ، وقلابة ، وحية . وريطة ، وأم الأخثم ، وأم سفيان .

هاشم بن عبد مناف

ولد له أربعة أبناء ، وخمس نسوة : عبد المطلب ، وأسد ، وأبو صيفي ، ونضلة بن هاشم ، والشفاء ، وخالدة ، وضعيفة ، ورقية ، وحية .

وأم عبد المطلب ورقية : هى سلمى بنت عمرو من بنى عدى بن النجار .

وكان هاشم أول من سن الرحلتين لقريش: رحلة الشتاء ورحلة الصيف(1)

---

(1) كانت قريش تجارا ، وكانت تجارتهم لاتعدو مكة وماحولها ، فخرج هاشم فأخذ عهدا من قيصر لمن يتجر فى بلاده من قريش ، وأخذ كذلك عهدا من أشراف أحياء العرب الذين تقع بلادهم فى طريق الشام : حتى قدم مكة ، فأتى قريشا بأعظم شىء أوتوا به قط بركة ، فخرجوا بتجارة عظيمة ، وخرج معهم هاشم يجوزهم وفيهم إيلافهم حتى ورد بهم الشام .

وخرج المطلب بن عبدمناف ، أخوهاشم ، إلى اليمن ، فأخذ عهدا من ملوكهم لمن اتجر إليهم من قريش ، وكان أكبر ولد أبيه ويسمى « الفيض » ، وهلك بردفان من اليمن :

وخرج أخوه عبد شمس بن عبد مناف إلى ملك الحبشة وأخذ لهم إيلافا ، ثم ورد مكة ومات بها .

وخرج أخوه نوفل بن عبد مناف إلى كسرى فأخذ عهدا منه لقريش ، ثم=

وأول من أطعم الثريد بمكة ، ومات بغزة من أرض الشام ، وهو فى بعض قوافل التجارة ، وميلاده عام ٤٦٤م .

عبد المطلب بن هاشم

ولد له عشرة بنين وست نسوة : العباس ، وحمزة ، وعبد الله ، وأبو طالب(١) والزبير ، والحارث ، والمغيرة (حجل) ، والمقوم ، وضرار وأبو لهب(٢) . وجعل بعضهم الحارث والمقوم واحدا، وزاد : عبد الكعبة .

وكان حجل يلقب بالغيداق لسعة ماله ، وكثرة خيره ، وقيل : كان اسمه مصعب ، أو نوفل .

وأما الست نسوة فهن : صفية ، وأم حكيم البيضاء ، وعاتكة ، وأميمة وأروى ، وبرة .

وأم عبد الله وأبى طالب والزبير وجميع النساء غير صفية : فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى

وكانت قريش تسمى عبد المطلب « الفيض » لسماحته وفضله(٣) .

=رجع مكة ، ورحل مرة أخرى إلى العراق ، فمات بسلمان ، وكان أصغر إخوته .
فاتسعت قريش فى التجارة ، وكثرت أموالها ، فبنو عبدمناف أعظم قريش بركة فى الجاهلية والإسلام (ص ٢١ الأوائل لأبى هلال نشر أحمد الحسينى) .

(١) اسمه عبد مناف .

(٢) اسمه : عبد العزى

(٣) كان هاشم بن عبدمناف قدم المدينة فتزوج سلمى بنت عمرو من بنى عدى ابن النجار ، وكانت لشرفها فى قومها يشترط لها أن أمرها بيدها إذا ماتزوجت رجلا . فولدت عبد المطلب فسمته «شيبة»، فتركه هاشم عندها حتى كان غلاما ، ثم خرج إليه عمه المطلب فقدم به إلى مكة ، فدخل به مكة مردفه معه على بعيره، فقالت قريش: عبد المطلب ابتاعه، فلذلك سمى شيبة عبدالمطلب ،فقال المطلب:=

عبد الله بن عبد المطلب

والد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لم ينجب غيره صلوات الله عليه، وأمه هي فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم كما أسلفنا .

تزوج عبد الله آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وأمها هي برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى .

هذا هو النسب النبوى الشريف المعطر الزكى .

فرسول الله صلى الله عليه وسلم أشرف ولد آدم حسبا ، وأفضلهم نسبا ، من قبل أبيه وأمه ، صلى الله عليه وسلم ، وشرف وكرم ، ومجد وعظم .

= ويحكم انما هو ابن أخى هاشم قدمت به من المدينة ، وولى عبد المطلب السقاية والرفادة بعد عمه المطلب ، فأقامها للناس ، وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله لقومهم من أمرهم ، وشرف فى قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه ، وعظم خطره فيهم .

الفصل الثالث

تاريخ جديد للعرب وللانسانية

كان كل شيء قبل الميلاد النبوى العظيم ، يوحى بقرب وقوع أمر جليل كبير ، لم تشهد الإنسانية له مثيلا .

١ — كان مولده الشريف فى مكة ، التى حكمها إسماعيل ثم ابنه ثابت . ثم مضاض بن عمرو الجرهمى ، الذى جمع إليه أمر مكة فنحر للناس وأطعمهم . . وتوارث أبناؤه ولاية البيت والحكم بمكة لاينازعهم ولد إسماعيل فى ذلك ، لخؤولتهم ، حيث تزوج أبوهم إسماعيل من جرهم ، ولقرابتهم ، وإعظاما لحرمة مكة أن يكون بها بغى أو قتال . . ولما بغت جرهم سلط الله عليها خزاعة(١) فحاربت جرهما ونفتها من مكة ، وكانت مكة فى الجاهلية لاتقر فيها ظلما ولا بغيا ، ولا يبغى فيها أحد إلا أخرجته ، ولا يريدها ملك يستحل حرمتها إلا هلك مكانه ، فخرج عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمى بغزالى الكعبة وبحجر الركن ، فدفنها فى زمزم ، وسار هو ومن معه من جرهم إلى اليمن ، وبهم من الحزن الشديد مابهم .

وقال عمرو بن الحارث يذكر بكرا وساكنى مكة الذين خلفوا فيها بعدهم :

يا أيها الناس سيروا إن قصركم(٢) ... أن تصبحوا ذات يوم لاتسيرونا
حثوا المطى وأرخوا من أزمتها ... قبل الممات وقضوا ماتقضونا

---

(١) كان عمرو بن لحى الخزاعى أول من غير دين إسماعيل ١ : ٨١ سيرة ابن هشام .

(٢) أى غاية أمركم .

كنا أناسا كما كنتم فغيرنا دهر فأنتم كما كنا تكونونا

قال ابن هشام : وحدثنى بعض أهل العلم أن هذه الأبيات أول شعر قيل فى العرب .

ووليت خزاعة أمر البيت والحكم فى مكة ، يتوارثون ذلك كابرا عن كابر ، حتى كان آخرهم حليل بن حبشية الخزاعى .

وتزوج قصى بابنته حبى بنت حليل ، فولدت له : عبد الدار ، وعبد مناف، وعبد العزى ، وعبدا .

فلما انتشر ولد قصى ، وكثر ماله ، وعظم شرفه ، هلك حليل ، فرأى قصى أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وغيرها ؛ ويروى أن حليلا أوصى لقصى بالأمر بعده ، حين انتشر له من ابنته من الولد ماانتشر ، وقال له : أنت أولى بالكعبة ، وبالقيام عليها ، وبأمر مكة ، من خزاعة ، فلذلك طلب قصى ماطلب ، وحارب قصى خزاعة وغلبهم على ما كان بأيديهم ، ثم إنهم تواصوا إلى الصلح ، وإلى أن يحكموا بينهم رجلا من العرب ، فحكموا يعمر بن عوف ، فقضى بينهم بأن قصيا أولى بالكعبة ، وأمر مكة ، من خزاعة ، وأن كل ما أصابت خزاعة وأحلافها من قريش وأحلافها ففيه الدية مؤداة ، وأن يخلى بين قصى وبين الكعبة ومكة .

فولى قصى ـ الجد الرابع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ـ البيت وأمر مكة ، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة ، وتملك على قومه وأهل مكة ، فملكوه ، فكان قصى أول بنى كعب بن لؤى أصاب ملكا أطاع له به قومه، فكانت إليه الحجابة والسقاية ، والرفادة ، والندوة ، واللواء ، فحاز شرف مكة كلها ، وقطع مكة رباعا بين قومه ، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التى أصبحوا عليها ، فسمته قريش مجمعا لما جمع من أمرها ، وتيمنت بأمره ، وكان أمره فى قومه من قريش فى حياته ومن بعد موته كالدين المتبع

لا يعمل بغيره ، واتخذ لنفسه دار الندوة ، وجعل بابها إلى مسجد الكعبة ، وفيها كانت قريش تقضى أمورها ، ونفى قصى خزاعة وبنى بكر من مكة . .
وقال قصى :

أنا ابن العاصمين بنى لؤى   بمكة منزلى وبها ربيت
إلى البطحاء قد علمت معد   ومروتها رضيت بها رضيت

فلما نال الهرم من قصى ، وكان عبد الدار بكره ، وكان عبد مناف قد شرف فى زمان أبيه ، وذهب كل مذهب ، وعبد العزى ، وعبد قصى ، قال قصى لعبد الدار : أما والله يا بنى لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك ، لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت الذى تفتحها له ، ولا يعقد لقريش لواء الحربها إلا أنت بيدك ، ولا يشرب أحد بمكة إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما إلا من طعامك ، ولا تقطع قريش أمرا من أمورها إلا فى دارك ، فأعطاه دار الندوة ، التى لا تقضى قريش أمرا من أمورها إلا فيها ، وأعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ؛ فجعل إليه قصى كل ما كان بيده من أمر قومـــه ، وكان قصى لا يخالف ولا يرد عليه شىء صنعه .

هذه المكانة العظيمة ، والملك الكبير ، والدولة الممهدة ، التى صنعها قصى لقريش قبل ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم ، كانت إرهاصا للميلاد النبوى ، ومقدمة من مقدماته الباهرة .

٢ — وكان من الضرورى لأبناء قصى بعد موته أن يختلفوا ، وأن يتفرق أمر قريش ، وتولى أمر بنى عبد مناف : عبد شمس بن عبد مناف لأنه كان أسنهم ، وأجمع بنو عبد مناف ومعهم : بنو أسد بن عبد العزى ابن قصى ، وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو تيم بن مرة ، وبنو الحارث بن فهر ابن مالك على أن يأخذوا ما بأيدى بنى عبد الدار من المآثر والمكارم ،

وكان أمر بنى عبد الدار إلى عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، ومعهم : بنو مخزوم ، و بنو سهم ، و بنو جمح ، و بنو عدى ، وعقد كل من الطرفين على أمرهم حلفا مؤكدا على ألا يتخاذلوا ، وأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبا ، فوضعوها لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها ، فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم ، فسموا المطيبين . . وكذلك تعاقد بنو عبد الدارهم وحلفاؤهم عند الكعبة حلفا مؤكدا على ألا يتخاذلوا ، ولا يسلم بعضهم بعضا ، فسموا الأحلاف .

وتفاقم الأمر ، وأوشكت الحرب أن تقوم ، فتداعى الفريقان إلى الصلح ، على أن يعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة ، أما الحجابة واللواء والندوة فلبنى عبد الدار كما كانت ، ورضى كل واحد من الفريقين بذلك ، وتحاجز الناس عن الحرب ، وولى الرفادة والسقاية هاشم بن عبد مناف ، ثم ابنه المطلب من بعده ، وكان على صغره ذا شرف فى قومه وفضل ، ثم عبد المطلب بعده وبذلك علت مكة عبد مناف ، وزادت تشريفا وتعظيما وتكريما قبل الميلاد النبوى الشريف ، إرهاصا به ، ومقدمة من مقدماته ، ومعجزة من معجزاته .

٣ — وفى مكة ، وفى دار عبد الله بن جدعان من تيم بن مرة بن كعب ابن لؤى ، لشرفه وسنه ، اجتمعت قريش ، وتحالفت ، وتعاهدت على أن لايجدوا بمكة مظلوما من أهلها ، أو غيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ، وسمى ذلك الحلف حلف الفضول (١) ؛ وهذا الحلف انتصار لمبادىء السماء التى نزل

---

(١) يقول أبو هلال العسكرى فى كتابه الأوائل ص ٤٦ : قدم رجل من بنى زبيد من مذحج مكة بسلعة ، فباعها من العاص بن وائل القرشى ، وكان شريفا =

الوحى بها على نبيه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فى مكة بعد ذلك ، وقد شهده الرسول صلى الله عليه وسلم وهو فى سن العشرين ، وقال : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت » .

٤ — تولى الرفادة والسقاية عبد المطلب بعد عمه المطلب ، وشرف فى قومه شرفا كبيراً ، وشاء الله أن يكرم قريشاً على يديه كرما كبيرا يكون كذلك إحدى إرهاصات الميلاد النبوى الشريف ، وأن تفجر يداه البركات بئر زمزم من جديد بعد أن صنعت جرهم بها ماصنعت من وضع الحجارة والصخور فيها حتى سدت منابعها .

قال عبد المطلب : إنى لنائم فى الحجر ، إذ أتانى آت ، فقال: احفر طيبة، قلت : وماطيبة ؟ ثم ذهب عنى .

وفى الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه ، فجاءنى ، فقال : احفر برة ، قلت : وما برة ؟ ثم ذهب عنى .

فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى ، فنمت فيه فجاءنى ، فقال : احفر المضنونة ، قلت : وما المضنونة ؟ ثم ذهب عنى .

فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى ، فنمت فيه فجاءنى ، فقال : احفر

= فظلمه ثمنها فقال الزبير بن عبد المطلب : ما لهذا مترك ، فاجتمعت زهرة وتيم وأسد فى دار ابن جدعان ، فتحالفوا ليكونن يدا على الظالم للمظلوم حتى يردوا حقه إليه ، فقالت قريش : قد دخل هؤلاء فى فضل من الأمر . ثم أتوا العاص فانتزعوا سلعة الرجل من يده فدفعوها إليه ، وقال الزبير بن عبد المطلب :

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا ألا يقيم ببطن مكة ظالم

وقال رسول الله : لقد شهدت مع عمومتى فى دار ابن جدعان من حلف الفضول مالو دعيت إليه اليوم لأجبت وما أحب أن لى به حمر النعم .

زمزم ، قلت: وما زمزم؟ قال: لا تنزف أبدا ولا تذم، تسقى الحجيج الأعظم، وهى بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم(١) ، عند قرية النمل .

فغدا بمعوله ، ومعه ابنه الحارث ، ليس له ولد غيره ، فحفر فيها ، فلما بدا له الطى(٢) كبر ، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته ، فقاموا إليه وقالوا : ياعبد المطلب إنها بئر أبينا إسماعيل ، وإن لنا فيها حقا ، فأشركنا معك فيها قال : ما أنا بفاعل إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم وأعطيته من بينكم ، فقالوا له : فأنصفنا فإنا غير تاركيك ، قال : فاجعلوا بينى وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه ، فتحاكموا إلى كاهنة بأشراف الشام ، وساروا إليها ، حتى إذا كانوا ببعض المفاوز نفد ماء عبد المطلب ومن معه ، فظمئوا ، حتى أيقنوا بالهلاك ، فاستقوا من معهم من قبائل قريش فأبوا عليهم ، وأيقن عبد المطلب بالموت هو ومن معه ، فنهض براحلته ليركبها ، بحثا عن الماء ، فلما انبعثت به انفجرت من تحت خفها عين من ماء عذب ، فكبر عبد المطلب وأصحابه وشربوا واستقوا حتى ملأوا أسقيتهم ، ثم دعا القبائل من قريش ممن منعوه الماء ، فقال : هلم إلى الماء فقد سقانا الله فاشربوا واستقوا ، فشربوا واستقوا ، ثم قالوا : قد والله قضى لك علينا ياعبد المطلب ؛ والله لا نخاصمك فى زمزم أبدا ، إن الذى سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذى سقاك زمزم فارجع إلى سقايتك راشدا فرجع ورجعوا ، وخلوا بينه وبينها ؛ وأخرج عبد المطلب منها غزالين من ذهب دفنتهما جرهم فيها حين خرجت من مكة فأنفقهما على الكعبة ، وأقام سقاية زمزم للحجيج .

وكانت تلك إحدى إرهاصات الميلاد النبوى الشريف كذلك ، وقد

---

(١) أى فى المكان الذى سوف ينقر فيه الغراب الأعصم ـ الأحمر المنقار والرجلين ـ

(٢) الحجارة تطوى بها البئر .

افتخرت بنو عبد مناف على قريش والعرب جميعاً بذلك ، فقال مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف :

ورثنا المجد من آبا ئنا فنما بنا صعدا
فان نهلك فلم نملك ومن ذا خالدا أبدا
وزمزم فى أرومتنا ونفقأ عين من حسدا

٥ — ونترك عبد المطلب وقد واجهه الغزو الحبشى لمكة بقيادة أبرهة الذى قاد الجيش على فيل ضخم له ، وقد عجزت قبائل العرب عن رد هذا المعتدى عن عدوانه ، فصانعته ، وكان بعضها عونا له على مايريد .

وبعث أبرهة رسولا من قبله إلى مكة ، وقال له : سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها ، ثم قل له . أن الملك يقول لك : إنى لم آت لحربكم . إنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن تركتمونا وماتريد فلاحاجة لى بحربكم ؛ فإن هو لم يرد حربى فائتنى به .

وذهب الرسول ، وقيل له : أمامك عبد المطلب ، فجاءه وبلغه الرسالة .

فرد عليه عبد المطلب ، والله مانريد حربه ، ومالنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخل بينه وبينه فوالله ماعندنا دفع عنه ، فقال له الرسول فانطلق معى إليه فانه قد أمرنى أن آتيه بك ، فانطلق معه عبد المطلب ، ومعه بعض بنيه ، حتى أتى العسكر ، فقيل لسائس الفيل : إن عبد المطلب سيد قريش ، وصاحب عير مكة ، يطعم الناس بالسهل ، والوحوش فى رؤوس الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتى بعير فاستأذن له على الملك .

فذهب سائس الفيل ، وقال :

أيها الملك ، هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عير

مكة ، وهو يطعم الناس فى السهل ، والوحوش فى رؤوس الجبال ، فأذن له عليك ، فليكلمك فى حاجته ، فأذن له أبرهة .

وكان عبد المطلب أجمل الناس وأوسمهم وأعظمهم ، فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه وأكرمه ، ونزل عن سريره ، فجلس على بساطه ، وأجلسه معه عليه إلى جنبه ، ثم سأله عن حاجته .

فقال : حاجتى أن يرد الملك على مائتى بعير أصابها أعوانه لى .

فقال أبرهة : أتكلمنى فى مائتى بعير أخذتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه ؟ قال له عبد المطلب : إنى أنا رب الإبل ، وإن للبيت ربا سيمنعه .

قال أبرهة : ما كان ليمتنع منى — قال عبد المطلب له : أنت وما تريد

فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل التى أصابها له وانصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة ، والتحرز فى رؤوس الجبال والشعاب . . وقام ومعه نفر من قريش ، فأخذ بحلقة باب الكعبة ، يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده . ثم انطلق هو ومن معه من قريش إلى شغف الجبال فتحرزوا فيها .

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة ، وهيأ فيله ، وعبأ جيشه ، فلما وجهوا الفيل إلى مكة برك الفيل ، وضربوه ليقوم فأبى ، فوجهوه إلى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه إلى مكة فبرك ، وأرسل الله عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، لا تصيب منهم أحــــدا إلا هلك ، وفنى الجيش كله ، ومات أبرهة .

ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ ألم يجعل كيدهم فى تضليل ؟

وأرسل عليهم طيرا أبابيل(١) ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » .

وكان عام الفيل عـــام ٥٧٠ م ، وبعده بخمسين يوما كان الميلاد النبوى الشريف .

أليس ذلك معجزة كبرى ، وبشرى رائعة ، بميلاد نبوى كريم ؟ . .

وبذلك عظمت العرب قريشا ، وقالوا : هم أهل الله ، قاتل الله عنهم ، وكفاهم شر عدوهم ، وأخذ الشعراء يذكرون فى شعرهم هذا الحدث الكبير ، من أحداث التاريخ .

وفى ذلك يقول أبو طالب عم الرسول صلى الله عليه وسلم :

فلولا دفاع الله لا شىء غيره — لأصبحتمو لا تمنعون لكم سربا(٢)

٦ — وملك اليمن بعد أبرهة ابنه يكسوم ثم ابنه الآخر مسروق بن أبرهة ، فلما طال البلاء خرج سيف بن ذى يزن الحميرى فذهب إلى قيصر ، ثم إلى النعمان بن المنذر ، فشكا إليهما الحبشة ، فلم يعره قيصر التفاتا ، وعنى به النعمان فأخذه معه إلى كسرى ، فقال سيف بن ذى يزن :

---

(١) أى جماعات — وراجـــع فى ذلك تاريخ الأمم والملوك للطبرى (١ : ٥٥٢ - ٥٥٨) - وقد توفى ابرهة عام ٥٧٠ م ، وحكم بعده ابنه يكسوم سنتين . ثم ابنه مسروق ثلاث سنين ، ثم بدأ الاحتلال الفارسى لليمن عام ٥٧٥ م بناء على أن عام الفيل كان عام ٥٦٩ - ٥٧٠ م وهو الرأى المشهور .

وكان أمر الفيل تقدمة قدمها الله لنبيه وبيته ، فنصرهم الله على أهل الكتاب نصرا لا صنع للبشر فيه إرهاصا وتقدمة لرسول الله ، كما يقول ابن القيم ١ : ٢٢ زاد المعاد .

(٢) السرب : القطيع من الإبل والبقر والظباء والناس ، والسرب : النفس أيضا ، وبهذا النصر العظيم عظم أمر قريش ، فسميت آل الله وقرابينه (٢٥ - ٢٧ الأوائل لأبى هلال) .

أيها الملك ، غلبتنا على بلادنا الحبشة جئتك لتنصرنى ، ويكون ملك بلادى لك ، فأرسل معه كسرى جيشا صغيرا ، ولى قيادته رجلا يقال له وهرز ، وكان ذا سن وفضل حسب وبيت ، فخرجوا فى ثمان سفائن ، فغرقت اثنتان ، ووصلت إلى ساحل عدن ست منها ، وجمع سيف إلى « وهرز » من استطاع من قومه ، وحاربوا مسروق بن أبرهة ملك اليمن ، فقتلوه ، وهرب جيشه ، ودخل وهرز صنعاء .

وضجت العرب بهذا النصر الكبير على الحبش ، وذهبت الوفود فهنأت ابن ذى يزن بالثأر ممن استعمروا بلاده ، وأنشدت الشعراء القصائد الطوال . . وفى هذا الحدث الكبير ، قال أبو الصلت الثقفى أو أمية ابنه :

ليطلب الوتر أمثال ابن ذى يزن	ريَّمَ(١) فى البحر للأعداء أحوالا
يمم قيصر لما حان رحلته	فلم يجد عنده بعض الذى سالا
ثم انثنى نحو كسرى بعد عاشرة	من السنين يهين النفس والمالا
حتى أتى ببنى الأحرار يحملهم	وفيت عمرى لقد أسرعت قلقالا(٢)
لله درهم من عصبة خرجوا	ما إن أرى لهمو فى الناس أمثالا
فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفقا	فى رأس غمدان دارا منك محلالا
تلك المكارم لاقعبان من لبن	شيبهب بماء فعادا بعد أبوالا

وكان ذلك النصر الكبير عام ٥٩٧ م بعد الميلاد النبوى بأكثر من ربع قرن .

يروى أنه لما ظفر سيف بن ذى يزن بالحبشة ، أتت وفود العرب وخطباؤها وأشرافها وشعراؤها لتهنئته ومدحه ، وذكر ما كان من بلائه

(١) أى أقام .

(٢) بنو الأحرار : الفرس . قلقال : تحرك وراجع ـ القصيدة فى الجزء الأول من تاريخ الأمم والملوك للطبرى (١ : ٥٦٤ والتجارية) .

وطلبه بثأر قومه . وقدم إليه وفد قريش ، وفيهم عبد المطلب بن هاشم ، وأمية بن عبد شمس ، وعبد الله بن جدعان ، وأسد بن خويلد بن عبد العزى ، فى ناس من أشراف قريش فلما قدموا عليه وجدوه فى رأس قصر يقال له (غمدان) فاستأذنوا عليه ، فأذن لهم ، فدخلوا عليه ، فإذا الملك مضمخ بالعنبر ، يرى وبيص الطيب من مفرقه ، عليه بردان مؤتزر بأحدهما ، ومرتد بالآخر ، سيفه بين يديه ، وعن يمينه وعن يساره الملوك وأبناء الملوك والمقاول .

فدنا عبد المطلب واستأذن فى الكلام . فقال : إن كنت ممن يتكلم بين يدى الملوك فتكلم ، فقد أذنا لك ، فقال عبد المطلب : إن الله أحلك ـ أيها الملك ـ محـــلا رفيعاً صعباً منيعاً شامخاً باذخاً ، وأنبتك منبتاً طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، وثبت أصله ، وبسق فرعه ، فى أكرم موطن وأطيب معدن ، وأنت ـــ أبيت اللعن ـــ ملك العرب وربيعها الذى به تخصب ، وأنت ـ أيها الملك ـ رأس العرب الذى إليه تنقاد ، وعمودها الذى عليه العماد ، ومعقلها الذى تلجأ إليه العباد ، سلفك خير سلف ، وأنت لنا منهم خير خلف ، وان يخمل ذكر من أنت سلفه ، ولن يهلك من أنت خلفه ، ونحن ـــ أيها الملك ـــ أهل حرم الله ، وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذى أبهجنا ، لكشف الكرب الذى فدحنا ، فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة .

فقال ابن ذى يزن : فأيهم أنت أيها المتكلم . فقال : أنا عبد المطلب بن هاشم . قال: ابن أختنا ؟ قال : نعم ابن أختكم . قال : ادن فأدناه وقال : مرحباً وأهلا ، وناقة ورحلا ، ومستناخاً سهلا ، وملكا ربحلا ـــ كثير العطاء ـــ يعطى عطاء جزلا ، قد سمع الملك مقالتكم ، وعرف قرابتكم . وقبل وسيلتكم . فأنتم أهل الليل والنهار . لكم الكرامة ما أقمتم ، والحباء إذا ظعنتم . ثم استنهضوا إلى دار الضيافة والوفود . فأقاموا شهرا لا يؤذن لهم ولا يصلون إليه .

ثم انتبه انتباهة ، فأرسل إلى عبد المطلب فأخلاه وأدنى مجلسه . وقال يا عبد المطلب : إنى مفض إليك من سرى وعلمى ما لو كان غيرك لم أبح له ، ولكنى رأيتك معدنه ، وأطلعتك عليه ، فليكن عندك مطويا حتى يأذن الله فيه ، فإن الله بالغ أمره ، إنى أجد فى الكتاب المكنون ، والعلم المخزون ، الذى اخترناه لأنفسنا ، واحتجناه دون غيرنا ، خبراً عظيما ، وخطراً جسيما . فيه شرف الحياة ، وفضيلة الوفاة ، وهو للناس عامة ، ولرهطك كافة ، ولك خاصة .

قال عبد المطلب : أيها الملك فمثلك من سر وبر . فما هو ؟ فداك أهل الوبر ، زمراً بعد زمر ؟ قال : إذا ولد بتهامة غلام ، وبين كتفيه شامة . كانت له الإمامة ، ولكم به الزعامة ، إلى يوم القيامة .

فقال له عبد المطلب : أبيت اللعن ، لقد أتيت بخبر ما أتى بمثله وافد ، فلولا هيبة الملك وإجلاله وإعظامه لسألته من كشف بشارته إياى ما أزداد به سروراً .

قال ابن ذى يزن : نبى هذا حينه الذى يولد فيه ، أوقد ولد ؟ اسمه أحمد. يموت أبوه وأمه ، ويكفله جده وعمه . والله باعثه جهاراً ، وجاعل منا له أنصاراً ، يعز بهم أولياءه ، ويذل بهم أعداءه . يكسر الأوثان ، ويخمد النيران ، ويعبد الرحمن ، ويزجر الشيطان . قوله فصل ، وحكمه عدل ؛ يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويبطله .

قال عبد المطلب : أيها الملك ! عز جدك وعلا كعبك ، وطاب ملكك ، وطال عمرك . فهل الملك سارى بإفصاح . فقد أوضح بعض الإيضاح ؟

فقال ابن ذى يزن : والبيت ذى الحجب ، والعاملات والنصب ، إنك ياعبد المطلب ، لجده غير الكذب . فخر عبد المطلب ساجداً . ثم رفع رأسه ، فقال له ابن ذى يزن : ارفع رأسك . ثلج صدرك . وعلا أمرك .

فهل أحسست شيئا مما ذكرت لك ؟ فقال : نعم أيها الملك كان لى ابن وكنت عليه شفيقا وبه رفيقا . فزوجته كريمة من كرائم قومى ، وهى آمنة بنت وهب بن عبد مناف ، فأتت بغلام سميته محمدا مات أبوه وأمه ، وكفلته أنا وعمه ، بين كتفيه ، شامة وفيه كل ماذكر الملك من علامة .

قال ابن ذى يزن : إن الذى قلت لك لكما قلت . فاحتفظ بابنك واحذر عليه من اليهود ، فإنهم له أعداء ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا . والله مظهر دعوته . وناصر شيعته : فاطو ماذكرته لك دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فإنى لست آمن أن تداخلهم النفاسة ـ الحسد ـ من أن تكون لك الرياسة . فيبغون له الغوائل ، وينصبون له الحبائل ، وهم فاعلون ذلك ، أو أبناؤهم . ولولا أنى أعلم أن الموت يجتاحنى قبل مبعثه لسرت بخيلى ورجلى حتى أصير بيثرب دار ملكه ، فأكون أخاه ووزيره ، وصاحبه وظهيره . فإنى أجد فى الكتاب المكنون ، والعلم المخزون ، أن فى يثرب استحكام أمره ، وأهل نصرته ، وارتفاع ذكره ، والوضع قبره ولولا الذمامة لأظهرت أمره ، وأوطأت العرب كعبه ، على حداثة سنه . ولكنى صارف ذلك إليك ، عن غير تقصير بك .

ثم أمر لكل رجل من القوم بعشرة أعبد وعشر إماء سود ، وحلتين من حلل اليمن ، وخمسة أرطال ذهب ، وعشرة أرطال فضة ، وكرش مملوءة بالعنبر ، ولعبد المطلب بعشرة أمثال ذلك .

وقال له : إذا حال الحول فأتنى بأمره ، وما يكون من خبره . فمات ابن ذى يزن قبل أن يحول الحول .

فكان عبد المطلب كثيراً مايقول : يامعشر قريش ، لا يغبطنى رجل منكم بجزيل عطاء الملك ، وإن كان كثيراً ، فإنه إلى نفاد ، ولكن ليغبطنى بما يبقى لى ولعقبى ذكره وفخره وشرفه .

فإذا قيل له : وما ذاك ؟ قال : ستعلمون ما أقول لكم بعد حين — مأثورات نبوية للمؤلف ٢٢٢ طبعة ثانية — تأييدا من الله للعرب الذى اصطفى منهم رسوله الكريم .

وكان أمر اليمن إلى وهرز ، ثم إلى ابنه من بعده ، وهو المرزبان ، ثم إلى باذأن ، الذى بعث الرسول الأعظم صلوات الله عليه ، وهو على اليمن .

٧ — وهناك أمر جسيم جديد ، حدث لعبد المطلب . . .

كان عبد المطلب قد نذر — حين لقى مالقى من قريش عند حفر زمزم — لئن ولد له عشرة بنين ، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه ، لينحرن أحدهم لله عند الكعبة .

فلما توافى بنوه عشرة ، وعرف أنهم سيمنعونه ، جمعهم ، ثم اخبرهم بنذره ، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك ، كما صنع إبراهيم مع اسماعيل ، فأطاعوه ، كما فعل اسماعيل مع أبيه إبراهيم .

قالوا لأبيهم : كيف تصنع ؟

قال : ليأخذ كل منكم قدحا ، ويكتب فيه اسمه ، ثم ائتونى . ففعلوا ، ثم أتوه ، فدخل بهم على هبل فى جوف الكعبة ، وهبل على بئر فى جوف الكعبة .

وقال عبد المطلب لكاهن هبل : اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم هذه ، وأخبره بنذره الذى نذره ، وأعطاه كل شاب منهم قدحه الذى كتب عليه اسمه ، وكان عبد الله أصغر أبناء عبد المطلب ، وأحبهم إليه ، وهو والد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيما بعد .

وأخذ الكاهن يستعد ليضرب القداح ، وقام عبد المطلب عند

هبل يدعو الله ، وأجال الكاهن القداح فخرج الذى عليه اسم عبد الله وهم عبد المطلب أن يذبح فتاه ، فقامت إليه قريش من أنديتها، يصيحون به: ماذا تريد ياعبد المطلب ؟

ــ أذبح عبد الله ! !

ــ والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه ، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟

المغيرة بن عبدالله المخزومى ، وأم عبد الله مخزومية ، كما أسلفنا ، يصيح: يا عبد المطلب ، والله لا تذبحه أبدا ، حتى تعذر فيه ، فإن كان فداؤه بأموالنا قد يناه .

قريش وأبناء عبد المطلب معهم يصيحون : لا تفعل وانطلق بعبد الله إلى ، الحجاز فإن به كاهنة فسلها فى الأمر ، فإن أمرتك بذبحه ذبحته ، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته .

ووافق عبد المطلب ، وانطلق وانطلقوا معه إلى الكاهنة فى خيبر قريبا من المدينة ، حتى جاءوها ، وقص عليها عبد المطلب قصته ، فقالت لعبد المطلب : ائتنى من الغد ، فجاءها .

قالت له : كم الدية لديكم ؟

قال : عشر من الإبل .

قالت : ارجع إلى بلادك ، وقرب ابنك وقرب عشرا من الإبل ، وليضرب عليها وعليه بالقداح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم .

وعاد الوفد إلى مكة .

وقام عبد المطلب عند هبل ليفى بنذره ، حيث قرب عبد الله وعشرا

من الإبل ، وتضرع عبد المطلب عند هبل يدعو الله عزوجل ، ثم ضربوا بالقداح فخرج القداح على عبد الله .

فزادوا عشرا من الإبل . فكان كما كان أولا

فزادوا عشرا أخرى

وعشرا

وعشرا

وعشرا

وعشرا

وعشرا

وعشراً

وفى كل ذلك يخرج القدح على عبدالله فزادوا عشرا من الإبل ، فصارت مائة ، وقام عبدالمطلب يدعو الله ، ثم ضربوا القداح ، فخرج القدح على الإبل.

وصاحت قريش وأهل مكة وأبناء عبد المطلب فى فرح : قد رضى ربك ياعبد المطلب .

وصاح بهم عبد المطلب : لا والله ، حتى أفعل ذلك ثلاث مرات .

وضربوا القداح مرة ثانية وثالثة ، والقدح يخرج على الإبل .

ونحر عبد المطلب الإبل المائة ، وأخذ أهل مكة منها مايريدون ، وفدى الله عبد الله فتى عبد المطلب ، كما فدى من قبل جده اسماعيل بن إبراهيم .

فكان رسول الله ابن الذبيحين . .

٨ — وخرج عبد المطلب بعبد الله حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وهو يومئذ سيد بنى زهرة نسبا وشرفاً ، فزوجه ابنته آمنة بنت وهب ، وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسباً وموضعاً .

ودخل عبد الله بآمنة ، فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان صنو شريفين كريمين عظيمين من قريش سادة العرب جميعاً ، صلى الله عليه وسلم فكان رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، أوسط قومه نسبا ، وأعظمهم شرفا ، من قبل أبيه وأمه .

٩ — ويروى الرواة أن آمنة ابنة وهب أم رسول الله ، كانت تحدث أنها سمعت حين حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم هاتفا يهتف بها :

قد حملت بسيد الأمة ، فإذا خرج من بطنك فقولى : أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد . وسمه محمدا

قالت آمنة : لقد رأيت حين حملت بمحمد أنه خرج منى نور رأيت به قصور بصرى من أرض الشام[1] .

---

(١) بصرى من أعمال دمشق ، وهى مشهورة ـ ومثل ذلك ماحدث به خالد بن سعيد بن العاص أنه رأى قبل البعثة بقليل نورا يخرج من زمزم ، فأضاء فى كل مكان حتى ظهرت له البسر فى نخيل يثرب ، وحدث بذلك أخاه عمرو ابن العاص فقال له : أى أخى إن زمزم حفيدة عبد المطلب وإن هذا النور منهم ، فكان ذلك سبب مبادرته إلى الإسلام .

وكان ملك فارس فى عصر الميلاد النبوى هو خسرو أنوشروان (٥٣١ — ٥٧٩ م) ـ ويقول الطبرى : ولد رسول الله عام الفيل فى سنة اثنتين وأربعين من ملك كسرى أنوشروان وذلك يوم الاثنين لاثنتى عشرة مضت من ربيع الأول من الدار التى تعرف بدار ابن يوسف (١ : ٥٧١ تاريخ الأمم والملوك ـ نشر التجارية مطبعة الاستقامة ١٩٣٩) .

وتولى بعد خسرو ابنه هرمز بن خسرو أنوشروان (٥٧٩ - ٥٩٠م) ، ثم كسرى الثانى الساسانى أبرويز بن هرمز (٥٩٠ - ٦٢٨ م) وحدثت فى أيامه موقعة يوم ذى قار ، وقد انتصر فيها العرب على الفرس (١ : ٦٠٠ - ٦١٨ طبرى) ، ثم قباذ بن أبرويز (٦٢٨ - ٦٢٨ م) ، ثم أردشير بن قباذ (٦٢٨) (راجع ١ : ٦١٨ - ٦٣٨ طبرى) ـ وراجع كتاب عصر النبى وبيئته قبل البعثه لدروزة .

١٠ — ومات عبد الله والد الرسول صلوات الله عليه ، وآمنة حامل به صلى الله عليه وسلم ، فولد يتيما لحكمة أرادها الله له ، وفى هذا يقول الله عز وجل له بعد البعثة ، وقد تجاوز الأربعين ، أو على الأصح : الثانية والأربعين: فأما اليتيم فلا تقهر - وقيل توفى بعد ولادة رسول الله بسبعة أشهر (١) .

١١ — وولد محمد صلى الله عليه وسلم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل ٥٧٠ م ، وبعد حادث الفيل بخمسين يوما ؛ وقبل الهجرة بثلاثة وخمسين عاما .

هذا مايقوله كتاب السيرة ، ولكن الثابت أن ولادته يوم ثانى اثنين من ربيع الأول (عام ٥٧٠م) ، وذلك على الصحيح يوافق ٩ ربيع الأول - ٢٠ أبريل عام ٥٧٠ م .

قال حسان بن ثابت شاعر رسول الله : والله إنى لغلام ابن سبع سنين، أعقل كل ماأسمع إذ سمعت يهوديا يصرخ بأعلى صوته بيثرب :

يامعشر يهود ، يامعشر يهود

فاجتمعوا إليه وصاحوا به : ويلك ، مالك ؟ قال لهم : طلع الليل نجم أحمد الذى ولد به ، وكان حسان ولد قبل رسول الله بسبع سنين .

وقال نفر من أصحاب رسول الله له : يارسول الله ، أخبرنا عن نفسك قال :

أنا دعوة أبى إبراهيم
وبشرى أخى عيسى

ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام ،

---

(١) ١ : ٣٢ زاد المعاد لابن القيم

واسترضعت فى بنى سعد بن بكر ..

وقال العباس عم الرسول فيه حين منصرفه صلى الله عليه وسلم من تبوك :

وأنت لما ولدت أشرقت الـ   أرض وضاءت بنورك الأفق
فنحن فى ذلك الضياء وفى الـ   نور وسبل الرشاد نخترق(١)

وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ـ بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا حتى بعثت من القرن الذى كنت فيه ـ وروى البيهقى بسنده أن النبى صلى الله عليه وسلم خطب فقال : أنا محمد ابن عبد الله .. إلى آخر النسب الشريف المذكور آنفاً ، ثم قال : وما افترق الناس فرقتين إلا جعلنى الله فى خيرهما ، فأخرجت من بين أبوى ، فلم يصبنى من عهر الجاهلية ، وخرجت من نكاح ، ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبى ، وأمى فأنا خيركم ، وخيركم أبا ـ

وروى الإمام أحمد فى مسنده بسنده عن المطلب بن أبى وداعة قال : ــ قال العباس : بلغه صلى الله عليه وسلم بعض مايقول الناس ، فصعد المنبر ، فقال : من أنا ؟ قالوا : أنت رسول الله ، قال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه ، وجعلهم فرقتين ، فجعلنى فى خير فرقة ؛ وخلق القبائل فجعلنى فى خير قبيلة ؛ وجعلهم بيوتا فجعلنى فى خيرهم بيتا ؛ فأنا خيركم بيتا ، وخيركم نفسا .

وأمه صلوات الله عليه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وقد كان زهرة الابن البكر لكلاب بن مرة والشقيق الأكبر لقصى الذى جمع قريشا بعد تشتت ، وصاحب المآثر والمفاخر التى ورثها عنه أبناؤه

---

(١) هذا الشعر عن سير أعلام النبلاء (٢ : ٧٦)

من بعده وقد عرف بنو زهرة بالود الخالص لبنى عبد مناف بن قصى، والانحياز إلى جانبهم فى السلم والحرب، والأحلاف، والعهود.

وأما جدها عبد مناف فكان يقرن فى الشرف، بابن عمه عبد مناف بن قصى، فيقال: المنافان تعظيما، وتكريما، وأما أبوها وهب فكان سيد بنى زهرة.

وجدتها لأبيها عاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال السلمية إحدى النساء اللاتى اعتز بهن الرسول فقال: - أنا ابن العواتك من سليم.

ولم يكن نسب آمنة من جهة أمها دون ذلك عراقة وأصالة، وهى سلالة عريقة أصيلة أنبتت آمنة بنت وهب لتضطلع بعبئها الجليل فى أمومتها التاريخية، ولتنتظم بهذه الأمومة فى واسطة عقد الأمهات المنجبات للرجال الذين صنعوا أمما، وغيروا وجه التاريخ.

أما أم أبيه فهى فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية، وبنو مخزوم فى الذؤابة من قريش نسبا، وشرفا، ومحتدا، وأما أم جده عبد المطلب فهى سلمى بنت عمرو النجارية، وكانت سلمى لشرفها فى قومها، واعتزازها بنفسها لا تنكح الرجال حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها إن رضيت رجلا عاشرته، وإن كرهته فارقته.

وأما أم جده هاشم فهى عاتكة بنت مرة بن هلال السلمية من بنى سليم إحدى العواتك اللاتى اعتز بهن الرسول - وأما أم جده عبد مناف فهى حبى بنت حليل الخزاعية، وهذا قول ابن إسحاق، وقال غيره بل أم عبد مناف: عاتكة بنت هلال بن فالج بن ذكوان(١) - وأم قصى فاطمة بنت سعد، وهى يمانية من أزد شنؤه - وأم كلاب هند بنت سرير من بنى فهر بن مالك -

---

(١) الروض الأنف ج ١ ص ٧٦

وأم مرة وحشية بنت شيبان من بنى فهر أيضا ـ وأم كعب ماوية بنت كعب من قضاعة(١) ـ وهكذا نرى أنه ما من أب من آبائه ، وما من أم من أمهاته إلا وهو غنى بالشرف ، والنسب ، والفضائل (٢) .

بشارات كبرى فى حياة الرسول

يوم ذى قار

بشارة كبرى ببعثة رسول العرب ، هى هذا اليوم العظيم ، الذى كان بين العرب والفرس ، وهو أول يوم تنتصر فيه العرب على الفرس ، وكان فى مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال فيه :

« هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ، وبى نصروا » .

وكان من قصته ما نعلم من أن عدى بن زيد كان أستاذا للنعمان بن المنذر فلما مات المنذر أشار عدى على كسرى بتولية النعمان . مكان أبيه على الحيرة (٥٨٠ - ٦٠٢ م) .

ثم كثرت الوشايات عند النعمان ضد عدى ، فأرسل إلى عدى يطلب إليه أن يزوره فى الحيرة ، فقدم عدى عليه فأمر بحبسه ، ثم قتله .

واحتل زيد مكان أبيه عدى فى خدمة كسرى ، فأخذ يحرض كسرى على النعمان ، فاستدعاه من الحيرة ، فلجأ إلى هانىء بن قبيصة مستجيرا به ، ووضع عنده أمواله وسلاحه وبنته « حرقة » ، وذهب إلى كسرى فحبسه

---

(١) البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٥٣ و ٢٥٥ ، نور اليقين ص ٢ و ٣

(٢) الدكتور أبو شهبة من مقال له نشر فى عدد ربيع الأول ١٣٩١ ـ مجلة الوعى الإسلامى

ومات فى السجن . وولى كسرى مكانه على الحيرة إياس بن قبيصة الطائى ، وأمره أن يأخذ أمانات النعمان من هانىء فثار وأبى هانىء أن يسلم شيئا منها فغضب كسرى ، وأرسل جيشا كثيفا لحرب بنى شيبان وأحلافها من العرب .

وشاء الله أن يصمد العرب للفرس ، وأن يهزموهم هزيمة منكرة فى ذى قار ، ونالوا نصرا مؤزرا ، افتخر به الشعراء العرب ، وسجلوه فى قصائدهم ، يقول العديل العجلى :

ماأوقد الناس من نار لمكرمة　　إلا اصطلينا وكنا موقدى النار
وما يعدون من يوم سمعت به　　للناس أفضل من يوم بذى قار(١)

أيام الفجار

وهى أيام أربعة بين قريش ومعها بكر . وبين هوازن ، وأهمها هو اليوم الرابع . وقد سميت حرب الفجار لأنها حدثت فى الأشهر الحرام التى كان القتال فيها محرما .

وقد حضر النبى صلى الله عليه وسلم هذا اليوم ، واشترك فيه مع قومه ، وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، وكان ينبل على أعمامه (٢) ، ويقول الطبرى أنها نشبت والرسول فى العشرين (٣) .

---

(١) راجع يوم ذى قار فى الطبرى وابن الأثير ، وفى الجزء الثالث من العقد الفريد ص ٣٧٤ طبعة عام ١٩٢٨ بالقاهرة

(٢) راجع : كتابى الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى ص ٩٥ - ٩٧ ط ١٩٥٨ - القاهرة

(٣) ٢ : ٤١ الطبرى - طبعة الاستقامة

الباب الثاني

النشأة النبوية المطهرة

الفصل الأول

الوليد العظيم

— ١ —

ولد محمد صلى الله عليه وسلم فى بيت كريم ، ومن أبوين كريمين ، وقد مات الأب قبل الميلاد الشريف ، والأم حاملة به صلى الله عليه وسلم (١) .

فلما وضعته أمه أرسلت إلى جده ، عبد المطلب أنه قد ولد لك غلام فأته ، فانظر إليه ، فأتاه ، فنظر إليه ، وحدثته الأم بما رأت حين حملت به ، وبما قيل لها فيه ، وبما أمرت به أن تسميه .

وحمل عبد المطلب الوليد اليتيم ، فدخل به الكعبة ، وقام يدعو الله ويشكر له ما أعطاه .

وعاد بالوليد إلى أمه فدفعه إليها(٢) - ونما صلى الله عليه وسلم ، والتمس جده عبد المطلب له الرضعاء .

---

(١) توفى عبد الله أبو الرسول وهو جمل ، وقيل : توفى بعد ولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهرين ؛ وقيل : توفى بعد ولادة رسول الله بأكثر من شهرين (١ : ٢٢١ العقد الثمين للفاسى .
وقيل إنه توفى بعد أن أتى على رسول الله ٢٨ شهرا (١ : ٥٧٩ الطبرى) .

(٢) وختنه جده عبد المطلب فى اليوم السابع من مولده وصنع له مأدبة (١ : ٣٥ زاد المعاد) تفوق الوصف - وتقول دائرة المعارف الأميريكية عن تاريخ الدعوة الإسلامية وصاحبها تحت كلمة « محمد » فى المجلد التاسع عشر وابتداء من صفحة ٢٩٢ مايلى :
=

فأرضعته حليمة ابنة أبي ذؤيب من سعد بن بكر ، وكان زوجها الحارث ابن عبد العزى من سعد بن بكر بن هوازن ، وكان إخوة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاعة :

عبد الله بن الحارث

أنيسة بنت الحارث

وخذامة بنت الحارث (الشيماء) . والشيماء : اسم شهرت به ، فلا تعرف في قومها إلا به ، ويروى أن الشيماء كانت تحضنه مع أمها ، إذ كان صلى الله عليه وسلم عندهم .

حدثت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية أم رسول الله صلى الله عليه وسلم رضاعاً أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه (١) في نسوة من سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء .

وهي في سنة شهباء ، سنة جدب وقحط لم تبق لها شيئا .

قالت حليمة :

فخرجت على أتان(٢) لي قمراء (٣) ، معنا شارف (٤) لنا ، والله ماتجود

= كان محمد مؤسسا لنظام عقيدة دينية هو الإسلام . وهو الدين الذي يعتنقه اليوم ٢٠٠ ؟ مليون من الناس المنتشرين في آسيا وأفريقيا وجنوب شرقي أوربا وقد ولد في صميم المرحلة المضيئة من التاريخ .

وفي الموسوعة الفرنسية الكبرى « لاروس » ـ المجلد السادس ص ٩٧٦ - ٩٧٧ تحت عنوان محمد، قالت هذه الموسوعة عن رسول الله كلاما كثيرا خلطت فيه الخطأ بالصواب ، والباطل بالحق . كما قالت أيضا تحت كلمة إسلام كلاما كثيرا .

(١) هو عبد الله بن الحارث

(٢) هي أنثى الحمار (٣) بيضاء إلى كدرة (٤) ناقة حسنة

بقطرة ، وما ننام ليلتنا أجمع من صبينا الذى معنا من بكائه من الجوع ، مافى ثديي مايغنيه ، ومـــا فى شارفنا ما يغذيه ، ولـكننا كنا نرجو الغيث والفرج .

فخرجت على أتانى تلك ، فقد أدمت السير بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفا وعجفا .

حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ؛ فمـا منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتأباه ، إذا قيل لها : إنه يتيم ، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى ، فكنا نقول : يتيم ! ! وما عسى أن تصنع أمه وجده ، فكنا نـكره أخذه لذلك .

فمـا بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعا غيرى ، فلما أجمعنا العودة ، قلت لصاحبي ـ زوجى ـ :

والله إنى لأكره أن أرجع بين صواحبي ، ولم آخذ رضيعا ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه .

قال لها زوجها : لاعليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .

قالت : فذهبت إليه ، فأخذته ، وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره ؛ ورجعت به إلى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى جاد ثدياى بما شاءا من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك .

وقام زوجى إلى شارفنا تلك ، فدرت باللبن ، فحلب منها ماشاء ، وشرب وشربت معه ، حتى انتهينا رياً وشبعاً ، فبتنا بخير ليلة .

وأصبحنا فقال لى زوجى : اعلمى ياحليمة أنك أخذت نسمة مباركة .

فقلت له : والله إنى لأرجو ذلك ، وخرجنا ، وركبت أتانى ، وحملت

الطفل عليها معى ، فوالله لقطعت بالركب مسافات مايقدر على قطعها شىء من فواره دوابهم ، حتى إن صواحبى ليقلن لى :

يا ابنة أبى ذؤيب ، ويحك ، اربعى (١) علينا ، أليست هذه أتانك التى كنت قد خرجت عليها .

فأقول لهن : بلى ، والله إنها لهى هى .

فيقلن لى : والله إن لها لشأنا .

وقدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها ، وكانت غنمى تروح على — حين قدمنا به معنا — شباعا فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها فى ضرع ، حتى كان القوم يقولون لرعاتهم : ويلكم ، اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب ، فتروح(٢) أغنامهم جياعا ما تجود بقطرة لبن ، وتروح غنمى شباعا لبناً .

فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتان من حياة الوليد معنا ، وفصلته ، وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان .

فقدمنا به على أمه ، ونحن أحرص شىء على مكثه فينا ، لما كنا نرى من بركته ، فكلمنا أمه ، قلت لها :

لو تركت بنى عندى وقتا أطول فإنى أخشى عليه وباء مكة ، ولم أزل بها حتى ردته معنا ، فرجعنا به .

— ٣ —

هذا هو الطفل العظيم ابن العامين تعود به حليمة إلى وطنها فى بنى سعد بن بكر ، ترعاه ، وتربيه .

---

(١) أى انتظرى علينا .　　(٢) أى تعود من المرعى .

وتقص حليمة قصة جديدة عظيمة ، للطفل العظيم ، فتقول :

والله إنه — بعد مقدمنا بأشهر — مع أخيه عبد الله لفى غنم لنا خلف بيوتنا ، إذ أتانا أخوه يعدو

فقال لى ولأبيه :

ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعاه ، فشقا بطنه .

فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائما منتقع(١) الوجه .

فالتزمته ، والتزمه أبوه

فقلنا له : مالك يابنى ؟

قال :

جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى ، وشقا بطنى ، فالتمسا فيه شيئا لاأدرى ماهو ؟

فرجعنا إلى خبائنا ، وقال لى أبوه :

ياحليمة ، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب ، فألحقيه بأهله، قبل أن يظهر ذلك به .

فاحتملناه ، فقدمنا به على أمه(٢) .

قالت : ماأقدمك به ياحليمة ، وقد كنت حريصة عليه ، وعلى مكثه عندك ؟

---

(١) أى متغير

(٢) قيل : ردته حليمة إلى أمه وهو ابن خمس سنين وشهر ؛ ولم تره بعد ذلك إلا مرتين : بعد زواجه من خديجة ، ويوم حنين .

فقلت: نعم ، قد بلغ الله بابنى ، وقضيت الذى على، وتخوفت الأحداث عليه ، فأديته عليك كما تحبين . .

قالت آمنة لحليمة : ماهذا شأنك ، فأصدقينى خبرك .

فلم تدعنى حتى أخبرتها

قالت آمنة : أفتخوفت عليه الشيطان ؟ قلت : نعم .

قالت : كلا ، والله ماللشيطان عليه من سبيل ، وإن لبنى لشأنا ، أفلا أخبرك خبره ؟

قلت : بلى

قالت : رأيت حين حملت به أنه خرج منى نور أضاء لى قصور بصرى من أرض الشام ؛ ثم حملت به ، فوالله مارأيت من حمل قط كان أخف ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يده بالأرض ، رافع رأسه إلى السماء . دعيه عنك ياحليمة ، وانطلقى راشدة .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

استرضعت فى بنى سعد بن بكر ، فبينا أنا مع أخ لى خلف بيوتنا ، نرعى بهما(١) لنا إذ أتانى رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب ، مملوءة ثلجا ، فأخذانى ، فشقا بطنى واستخرجا قلبى فشقاه ، فاستخرجا منه علقمة سوداء ، فطرحاها ، ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك الثلج ، حتى أنقياه .. ثم قال أحدهما لصاحبه :

زنه بعشرة من أمته

فوزننى بهم فوزنتهم

قال : زنه بمائة من أمته

---

(١) البهم : الغنم الصغار

فوزنني بهم ، فوزنتهم
قال : زنه بألف من أمته ، فوزنني بهم فوزنتهم
فقال: دعه عنك ، فلووزنته بأمته لوزنها(١)

وفى رعى الغنم يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : مامن نبي إلا رعى الغنم ، قيل : وأنت يارسول الله ؟ قال : وأنا(٢) .

---

(١) روى مسلم فى صحيحه عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام ، وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه ، فصرعه ـ أضجعه على ظهره ـ فشق عن قلبه ، فاستخرج القلب واستخرج منه علقة سوداء ، فقال هذا حظ الشيطان ، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده فى مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه حليمة ـ فقالوا : إن محمدا قد قتل ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون ، قال أنس : وكنت أرى أثر ذلك المخيط فى صدره (٢١٦/٢ شرح النووى على مسلم) .

وروى أبو يعلى وأبونعيم الأصبهانى ، وابن عساكر عن شداد بن أوس عن رجل من بنى عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كنت مسترضعا فى بنى سعد بن بكر ، فبينما أناذات يوم فى بطن واد مع أتراب لى من الصبيان إذأنا برهط ثلاثة ، معهم طست من ذهب ملىء ثلجا ، فأخذونى من بين أصحابى ، وانطلق الصبيان هرابا مسرعين إلى الحى . فعمد أحدهم ، فأضجعنى على الأرض اضطجاعا لطيفا ، ثم شق مابين مفرق صدرى إلى منتهى عانتى ، وأنا أنظر إليه لم أجد لذلك مسا ثم غسلها بذلك الثلج .

(٢) وتشير حادثة شق الصدر الشريف إلى انه حدث فى طفولته صلى الله عليه وسلم .

ويروى أنه تكرر غير مرة:

فقد حصل مرة ثانية عند المبعث روى أبو نعيم فى دلائل النبوة أن جبريل وميكائيل عليهما السلام شقا صدره وغسلاه ، ثم قال جبريل له : اقرأ باسم ربك. وحصل مرة ثالثة عند الاسراء والمعراج، روى مسلم فى صحيحه بسنده عن قتادة=

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول لأصحابه : أنا أعربكم ، أنا قرشي ، واسترضعت في بني سعد بن بكر ،

— ٣ —

ويروى أن حليمة السعدية لما قدمت به مكة أضلها في الناس ، وهى مقبلة به نحو أهله ،

فالتمسته فلم تجده

فأتت عبد المطلب ، فقالت له : إني قد قدمت بمحمد هذه الليلة ، فلما كنت بأعلى مكة أضلني ، فوالله ما أدرى أين هو ، فقام عبد المطلب عند الكعبة

= عن أنس عن مالك بن صعصعة قال : قال نبي الله صلى الله عليه وسلم : « بينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلا يقول : أحد الثلاثة بين الرجلين ، فأتيت فانطلق بي ، فأتيت بطست من ذهب فيها من ماء زمزم فشرح صدرى ، إلى كذا وكذا ، قال قتادة . قلت للذى معى ؟ قال: إلى أسفل بطنه ، فاستخرج قلبي فغسل بماء زمزم ، ثم أعيد مكانه ، ثم حشى إيمانا وحكمة .

وحصل شق صدره الشريف مرة رابعة فيما روى عن أبي هريرة قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أول ما رأيت من أمر النبوة ؟ فاستوى جالسا ، وقال : « إني لفي صحراء ابن عشرين سنة وأشهر إذا بكلام فوق رأسى ، وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟ فاستقبلاني بوجوه لم أرها بخلق قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط : وثياب لم أجدها على أحد قط ، فأقبلا إلى يمشيان ، حتى إذا دنيا أخذ كل واحد منهما بعضدى لا أجد لأخذهما مسا . فقال أحدهما لصاحبه: أفلق صدره فهوى أحدهما إلى صدرى ففلقه فيما أرى بلا دم ، ولا وجع، فقال له : أخرج الغل والحسد ، فأخرج شيئا كهيئة العلقة ثم نبذها ، فقال له: أدخل الرأفة والرحمة ، فإذا مثل الذى أخرج شبه الفضة ثم حز إبهام رجلي اليمنى ، وقال : اغد واسلم ، فرجعت أغدو بها رأفة على الصغير ، ورحمة على الكبير .

يدعو الله أن يرده ، فوجده ورقة بن نوفل بن أسد ورجل آخر من قريش ، فأتيا به عبد المطلب ، فقالا له : هذا ابنك وجدناه بأعلى مكة ، فأخذه عبدالمطلب ، فجعله على عنقه وهو يطوف بالكعبة ، يعوذه ، ويدعو له ، ثم أرسل به إلى أمه آمنة (١) .

— ٤ —

ويروى أن نفرا من الحبشة ، من النصارى ، رأوا محمدا مع حليمة السعدية حين رجعت به بعد فطامه ، فنظروا إليه ، وسألوها عنه ، وقلبوه ، ثم قالوا لها : لنأخذن هذا الغلام فلنذهبن به إلى ملكنا وبلدنا ، فإن هذا غلام كائن له شأن ، نحن نعرف أمره ، فلم تكد تنفلت به منهم .

— ٥ —

وعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمه آمنة بنت وهب وجده عبد المطلب بن هاشم فى كلاءة الله وحفظه ، ينبته الله نباتا حسنا ، لما يريد به من كرامته .

— ٦ —

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ست سنين توفيت أمه آمنة بنت وهب بالأبواء بين مكة والمدينة ، وكانت قد قدمت به على أخواله (٢) من

---

(١) هذا وحواضنه صلى الله عليه وسلم : أمه ، ثم حليمة ، والشيماء ابنة حليمة ، وثويبة ، وأم أيمن .

(٢) كانت أم عبد المطلب سلمى بنت عمرو النجارية من بنى عدى من بنى النجار ، ومن هنا كانت خؤولته صلى الله عليه وسلم فى بنى النجار .

وقد توفى عبد الله أبو رسول الله وأمه حامل به ، وأما هشام فقال : توفى —

بنى عدى بن النجار تزيره إياهم ، فماتت وهى راجعة به إلى مكة .

— ٧ —

وعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جده عبد المطلب بن هاشم ، وكان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه ، لايجلس عليه أحد منهم إجلالا له ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى وهو غلام جفر حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبدالمطلب إذا رأى ذلك منهم : دعوا ابنى فوالله إن له لشانا ، ثم يجلسه معه عليه ، ويمسح ظهره بيده ، ويسره مايراه يصنع .

وكانت فاطمة بنت أسد بن هاشم أم على بن أبى طالب وزوجة عمه أبى طالب بمثابة الأم لرسول الله بعد وفاة أمه ، فلقد ربى الرسول فى حجرها

= عبد الله بعد ما أتى على رسول الله ثمانية وعشرون شهرا (١ : ٥٧٩ تاريخ الأمم والملوك الطبرى ـ مطبعة الاستقامة) وقيل : إنه توفى بعد ميلاد رسول الله بشهرين (١ : ٢٢١ العقدالثمين للفاسى) ، ويروى الطبرى أن عبد الله أقبل من الشام فى عير لقريش فنزل بالمدينة وهو مريض فأقام بها حتى توفى ودفن فى دار النابغة فى الدار الصغرى (١/ ٥٧٩ طبرى)ـ وقيل أنه توفى بعد ولادة رسول الله بسبعة أشهر .

وتوفى جده عبد المطلب والرسول ابن ثمانى سنين ، وكان بعضهم يقول : وهو ابن عشر سنين (١ / ٥٧٩ طبرى — وراجع ١ : ٣٢ زاد المعاد) .

وفى وفاة أم رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الفاسى فى كتاب العقد الثمين (١ : ٢٢٢) : ماتت أم رسول الله صلى الله عليه وسلم وله أربع أو ست أو سبع سنوات ، وقيل : وله ست سنوات ومائة يوم (راجع ١ : ٣٢ زاد المعاد) ودفنت بالأبواء .

وقيل إن قبر آمنة فى شعب أبى ذر بمكة ١ : ٥٧٩ الطبرى .

وهو ابن ثمان سنين ، وكان يجعلها أما له ، ولما توفيت كفنها رسول الله بقميصه .

وقال الزبير بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه وهو صبي :

محمد بن عبد م
عشت بعيش أنعم
ودولة ومغنم
في فرع عز أسنم
مكرم معظم
دام سجيس الأزلم (١)

— ٨ —

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثماني سنين توفي جده عبد المطلب، وذلك بعد الفيل بثماني سنين ، أي عام ٥٧٩ م (٢) .

ورثته ابنته صفية بقصيدة طويلة فمنها :

فلو خلد امرؤ لقديم مجد ولكن لاسبيل إلى الخلود
لكان مخلدا أخرى الليالي بفضل المجد والحسب التليد

وقالت ابنته برة بنت عبد المطلب من قصيدة :

له فضل مجد على قومه منير يلوح كضوء القمر

وقالت عاتكة ترثي أباها من قصيدة :

وسيف لدى الحرب صمصامة ومردي المخاصم عند الخصام

(١) أي أبد الدهر ـ الأمالي ٢ : ١١٧

(٢) وقيل إنه توفي ولرسول الله ست أو عشر سنوات ١ : ٣٢ زاد المعاد .

وقالت أم حكيم ترثى أباها من قصيدة :

ألا ياعين جودى واستهلى   وبكى ذا الندى والمكرمات
وبكى خير من ركب المطايا   أباك الخير تيار الفرات

وقالت أميمة تبكى أباها من قصيدة طويلة :

سقاك ولى الناس فى القبر ممطرا   فسوف أبكيه وإن كان فى اللحد
فقد كان زينا للعشيرة كلها   وكان حميداً حيثما كان من حمد

وقالت أروى ترثى أباها من قصيدة :

وكان هو الفتى كرما وجودا   وبأسا حين تنسكب الدماء

وقال الشاعر حذيفة بن غانم يرثى عبد المطلب من قصيدة طويلة :

طوى زمزما عند المقام فأصبحت   سقايته فخرا على كل ذى فخر
ليبك عليه كل عان بكربة   وآل قصى من مقل وذى وفر

وولى زمزم والسقاية عليها بعد عبد المطلب ابنه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ من أحدث إخوته سنا ، فلم تزل إليه ،حتى قام الإسلام وهى بيده ، فأقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم له على ما مضى من ولايته .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أنا أعربكم ، أنا قرشى ، واسترضعت فى بنى سعد بن بكر[1] .

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ : ١٧٨

الفصل الثاني

الغلام الجليل

— ١ —

وكفل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد عبد المطلب عمه أبو طالب ، وكان عبد المطلب فى حياته يوصى به أباطالب ، لأن أباطالب ووالد رسول الله ـ وهو عبد الله ـ أخوان لأب وأم ، أمهما فاطمة المخزومية .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد جده ، مع عمه أبى طالب .

وقدم مكة رجل ذو فراسة من لهب فأتاه رجال قريش بأبنائهم ينظر إليهم ، فأتى أبو طالب بمحمد وهو غلام ، فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم شغله عنه شاغل فلما فرغ ، قال : أين الغلام ، ايتونى به ، فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه عنه ، فجعل الرجل يقول : ويلكم ، ايتونى بالغلام الذى رأيت من قبل ، فوالله ليكونن له شأن . .

— ٢ —

وخرج أبو طالب فى قافلة تجارية إلى الشام ، وسافر معه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمه أبو طالب يقول : والله لأخرجن به معى ، ولا يفارقنى ولا أفارقه أبدا . وسنه إذ ذاك صلى الله عليه وسلم تسع سنين كما يقول الطبرى (٢ / ٣٣) ، أو اثنتا عشرة كما يقول ابن القيم فى زاد المعاد (١ / ٣٢) .

فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام ، وبها راهب مسيحى يقال له

بحيرى فى دير له ، نزلوا به ، وكانوا كثيرا مايمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم .

فلما نزلوا به قريبا من ديره صنع لهم طعاما كثيرا ، ويروى أنه شاهد الركب قادما وهو فى صومعته ، وفوق الرسول غمامة تظلله من بين القوم ، ونزل الركب فى ظل شجرة فتدلت أغصانها على رسول الله .

فلما رأى ذلك بحيرى خرج من صومعته ، وأمر بصنع طعام للركب ، ثم أرسل إليهم ، وقال :

يامعشر قريش ، قد صنعت لكم طعاما وإنى داعيكم إلى مأدبتى : صغيركم وكبيركم ، عبدكم وحركم .

فقال رجل من الركب : والله يابحيرى ، إن لك لشأنا اليوم ، ما كنت تصنع هذا بنا ، وقد كنا نمر بك كثيرا ، فما شأنك اليوم .

قال له بحيرى : صدقت ، قد كان ماتقول ولكنكم ضيف ، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما ، فتأكلوا منه .

فاجتمعوا إليه ، وتخلف رسول الله من بين القوم لحداثة سنة [1] ، ومكث فى رحال القوم تحت الشجرة، فقال بحيرى لهم : لاينبغى أن يتخلف أحد منكم عن طعامى :

قالوا له : يابحيرى ، ماتخلف عنك أحد ينبغى له أن يأتيك إلا غلاما ، وهو أحدث القوم سنا .

---

(١) يبدو لى أن تخلفه صلى الله عليه وسلم كان لسبب آخر هو خوف أبى طالب عليه ، من بحيرى ، وكان لبحيرى نفوذه وسلطانه ، يستطيع بهما أن يصنع مايشاء له هواه من مكائد بهذا الغلام العظيم ، أو أن يدس له السم فى طعامه .

فقال له : ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم .

فقال له رجل من قريش ؛ واللات والعزى أن كان للؤم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا (١) ، ثم مال إليه ، فأتى به وأجلسه مع القوم ؛ فلما رآه بحيرى جعل يلحظه ، وينظر إليه ، فلما فرغوا من الطعام ، وقف بحيرى يتحدث مع ذلك الغلام الصغير ، قال له :

ياغلام ، أسألك بحق اللات والعزى التى تعبدونها إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه .

فرد عليه رسول الله : لاتسألنى باللات والعزى شيئا . فوالله ماأبغضت شيئا قط بغضهما .

فقال له بحيرى : فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه .

فقال له صلى الله عليه وسلم : سلنى عما بدا لك ، فجعل يسأله عن أشياء من حاله : من نومه ، وهيئته ، وأموره .

فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره ، فيوافق ذلك ماعند بحيرى من صفته .

ثم أقبل بحيرى على أبى طالب ، فقال له : ماذا تكون من هذا الغلام ؛ قال : هو ابنى ، قال له بحيرى : ماهو بابنك فما حال أبيه ؟ قال أبو طالب له : مات وأمه حبلى به . قال : صدقت ، فارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه اليهود ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلاده . ، فأنجز أبو طالب شئونه ، وعاد به سريعا إلى مكة : وقيل أن

---

(١) ذلك دليل على أنه لم يكن فى القافلة غلام غيره ، وعلى أن ذلك القرشى لايعرف مقصد أبى طالب من ذلك .

أبا طالب بعث برسول الله إلى مكة مع بعض غلمانه (١) .

— ٣ —

وشب رسول الله صلى الله عليه وسلم والله تعالى يكلؤه ويحفظه ، ويحوطه ، ويرعاه ، ويحميه من أقذار الجاهلية ؛ لما يريد به من كرامته ورسالته .

(١) ١ : ٣٢ زاد المعاد لابن القيم .

الفصل الثالث

الشاب الإنسان

— ١ —

بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم مبلغ الشباب ، فصار أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأحسنهم جوارا ، وأعظمهم حلما ، وأصدقهم حديثا ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التى تدنس الشباب، من كرم الحسب ، وعراقة المحتد ، وعظمة النجار .

وصار يلقب فى قريش بالأمين ، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة .

وكان يمتنع عن كثير من أمور الجاهلية تكرما وتنزها ، ويحفظه الله من كثير من أخلاقها اصطفاء وتكريما وإعدادا إلهيا لرسالة السماء .

ويحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان الله يحفظه به فى صغره وأمر جاهليته ، فيقول :

لقد رأيتنى فى غلمان قريش ننقل حجارة لبعض مايلعب به الغلمان ، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة ؛ فإنى لأقبل معهم كذلك وأدبر ، إذ لكمنى لاكم ، ما أراه لكمة شديدة ، وقال لى : شد عليك إزارك .

فأخذت الإزار وشددته على ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى ، وإزارى على من بين أصحابى .

- ٢ -

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة ، أو خمس عشرة سنة ، هاجت حرب الفجار (١) بين قريش ومن معها من كنانة ، وبين قيس عيلان ، وشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أيامها ، أخرجه أعمامه معهم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كنت أنبل على أعمامى » ، أى أرد عنهم نبل عدوهم إذا رموهم بها .

وقال ابن إسحاق (٨٥ - ١٥٢ هـ) : هاجت حرب الفجار ورسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عشرين سنة ؛ وكان قائد قريش وكنانة حرب بن أمية بن عبد شمس ، وكان الظفر فى أول النهار لقيس على كنانة ، حتى إذا كان فى وسط النهار كان الظفر لكنانة على قيس .

- ٣ -

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة تزوج خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى .

وكانت خديجة امرأة تاجرة ، ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال فى مالها ، وكانت قريش قوماً تجارا .

فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها ، من صدق حديثه ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ؛ بعثت إليه ، فعرضت عليه أن يخرج فى مال

---

(١) سميت حرب الفجار لأنها كانت فى الشهر الحرام ، وهى أربع حروب ، هذه آخرها وكانت عام ٥٨٥ م ويقول الطبرى : إن حرب الفجار نشبت والرسول ابن العشرين (٢ / ٤١ طبرى طبعة الاستقامة) .

لها إلى الشام تاجرا ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار ، مع غلام لها يقال له ميسرة ؛ فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرج فى مالها ، وخرج معه ميسرة ، حتى قدم إلى الشام .

ويحدث ميسرة عن غرائب هذه الرحلة : فيقول نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ظل شجرة قريبا من صومعة راهب من الرهبان ، فاطلع الراهب إلى ميسرة ، وقال له : من هذا ؟ قال له ميسرة : هذا رجل من قريش من أهل الحرم ، قال الراهب : مانزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى .

وباع رسول الله صلى الله عليه وسلم سلعته التى خرج بها ، واشترى لها ما أراد أن يشترى ، وقفل راجعا إلى مكة ، ومعه ميسرة ، ويقول ميسرة: إنه كانت الهاجرة ، واشتد الحر ، يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره . وذكر ذلك لخديجة غلامها ميسرة ، فذكرت لورقة بن نوفل ، وكان ابن عمها ، ذلك ، من قول الراهب ، وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظلانه ، فقال ورقة: لئن كان هذا حقا يا خديجة إنه لنبى هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى ينتظر ، هذا زمانه .

فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ماجاء به ، فبلغ ضعف ثمن شرائه أو نحو ذلك ، وحدثها ميسرة بما رأى وما سمع ، وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة ، مع ما أراده الله بها من كرامته ، فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها ، بعثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت له : ياابن عمى ، إنى قد رغبت فيك لقرابتك ، ولطفك (١) فى قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك .

---

(١) أى شرفك .

وكانت خديجة(١) يومئذ أوسط نساء قريش نسبا ، وأعظمهن شرفا ، وأكثرهن مالا .

فوافق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرض الأمر على أعمامه ، فخرج معه حمزة بن عبد المطلب ، حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه فتزوجها .

وأصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين بكرة وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت .

فولدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولده كلهم إلا إبراهيم : القاسم، وبه كان يكنى صلى الله عليه وسلم ، والطاهر ، والطيب ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة عليهم(٢) السلام . فأما القاسم والطيب فماتوا فى الجاهلية ، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام ، فأسلمن ، وهاجرن معه صلى الله عليه وسلم . وأما إبراهيم فأمه مارية أهداها إليه المقوقس .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى خديجة : آمنت بى

---

(١) أبوها خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى وأمها فاطمة بنت زائدة ابن الأصم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤى .

وأم فاطمة هى هالة بنت عبد مناف بن الحرث بن عمرو بن منقذ بن عمرو بن معيص بن عامر بن لؤى .

(٢) توفيت بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة أو ستة أشهر ، وعمرها أربع أو خمس أو ثمان أو تسع وعشرون سنة ، وولدت وقريش تبنى الكعبة .

وتزوج بها على بعد عرس عائشة بأربعة أشهر ونصف ، وفاطمة يومئذ بنت خمس عشرة سنة وخمسة أشهر ونصف والفاطمة يومئذ خمس عشرة سنة وخمسة أشهر ونصف، وكان دخول الرسول بعائشة فى شوال بعد بدر فى السنة الثانية من الهجره .

إذ كفر بى الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس وآستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد إذا حرمنى أولاد النساء(١) .

(١) يقول فيها الذهبى فى « سير أعلام النبلاء » : أم المؤمنين وسيدة نساء العالمين فى زمانها ، أم القاسم ، القرشية الأسدية ، : أم أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأول من آمن به وصدقه قبل كل أحد ، ومناقبها جمة ، وهى ممن كمل من النساء ، وعم خديجة ، عمرو بن أسد ، زوجها بالنبى صلى الله الله عليه وسلم ومات أبوها قبل الفجار ، وعن ابن عباس : أن النبى صلى الله عليه وسلم تزوجها وهى بنت ثمان وعشرين سنة ، وكانت تدعى فى الجاهلية الطاهرة ، وأمها : فاطمة بنت زائدة العامرية . وكانت خديجة أولا تحت أبى هالة بن زرارة التميمى ، ثم خلف عليها بعده عتيق بن عائذ بن عبد الله المخزومى ، ثم بعده النبى صلى الله عليه وسلم فبنى بها وله خمس وعشرون سنة ، وكانت أسن منه بخمس عشرة سنة وتوفيت عن خمس وستين سنة ، وذلك بعد موت أبى طالب بثلاثة أيام ، قال ابن إسحاق : تتابعت على رسول الله المصائب بهلاك أبى طالب وخديجة . وكانت وزيرة صدق ، ووجد رسول الله صلى الله عليه وسلم على خديجة حتى خشى عليه حتى تزوج عائشة . وقال صلى الله عليه وسلم : خديجة سابقة نساء العالمين إلى الإيمان بالله وبمحمد (٨١/٢ — ٨٦ سير أعلام النبلاء للذهبى) .

والزبير بن بكار المتوفى عام ٢٥٦ هـ كتاب « أزواج النبى » وهو مخطوط فى المكتبة الظاهرية بدمشق (فهرس ص ٧١) .

وأول أولاد رسول الله منها : عبد الله ، ثم زينب ، ثم القاسم ، ثم الطاهر ، ثم المطهر ، ثم رقية ، ثم أم كلثوم ، ثم الطيب ، ثم المطيب ، ثم فاطمة ، وماتت خديجة قبل الهجرة بثلاث سنوات ، ومات القاسم والطاهر قبل النبوة . وزوج زينب من أبى العاص بن الربيع ، وأم كلثوم من عتيبة بن أبى لهب ، فطلقها ، بعد أن نبىء رسول الله ، فتزوجها عثمان ، فولدت له عبد الله ، فلما بلغ ست سنين ماتت والنبى ببدر ، وتزوج على فاطمة فى السنة الثانية من الهجرة — ص ٩٢ الأوائل .

والصحيح أن التى توفيت والرسول فى بدر هى رقية وتزوج بعــدها عثمان أم كلثوم بنت رسول الله — وراجع « السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين » للطبرى المتوفى سنة ٦٩٤ هـ

الفصل الرابع

صفة رسول الله

وصف أنس بن مالك له(١) :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ليس بالطويل البائن(٢)
ولا بالقصير
وليس بالأبيض الأمهق (٣)
ولا بالآدم (٤)
ولا بالجعد القطط (٥)
ولا بالسبط(٦)
بعثه الله عز وجل على رأس أربعين .

وصف على بن أبي طالب لرسول الله :

كان على بن أبي طالب إذا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :
لم يكن بالطويل الممغط(٧)

---

(١) ٢ : ١٧٤ و ١٧٥ مختصر صحيح مسلم للمنذرى .
(٢) المسرف في الطول .
(٣) الشديد البياض .
(٤) هو الأسمر .
(٥) أى الشديد الجعودة كشعر أهل السودان .
(٦) أى ليس فيه تكسر كشعر أكثر أهل الروم .
(٧) الممتد . وقيل : الممغط أى المضطرب الخلق .

ولا بالقصير المتردد

كان ربعة من القوم

ولم يكن بالجعد القطط(١)

ولا السبط(٢)

كان جعدا ، رجلا(٣)

ولم يكن بالمطهم(٤)

ولا المكلثم(٥)

وكان أبيض مشربا

أدعج العينين (٦)

أهدب الأشفار(٧)

جليل المشاش(٨) ، والكتد (٩)

دقيق المسربة(١٠)

أجرد (١١)

---

(١) القطط : جعودة الشعر ، وقيل هو الحسن الجعودة

(٢) الممتد الأعضاء .

(٣) هو الذى بين شديد الجعودة وشديد السبوطة

(٤) العظيم الجسم .

(٥) المستدير الوجه فى صغر

(٦) أى أسودهما .

(٧) أى طويل الأشفار ، وهى حرف الجفن

(٨) هو عظام رءوس المفاصل

(٩) ما بين الكتفين .

(١٠) هى الشعر الممتد من الصدر حتى السرة

(١١) أى قليل شعر الجسم

شثن الكفين والقدمين(١)

إذا مشى تقلع (٢) ، كأنما يمشى فى صبب(٣)

وإذا التفت التفت معا

بين كتفيه خاتم النبوة

وهو خاتم النبيين

أجود الناس كفا

وأجرأ الناس صدرا

وأصدق الناس لهجة (٤)

وأوفى الناس ذمة(٥)

وألينهم عريكة(٦)

وأكرمهم عشرة

من رآه بديهة(٧) هابه

ومن خالطه أحبه

يقول ناعته(٨) : لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم(٩)

---

(١) أى غليظهما .

(٢) أى لم يثبت قدميه .

(٣) أى فى موضع منحدر .

(٤) كناية عن صدقه صلى الله عليه وسلم

(٥) أى عهدا .

(٦) هى لحم ظهر البعير ، وهذا كناية عن سهولة الأخلاق واطف لمعاشرة

(٧) أى ابتداء .

(٨) أى واصفه .

(٩) تروى برواية أخرى مقاربة (٤٢٥و٤٢٦ /٢ الطبرى - طالاستقامة)

وصف ابن أبى هالة خال الحسين بن على لرسول الله :

كان فخما مفخما ، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر

أطول من المربوع ، وأقصر من المشذب(١)

عظيم الهامة ، رجل الشعر(٢)

أزهر اللون(٣) ، واسع الجبين

أزج الحواجب(٤) سوابغ من غير قرن(٥) بينهما

أقنى العرنين(٦) ، له نور يعلوه ويحسبه من لم يتأمله

أشم(٧) ، كث اللحية ، أدعج(٨) سهل الخدين

ضليع الفم ، أشنب(٩) ، مفلج الأسنان(١٠)

دقيق المسربة (١١) ، كأن عنقه جيد دمية فى صفاء الفضة

معتدل الخلق ، بادنا ، متماسكا ، سواء البطن والصدر(١٢)

---

(١) هو البائن الطول فى نحافة.

(٢) كأنه مشط فتكسر قليلا ليس بسبط ولا جعد .

(٣) أى نير اللون ، أوحسنه .

(٤) مقوسها طويلها وافر الشعر .

(٥) هو اتصال شعر الحاجبين .

(٦) هو الأنف المرتفع وسطه .

(٧) هو الطويل قصبة الأنف .

(٨) هو الشديد سواد الحدقة .

(٩) الشنب : رونق الأسنان وماؤها أو رقتها وتحزز فيها .

(١٠) الفلج : فرق بين الثنايا .

(١١) خيط الشعر الذى بين الصدر والسرة .

(١٢) أى مستويهما .

مشيح الصدر (١) ، بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس (٢) ، أنور المتجرد ، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجرى كالخط . عارى الثديين ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر طويل الزندين ، رحب الراحة ، شثن (٣) الكفين والقدمين ، سائل (٤) الأطراف ، سبط العصب ، خمصان الأخمصين (٥) ، مسيح القدمين (٦) ينبو عنهما الماء ذريع ، المشية (٧) ، إذا مشى كأنما ينحط من صبب (٨) .

وصف ابن مسعود لرسول الله :

عن زيد بن وهب ، قال ، قال عبد الله بن مسعود :

إن أول شيء علمته من أمر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، : قدمت مكة ، مع عمومة لى ، أو أناس من قومى ، نبتاع منها متاعا ، وكان فى بغيتنا شراء عطر ، فأرشدونا إلى العباس ، فانتهينا إليه ، وهو جالس إلى زمزم ، فجلسنا إليه .

فبينا نحن عنده ، إذ أقبل رجل من باب الصفا أبيض ، تعلوه حمرة ،

---

(١) من الإشاحة وهى الإقبال فى أحد معانيها ، ولعله مسيح بالسين أى عريض

(٢) هى رؤوس العظام

(٣) أى ممتلىء

(٤) أى طويل الأصابع . ورحب الراحة أى واسعها

(٥) أى متجافى أخمص القدم وهو الموضع الذى لاتناله الأرض من وسط القدم

(٦) أى أملسهما

(٧) اى واسع الخطو برفق وبعد عن مشية الخيلاء

(٨) هو المكان المرتفع

له وفرة جعدة إلى أنصاف أذنيه

أشم ، أقنى ، أذلف

أدعج العينين ، براق الثنايا

دقيق المسربة

شثن الكفين والقدمين

كث اللحية

عليه ثوبان أبيضان

كأنه القمر ليلة البدر

يمشى على يمينه غلام حسن الوجه

مراهق أو محتلم

تقفوهم امرأة قد سترت محاسنها

حتى قصد نحو الحجر ، فاستلم ، ثم استلم الغلام ، واستلمت المرأة ، ثم طاف بالبيت سبعا ، وهما يطوفان معه ، ثم استقبل الركن ، فرفع يده وكبر وقام ، ثم ركع ، ثم سجد ، ثم قام ، فرأينا شيئا أنكرناه لم نكن نعرفه بمكة فأقبلنا على العباس ، فقلنا :

يا أبا الفضل ، إن هذا الدين حدث فيكم أو أمر لم نكن نعرفه ؟

قال العباس :

أجل ، والله ما تعرفون هذا

هذا ابن أخى ، محمد بن عبد الله

والغلام على بن أبى طالب

والمرأة خديجة بنت خويلد ، امرأته

أما والله ، ما على وجه الأرض أحد يعبد الله بهذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة (١) .

وصف أم معبد لرسول الله :

وقد مر بها فى طريقه إلى المدينة.. ظاهر الوضاءة (٢) ، أبلج الوجه (٣)، حسن الخلق ، لم تعبه ثجلة (٤) ، ولم تزر به صعلة (٥) ، وسيم قسيم (٦) ، فى عينيه دعج ، وفى أشفاره وطف (٧) ، وفى صوته صحل (٨) ، سطع (٩) ، أحور (١٠) ، أكحل (١١) ، أزج (١٢) ، أقرن (١٣)، شديد سواد الشعر. إذا

---

(١) ص ٣٣٣ ج ١ سير أعلام النبلاء للذهبى - وهذا الحديث قريب من حديث عفيف الذى رواه الجاحظ فى رسائله ، ورواه الطبرى أيضا (٢ : ٥٦ الطبرى - مطبعة الاستقامة) ، وقد أسلم على وهو ابن عشر سنين على ما يروى الطبرى (٢ : ٥٧) .

وابن مسعود هو الصحابى الجليل ، الهذلى ، المهاجرى ، البدرى ، حليف بنى زهرة ، هاجر إلى الحبشة ، ثم عاد وهاجر إلى المدينة ، كان معدودا من أذكياء العلماء ، وتوفى عام ٣٣ هـ فى خلافة عثمان رضى الله عنه ، عن بضع وستين سنة (٣٢١ - ٣٥٧ ج ١ سير أعلام النبلاء للذهبى) .

(٢) الوضاءة : الجمال والحسن والنظافة

(٣) مشرق الوجه مسفره

(٤) ضخامة البطن

(٥) دقة ونحول فى الجسم

(٦) أخذ كل عضو قسمه من الجمال

(٧) الأشفار : أهداب العين . الوطف : الطول

(٨) ليس بحاد الصوت .

(٩) هو الطول والارتفاع

(١٠) شديد بياض العين

(١١) شديد سواد أشفار العين

(١٢) دقيق الحاجبين

(١٣) يكاد شعر حاجبيه يتصل

صمت علاه الوقار ، وإن تكلم علاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد ، وأحسنه وأحلاه من قريب ، حلو المنطق ، فصل ، لا نزر ولا هذر ، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن ، ربعة . لا تقتحمه عين من قصر ، ولا تشنؤه من طول ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدرا ، له رفقاء يحفون به ، إذا قال استمعوا لقوله ، وإذا أمر تبادروا إلى أمره ، محفود (١) محشود ، لا عابس ولا مفند (٢) يحشد الناس ويجتمعون له .

وجاء زوجها فقالت له : مر بنا رجل مبارك - ١٣٩ و ١٤٠ / ٢ زاد المعاد .

بعض أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال البراء :

ما رأيت من ذي لمة في حلة حمراء أحسن من رسول الله .

وقال أبو هريرة :

ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن الشمس تجري في وجهه .

وقالت أم معبد في بعض ما وصفت به رسول الله : أجمل الناس من بعيد ، وأحلاه وأحسنه من قريب .

وفي حديث ابن أبي هالة :

يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر .

---

(١) أي يخدمه أصحابه

(٢) أي غير مكذب ، أو المعنى يخرج كلامه مخرج الصحة والصواب

هكذا كان رسول الله

— ١ —

عن أبى الحمساء قال :

بايعت رسول الله ببيع قبل أن يبعث ، وبقيت له بقية ، فوعدته أن آتيه بها فى مكانه ، فنسيت ، ثم ذكرت بعد ثلاث ، فجئت ، فإذا هو فى مكانه ، فقال :

يافتى لقد شققت على ، أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك (١) .

— ٢ —

عن عائشة أم المؤمنين ، قالت :

ماغرت على امرأة ماغرت على خديجة ، لما كنت أسمعه يذكرها ، وإن كان ليذبح الشاة فيهديها إلى خلائلها ، واستأذنت عليه أختها وارتاح إليها ، ودخلت عليه امرأة فهش لها وأحسن السؤال عنها ، فلما خرجت قال : إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن حسن العهد من الإيمان .

— ٣ —

عن عمرو بن السائب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا يوما فأقبل أبوه من الرضاعة فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه ، ثم أقبلت أمه فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه ، ثم أقبل أخوه من الرضاعة فقام صلى الله عليه وسلم فأجلسه بين يديه . . وكان يبعث إلى ثويبة

---

(١) ٧٤ الشفاء ـ الحلبى ـ القاهرة ـ ١٩٥٠

مولاة أبي لهب مرضته بصلة وكسوة ، فلما ماتت سأل من بقي من قرابتها فقيل : لا أحد [١] .

- ٤ -

وعن الحسن بن علي قال : سألت خالي هند بن أبي هالة عن حلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان وصافا ، وأنا أرجو أن يصف لي منها شيئا أتعلق به ، قال :

كان رسول الله فخما مفخما ، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر . . خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه . ويبدأ من لقيه بالسلام .

قلت : صف لي منطقه .

قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، ولا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكوت ، يتكلم بجوا مع الكلم فصلا لافضول فيه ولا تقصير ، دمثا ليس بالجافي ولا المهين ، يعظم النعمة وإن دقت ، لايذم شيئا ، لم يكن يذم ذواقا ولا يمدحه ، ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدث اتصل بها فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه ، جل ضحكه التبسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام [٢] .

- ٥ -

شاع قبيل ميلاد رسول الله أن نبيا يبعث ، اسمه محمد ، فسمي قوم قليل

(١) ٧٥ الشفاء .   (٢) ٩١ - ٩٣ الشفاء .

من العرب أبناءهم بذلك ، رجاء أن يكون أحدهم هو ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وهم :

١ — محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسى
٢ — محمد بن مسلمة الأنصارى
٣ — محمد بن براء البكرى
٤ — محمد بن سفيان بن مجاشع
٥ — محمد بن حمران الجعفى
٦ — محمد بن خزاعى السلمى

ولا سابع لهم ، ويقال : أول من سمى محمدا هو محمد بن سفيان . واليمن تقول : بل محمد بن اليحمد الأزدى من الأزد (١) .

ثم حمى الله كل من تسمى به أن يدعى النبوة ، أو يدعيها أحدله ، أو يظهر عليه سبب يشكك أحدا فى أمره ، حتى تحققت السمتان له صلى الله عليه وسلم ، ولم ينازع فيهما (٢) .

— ٦ —

وفد ضماد على رسول الله فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله .

فقال ضماد : أعد على كلماتك هؤلاء ، فقد بلغن قاموس البحر ، هات يدك أبايعك (٣) .

---

(١) أى هو السابع
(٢) ١٤٥ الشفاء
(٣) ١٥٩ الشفاء

— ٧ —

ووصف رسول الله واصف ، فقال : رأيت وجه رجل مثل القمر ليلة البدر[١] .

وعن عروة عن عائشة أم المؤمنين أنها كانت تقول :

والله يا ابن أختى إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ، ثلاثة أهلة فى شهرين ، وما أوقد فى أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار ؛ قال عروة : قلت : ياخالة فما كان يعيشكم ؟ قالت : الاسودان التمر والماء ، إلا أنه قد كان لرسول الله جيران من الأنصار ، وكانت لهم منائح[٢] ، فكانوا يرسلون إلى رسول الله من ألبانها ، فيسقيناه[٣] .

رسول الله يتحدث

— ١ —

لما نشأت بغضت إلى الأوثان ، وبغض إلى الشعر . ولم أهم بشىء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين ، فعصمنى الله منهما ، ثم لم أعد[٤] .

وعن على عن رسول الله قال :

ما هممت بشى ، مما كان أهل الجاهلية يعملونه به غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بينى وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوء حتى أكرمنى الله

---

(١) ١٥٩ الشفاء
(٢) نوق وشياه تمنحون النبى من ألبانها .
(٣) ص ٣١١ ج ٢ المنذرى : مختصر صحيح مسلم .
(٤) ٥٨ الشفاء

برسالته . . قلت ليلة لغلام كان يرعى معى : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب ، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة سمعت عزفا بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم ، فجلست أنظر ، فضرب على أذنى ، فنمت ، ما أيقظنى إلا مس الشمس ، فرجعت ولم أقض شيئا . . ثم عرانى مرة أخرى مثل ذلك ، ثم لم أهم بعد ذلك بسوء(١) .

— ٢ —

وعن عائشة أم المؤمنين ، قالت ، قال لى رسول الله : إنى عرض على أن يجعل لى بطحاء مكة ذهبا ، فقلت : لا يارب ، أجوع يوما وأشبع يوما: فأما اليوم الذى أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك ، وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك(٢)

— ٣ —

وعن على قال سألت رسول الله عن سنته ، فقال : المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضاء غنيمتى ، والعجز فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خلقى ، وقرة عينى فى الصلاة(٣) ، وثمرة فؤادى فى ذكره ، وغمى لأجل أمتى ، وشوقى إلى ربى عز وجل .

— ٤ —

من رواية ابن وهب أنه صلى الله عليه وسلم قال ، قال الله تعالى :

---

(١) ٨٠ المرجع (٢) ٨٢ الشفاء
(٣) ٨٦ المرجع .

سل يا محمد :

فقلت : ما أسأل يارب ، اتخذت ابراهيم خليلا ، وكلمت موسى تكليما ، واصطفيت نوحا ، وأعطيت سليمان ملكا لا ينبغى لأحد من بعده .

فقال الله تعالى : ما أعطيتك خير من ذلك .. أعطيتك الكوثر .

وجعلت اسمك مع اسمى ينادى به فى جوف السماء .

وجعلت الأرض طهوراً لك ولأمتك .

وغفرت لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ، فأنت تمشى فى الناس مغفورا لك ، ولم أصنع ذلك لأحد قبلك .

وجعلت قلوب أمتك مصاحفها .

وخبأت لك شفاعتك ، ولم أخبأها لنبى غيرك(١)

— ٥ —

وقال نفر من أصحاب رسول الله : يارسول الله أخبرنا عن نفسك .

قال : نعم . .

أنا دعوة أبى إبراهيم .

وبشر بى عيسى .

ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاء له قصور بصرى من أرض الشام .

واسترضعت فى بنى سعد بن بكر ، فبينا أنا مع أخ لى خلف بيوتنا ، نرعى بهما لنا ، إذ جاءنى رجلان ، عليهما ثياب بيض — وفى حديث آخر : ثلاثة رجال — بطست من ذهب مملوءة ثلجا ، فأخذانى ، فشقا بطنى ،

(١) ١٠١ الشفاء .

ثم استخرجا منه قلبي فشقاه ، فاستخرجا منه علقه سوداء فطرحاها ، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه ؛ ثم تناول أحدهما شيئا ، فإذا بخاتم في يده من نور ، يحار الناظر دونه ، فختم به قلبي ، فامتلأ إيمانا وحكمة: ثم أعاده مكانه أو أمر الآخر يده على مفرق صدري (١) فالتأم . .
ثم ضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي وما بين عيني ثم قالوا : ياحبيب لم ترع إنك لو تدري ما يراد بك من الخير لقرت عيناك ، ما أكرمك على الله، إن الله معك وملائكته .

— ٦ —

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن الله عز وجل تابع الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته حتى توفي(٢)

— ٧ —

عن عبد الله بن زيد بن عاصم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

إن ابراهيم حرم مكة ودعا لأهلها ، وإني حرمت المدينة كما حرم ابراهيم مكة ؛ وإني دعوت في صاعها ومدها بمثل ما دعا به إبراهيم لأهل مكة (٣)

— ٨ —

وفي حديث (٤) عن البراء بن عازب يصف أبو بكر الصديق جانبا من مسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في هجرته إلى أن قدم عليهما سراقة بن مالك .

---

(١) ١٠٣ المراجع (٢) ١ : ٢٥ مختصر صحيح مسلم للمنذري
(٣) ١ : ٢٠٢ المرجع نفسه (٤) ٢ : ٦٩ المرجع نفسه

— ٩ —

عن ابن مسعود قال : بينما رسول الله يصلى عند البيت ، وأبو جهل وأصحاب له جلوس ، وقد نحرت جزور بالأمس ، فقال أبو جهل : أيكم يقوم إلى سلا (١) جزور بنى فلان فيأخذه فيضعه فى كتفى محمد إذا سجد ، فانبعث أشقى القوم ، فأخذه ، فلما سجد النبى وضعه بين كتفيه ، فاستضحكوا ، وجعل بعضهم يميل على بعض ، وأنا قائم أنظر ، لو كانت لى منعة طرحته عن ظهر رسول الله ، والنبى ساجد مايرفع رأسه ، حتى انطلق إنسان ، فأخبر فاطمة ، فجاءت وهى جويرية ، فطرحته عنه ، ثم أقبلت عليهم تشتمهم ، فلما قضى النبى صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم ، وكان إذا دعا دعا ثلاثا ، وإذا سأل سأل ثلاثا ، ثم قال : اللهم عليك بقريش ثلاث مرات ، فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك ، وخافوا دعوته ، ثم قال : اللهم عليك بأبى جهل بن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأمية بن خلف (٢) .

— ١٠ —

وخطب رسول الله بعد إمامته للأنبياء فى بيت المقدس ليلة أسرى به فقال :

كلكم أثنى على ربه ، وأنا أثنى على ربى .

الحمد لله الذى أرسلنى رحمة للعالمين ، وكافة للناس ، بشيرا ونذيرا .

وأنزل على الفرقان فيه تبيان كل شىء .

وجعل أمتى خير أمة ، وجعل أمتى أمة وسطا ، وجعل أمتى هم الأولون وهم الآخرون .

---

(١) هى اللفافة يكون فيها الولد

(٢) ٢ : ٧٣ و ٧٤ مختصر صحيح مسلم للمنذرى .

وشرح لى صدرى ، ووضع عنى وزرى ، ورفع لى ذكرى ، وجعلنى فاتحا وخاتما (١) .

— ١١ —

وعن عائشة (٢) أنها قالت لرسول الله : يارسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ فقال : لقد لقيت من قومك ، وكان أشد مالقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ماأردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى ، فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى ، فقال : إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال ، لتأمره بما شئت فيهم ، قال : فنادانى ملك الجبال ، وسلم علىّ ، ثم قال : يامحمد إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثنى ربك لتأمرنى بأمرك ، فما شئت ؟ ، فقال رسول الله : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لايشرك به شيئا .

---

(١) ١٠٩ و ١١٠ الشفاء .

(٢) ٢ : ٧٢ المرجع السابق

الباب الثالث

إرهاصات النبوة — البعثة المحمدية

الفصل الأول

الرجل الحكيم

— ١ —

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وثلاثين سنة ، أجتمعت قريش لبنيان الكعبة ، وكانوا يهمون بذلك ليسقفوها ، ويهابون هدمها ، وإنما كانت فوق القامة ؛ فأرادوا رفعها ، وتسقيفها . وذلك أن نفرا سرقوا كنزا للكعبة ، وإنما كان يكون فى بئر فى جوف الكعبة ، وكان الذى وجد عنده الكنز مولى لبنى مليح من خزاعة ، فقطعت قريش يده .

فلما أجمعوا أمرهم فى هدمها وبنائها ، قام أبو وهب المخزومى (١) ، فقال :

يامعشر قريش ، لاتدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيبا ، لايدخل فيه مهر بغى ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس .

ثم إن الناس هابوا هدمها ، وفرقوا منه ، فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدؤكم فى هدمها ، فأخذ المعول ، ثم قام عليها قائلا : اللهم إنا لانريد إلا الخير ثم هدم من ناحية الركنين ، فتربص الناس تلك الليلة ، فأصبح الوليد غاديا على عمله ، فهدم وهدم الناس .

ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، ثم بنوها ، حتى بلغ البنيان موضع الركن ـ الحجر الأسود ـ فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن

(١) هو خال والد رسول الله (ص)

ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، ثم تحاوروا وتحالفوا وأعدوا للقتال ؛ فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسا .

ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد ، وتشاوروا وتناصفوا ، فقال أبو أمية المخزومى ، وكان عندئذ أسن قريش كلها :

يامعشر قريش ، اجعلوا بينكم - فيما تختلفون فيه - أول من يدخل من باب هذا المسجد (١) يقضى بينكم فيه ، ففعلوا فكان أول داخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد .

وكانت قريش تسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبل أن ينزل عليه الوحى ، : الأمين .

فلما انتهى إليهم أخبروه الخبر فقال صلى الله عليه وسلم : هلم إلى ثوبا ، فأتى به .

فأخذ الركن (٢) ، فوضعه فيه بيده ، ثم قال :

لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا ، ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه .

فلما فرغوا من البنيان ، وبنوها على ما أرادوا ، قال الزبير بن عبد المطلب : .

وقمنا حاشدين إلى بناء ... لنا منه القواعد والتراب
فبوأنا المليك بذاك عزا ... وعند الله يلتمس الثواب

وكانت الكعبة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانى عشرة

---

(١) هو باب بنى شيبة (باب السلام اليوم)
(٢) أى الحجر الأسود - وكان ذلك والرسول فى الخامسة والثلاثين من عمره .

ذراعا ، وكانت تكسى القباطى (١) ، ثم كسيت البرود (٢) ، وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف الثقفى المتوفى عام ٩٣ هـ .

— ٢ —

وكانت الأحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى ، والكهان من العرب ، قد تنبأوا بقرب ظهور رسول من العرب .

فالأحبار والرهبان عرفوه من كتبهم ، وأما الكهان فتنبوءاتهم من إلهام الإنسان المتجردة روحه عن المادة .

فلما قرب زمن ظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقارب مبعثه الشريف ، كثرت النبوءة برسول من العرب يبعث برسالة من السماء .

ولندع سلمان الفارسى يقص قصته قال :

كنت رجلا فارسيا من أهل أصبهان ، وكان أبى دهقان (٣) قريته ، وكنت أحب خلق الله إليه ، فلم يزل به حبه إياى حتى حبسنى فى بيته كما تحبس الجارية ، واجتهدت فى المجوسية ، وكانت لأبى ضيعة عظيمة ، فخرجت أريد ضيعته ، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى ، فدخلت أنظر ما يصنعون ، فلما رأيتهم أعجبتنى صلاتهم ، ورغبت فى الدخول فى دينهم ، وقلت : هذا والله خير من الدين الذى نحن عليه .

وقلت لهم : أين أصل هذا الدين ؟ قالوا : بالشام فرجعت إلى أبى ،

---

(١) ثياب بيض كانت تصنع بمصر .

(٢) ثياب كانت تصنع باليمن - هذا وكان أبو جهم بن حذيفة القرشى ممن بنى البيت فى الجاهلية ، ثم عمر حتى فيه مع ابن الزبير (٢ : ٤٠٠ سير أعلام النبلاء).

(٣) أى شيخ ورئيس القرية ... وراجع قصة إسلام سلمان الفارسى فى (٢٦٢ - ٤٠٥ / ١ سيرة ابن هشام) - وتوفى سلمان عام ٣٣ هـ بالمدائن .

وقصصت عليه القصة فقال : أى بنى ليس فى ذلك الدين خير ؛ دينك ودين آبائك خير منه ، قلت له : كلا ، والله إنه لخير من ديننا .

فخافنى فجعل فى رجلى قيدا ، ثم حبسنى فى بيته .

فألقيت الحديد من رجلى ، وخرجت مع ركب تجار من الشام من النصارى ، حتى قدمت معهم الشام ، فلما قدمتها جئت إلى الكنيسة ، فقلت للأسقف(١) إنى قد رغبت فى هذا الدين ، فأحببت أن أكون معك ، وأخدمك فى كنيستك ، فأتعلم منك ، وأصلى معك .

قال : ادخل . فدخلت

وكان رجل سوء ، يأخذ أموال الكنيسة لنفسه ، فأبغضته بغضا شديدا لما رأيته يصنع ، ثم مات ، فأخبرت النصارى بأمره ، فصلبوه ورجموه بالحجارة ، وجاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه ، فما رأيت رجلا أفضل منه ، وأزهد فى الدنيا ، وأرغب فى الآخرة .

فأحببته حبا شديدا ، فأقمت معه زمانا ، ثم حضرته الوفاة .

فقلت له : إلى من توصى بى ، وبم تأمرنى ؟

قال : أى بنى ، هلك الناس ، وبدلوا ، وتركوا أكثر ما كانوا عليه ، إلا رجلا بالموصل ، وهو فلان ، فالحق به .

فلما مات لحقت بصاحب الموصل ، وأخبرته بأمرى ، فقال لى : أقم عندى ، فأقمت ، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه ، فلم يلبث أن مات ، فلما حضرته الوفاة ، قلت له : إلى من توصى بى ، وبم تأمرنى ! قال : يا بنى ، رجل بنصيبين ، وهو فلان ، الحق به .

---

(١) هو رئيس الكنيسة .

فلحقت بصاحب نصيبين ، فأخبرته خبرى ، فقال : أقم عندى ، فأقمت ، فوجدته على أمر صاحبه ، فوالله مالبث أن نزل به الموت ، فقلت له: إلى من توصى بى ، وبم تأمرنى ؟ قال : يابنى ، رجل بعمورية من أرض الروم ، الحق به ، فلحقت به ، فأقمت عند خير رجل على هدى أصحابه وأمرهم ، ثم حضرته الوفاة .

فقلت له : إلى من توصى بى ، وبم تأمرنى ؟ قال : يابنى ، قد أظل زمان نبى ، وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام ، يخرج بأرض العرب ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل ، ثم مات ؛ ومر بى نفر من كلب تجار ، فقلت لهم : احملونى إلى أرض العرب ، وأعطيكم بقراتى هذه وغنمى .

قالوا : نعم

وحملونى معهم ، فلما بلغوا وادى القرى ظلمونى ، فباعونى من رجل يهودى عبداً ، فكنت عنده ، فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بنى قريظة بالمدينة ، فابتاعنى منه ، فاحتملنى إلى المدينة ، فأقمت بها ، حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فلما بلغ قباء جئته ، ثم تحول إلى المدينة فجئته ، ثم لقيته فقصصت عليه حديثى .

وشغل سلمان الرق ، فلم يشهد بدرا ولا أحدا ، ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : كاتب ياسلمان ، فكاتبت وقال رسول الله لأصحابه : أعينوا أخاكم ، وعتق سلمان ، فشهد مع رسول الله الخندق حرا ، ثم لم يفته منها مشهد .

- ٣ -

واجتمع أربعة نفر من قريش ، فقال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض ، وهم :

١ — ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى .

٢ — وعبيد الله بن جحش بن رئاب ، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب .

٣ — وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى بن قصى .

٤ — وزيد بن عمرو بن نفيل من كعب بن لؤى .

فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله ماقومكم على شيء ، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ، ماحجر نطيف به لايسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، ياقوم التمسوا لأنفسكم فإنكم والله ماأنتم على شيء ، فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم .

فأما ورقة فاستحكم فى النصرانية . وقرأ الكتب ، وسمع من أهل التوراة والإنجيل .

وأما ابن جحش فأقام على ماهو عليه من الالتباس حتى أسلم ، ثم هاجر إلى الحبشة ، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان مسلمة ، فلما قدمها تنصر وفارق الإسلام ، ومات هنالك نصرانيا ، وتزوج رسول الله أم حبيبة ، بعث فيها الرسول عمرو بن أمية الضمرى فخطبها عليه النجاشى ، فزوجه إياها وأصدقها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة دينار ، وكان الذى زوجها النبي خالد بن سعيد بن العاص .

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم ، فتنصر وحسنت منزلته عنده .

وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف ، فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية،

وفارق دين قومه ، وقال: أعبد رب إبراهيم ، وكان يسند ظهره إلى الكعبة ، وهو يقول : يامعشر قريش ، والذى نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبرهيم غيرى ، ثم يقول : اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ، ولكن لا أعلمه ، ثم يسجد على راحته ، وقال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه يبعث أمة وحده ، وزيد هو القائل :

أربا واحدا أم ألف رب ... أدين إذا تقسمت الأمور
تركت اللات والعزى جميعا ... كذلك يفعل الجلد الصبور

والقائل أيضا :

وإياك لاتجعل مع الله غيره ... فإن سبيل الرشد أصبح باديا
رضيت بك اللهم ربا فلن أرى ... أدين إلها غيرك الله ثانيا

وكان شيخا كبيرا مسندا ظهره إلى الكعبة وهو يقول : ويحكم يامعشر قريش ، إياكم والزنا ، فإنه يورث الفقر .

وكان الخطاب بن نفيل عمه وأخاه لأمه يعاتبه على فراق دين قومه ، وكان زيد يستقبل الكعبة ويقول : « لبيك حقا حقا ، تعبداً ورقا ، عذت بما عاذ به إبراهيم » ، وأخرجه الخطاب إلى أعلى مكة ، فنزل حراء ، فكان لايدخل مكة إلا سرا ، إذ أخرجوه وآذوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم ، وأن يتابعه أحد منهم . ثم خرج يطلب دين إبراهيم ، حتى بلغ الموصل والجزيرة ، وجال الشام كلها ، ولقى راهبا ، فسأله عن الحنيفية[1] فقال له :

---

(١) يقول الله تعالى :

إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ، ولم يك من المشركين .. شاكرا لأنعمه، اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا ، وماكان من المشركين (١٢٠ - ١٢٣ سورة النحل) :

قد أظل زمان نبي يخرج من بلادك التي خرجت منها ، يبعث بدين إبراهيم فالحق بها . فإنه مبعوث الآن هذا زمانه ، فخرج يريد مكة ، فقتل في الطريق وكان يقول :

وأسلمت وجهي لمن أسلمت   له الأرض تحمل صخرا ثقالا
دحاها فلما استوت شدها   سواء ، وأرسى عليها الجبالا

وابنه سعيد بن زيد توفي عام ٥١ هـ ، عن بضع وسبعين سنة ، وهو من العشرة المبشرين بالجنة .

* * *

وقبيل البعثة بقليل نشبت حرب ذي قار ، وسببها أن كسرى حبس النعمان الثالث ملك الحيرة (٥٨٠ — ٦٠٢ م) ، وولى مكانه إياس ابن قبيصة الطائي (٦٠٢ — ٦١١ م) ، وطلب منه كسرى أن يجمع أموال النعمان ، ويرسلها إليه ، فأرسل إياس إلى هانىء بن مسعود يطلب مااستودعه النعمان ، فأبى ، فغضب كسرى ، وأشار عليه أحد أعداء بكر بن وائل أن ينتظر ريثما ينزلون مياه ذي قار في وقت القيظ ، فلما نزلوها بعث إليهم من يخيرهم بين الحرب أوتسليم ماخافه النعمان ، فآثروا الحرب ، وقاد ابن قبيصة الفرس والعرب ، وفرق هانىء سلاح النعمان في رجاله ، وقامت الحرب ، وفيها ثبت العرب للفرس ، وانهزم الفرس على كثرة عددهم ، وهذا أول يوم انتصر العرب فيه على الفرس ، وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبي نصروا »

= هذا ـ وكان أبو الهيثم بن التيهان الأوسي يكره في الجاهلية الأصنام ، ويقول بالتوحيد هو وأسعد بن زرارة ، وتوفي أبو الهيثم عام ٢٠هـ ، وكان أول من أسلم بمكة من الأنصار هو وأسعد بن زرارة (١ : ١٣٩ سير أعلام النبلاء)

الفصل الثانى

البعثة النبوية الشريفة

— ١ —

لما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أربعـــين سنة بعثه الله تعـالى رحمة للعالمين .

وأول مابدىء به رسول الله الرؤيا الصادقة ، فكان لايرى رؤيا فى نومه إلا جاءت كفلق الصبح ، وحبب الله تعالى إليه الخلوة ، فلم يـكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده .

وحين أراده الله بـكرامته ، كان إذا خرج لحاجته أبعد ، فلا يمر صلى الله عليه وسلم بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يارسول الله،فيلتفت رسول الله فلا يرى إلا الشجر والحجر .

ثم جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء فى شهر رمضان .

— ٢ —

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحنث فى حراء من كل سنة شهرا ، وكان ذلك مما تتحنث به قريش فى الجاهلية ، فاذا انصرف كان أول مايبدأ به الـكعبة قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعا .

حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله تعالى به فيه ماأراد من كرامته ، من السنة التى بعثه الله تعالى فيها ؛ وذلك الشهر شهر رمضان [١] .

---

(١) كان نزول الرسالة يوم الاثنين التاسع من ربيع الأول عام ١٣ ق . هـ ـ ٩ من فبراير عام ٦١٠ م على مايرجحه بعض الباحثين .

ففيه خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حراء ، كما كان يخرج لجواره ، ومعه أهله ، حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته ، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فجاءنى جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب ، فقال :

اقرأ

قلت : ما أنا بقارىء

فغطنى [1] حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى

فقال : اقرأ

قلت : ما أنا بقارىء

فغطنى حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى .

فقال : اقرأ

قلت : ماذا أقرأ ؟

فغطنى حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى .

فقال : اقرأ

فقلت : ماذا أقرأ ؟

فقال : اقرأ باسم ربك ، الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم .

فقرأتها ، ثم انتهى ، فانصرف عنى .

وهببت من نومى . فكأنما كتبت فى قلبى ، فخرجت حتى إذا كنت فى

---

(١) أى عصرنى عصرا شديدا .

وسط الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يامحمد ، أنت رسول الله ، وأنا جبريل .

فرفعت رأسى إلى السماء أنظر

فاذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء ، يقول : يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل .

فوقفت أنظر إليه ، فما أتقدم ولا أتأخر ، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء ، فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفا ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى ، حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى،فبلغوا أعلى مكة ، ورجعوا إليها ، وأنا واقف فى مكانى ذلك ؛ ثم انصرف عنى ، وانصرفت راجعا إلى أهلى ، حتى أتيت خديجة ، فجلست إلى فخذها .

فقالت يا أبا القاسم ، أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا .

ثم حدثتها بالذى رأيت ، فقالت :

أبشر يابن عم ، واثبت ، فو الذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة .

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى ورقة ، وهو ابن عمها ، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى وسمع .

فقال ورقة : قدوس ، قدوس ، والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى ياخديجة لقد جاءه الناموس الأكبر (١) الذى كان يأتى موسى وإنه

(١) جبريل عليه السلام ، وكان نزول جبريل يوم الإثنين لسبع من رمضان وقيل لسبع عشرة مضت ، وروى عن أبى هريرة أنه كان فى السابع والعشرين

لنبي هذه الأمة ، فقولي له : فليثبت ، فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته بقول ورقة .

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره في حراء ، وانصرف إلى مكة ، صنع كما كان يصنع ، بدأ بالكعبة فطاف بها ، فلقيه ورقة ، وهو يطوف بالكعبة ، فقال : يابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له ورقة :

والذي نفسي بيده ، إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى .

ثم انصرف رسول الله إلى منزله .

فابتدىء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتنزيل في شهر رمضان ، يقول الله عز وجل :

«شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى الناس ، وبينات من الهدى والفرقان» .

= من رجب ، وقال ابن عمر : لثمان عشرة من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل .

وكانت سن الرسول حين جاءته الرسالة أربعين (٢ / ٤٢ الطبرى) ، وقيل جاءته الرسالة وهو ابن الثالثة والأربعين (٢ / ٤٣ الطبرى) .

ويقول الطبرى : نزل القرآن لثانى عشرة ليلة خلت من رمضان يوم الإثنين وقيل لأربع وعشرين ليلة خلت من رمضان (٢٤ / ٢ الطبرى - طبعة الاستقامة) .

ويقول ابن القيم فى كتابه «زاد المعاد» : إن البعثة كانت لثمان من ربيع الأول من سنة ٤١ من عام الفيل (١ : ٣٣ زاد المعاد) .

ـ ٣ ـ

وهكذا نزل الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مؤمن بالله ، مصدق بما جاءه منه ، قد قبله بقبوله ، وتحمل منه ماحمله ، على رضاء العباد وسخطهم .

والنبوة أثقال ومؤونة ، لايحملها ، ولا يستطيع القيـــام بها ، إلا أهل القوة والعزم من الرسل ، بعون الله وتوفيقه تعالى ، لما يلقون من الناس .

فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله ، على مايلقى من قومه من الخلاف والأذى .

آمنت به خديجة ، وصدقت بما جاءه من الله ، ووازرته على أمره .

وكانت أول من آمن بالله ، وبرسوله ، وصدق بما جاء منه ، فخفف الله بذلك عن نبيه ، صلى الله عليه وسلم ، لايسمع شيئا مما يكرهه من رد عليه ، وتكذيب له ، فيحزنه ذلك ، إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها . تثبته وتخفف عليه ، وتصدقه ، وتهون عليه أمر الناس .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب (١) .

ـ ٤ ـ

ثم فتر الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة من ذلك ، حتى شق ذلك عليه ، فأحزنه ، فجاءه جبريل بسورة الضحى .

---

(١) هو اللؤلؤ المجوف .

والضحى

والليل إذا سجا

ماودعك ربك وماقلى (١)

والآخرة خير لك من الأولى

ولسوف يعطيك ربك (٢) فترضى

ألم يجدك يتيما فآوى

ووجدك ضالا (٣) فهدى

ووجدك عائلا (٤) فأغنى

فأما اليتيم فلا تقهر

وأما السائل فلا تنهر

وأما بنعمة ربك فحدث

فجعل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يذكر ما أنعم الله به عليه وعلى العباد به ، من النبوة ، سرا ، إلى من يطمئن إليه من أهله .

وافترضت عليه الصلاة .

فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأول ماافترضت عليه ، ركعتين ركعتين كل صلاة .

---

(١) أى ماهجرك وتركك .

(٢) من الظفر والنصر ورضاء الله وتأييده .

(٣) يطلب الدين الحق وينشره ، وفكره موزع فى طلبه .

(٤) فقيرا .

ويروى أن جبريل أتاه ، وهو بأعلى مكة ، فهمز له بعقبه فى ناحية الوادى ، فانفجرت منه عين ، فتوضأ جبريل ، عليه السلام ، ثم توضأ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كما رأى جبريل توضأ . ثم قام به جبريل فصلى به ، وصلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بصلاته ، ثم انصرف جبريل عليه السلام .

فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة ، فتوضأ كما أراه جبريل ، فتوضأت كما توضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم صلى بها رسول الله ، كما صلى به جبريل ، فصلت بصلاته .

— ٥ —

ثم كان أول من آمن به من الذكور وصلى معه ، وصدق بما جاءه من الله تعالى ، على بن أبى طالب ، وهو ابن عشر سنين يومئذ (١) ، وكان مما أنعم الله به على على أنه كان فى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام ، أصابت قريشا قبل الإسلام أزمة شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيال كثير ، فقال رسول الله للعباس عمه ، وكان من أيسر بنى هاشم : ياعباس ، إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ماترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا إليه ، فلنخفف عنه من عياله ، آخذ من بنيه رجلا ، وتأخذ أنت رجلا فنكفلهما عنه .

قال العباس : نعم

فانطلقا ، حتى أتيا أبا طالب ، فقالا له : إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك ، حتى ينكشف عن الناس ماهم فيه .

---

(١) راجع ٢ / ٥٧ الطبرى . قيل : أسلم وهو ابن أربع عشرة سنة ، وقيل ابن إحدى عشرة سنة ، وقيل : خمس عشرة سنة .

فقال لهم أبو طالب : إذا تركتما لى عقيلا فاصنعا ماشئتما .

فأخذ رسول الله عليا فضمه إليه

وأخذ العباس جعفرا ، فضمه إليه

فلم يزل على مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبيا ، فاتبعه على وآمن به ، وصدقه .

ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم ، واستغنى عنه .

وكان رسول الله إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة ، وخرج معه على مستخفيا من أبيه أبى طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه . فيصليان الصلوات فيها ، فإذا أمسيا رجعا ، فمكثا كذلك ماشاء الله أن يمكثا (١) .

---

(١) أمامنا صورة لبدء الإسلام رواها الجاحظ فى رسائله ، وفى كتابه « العثمانية » عن عفيف بن قيس الكندى ، قال :

كنت فى الجاهلية عطارا ، فقدمت مكة : فنزلت على العباس بن عبد المطلب ، فبينما أنا جالس عنده ، أنظر إلى الكعبة ، وقد تحلقت الشمس فى السماء ، أقبل شاب كأن فى وجهه القمر ، حتى رمى ببصره إلى السماء ، فنظر إلى الشمس ساعة ، ثم أقبل حتى دنا من الكعبة ، فصف قدميه يصلى .

فخرج على إثره فتى كأن وجهه صفيحة يمانية ، فقام عن يمينه .

فجاءت امرأة متلففة فى ثيابها ، فقامت خلفهما .

فأهوى الشاب راكعا ، فركعا معه .

ثم أهوى إلى الأرض ساجدا ، فسجدا معه .

فقلت للعباس : يا أبا الفضل ، أمر عظيم .

فقال : أمر — والله — عظيم .

أتدرى من هذا الشاب ؟

قلت : لا .

قال : هذا ابن أخى ، محمد بن عبد الله .

=

ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوما وهما يصليان فقال لرسول الله :

ما هذا الدين الذى أراك تدين به . قال :

أى عم ، هذا دين الله ، ودين ملائكته ، ودين رسله ، ودين أبينا إبراهيم .

بعثنى الله به رسولا إلى العباد .

وأنت — أى عم — أحق من بذلت له النصيحة ، ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابنى إليه ، وأعاننى عليه .

= أتدرى من هذا الفتى ؟ قلت : لا

قال : هذا ابن أخى على بن أبى طالب :

أتدرى من المرأة ؟ قلت : لا

قال : هذه ابنة خويلد ، هذه خديجة زوج محمد هذا ، وإن محمدا هذا يذكر أن إلهه — إله السماء والأرض — أمره بهذا الدين ، فهو عليه كما ترى ، ويزعم أنه نبى ، وقد صدقه على قوله : على ابن عمه هذا الفتى ، وزوجه خديجة هذه المرأة . .

روى ذلك الجاحظ فى رسائله ، ورواه الطبرى كذلك (٥٦/٢)

هذا وعلى أول من أسلم من المهاجرين ، ومعاذ بن عفراء أول من أسلم من الأنصار ، وأول من بايع رسول الله بيعة الرضوان هو سنان الأسدى (ج ١٧٠ الأوائل) وأول من جمع بالمدينة أسعد بن زرارة ج ١٧٢ المرجع نفسه — وأول من أفشى القرآن بمكة عبد الله بن مسعود (ج ١٧٣ المرجع) — وأول من استشهد فى الإسلام الحارث بن أبى هالة ، وأول من أتى أرض الحبشة حاطب بن عمر ، وأول من دفن بالبقيع عثمان بن مظعون ج ١٧٤ المرجع ، وأول من قدم من المهاجرين إلى المدينة أبو سلمة وأول من بايع رسول الله ليلة العقبة البراء بن معرور — ١٧٥ المرجع — وأول من أذن فى الإسلام بلال ، وأول مولود فى الإسلام قبل الهجرة عبد الله بن عمر ١٧٧ المرجع ، وأول مولود بالمدينة وبعد الهجرة عبد الله بن الزبير وأول مولود ولد من الأنصار بعد الهجرة النعمان بن بشير .

فقال أبو طالب :

أى ابن أخى . . إننى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص إليك بشئ تكرهه ما بقيت .

ويروى أنه قال لعلى : أى بنى ، ما هذا الدين الذى أنت عليه ؟

قال : يا أبتى ، آمنت بالله ، وبرسول الله ، وصدقته بما جاء به ، وصليت معه لله ، واتبعته .

فقال لابنه :

أما إنه لم يدعك إلا إلى خير ، فالزمه . .

ثم أسلم زيد بن حارثة الكلبى ، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أول ذكر أسلم وصلى بعد على بن أبى طالب ، وكان حكيم بن حزام ابن خويلد ، ابن أخى خديجة ، قدم من الشام برقيق ، فيهم زيد ، فدخلت عليه عمته خديجة ، وهى يومئذ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : اختارى يا عمة أى هؤلاء الغلمان شئت فهو لك ، فاختارت زيدا ، فأخذته ، فرآه رسول الله عندها فاستوهبه منها فوهبته له فأعتقه رسول الله ، وتبناه ، وذلك قبل أن يوحى إليه . وكان أبو زيد قد جزع عليه جزعا شديدا ، وبكى عليه حين فقده ، وقدم مكة يبحث عنه وهو عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله : إن شئت فأقم عندى وإن شئت فانطلق مع أبيك » .

فقال : بل أقيم عندك ، فلم يزل عند رسول الله حتى بعثه الله ، فصدقه ، وأسلم ، وصلى معه ، وزوجه رسول الله من ابنة عمه أميمة بنت عبد المطلب ، وهى زينب بنت جحش الأسدية ، ولما طلقها تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذى القعدة من عام خمس من الهجرة ، وهى يومئذ بنت خمس وعشرين ، وتزوج زيد أم أيمن حاضنة رسول الله فولدت له أسامة ، ومات أسامة فى آخر خلافة معاوية .

الباب الرابع

الجهاد في سبيل تبليغ رسالة الله

الفصل الأول

الدعوة إلى الإسلام

— ١ —

شمر رسول الله فى سبيل الجهاد من أجل تبليغ رسالة الله..دعا أبا بكر ابن أبى قحافة من تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ، واسمه عتيق لحسن وجهه وعتقه ، دعاه إلى الإسلام فأسلم .

ولما دخل فى دين الله أظهر إسلامه ، ودعا إلى الله وإلى رسوله .

وكان أبو بكر رجلا مؤلفاً لقومه ، محبباً سهلا ؛ وكان أنسب قريش لقريش(١) وأعلم قريش بها ، وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروف .

وكان رجال قومه يأتونه ، ويألفونه لغير واحد من الأمر : لعلمه ، وتجارته ، وحسن مجالسته .

فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ، ممن يغشاه ، ويجلس إليه .

فأسلم بدعائه :

١ — عثمان بن عفان .

٢ — الزبير بن العوام بن خويلد (توفى عام ٣٦ هـ عن ٦٤ عاما) .

---

(١) يروى أن جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف بن قصى كان من أجب قريش لقريش وللعرب قاطبة ، وكان يقول : إنما أخذت النسب من أبى بكر ، وكان أبو بكر الصديق أنسب العرب (سيرة ابن هشام ١ : ٨ بتحقيق محمد محى الدين عبد الحميد) .

٣ — عبد الرحمن بن عوف (٤٢ ق هـ — ٣٢ هـ) .

٤ — سعد بن أبي وقاص أسلم وهو ابن سبع عشرة سنة ومات عام ٥٥ هـ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه : هذا خالي ، لأن آمنة أم الرسول زهرية وهي ابنة عم أبي وقاص .

٥ — طلحة بن عبيد الله (توفي عام ٣٦ هـ عن ٦٢ عاما)
لجاءبهم إلى رسول الله ، حين استجابوا له ، فأسلموا وصلوا .

٦ — ثم أسلم أبو عبيدة بن عبد الله بن الجراح ، واسمه عامر (ت ١٨ هـ عن ٥٨ سنة)

٧ — وأبو سلمة بن عبد الأسد (٤ هـ) وامرأته أم سلمة .

٨ — والأرقم بن أبي الأرقم .

٩ — وعثمان بن مظعون (٣ هـ) .

١٠ و ١١ — وأخواه : قدامة وعبد الله بن مظعون .

١٢ — وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف .

١٣ — وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل .

١٤ — وامرأة سعيد : فاطمة بنت الخطاب أخت عمر .

١٥ — وأسماء بنت أبي بكر[1] .

١٦ — وعائشة بنت أبي بكر ، وهي يومئذ صغيرة[2] .

---

(١) هي والدة عبد الله بن الزبير ، وكانت أسن من عائشة ببضع عشرة سنة، شهدت اليرموك مع زوجها الزبير بن العوام ، قتل ابنها عبد الله بن الزبير في ١٧ جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ وماتت بعده بسبعة أيام (٢ : ٢٠٨ - ٢١٤ سير أعلام النبلاء).

(٢) ذكرها مع السابقين الأولين إلى الإسلام - مع ما روى من أنها =

١٧ — وخباب بن الأرت حليف بنى زهرة بن كلاب وهو من بنى تميم، ويقال : من خزاعة .

١٨ — وعمير بن أبى وقاص ، أخو سعد .

١٩ — وعبد الله بن مسعود حليف بنى زهرة[1] .

٢٠ — ومسعود بن القارى ، من القارة .

٢١ — وسليط بن عمرو .

٢٢ — وأخوه حاطب بن عمرو .

٢٣ — وعياش بن أبى ربيعة .

٢٤ — وامرأته أسماء التيمية .

٢٥ — وخنيس بن حذافة السهمى .

٢٦ — وعامر بن ربيعة ، حليف آل الخطاب ، وهو من عنز بن وائل .

٢٧ — وعبد الله بن جحش .

٢٨ — وأخوه أبو أحمد وهما حليفا بنى أمية بن عبد شمس .

٢٩ — وجعفر بن أبى طالب .

٣٠ — وامرأته أسماء بنت عميس ،

٣١ — وحاطب بن الحارث .

= هاجرت وهى فى التاسعة من عمرها مما يجعل ميلادها بعد البعثة بأربع سنين يدل على أن تقدير سن عائشة هذا التقدير ليس موضع يقين .

(١) عبد الله بن مسعود الهذلى المكى المهاجرى البدرى حليف بنى زهرة ، معدود من أذكياء العلماء ، وكان من أوائل من جهروا بالقرآن فى مكة بعد رسول الله ، ويقول ابن مسعود : قرأت على رسول الله ، سبعين سورة ، وعاش بضعا وستين سنة وتوفى عام ٣٢ هـ (٣٣١ — ٣٥٧ / ١ سير أعلام النبلاء) .

٣٢ — وامرأته فاطمة .

٣٣ — وأخوه حطاب بن الحارث .

٣٤ — وامرأة حطاب : فكيهة بنت يسار .

٣٥ — ومعمر الحارث .

٣٦ — والمطلب بن أزهر .

٣٧ — وامرأته رملة .

٣٨ — والنحام . نعيم بن عبد الله بن أسيد ، أخو بنى عدى بن كعب ابن لؤى .

٣٩ — وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر .

٤٠ — وخالد بن سعيد بن العاص .

٤١ — وامرأته أمينة من خزاعة .

٤٢ — وحاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود .

٤٣ — وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة(١) .

٤٤ — وواقد بن عبد الله ، حليف عدى بن كعب ، جاءت به باهلة ، فباعوه من الخطاب بن نفيل ، فتبناه .

٤٥ - ٤٨ - وخالد وعامر وعاقل وإياس ، حلفاء بنى عدى بن كعب .

٤٩ — وعمار بن ياسر حليف بنى مخزوم ، وهو من مذحج، وفى هجرته إلى الحبشة شك ، قتل فى « معركة صفين » .

٥٠ — وصهيب بن سنان حليف بنى تيم ، ويقال إنه مولى عبد الله بن

---

(١) مات عام ١٢ هـ فى يوم اليمامة عن ٥٣ عاما (١/١١٨و١١٩ سير أعلام النبلاء) .

جدعان ، ويقال : إنه رومى — وقيل : كان أسيرا فى أرض الروم فاشترى منهم ، توفى عام ٣٨ ﻫ عن ٨٤ سنة

٥١ — عتبة بن غزوان ، من المهاجرين إلى الحبشة ، وقد أسلم سابع سبعة فى الإسلام شهد وابدرا ولمشاهد (١)

— ٢ —

ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالا ، من الرجال والنساء ، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة ، وتحدث الناس به .

ثم إن الله عزوجل أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يصدع بما جاءه منه ، وأن ينادى الناس بأمره ، وكان بين ماأخفى رسول الله أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه .

قال الله تعالى لرسوله :

ـ فاصدع[٢] بما تؤمر (١٥ : ٩٤) ،

ـ وأنذر عشيرتك الأقربين (٢٦ : ٢١٤) .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلوا ذهبوا فى الشعاب واستخفوا بصلاتهم من قومهم ، فبينا سعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين ، وهم يصلون ، فناكروهم وعابوا عليهم مايصنعون ، حتى قاتلوهم فضرب سعد بن أبى وقاص يومئذ رجلا من المشركين ، فشجه ، فكان أول دم أريق فى الإسلام .

---

(١) هو الذى اختط البصرة ومات عام ١٧ ﻫ عن ٥٧ سنة (١ : ٢٢١ و٢٢٢ سير أعلام النبلاء) .

(٢) أى افرق بين الحق والباطل .

فلما نادى رسول الله قومه بالإسلام، وصدع به كما أمره الله. لم يبعدوا منه ولم يردوا عليه، حتى ذكر آلهتهم وعابها .

فلما فعل ذلك أعظموه ؛ وناكروه وأجمعوا عداوته، إلا من عصمه الله تعالى منهم بالإسلام، وهم قليل مستخفون .

وحدب على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه أبو طالب، ومنعه، وقام دونه، ومضى رسول الله على أمر الله، مظهراً لأمره لا يرده عنه شيء .

فلما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ماض فى طريقه، ورأوا أن عمه قد حدب عليه، وقام دونه، تحيروا فى أمرهم لايدرون ماذا يفعلون، ولكنهم مضوا فى طريقهم من مقاومة الرسول، وإعلان العداوة للدين الذى أتى به .

الفصل الثانى

قريش تقاوم الإسلام

— ١ —

مضت قريش فى غلوائها ، تحارب وحى الله ، ورسول الله .

ومشى رجال من أشراف قريش ؛ فيهم : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، واسمه صخر ، وأبو البحترى العاص بن هشام ، والأسود بن المطلب ، وأبو جهل (عمرو) بن هشام ، والوليد بن المغيرة ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، والعاص بن وائل ، فقالوا :

يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل مانحن عليه من خلافه ، فنكفيكه .

فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا ، وردهم ردا جميلا ، فانصرفوا عنه ، ومضى رسول الله على ماهو عليه ، يظهر دين الله ، ويدعو إليه .

— ٢ —

وتفاقم الأمر بينه وبينهم ، وكثرت الخصومات والعداوت فى قريش ، وأكثرت قريش من تناول رسول الله بالشر ، وحض بعضهم بعضا عليه .

ثم إنهم مشوا إلى أبى طالب مرة أخرى ، فقالوا له : ياأبا طالب ، إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وإنك لم تنه ابن أخيك عنا ، وإنا والله لانصبر على هذا ، من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، فأما أن تكفه

عنا ، أو ننازله ، وإياك فى ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين ، ثم انصرفوا عنه . فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله لهم .

وبعث أبو طالب إلى رسول الله ، فقال له يا ابن أخى :

إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا ، فأبق على وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعم .

والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ماتركته .

ثم استعبر رسول الله ، فبكى ، ثم قام فلما ولى ناداه أبو طالب ، فقال : أقبل يا ابن أخى فأقبل عليه رسول الله .

فقال : اذهب يا ابن أخى فقل ماأحببت ، فوالله لاأسلمك لشىء أبدا .

— ٣ —

وعرفت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله .

فمشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة ، فقالوا له : ياأبا طالب .

هذا عمارة أنهد (١) فتى فى قريش ، وأجمله ، فخذه ، فلك عقله ونصره ، واتخذه ولدا ، فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك ، هذا ، الذى قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامهم ، فإنما هو رجل برجل.

قال أبو طالب :

والله لبئس ماتسوموننى (٢) : أتعطونى ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟ هذا والله مالا يكون أبدا .

---

(١) أى أقوى (٢) أى تكلفوننى

فقال المطعم بن عدى :

والله ، يا أبا طالب ، لقد أنصفك قومك ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا .

فقال أبو طالب :

والله ماأنصفونى ، ولكنك قد أجمعت خذلانى ، فاصنع مابدا لك .

— ٤ —

وأجمعت قريش على حرب رسول الله وأصحابه فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين ، يعذبونهم ، ويفتنونهم عن دينهم ، ومنع الله رسوله بعمه أبى طالب .

وحين رأى أبو طالب قريشا يصنعون مايصنعون ؛ قام فى بنى هاشم وبنى المطلب ، فدعاهم إلى ماهو عليه من منع رسول الله ، والقيام دونه .

فاجتمعوا إليه ، وقاموا معه ، وأجابوه إلى مادعاهم إليه ، إلا ما كان من أبى لهب عدو الله .

— ٥ —

ثم إن الوليد بن المغيرة ، اجتمع إليه نفر من قريش ، وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم . فقال لهم :

إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا فقالوا له :

أنت ، ياأبا عبد شمس ، فقل ، وأقم لنا رأيا نقل به .

قال : بل ، أنتم فقولوا أسمع ، قالوا :

لقول : كاهن :

قال : لا والله ، ماهو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة(١) الكاهن ولا سجعه .

قالوا : مجنون :

قال : ماهو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا وسوسته .

قالوا : شاعر

قال : ماهو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه وقريضه ، فما هو بالشعر .

قالوا : ساحر

قال : ماهو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم

قالوا : فما نقول ؟

قال : والله إن لقوله حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل . . وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : هو ساحر ، جاء بقول هو سحر ، يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك .

فجعلوا يجلسون على السبل ، لايمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره ، فأنزل الله تعالى فى الوليد بن المغيرة .

إنه فكر وقدر

---

(١) الزمزمة : الكلام الخفى لايفهم .

فقتل كيف قدر

ثم قتل كيف قدر

ثم نظر

ثم عبس وبسر (١)

ثم أدبر واستكبر

فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر

إن هذا إلا قول البشر

وجعلوا يقولون ذلك فى رسول الله لمن لقوا من الناس .

وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ، فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها .

وقال أبو طالب قصيدته المشهورة :

كذبتم وبيت الله نترك مكة ... ونظعن إلا أمركم فى بلابل

كذبتم وبيت الله نبزى محمدا (٢) ... ولما نطاعن دونه ونناضل

ونسلمه ، حتى نصرع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يلوذ به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده فى رحمة وفواضل

فمن مثله فى الناس أى مؤمل ... إذا قاسه الحكام عند التفاضل

والبيت الأول يدلنا على أن قريشا قالت لبنى هاشم : اتركوا مكة واجلوا عنها .

---

(١) أى كره وجهه

(٢) أى تغلب عليه

ـ ٦ ـ

فلما انتشر أمر رسول الله فى العرب ، وبلغ البلدان ، ذكر بالمدينة ، وكان هذا الحى الأوس والخزرج على علم بأمر رسول الله حين ذكر، وقبل أن يذكر ، لما كانوا يسمعون من أحبار اليهود . وكانوا لهم حلفاء .

فقال أبو قيس بن الأسلت من شعراء المدينة ، وكان يحب قريشا . وكان لهم صهرا ، فزوجه أرنب بنت أسد بن عبد العزى منهم ، وكان يقيم عندهم السنين بامرأته .. قال قصيدة يعظم فيها الحرمة ، وينهى قريشا عن الحرب ، وينصحهم بالكف بعضهم عن بعض، ويذكر فضلهم وأحلامهم ، ويوصيهم بالكف عن رسول الله ، ويذكرهم بنعم الله عليهم ، ودفعه الفيل عنهم ، ومنها :

أقيموا لنا دينا حنيفا ، فأنتم لنا غاية ، قد يهتدى بالذوائب
وانتم لهذا الناس نور وعصمة تؤمون والأحلام غير عوازب
فإن تهلكوا نهلك ويهلك مواسم
يعاش بها . قول امرىء غير كاذب
ألم تعلموا ماكان فى حرب (داحس)
فتعتبروا ، أو كان فى حرب حاطب
فبيعوا الحراب للمحارب واذكروا
حسابكم ، والله خير محاسب
ولى امرىء ، فاختار دينا ؛ فلا يكن
عليكم رقيبا ، غير رب الثواقب
فقوموا فصلوا ربكم وتمسحوا بأركان هذا البيت بين الأخاشب[1]

---

(١) الأخشبان : جبلان بمكة .

— ٧ —

واشتدت قريش ، لشقائهم ، فى عداوة رسول الله ومن أسلم معه منهم .

فأغروا برسول الله سفراءهم ، فكذبوه وآذوه ، ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ؛ ورسول الله مظهر لأمر الله ، لايستخفى به ، فبادلهم بما يكرهون ، من عيب دينهم ، واعتزال أوثانهم . .

قال عبد الله بن عمرو بن العاص لأبيه : ماأكثر مارأيت قريشا أصابوا من رسول الله فيما كانوا يظهرون من عداوته ؟

قال لابنه : حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوما فى الحجر ، فذكروا : رسول الله ، فقالوا : مارأينا مثل ماصبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ؛ سفه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ؛ لقد صبرنا منه على أمر عظيم . .

فبينا هم فى ذلك إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفا بالبيت .

فلما مر بهم غمزوه (١) ببعض القول ، قال عمرو ، فعرفت ذلك فى وجه رسول الله .

ثم مضى ، فلما مر بهم الثانية (٢) غمزوه بمثلها .

فعرفت ذلك فى وجه رسول الله .

ثم مضى ، فلما مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها .

---

(١) أى طعنوا فيه بالكلام

(٢) أى المرة الثانية فى الطواف .

فوقف ، ثم قال : أتسمعون يامعشر قريش : أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح .

فأخذت القوم كلمته ، حتى مامنهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع حتى إن أشدهم تحريضا عليه ، ووصاة بإيذائه ليسكنه بأحسن مايجد من القول ، ويقول له :

انصرف يا أبا القاسم ، فوالله ما كنت جهولا .

فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حتى إذا كان الغد اجتمعوا فى الحجر ، وأنا ـ عمرو بن العاص ـ معهم .

فقال بعضهم لبعض . ذكرتم مابلغ منكم ، ومابلغكم عنه ، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه !

فبيناهم فى ذلك طلع رسول الله ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به ، يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا ، لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم .

فيقول رسول الله : نعم أنا الذى أقول ذلك .

فرأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه ، يكاد يخنقه .

فقام أبو بكر دونه وهو يبكى ، ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله .

ثم انصرفوا عنه .

فإن ذلك لأشد مارأيت قريشا نالوا منه قط :

وعن أم كلثوم ابنة أبى بكر : لقد رجع أبو بكر يومئذ وقد صدعوا فرق رأسه ، مما جذبوه من لحيته ، وكان أبو بكر رجلا كثير الشعر .

— ٨ —

وكان من أشد مالقى رسول الله من قريش أنه خرج يوما ، فلم يلقه أحد من الناس إلا كذبه وآذاه ، لاحر ولا عبد ؛ فرجع رسول الله إلى منزله ، فتدثر من شدة ما أصابه ، فأنزل الله تعالى عليه :

يا أيها المدثر .

قم فأنذر .

الفصل الثالث

إسلام حمزة عم رسول الله

— ١ —

مر أبو جهل بن هشام برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه .

فلم يكلمه رسول الله .

وعمد أبو جهل إلى ناد من قريش عند الكعبة ، فجلس معهم .

فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله متوشحا قوسه ، راجعا من الصيد ، وأقبل ليطوف بالكعبة قبل أن يذهب إلى أهله ، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم ، وكان أعز فتى في قريش ، وأشد شكيمة .

فمر بجارية لعبد الله بن جدعان ، شهدت صنيع أبي جهل برسول الله ، وقد رجع رسول الله إلى بيته ، فقالت له الجارية : يا أبا عمارة لو رأيت مالقى ابن أخيك محمد أنفا من أبي الحكم ! ! وجده هاهنا جالسا فآذاه ، وسبه ، وبلغ منه مايكره ، ولم يكلمه محمد .

فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته ،فخرج يسعى ،ولم يقف على أحد .

فلما دخل المسجد وجد أبا جهل جالسا في القوم ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة شديدة .

ثم قال حمزة له : أتشتم محمدا فأنا على دينه أقول مايقول ، فرد ذلك على على إن استطعت .

فقام رجال من بنى مخزوم لينصروا أبا جهل ، فقال لهم أبو جهل :

دعوا أبا عمارة ، فوالله إنى قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا .

وأقام حمزة على إسلامه ، وكان ذلك فى السنة السادسة من البعثة على ماقاله لفيف من المؤرخين .

— ٢ —

وعرفت قريش أن رسول الله قد عز ، وأن حمزة سيمنعه ، فخففوا من غلوائهم بعض الشيء .

كان عتبة بن ربيعة ، من سادة قريش ، جالسا يوما فى نادى[1] قريش ورسول الله جالس فى المسجد وحده ، فقال عتبة :

يامعشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه ، وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها ، فنعطيه أيها شاء ، ويكف عنا ؛ وذلك حين أسلم حمزة ، ورأى عتبة أصحاب رسول الله يزيدون .

فقالوا له :

بلى ، يا أبا الوليد ، قم إليه ، فكلمه .

فقام عتبة ، حتى جلس إلى رسول الله ، فقال له :

يا ابن أخى .

إنك منا حيث قد علمت ، من الرفعة فى العشيرة ، والمكان فى النسب .

---

(١) النادى . المجلس .

وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به احلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى ، أعرض عليك أمورا ، تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها .

فقال له رسول الله : قل يا أبا الوليد أسمع

قال :

يا ابن أخى . .

إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا .

وإن كنت إنما تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك .

وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا . .

وإن كان هذا . الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا ، حتى نبرئك منه .

فلما فرغ عتبة ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم

قال : فاستمع منى

قال : أفعل

قال :

بسم الله الرحمن الرحيم

حم تنزيل من الرحمن الرحيم

كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرآ ونذيرآ ، فأعرض

أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه . وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون . .

قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه ، واستغفروه ، وويل للمشركين .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه(١) .

فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه .

ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها(٢) ، فسجد ، ثم قال :

قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه .

فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما جلس إليهم قالوا : ماوراءك يا أبا الوليد ؟

قال :

ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط .

والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة .

يامعشر قريش :

---

(١) سورة فصلت آية ١ وما بعدها

(٢) هى آية السجدة (الآية ٢٨ — فصلت) : فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم يسجدون .

أطيعونى ، واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد لسانه .

قال : هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم .

— ٣ —

ثم جعل الإسلام ينتشر بمكة فى قبائل قريش فى الرجال والنساء ، وقريش تحبس من قدرت على حبسه ، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين .

الفصل الرابع

الرسول يمضى فى طريقه

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طريقه ، من تبليغ رسالة الله والدعوة إلى الدين .

وقريش ماضية فى طريقها ، سادرة فى خيلائها وغرورها وشركها .

ثم إنه اجتمع بعد غروب الشمس ،عند ظهر الكعبة : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث وأبو البخترى ابن هشام ، والأسود ن المطلب ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبى أمية ، والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج . وأميه بن خلف .

فقال بعضهم لبعض :

ابعثوا إلى محمد ، فكلموه وخاصموه ، حتى تعذروا فيه .

فبعثوا إليه : أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ، ليكلموك ، فأتهم .

فجاءهم رسول الله ، وهو يظن أن قد بدا لهم فى الدين رأى جديد ، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم .

وجلس إليهم ، فقالوا له : يا محمد . .

إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله مانعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك . .

لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام

وفرقت الجماعة ، فما بقى أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك .

فإن كنت إنما كنت إنما جئت بهذا الحديث تطاب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا .

وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا .

وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا .

وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا(١) تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك :

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

مابى ماتقولون :

ماجئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربى ، ونصحت لكم .

فإن تقبلوا منى ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم .

قالوا :

يامحمد . .

فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ، ولا أقل ماء ، ولا أشد عيشا منا ، فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت

---

(١) هو التابع من الجن .

علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصى ، فانه كان شيخ صدق ، فنسألهم عما تقول : أحق هو أم باطل ، فان صدقوك وصنعت ماسألناك ، صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله ، وأنه بعثك رسولا كما تقول :

فقال لهم صلوات الله عليه :

مابهذا بعثت إليكم ، إنما جئتكم من الله بما بعثني به ، وقد بلغتكم ماأرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم .

قالوا :

فإذا لم تفعل هذا لنا ، فخذ لنفسك :

سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك .

وسله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغى ، فانك تقوم بالأسواق كما نقوم ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك ، إن كنت رسولا ، كما تزعم .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ماأنا بفاعل ، وماأنا بالذى يسأل ربه هذا ، ومابعثت بهذا ، ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا .. فإن تقبلوا ماجئتكم به ، فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على ، أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بينى وبينكم .

قالوا :

فأسقط علينا كسفا كما زعمت أن ربك لوشاء فعل ، فإنا لانؤمن لك إلا أن تفعل .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل .

قالوا :

يامحمد . .

أفما علم ربك أنا سنجلس معك ، ونسألك عما سألناك عنه ، ونطلب منك مانطلب ، فيتقدم إليك ؛ فيعلمك ماتراجعنا به ، ويخبرك ماهو صانع فى ذلك بنا إذا لم نقبل منك ماجئتنا به ؟

إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له « الرحمن » ، وإنا — والله — لانؤمن بالرحمن أبدا ، فقد أعذرنا إليك يامحمد ، وإناوالله لانتركك ومابلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا .

وقال قائلهم :

نحن نعبد الملائكة وهى بنات الله .

وقال قائلهم :

لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا .

فلما قالوا ذلك لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قام عنهم ، وقام معه : عبد الله بن أبى أمية المخزومى ، وهو ابن عمته ، فهو لعاتكة بنت عبدالمطلب، فقال له :

يا محمد . .

عرض عليك قومك ماعرضوا ، فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ، ليعرفوا بها منزلتك من الله ، كما تقول ، ويصدقوك ، ويتبعوك ، فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك مايعرفون به فضلك عليهم ، ومنزلتك من الله ، فلم تفعل : ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ماتخوفهم به من العذاب فلم تفعل .

فو الله لا أومن بك أبدا ، حتى تتخذ إلى السماء سلما ، ثم ترقى فيه ؛ وأنا أنظر إليك ، حتى تأتيها ؛ ثم تأتى معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنا كما تقول،وأيم الله أن لو فعلت ذلك،ماظننت أنى أصدقك.ثم انصرف عن رسول الله

وانصرف رسول الله إلى أهله حزينا آسفا مما فاته ، مما كان يطمع به من قومه حين دعوه ، ولما رأى من مباعدتهم إياه .

ولما قام عنهم رسول الله ، صلوات الله عليه قال أبو جهل :

يامعشر قريش :

إن محمدا قد أبى إلا ماترون ، من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وشتم آلهتنا .

وإنى أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ما أطيق حمله ، فإذا سجد فى صلاته، فضخت به رأسه ، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف مابدا لهم.. قالوا :

والله مانسلمك لشيء أبدا ، فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل ، أخذ حجرا ، كما وصف ، ثم جلس لرسول الله ينتظره ، وغدا رسول الله كما كان يغدو ، وكان رسول الله بمكة ، وقبلته إلى الشام ؛ فكان إذا صلى صلى بين الركن اليمانى والحجر الأسود ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام .

فقام رسول الله يصلى ؛ وقد غدت قريش ، فجلسوا فى أنديتهم ، ينتظرون ، ما أبو جهل فاعل .

فلما سجد رسول الله ، احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه ، حتى

إذا دنا منه رجع منهزما ، منتقعا لونه ، مرعوبا ، قد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر معه من يده .

وقامت إليه رجال قريش ، يقولون :

مالك يا أبا الحكم ؟

قال :

قمت إليه ، لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الإبل ، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا أنيابه لفحل قط ، فهم بى أن يأكلنى .

وروى أن رسول الله قال : ذلك جبريل عليه السلام ، لو دنا لأخذه .

فلما قال لهم ذلك أبو جهل ، قام النضر بن الحارث ، فقال :

يا معشر قريش .

إنه - والله - قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاما حدثا ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة - حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم : ساحر ، لا والله ماهو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم : كاهن : لا والله ماهو بكاهن ، قد رأينا الكهنة ، وسمعنا سجعهم . وقلتم : شاعر ، لا والله ماهو بشاعر ، قد رأينا الشعر ، وسمعنا أصنافه كلها ، هزجه ورجزه . وقلتم : مجنون ، لا والله ماهو بمجنون ، لقد رأينا الجنون ، فما هو بوسوسته ، ولا تخليطه ... يامعشر قريش ، فانظروا فى شأنكم ، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

وكان النضر من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله ، وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس ، فكان إذا جلس رسول الله مجلسا ، فذكر فيه بالله ، وأنذر قومه ما أصاب من قبلهم

من الأمم ، من نقمة الله، خلفه فى مجلسه إذا قام ، وقال : أنا والله - يامعشر قريش - أحسن حديثا منه ، فهلم إلى ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا منى ؟

فلما قال لهم ذلك النضر بن الحارث بعثوه ، وبعثوا معه عقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود المدينة ، وقالوا لهما :

سلاهم عن محمد ، وصفا لهم صفته ، وأخبراهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء .

فخرجا ، حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار اليهود عن رسول الله ، ووصفا لهم أمره ، وأخبراهم ببعض قوله ، وقالا لهم : بأنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا .

فقالت لهما أحبار اليهود :

سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول ، فروا فيه رأيكم .

سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ، ما كان من أمرهم ، فإنه قد كان لهم حديث عجيب .

وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نبؤه .

وسلوه عن الروح ، ماهى ، فإن أخبركم بذلك فاتبعوه ، فإنه نبي ، وإن لم يفعل فهو رجل متقول ، فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم .

فأقبل النضر وعقبة ، حتى قدما مكة على قريش ، فقالا :

يامعشر قريش :

قد جئناكم بفصل مابينكم وبين محمد ، قد أخبرنا أحبار اليهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها ، فإن أخبركم عنها فهو نبى ، وإن لم يفعل فالرجل متقول ، فروا فيه رأيكم .

فجاءوا رسول الله ، فقالوا :

يامحمـــد :

أخبرنا عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول قدكانت لهم قصة عجب ، وعن رجل كان طوافا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وأخبرنا عن الروح ماهى ؟

فقال لهم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

أخبركم بما سألتم عنه غدا ، ولم يقل إن شاء الله . . فانصرفوا عنه .

فمكث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، خمس عشرة ليلة ، لايحدث الله إليه فى ذلك وحيا ، ولا يأتيه جبريل ، حتى أرجف أهل مكة ، وقالوا : وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة ليلة ، قد أصبحنا منها لايخبرنا بشىء مما سألناه عنه ، وحتى أحزن رسول الله مكث الوحى عنه ، وشق عليه مايتكلم به أهل مكة ، ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ماسألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف والروح .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل حين جاءه :

لقد احتبست عنى ياجبريل ، حتى سؤت ظنا .

فقال له جبريل :

وما نتنزل إلا بأمر ربك ، له مابين أيدينا وما خلفنا ، وما بين ذلك ، وما كان ربك نسيا (١) .

---

(١) مريم ، آية ٦٤

وفى سورة الكهف :

أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ؟ إذ أوى الفتية إلى الكهف .

وفى السورة :

ويسألونك عن ذى القرنين ، قل : سأتلو عليكم منه ذكرا .

وقال تعالى فى سورة الإسراء (الآية ٨٥) :

ويسألونك عن الروح ، قل : الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا .

ونزل عليه من سورتى الإسراء والفرقان مانزل ، ونزل فى النضر بن الحارث : إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين (القلم آية : ١) .

فلما جاءهم رسول الله بما عرفوا من الحق ، وعرفوا صدقه فيما حدث ، وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيب ، حين سألوه عما سألوه عنه . . حال الحسد منهم له بينهم وبين الإيمان برسالته وتصديقه ولجوا فيما هم عليه من الكفر : وقال قائل منهم: « لاتسمعوا لهذا القرآن ، والغوا فيه ، لعلكم تغلبون (١) » فإنكم إن ناظرتموه يوما غلبكم .

وجعلوا إذا جهر رسول الله بالقرآن وهو يصلى يتفرقون عنه ، ويأبون أن يستمعوا له ، خوفا وفرقا .

روى أن أبا سفيان وأبا جهل والأخنس بن شريق الزهرى ، خرجوا ليلة ، ليستمعوا من رسول الله ، وهو يصلى من الليل فى بيته .

فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل واحد منهم لايعلم بمكان

---

(١) سورة فصلت من آية ٢٦ .

صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لاتعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عادكل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ماقالوا أول مرة . ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا ، يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لانبرح حتى نتعاهد ألا نعود ؛ فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته ، فقال له : أخبرنى عن رأيك فيما سمعت من محمد . قال له أبو سفيان : والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف مايراد بها ، وسمعت أشياء ماعرفت معناها ولا مايراد بها .

قال الأخنس : وأنا ، والذى حلفت به كذلك .

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فقال له :

مارأيك فيما سمعت من محمد قال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ؛ أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا كنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحى من السماء ، فمتى تدرك مثل هذه ؟ فوالله لانؤمن به أبدا ولا نصدقه .

الفصل الخامس

تعذيب المشركين المسلمين

— ١ —

لما جهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن ، كان أول من جهر به بعد رسول الله بمكة : عبد الله بن مسعود .

اجتمع يوما أصحاب رسول الله ، فقالوا : والله ماسمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعهم ؟

فقال ابن مسعود : أنا .

قالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوا به سوءا .

قال : دعونى فإن الله سيمنعنى فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام فى الضحى وقريش فى أنديتها (١) ، حتى قام عند المقام ، ثم قرأ :

بسم الله الرحمن الرحيم

الرحمن ، علم القرآن (٢)

ثم استقبلها يقرؤها (٣)

---

(١) أى مجالسها .

(٢) سورة الرحمن ـ آية ١ و ٢ .

(٣) أى السورة .

وتأملوه ، فجعلوا يقولون : ماذا قال ابن أم عبد ؟ ثم قالوا : إنه ليتلو بعض ماجاء به محمد . . فقاموا إليه ، فجعلوا يضربون فى وجهه ؛ وجعل يقرأ ، حتى بلغ منها (١) ماشاء الله أن يبلغ .

ثم انصرف إلى أصحابه ، وقد أثروا فى وجهه فقالوا له : هذا الذى خشينا عليك .

فقال : ماكان أعداء الله أهون على منهم الآن . ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا .

قالوا : لا ، حسبك ، قد أسمعتهم مايكرهون .

— ٢ —

ثم إنهم عدوا على من أسلم واتبع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، من أصحابه ؛ فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ، ويعذبونهم ، ويفتنونهم عن دينهم ، فمنهم من يفتتن لشدة البلاء الذى يصيبه ومنهم من يعصمه الله منهم .

كان بلال مولى لأبى بكر ، أسلم وكان صادق الإسلام ، طاهر القلب وكان أمية بن خلف الجمحى يخرجه إذا حميت الظهيرة ؛ فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة ، فتوضع على صدره ، ويقول له : لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى ؛ فيقول وهو فى ذلك البلاء ، : أحد ، أحد . فمر به أبو بكر يوما وهم يصنعون ذلك به ، فقال لأمية بن خلف ، ألا تتقى الله فى هذا المسكين ؟ حتى متى ؟ فرد عليه أمية قائلا : أنت الذى أفسدته ، فأنقذه مما ترى . فقال أبو بكر :

---

(١) أى السورة .

أفعل ؛ عندى غلام أسود أجلد منه ، وأقوى على دينك ، أعطيكه به ، قال قد قبلت ، قال : هو لك : فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك ، وأخذ بلالا فاعتقه وأعتق معه على الإسلام قبل الهجرة ست رقاب :

١ — عامر بن فهيرة شهد بدرا وأحدا وقيل شهدا يوم بئر معونة .

٢ و ٣ — أم عبيس ، وزنيرة .

٤ و ٥ — النهدية وبنتها .

٦ — جارية بنى مؤمل ، كانت مسلمة ، وكان عمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام ، وهو يومئذ على الشرك . فاشتراها أبو بكر منه فأعتقها .

— ٣ —

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر (١) وبأبيه وأمه ، وكانوا أهل بيت إسلام ، إذا حميت الظهيرة ، يعذبونهم برمضاء مكة ، فيمر بهم رسول الله ، فيقول : صبرا آل ياسر ، موعدكم الجنة ، فأما أمه فقتلوها وهى تأبى إلا الإسلام .

— ٤ —

وكان أبو جهل يغرى بضعفاء المسلمين ، ومعـــه فى ذلك رجال من قريش .

كان إذا سمع بالرجل قد أسلم ، له شرف ومنعة أنبه ، وقال له : تركت

---

(١) قتل فى معركة يوم صفين ، وكانت فى صفر وبعض ربيع الأول عام ٣٧ ﻫ عن ٩٣ عاما (٢٩١ — ٣٠٦ /١ سير أعلام النبلاء للذهبى) ، وكان حليف بنى مخزوم .

دين أبيك وهو خير منك ، لنسفهن حلمك ، ولنضعن شرفك . وإن كان تاجرا قال له : والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك ، وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به . حتى يعطيهم ماسألوه من الفتنة ، وحتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم (١) .

---

(١) فى هذه الفترات التاريخية الحاسمة فى جزيرة العرب كان الصراع بين الروم والفرس على حدود الجزيرة العربية شديدا .

التجأ كسرى أبرويز إلى الروم فارا من بهرام الذى استولى على عرش والده هرمز الساسانى ، وتلقاه امبراطور الروم البيزنطى موريقس بالحفاوة ، وساعد على عودة خسرو إلى العرش الفارسى عام ٥٩٠ م . وفى عام ٦٠٢ م قامت ثورة على الامبراطور الرومى وتولى فاكس الحكم فى بيزنطة . فخاصمه كسرى وأعلن الحرب عليه عام ٦٠٣ م ، واحتلت جيوش كسرى بلاد الشام وبيت المقدس ومصر واستولت على المستعمرات الرومية فى شواطىء إفريقية ، كما استولت على آسيا الصغرى ، وأقامت فى مواجهة القسطنطينية ، فثار هرقل حاكم أفريقية ضد أمبراطوره فاكس ، وقتله ، وتسلم الملك مكانه عام ٦١٠ م وهو عام البعثة النبوية وبلغت الانتصارات الفارسية ذروتها وغلب الروم كليا عام ٦١٦ م قبل الهجرة بست سنوات ، وفقدوا مملكتهم الرومية على أيدى الفرس : وفى السنة السادسة من البعثة كان المشركون فى مكة يتظاهرون بشدة فرحهم لانتصار الفرس على الروم ، وحاول هرقل عن طريق رسله الصلح فرد عليهم الملك الفارسى : بأن هذا الأمر ليس هو مما يسعى فيه السفراء ، وإنما لابد من أن يخضع الامبراطور البيزنطى أمامه ، ولابد من أن يتخلى عن المسيحية إلى عبادة الشمس ، فأخذ هرقل يعد العدة لخوض المعركة مع الفرس ، وهزم الفرس هزيمة منكرة عام ٦٢٤ م فى السنة الثانية للهجرة واقتحم الروم بلاد فارس بعد غزوة بدر بقليل .

الفصل السادس

الهجرة الأولى إلى الحبشة

فى العام الخامس من البعثة النبوية

— ١ —

رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء ، وأنه لايقدر على أن يمنعهم مما يصيبهم ، فقال لهم :

« لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكا لايظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » .

فخرج المسلمون من أصحاب رسول الله إلى أرض الحبشة ، مخافة الفتنة ، وفرارا إلى الله بدينهم . فكانت أول هجرة فى الإسلام .

وكان أول المهاجرين إليها :

١ — عثمان بن عفان ، ومعه امرأته رقية بنت رسول الله .

٢ — أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، ومعه امرأته سهلة بنت سهيل ابن عمرو من بنى لؤى ، ولدت له بأرض الحبشة محمد بن أبى حذيفة .

٣ — الزبير بن العوام .

٤ — مصعب بن عمير من بنى عبد الدار بن قصى .

٥ — عبد الرحمن بن عوف .

٦ — أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى ، ومعه امرأته هند (أم سلمة) المخزومية ، ولدت له بالحبشة ابنته زينب .

٧ — عثمان بن مظعون الجمحى ، وابنه السائب وأخواه : قدامة وعبد الله(١) .

٨ — عامر بن ربيعة حليف آل الخطاب ، ومعه امرأته ليلى الكعبية .

٩ — أبو سبرة بن أبى رهم من بنى عامر بن لؤى ، ويقال : إنه كان أول من قدم الحبشة ، ومعه امرأته أم كلثوم بنت سهيل .

١٠ — سهيل بن بيضاء من بنى الحارث بن فهر وبيضاء هى أمه .

فكان هؤلاء أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة ، وكان عليهم عثمان بن مظعون .

١١ — ثم خرج جعفر بن أبى طالب، ومعه امرأته أسماء بنت عميس ، ولدت له فى الحبشة ابنه عبد الله بن جعفر .

وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة ، فكانوا بها ، منهم من خرج بأهله معه ، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل له معه .

١٢ — وممن خرج إليها : عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية ، ومعه امرأته فاطمة بنت صفوان الكنانية ، وأخوه خالد بن سعيد ، ومعه امرأته أمينة بنت خلف الخزاعية ، وولدت له بارض الحبشة : أبنه سعيد بن خالد ، وبنته أمة بنت خالد .

١٣ — عبد الله بن جحش ، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان .

---

(١) توفى عثمان فى شعبان سنه ثلاث من الهجرة ، وأخوه قدامة ابن مظعون . توفى عام ٣٦ هـ عن ٦٨ عاما ، وأخوه الآخر عبد الله بن مظعون مات عام ٣٣ - ولعثمان بن مظعون ولد من الرضاعة هو السائب مات عام ١٢ هـ فى يوم اليمامة (١ : ١١٨ سير أعلام النبلاء) .

١٤ — قيس بن عبد الله من بنى أسد بن خزيمة ، ومعه امرأته بركة بنت يسار مولاة أبى سفيان .

١٥ — معيقيب بن أبى فاطمة .

١٦ — أبو موسى الأشعرى .

١٧ — عتبة بن غزوان .

١٨ — الأسود بن نوفل بن خويلد بن أسد .

١٩ — يزيد بن زمعة بن الأسود بن المطلب .

٢٠ — عمرو بن أمية بن الحارث بن أسد .

٢١ — طليب بن عمير بن وهب .

٢٢ — سويبط بن سعد .

٢٣ — جهم بن قيس ومعه امرأته أم حرملة الخزاعية ، وابناه : عمرو ، وخزيمة .

٢٤ — أبو الروم بن عمير .

٢٥ — فراس بن النضر بن الحارث .

٢٦ — عامر بن أبى وقاص .

٢٧ — أبو وقاص مالك بن أهيب .

٢٨ — المطلب بن أزهر ، ومعه امرأته رملة بنت أبى عوف ، ولدت له بأرض الحبشة ابنه عبد الله .

٢٩ — عبد الله بن مسعود ، وأخوه عتبة .

٣٠ — المقداد بن عمرو ، وكان قد تبناه فى الجاهلية الأسود بن عبد يغوث من بنى زهرة ، وحالفه .

٣١ — الحارث بن خالد التيمى ، ومعه امرأته ريطة بنت الحارث

التيمية ، وولدت له بأرض الحبشة ابنه موسى ، وثلاث بنات هن : زينب ، وفاطمة ، وعائشة .

٣٢ — عمرو بن عثمان التيمي .

٣٣ — شماس بن عثمان المخزومي .

٣٤ — هبار بن سفيان المخزومي .

٣٥ — هشام بن أبي حذيفة المخزومي .

٣٦ — عياش بن أبي ربيعة المخزومي .

٣٧ — معتب بن عوف الخزاعي .

٣٨ — حاطب بن الحارث الجمحي ، ومعه : امرأته فاطمة بنت المجلل ؛ وأخوه حطاب معه امرأته فكيهة بنت يسار .

٣٩ — سفيان بن معمر الجمحي ، ومعه ابناه جابر وجنادة ، ومعه امرأته حسنة وهي أمهما وأخوهما من أمهما شرحبيل بن حسنة .

٤٠ — عثمان بن ربيعة الجمحي .

٤١ — خنيس بن حذافة السهمي .

٤٢ — عبد الله بن الحارث بن قيس السهمي .

٤٣ — هشام بن العاص السهمي .

٤٤ — العاص بن وائل السهمي .

٤٥ — قيس بن حذافة السهمي .

٤٦ — أبو قيس بن الحارث السهمي .

٤٧ — عبدالله بن حذافة السهمي .

٤٨ — الحارث بن الحارث السهمي .

٤٩ — معمر بن الحارث السهمي .

٥٠ ــ بشر بن الحارث السهمى ، وأخ له من أمه من بنى تميم اسمه سعيد بن عمرو .

٥١ ــ سعيد بن الحارث السهمى .

٥٢ ــ السائب بن الحارث السهمى .

٥٣ ــ عمير بن رئاب السهمى .

٥٤ ــ محمية بن الجزاء حليف لهم من بنى زبيد .

٥٥ ــ معمر بن عبد الله بن نضلة .

٥٦ ــ عروة بن عبد العزى .

٥٧ ــ عدى بن نضلة ، وابنه النعمان .

٥٨ ــ عبد الله بن مخرمة .

٥٩ ــ عبد الله بن سهيل .

٦٠ ــ سليط بن عمرو ، وأخوه السكران ، معه امرأته سودة بنت زمعة .

٦١ ــ مالك بن زمعة ، معه امرأته عمرة .

٦٢ ــ أبو حاطب بن عمرو .

٦٣ ــ سعد بن خولة حليف لبنى عامر بن لؤى .

٦٤ ــ أبو عبيدة بن الجراح .

٦٥ ــ عمرو بن أبى سرح .

٦٦ ــ عياض بن زهير .

٦٧ ــ عمرو بن غنم .

٦٨ ــ سعد بن عبد قيس .

٦٩ ــ الحارث بن عبد قيس .

وعدة جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين ، سوى أبنائهم الذين خرجوا معهم صغاراً أو ولدوا بها ، هو ثلاثة وثمانون رجلا ، إن كان عمار بن ياسر فيهم ، وهو يشك فيه .

— ٢ —

وفى الحبشة أمن المسلمون ، وحمدوا جوار النجاشى ، وعبدوا الله لا يخافون أحدا ، وأحسن النجاشى جوارهم حين نزلوا به ، فقال فى ذلك عبد الله بن الحارث بن قيس السهمى :

يا راكبا بلغن عنى مغلغلة ... من كان يرجو بلاغ الله والدين
كل امرىء من عباد الله مضطهد ... ببطن مكة مقهور ومفتون
أنا وجدنا بلاد الله واسعة ... تنجى من الذل والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخز ... ى فى الممات وعيب غير مأمون

وقال عثمان بن مظعون يعاتب أمية بن خلف :

أحاربت أقواما كراما أعزة ... وأهلكت أقواما بهم كنت تفزع
ستعلم إن نابتك يوما ملمة ... وأسلمك الأوباش ما كنت تصنع

— ٣ —

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله قد أمنوا واطمأنوا بالحبشة وأنهم قد أصابوا بها دارا وقرارا ، ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش إلى النجاشى ، فيردهم عليهم، ليفتنوهم فى دينهم ، ويخرجوهم من دارهم التى اطمأنوا بها ، وأمنوا فيها .

فبعثوا عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص ، وجمعوا لهما هدايا للنجاشى ولبطارقته ، ثم بعثوهما إليه فيهم ، فقال أبو طالب حين رأى ذلك من رأيهم ، وما بعثوا بهما يثنى على النجاشى ويحضه على حسن جوار المسلمين والدفع عنهم :

ألا ليت شعرى كيف فى النأى جعفر
وعمرو ، وأعداء العدو الأقارب
فهل نال أفعال النجاشى جعفرا وأصحابه أو عاق ذلك شاغب
تعلم أبيت اللعن أنك ماجد كريم ، فلا يشقى لديك المجانب[1]
تعلم بأن الله زادك بسطة وأسباب خير كلها بك لازب[2]

وقدم رسولا قريش على النجاشى ، فلم يتركا من بطارقته أحدا إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشى ، وقالا لكل بطريق منهم :

إنه قد أوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينكم ؛ وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ؛ وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ، ليردهم إليهم ، وقومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم .

وقدما هداياهما إلى النجاشى ، فقبلها منهما ؛ ثم كلماه فقالا له :

أيها الملك . إنه قد أوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك ؛ وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم ، فهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

فقالت بطارقة النجاشى حوله : صدقا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم .

فغضب النجاشى ، ثم قال : لا أسلمهم إليهما ، ولا يكاد قوم جاورونى ونزلوا بلادى واختارونى على من سواى ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول

(١) الخطاب فى البيت للنجاشى . المجانب : اللائذ بالجوار .
(٢) لاصق .

هذا أن فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما . ورددتهم إلى قومهم؛ وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما ، وأحسنت جوارهم ما جاورونى .

ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ، فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ ، قالوا : نقول ماعلمنا ، وما أمرنا به نبينا ، كائناً فى ذلك ما هو كائن .

فلما جاءوا ، وقد دعا النجاشى أساقفته[1] ، وهم[2] ينشرون مصاحفهم حوله ، سألهم : ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟

فأجابه جعفر بن أبى طالب :

أيها الملك . . . .

كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه .

فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان .

وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء .

ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة .

---

(١) جمع أسقف وهو العالم فى النصرانية .

(٢) أى أساقفته .

وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .. وعدد عليه[١] أمور الإسلام .

فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ماجاء به من الله .

فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئا .

وحرمنا ماحرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا .

فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى : وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث .

فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك[٢] ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا أن لانظلم عندك أيها الملك .

فقال له النجاشى ـ كما تروى أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم : فاقرأه على .

فقرأ عليه صدرا من سورة مريم ، فبكى ـ والله ـ النجاشى حتى ابتلت لحيته ، وبكت أساقفته حتى بلوا مصاحفهم ، حين سمعوا ماتلا عليهم .

فقال النجاشى: إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، وقال الرسولين : انطلقا ، فلا والله لاأسلمهم إليكما ، ولا يكادون .

فقال عمرو بن العاص لصاحبه : والله لآتينه غـــدا بما أستأصل به جماعتهم .

فقال له صاحبه عبد الله بن ربيعة : لاتفعل ، فإن لهم أرحاما ، وإن كانوا قد خالفونا .

---

(١) أى على النجاشى .

(٢) كانت قريش تتردد على الحبشة للتجارة فآثرها المسلمون بالهجرة لذلك ولبعدها عن أيدى المشركين

قال : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد .

ثم غدا على النجاشى من الغد ، فقال :

أيها الملك ، إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما ، فأرسل إليهم ، فسلهم عما يقولون فيه .

فأرسل إليهم ليسألهم عنه ، فاجتمع القوم ، ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم إذا سألكم عنه : قالوا : نقول - والله - ماقال الله ، وماجاءنا به نبينا ، كائنا فى ذلك ماهو كائن .

فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم ؟

فقال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاءنا به نبينا ، صلى الله عليه وسلم ، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول :

فضرب النجاشى بيده إلى الأرض ، فأخذ منها عودا ، ثم قال : والله ماعدا عيسى بن مريم ماقلت أمامى . اذهبوا فأنتم آمنون ، من سبكم غرم ، ماأحب أن لى جبلا من ذهب وأسلمكم إليهما . ردوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لى بها .

فخرجا من عنده بأسوأ رد تقول أم سلمة : وأقمنا عنده بخير دار ، مع خير جار .

— ٤ —

وخرج ثائر على النجاشى ، ينازعه فى ملكه ، فحزن المسلمون حزنا شديدا ودعوا للنجاشى بالغلبة على عدوه ، والتمكين له فى بلاده ، وخرج الزبير بن العوام ، ليشهد المعارك التى قامت بين النجاشى وهذا الثائر ، ليأتى المسلمين بخبرها . وكان الزبير من أحدث المسلمين سنا ، وعاد الزبير يقول :

ألا أبشروا فقد ظفر النجاشى ؛ وأهلك الله عدوه ، ومكن له فى بلاده ،
ففرح المسلمون فرحا شديدا ، ورجع النجاشى وقد أهلك الله عدوه ، ومكن
له فى بلاده ، واستوثق عليه أمر الحبشة[١] ، فكان المسلمون عنده — كما
تقول أم سلمة — فى خير منزل ، حتى قدموا على رسول الله وهو بمكة .

— ٥ —

وشاع بين شعب النجاشى أن الملك يقول فى عيسى بن مريم إنه عبد الله
فثاروا عليه ، فخرج لحربهم ، ولكنه رأى أن يهدىء من ثورتهم ،
فاستجابوا له ، وعاد إلى ملكه ، وكان فى أول هذه الثورة قد هيأ للمسلمين
سفنا ، وقال لهم : اركبوا فيها ، وكونوا كما أنتم : فإن هزمت فامضوا فى
طريقكم ، حتى تلحقوا بحيث شئتم ، وإن ظفرت فعودوا ، فلما انتصر النجاشى
عاد المسلمين ، فأقاموا آمنين .

---

(١) يقص ابن هشام أن الحبشة ثارت على والد النجاشى وملكوا عم النجاشى
مكان أبيه ، فمات عمه ، ولم يجد الشعب فى أبناء عمه دراية وحنكة وقدرة على
القيام بأعباء الملك ، وكان عمه قبل وفاته قد طرد ابن أخيه ، فبيع بستمائة درهم ،
وخرج به من اشتراه من البلاد ، فلما مات عمه رأى الشعب أنه لا يصلح لحكمهم
إلا هو ، فساروا يطلبونه فى كل مكان ، حتى عثروا عليه ، فأخذوه من مالكه ،
وألبسوه التاج ، وردوا على من كان قد اشتراه منهم قبلا ماله .

الفصل السابع

إسلام عمر بن الخطاب

في السنة السادسة من البعثة النبوية

— ١ —

قدم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة على قريش من الحبشة ، بعد أن فشلوا في سفارتهم ، ولم يدركوا ماطلبوا من المسلمين في الحبشة ، حيث ردهم النجاشي بما يكرهون .

قدما على قريش ، فوجد المسلمين في مكة قد عزوا وكثروا وصارت لهم منعة بإسلام عمر بن الخطاب وحمزة[1] .

وكان عمر رجلا ذا شكيمة وشوكة لايرام ماوراء ظهره .

وكان لحمزة ماله من السؤدد والشرف والمكانة في قريش .

فلما أسلما عز بهما أصحاب رسول الله وقويت شوكتهم .

يقول عبد الله بن مسعود : ما كنا نقدر على أن نصلي عند الكعبة ، حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه ، وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله إلى الحبشة .

ويقول ابن مسعود أيضا : إن إسلام عمر كان فتحا ، وإن هجرته

---

(١) أسلم حمزة سنة ست من البعثة (١ : ٢٢٧ العقد الثمين للفاسي) ـ وأسلم عمر بعد حمزة بثلاثة أيام (١ : ٢٢٩ المرجع نفسه) .

كانت نصرا ، وإن إمارته كانت رحمة . ولقد كنا مانصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه .

وحدث عامر بن ربيعة عن أمه أم عبد الله بنت أبى حثمة ، قالت :

والله إنا لنستعد للرحيل والهجرة إلى الحبشة ، وقد ذهب عامر فى بعض حاجاتنا ، إذ أقبل عمر بن الخطاب ، حتى وقف على ، وهو على شركه ! وكنا نلقى منه البلاء ، أذى لنا ، وشدة علينا .

فقال : إنه الانطلاق — الهجرة — ياأم عبد الله ؟

فقلت له : نعم ، والله لنخرجن فى أرض الله ، آذيتمونا وقهرتمونا ، حتى يجعل الله لنا مخرجا .

فقال : صحبكم الله ، ورأيت له رقة لم أكن أراها .

وانصرف ، وقد أحزنه — فيما أرى — خروجنا .

فجاء عامر ، فقلت له : لورأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا !!

قال : أطمعت فى إسلامه ؟

قلت : نعم .

قال : دون ذلك نجوم السماء .

— ٢ —

وكان سبب إسلام عمر أن أخته فاطمة بنت الخطاب كانت متزوجة من سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وقد أسلمت ، وأسلم زوجها ، وكانا يخفيان إسلامهما عن عمر : وكان نعيم بن عبد الله النحام من أقارب عمر ، فهو من بنى عدى بن كعب ، وكان قد أسلم ويستخفى بإسلامه فرقا من قومه ،

وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن

فخرج عمر يوما متوشحا بسيفه ، يريد رسول الله ورهطا من أصحابه ، قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا ، وهم نحو أربعين رجلا وامرأة ومع رسول الله عمه حمزة وأبو بكر وعلى بن أبى طالب ، فى رجال من المسلمين ، ممن أقام مع رسول الله بمكة ، ولم يخرج فيمن خرج إلى الحبشة .

فلقيه نعيم ، فقال له : أين تريد ياعمر ؟

قال: أريد محمدا هذا الصابىء ، الذى فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله .

فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك ياعمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا ، أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ، وكان قد أراد إلهاء عمر عن محمد وأصحابه .

قال عمر : وأى أهل بيتى ؟

قال : صهرك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة ، فقد ـ والله ـ أسلما وتابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما .

فرجع عمر عامدا إلى أخته وزوجها ، وعندهما خباب بن الأرت ، معه صحيفة فيها طه ، يقرئهما إياها ؛ فلما سمعوا عمر اختفى خباب فى بعض البيت ، وأخذت فاطمة الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال : ماهذه الهينمة(١) التى سمعت ؟ قالا له :

---

(١) هى الصوت الذى لايسمع

ماسمعت شيئا .

قال : بلى والله ، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه ، وبطش بصهره سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته لتكفه ، فضربها فشجها .

فلما فعل ذلك قالت له أخته وزوجها : نعم ، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك .

وسكن عمر لمشهد الدم يتدفق على وجه أخته ، وقال لها : أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرأون آنفا أنظر ماهذا الذى جاء به محمد . وكان عمر يكتب ويقرأ .

فقالت له أخته : إنا نخشاك عليها قال : لاتخافى ، وحلف لها بآلهته ليردنها - إذا قرأها - إليها .

فحينئذ طمعت فى إسلامه ، وقالت له : ياأخى إنك نجس على شركك وإنه لايمسها إلا الطاهر .

فقام عمر ، فاغتسل

فأعطته الصحيفة ، وفيها طه فقرأها ، فلما قرأ منها صدرا قال : ماأحسن هذا الكلام وأكرمه ! !

فلما سمع ذلك خباب خرج إليه ، فقال له : ياعمر والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإنى سمعته أمس وهو يقول :

اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب ؛ فالله الله ياعمر .

فقال له عمر عند ذلك : فدلنى ياخباب على محمد حتى آتيه فأسلم .

فقال له خباب : هو فى بيت عند الصفا ، معه فيه نفر من أصحابه .

فأخذ عمر سيفه ، وذهب إلى رسول الله وأصحابه ، فضرب عليهم الباب ،

فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله فنظر من خلل الباب ، فرآه متوشحا السيف ، فرجع إلى رسول الله وهو فزع ، فقال : يارسول الله هذا عمر متوشحا سيفه .

فقال حمزة : فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه له ، وإن كان يريد شرا قتلناه بسيفه .

فقال رسول الله : ائذن له ، فأذن له الرجل ، ونهض إليه رسول الله ، فأخذ بجميع ردائه ، ثم جذبه جذبة شديدة ، وقال له : ماجاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة .

فقال عمر : يارسول الله ، جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله .

فكبر رسول الله تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله أن عمر قد أسلم .

وعز المسلمون بإسلام عمر مع إسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله .

ويروى أن عمر ذهب يريد الطواف بالكعبة ، فإذا برسول الله قائم يصلى ، وكان إذا صلى استقبل الشام ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، وكان مصلاه بين الركنين : الركن الأسود والركن اليمانى .

فقال عمر لنفسه حين رأى رسول الله : والله لو أنى استمعت من محمد الليلة ، حتى أسمع مايقول . ثم قال : لئن دنوت منه لأروعنه ، فجئت من قبل الحجر فدخلت تحت ثيابها ، فجعلت أمشى رويدا ورسول الله قائم يصلى يقرأ القرآن ، حتى قمت فى قبلته مستقبله ، مابينه وبين رسول الله إلا ثياب الكعبة .

قال عمر : فلما سمعت القرآن رق له قلبي ، فبكيت ، ودخلني الإسلام . فلم أزل فى مكانى ذلك حتى قضى رسول الله صلاته ، ثم انصرف .

وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبى حسين ، وكانت طريقه ، حتى يجزع - يقطع - المسعى ، ثم يسلك بين دار العباس ودار ابن أزهر الزهرى ، ثم على دار الأخنس بن شريق ، حتى يدخل بيته ؛ وكان مسكنه ، صلى الله عليه وسلم فى الدار الرقطاء ، التى كانت بيدى معاوية .

قال عمر : فتبعته حتى إذا دخل بين دار العباس ودار ابن أزهر أدركته ؛ فلما سمع رسول الله حسى عرفنى ، فظن رسول الله أنى إنما اتبعته لأوذيه ، فنهمنى - زجرنى - ، ثم قال : ماجاء بك ياابن الخطاب هذه الساعة :

قلت : جئت ، لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله .

فحمد الله رسول الله ؛ ثم قال : قد هداك الله ياعمر ، ثم مسح صدرى ودعا لى بالثبات ثم انصرفت عن رسول الله ، ودخل رسول الله بيته .

— ٣ —

وأراد عمر أن يشيع نبأ إسلامه فى قريش ، فقال : أى قريش أنقل للحديث قيل له : جميل بن معمر الجمحى :

فغدا عمر عليه ، قال عبد الله بن عمر : وغدوت أتبع أثر أبى ، وأنظر مايفعل ، وأنا غلام أعقل كل مارأيت وجاء أبى إلى ابن معمر ، فقال له :

أعلمت ياجميل أنى قد أسلمت ودخلت فى دين محمد ، فقام جميل يجر رداءه ، واتبعه عمر ، واتبعت أبى ؛ حتى إذا قام جميل على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يامعشر قريش - وهم فى أنديتهم - مجالسهم - حول باب الكعبة - ألا إن عمر قد صبأ . فرد عمر من خلفه : كذب ولكنى أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .

وقعد عمر ، وقاموا على رأسه ، وهو يقول : افعلوا مابدا لكم . فأقبل شيخ من قريش حتى وقف عليهم ، فقال : ماشأنكم ؟ قالوا : صبأ عمر ، فقال: رجل اختار لنفسه أمرا ، فماذا تريدون ؟ أترون بنى عدى بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا ؟ خلوا عن الرجل ، فانصرفوا ، وكان ذلك الرجل العاص بن وائل السهمى .

— ٣ —

قال عمر : لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أى أهل مكة أشد عداوة لرسول الله حتى آتيه ، فأخبره أنى قد أسلمت ، فقلت : أبو جهل ـ وكان خال عمر ـ فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه فخرج إلى أبو جهل فقال : مرحبا وأهلا بابن أختى ، ماجاء بك ؟ قلت : جئت لأخبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد ، وصدقت بما جاء به فضرب الباب فى وجهى ، وقال : قبحك الله وقبح ماجئت به .

خاتمة الجزء الأول

- ١ -

ذلك النور السماوى العظيم ، الذى كان يظهر بين الحين والحين ، مبشراً برسالة سماوية جديدة ، فيها خير الحياة والوجود، لابد أن يظهر مرة أخرى على الأرض ليبدد الظلمات ، ويحارب الأوهام والضلالات ، ويمحو ماران على قلوب الناس من أباطيل وأساطير ، وجمود وجهل ، وعصبية أثيمة كاذبة .

وذلك الناموس الذى كان ينزل على إبراهيم وموسى وعيسى والانبياء من قبل ، لابد أن ينزل على رسول كريم من جديد : ليدعو الناس إلى أمثل الأخلاق ، وأكرم الآداب ، وأفضل الشرائع .

بهذا كان أهل الكتاب يتحدثون ، وبه كانوا يؤمنون ، تصديقا لبشارة الأنبياء والكتب السماوية بظهور إمام الأنبياء ، وخاتم المرسلين .

ومرت الأيام بطيئة مسرفة فى بطئها ، والظلام يشتد ، والظلم والاستبداد والطغيان ينتشر ، والوثنية والشرك يصبحان عقيدة الناس فى الحياة وتوالت البشارات ، تجدد الأمل، وتحيى الرجاء ، وتؤمن الناس على مستقبل الإنسانية، وتنبئهم بقرب بزوغ نور الفجر الجديد .

لابدأن ينهار ملك كسرى وقيصر ، لأنه يقوم على أسوأ النظم والشرائع والعقائد ، ولأن عهد استعمارهما للعالم لابد أن ينقرض ، والحرية الكبرى من ذا يصد تيارها الزاخر القوى المندفع بقوة الله ؟

وهؤلاء الباحثون عن الحقيقة الكبرى : ورقة بن نوفل الأسدى ، وزيد

ابن عمرو بن نفيل ، وعثمان بن الحويرث الأسدى ، وعبيد الله بن جحش . يجتمعون فى الجزيرة العربية فى يوم عيد لهم ، فيقول بعضهم لبعض: تعلمن والله ماقومكم على شىء ، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ، ما حجر نطيف به لايبصر ولا يضر ولاينفع ؟ ياقوم التمسوا لأنفسكم فإنكم والله ما أنتم على شىء . . . وذهبوا يطوفون فى البـــلاد يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم ،

وكان زيد يسند ظهره إلى الكعبة ويقول يامعشر قريش : والذى نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيرى. ثم يقول : والله لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ، ولكنى لاأعلمه ، ثم يسجد على راحلته .

نزل الوحى على محمد صلى الله عليه وسلم ، وشاهد محمد ما شاهد ، ورأى محمد ما رأى من الآيات الكبرى، وسمع الصوت الإلهى يناديه من كل مكان : يامحمد أنت رسول الله وهذا جبريل . ورجع إلى خديجة ينبئها النبأ ، فقالت : أبشر يا ابن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون هذه الأمة ، ثم انطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل تقص عليه القصص ، فقال ورقة: قدوس قدوس ، والذى نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتنى ياخديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وإنه لنبى هذه الأمة . . ولقيه ورقة فى الكعبة وهو يطوف بها فقال: ياأخى والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى .

ونزل القرآن الكريم دستور هذه الرسالة المحمدية العظمى ، وجاهد الرسول ومن آمن معه جهاد الابطال ليبلغ رسالة ربه إلى الناس كافة ، ليحمى حرية الدعوة إلى الدين من أذى المشركين وطغيانهم .

وقبل الهجرة ، بينما رسول الله صلوات الله عليه نائم فى بيت أم هانىء همته إذا جاء جبريل وملائكة معه ، فأضجع محمداً وشق صدره ، وأسرى به

إلى بيت المقدس فصلى بالأنبياء والرسل إماما ، ثم أتى بثلاثة آنية : من لبن وخمر وماء ، فأخذ إناء اللبن فشرب منه ، فقال له جبريل : هديت وهديت أمتك يا محمد ، ثم عرج إلى السماء ، فاستقبلته الملائكة والرسل والنبيون ، حتى إذا كان بالأفق الاعلى ، وقف أمام ربه يناجيه ، وثبته الله بالقول الصادق ، والإيمان الحق ، واليقين النبوى العظيم .

— ٢ —

وفى فجر يوم الإثنين لتسع ليال خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل ، كما يذهب إليه الكثير من الباحثين (وذلك يوافق العشرين من شهر إبريل عام ٥٧٠ م) .

فى هذه اللحظات الفذة فى تاريخ البشرية ، كان ميلاد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هشام بن عبد مناف بن قصى ، ولد الطفل الذى هتفت بذكره الأرجاء ، وسجل مواقفه الرائعة التاريخ ، وأنصتت لحديثه الدنيا ، واهتزت لأنباء جهاده فى بلاد العـــرب وما حولها الأمراء والملوك والأكاسرة والقياصرة ، وآمنت بمبادئه وكبرت لشريعته الحياة والناس أجمعون .

ولقد ألهم الله أمه آمنة أن مصير العالم سيكون بعد قليل فى يدى طفلها الوليد هذا ، وأن اسمه سيحتل الصفحات الأولى فى سجل الإنسانية ، وأن عصوراً جديدة توشك أن تبدأ ويكون بطلها الأول محمد بن عبد الله ، فأرسلت إلى جده عبد المطلب أنه قد ولد لك غلام ، فأتاه فنظر إليه وحدثته بما فى قلبها وما تزدحم به مشاعرها من شتى البشريات ومختلف الذكريات ، فأخذ عبد المطلب طفله ودخل به الكعبة ، وقام يدعو لله ويشكر له ما أعطاه ، ثم خرج به إلى أمه فدفعه إليها ، وقال لها : لقد سميته محمداً ليحمد فى الأرض والسماء . . . وفى اليوم السابع لمولده ختنه جده كما كان العرب يفعلون .

والتمس عبد المطلب لطفله مرضعاً من نساء البادية ، وكان من عادة

العرب أن تلتمس المراضع لأولادها فى البادية ، فاسترضع له امرأة من بنى سعد بن بكر ، وهى حليمة ابنة أبى ذؤيب ، وكان زوج حليمة هو الحارث بن عبد العزى وكان يكنى بأبى كبشة ، وكان إخوة محمد من الرضاعة : عبد الله بن الحارث وأنيسة بنت الحارث وخذامة بنت الحارث

وأقام محمد مسترضعاً فيهم قريبا من أربع سنين ، وكانت حليمة تحدث أنه ما حملها على أخذ هذا الطفل اليتيم لتقوم برضاعه إلا أنها لم تجد غيره ، وأنها قالت لبعلها وهى فى مكة تبحث عن طفل تذهب به : « والله إنى لأكره أن أرجع بين صواحبى ، ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه » ، فقال لها زوجها : « لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة » ، وكانت حليمة ترى الخير والنماء والبركة منذ مقدم هذا الطفل إلى حيها ، وكان محمد يشب شبابا حسنا ، وكان رضاعه عامين فلما نفدا وفدت به على أمه بمكة ترجو أن ترجع به ليقيم معها فى البادية زمناً آخر ، فلما مضت أشهر معدودة من عودته مع حليمة ذهب ليلعب مع أخيه خلف البيوت ، وسرعان ماقدم أخوه إلى أمه حليمة يشتد ، وهو يقول لها ولأبيه : « ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعاه ، فشقا بطنه فهما يسوطانه » ، فخرجت حليمة وبعلها نحوه ؛ فوجداه قائما منتقع الوجه ، فالتزمته والتزمه أبوه ، فقالا له : مالك يابنى ؟ » ، قال : « جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعانى وشقا بطنى ، فالتمسا شيئا لا أدرى ما هو : فخافت حليمة وزوجها على محمد .

ولما عادت به إلى مكة ، قصت على أمته قصته ، فقالت آمنة لحليمة : إن لابنى لشأنا ، ولقد رأيت حين حملت به نوراً خرج منى فأضاء لى قصور بصرى من أرض الشام ، ثم حملت به فوالله مارأيت من حمل حاملة قط كان أخف ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء ، دعيه عنك وانطلق راشدة » .

وأقام الغلام مع أمه فى كلاءة الله وحفظه ، ينبته الله نباتا حسنا لما يريد به من كرامته . فلما بلغ ست سنين توفيت أمه آمنة بالأبواء بين مكة والمدينة ، فماتت وهى راجعة به إلى مكة ، واستمر فى كفالة جده عبد المطلب يرعاه ويحبه ، ويجلسه معه على فراشه فى ظل الكعبة وبنو عبد المطلب يجلسون حول الفراش لا يستطيع أحد منهم الجلوس عليه مع عبد المطلب وطفله محمد ؛ وكان عبد المطلب يقول : دعوا ابنى فوالله إن له لشأنا » .

ولما بلغ الغلام ثمانى سنين مات عبد المطلب بن هاشم وورث مفاخره ابنه العباس وصار محمد بعد عبد المطلب فى كفالة عمه أبى طالب .

وكان أبو طالب سيدا من أجل سادات قريش وبنى هاشم ، وكان الناس يتنبأون أمامه بمستقبل جليل لهذا الغلام الصغير ، وأنه سيكون له شأن وأى شأن . ولما سافر بمحمد إلى الشام فى تجارته ، وقابله بحيرا الراهب قال بحيرا لأبى طالب : ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم .

وحفظ الله محمدا وعصمه من أقذار الجاهلية ، وصار أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم جوارا ، وأكرمهم حسبا ، وأحسنهم جوارا ، وأعظمهم حلما . وأصدقهم حديثا ، وأبعدهم عن الفحش والدنس ، وأكثرهم أمانة ، حتى سماه قومه « الأمين » .

وخاض مع قومه حرب الفجار وهو فى الخامسة عشرة من عمره . واشترك فى حلف الفضول على نصرة المظلوم ، وتزوج خديجة بنت خويلد الأسدية وهو فى الخامسة والعشرين من سنى حياته الميمونة ، وهدمت قريش الكعبة لتجدد بناءها واختلفوا فيمن يكون له شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه فكان محمد الحكم بينهم ، وارتضى حكمه الناس جميعا ، وكان إذ ذاك فى الخامسة والثلاثين .

وكان يعبد الله على الحنيفية البيضاء دين إبراهيم وإسماعيل ، ويتعبد فى غار حراء الليالى ذوات العدد . فلما بلغ الأربعين اختاره الله لرسالته العظمى ، واصطفاه ليحمل أمانة الله ووحيه إلى الناس كافة . وليكون خاتم المرسلين وخير النبيين . ونزل عليه جبريل بالوحى وهو فى حراء يوم الإثنين لسبعة عشرة ليلة خلت من رمضان (٦ أغسطس ٦١٠ م) وعمره إذ ذاك أربعون سنة وستة أشهر وثمانية أيام . . قال له جبريل : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، قال : اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » ، وسمع الصوت مجلجلا فى السماء : « يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل » .

— ٢ —

وبعد فهذا هو الجزء الأول من كتابى « سيرة رسول الله » يحمل إليك تاريخ هذه الحقبة الخالدة من تاريخ الإسلام والعرب والإنسانية ، ويصور لك ملامحها وأحداثها وما كان من قريش فيها .

ولا أزيدك شرحا لما كتبت ، ولا تفسيرا لما سطرت فى هذا الجزء .

وأدعو الله بالتوفيق والسداد ، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، وينفع به ، إنه سميع مجيب الدعاء ، وما توفيق إلا بالله ؟

المؤلف

ملاحظات

من مراجع السيرة النبوية :

١ — فلسفة تاريخ محمد لمحمد جميل بيهم

٢ — محمد رسول الله هكذا بشرت الأناجيل - تأليف بشرى زخارى

٤ — محمد المستشرق الفرنسى مكسيم رودينسون - طبع عام ١٩٦١

٤ — محمد خاتم الأنبياء بقلم أحد المستشرقين

٥ — حياة الصحابة تأليف محمد يوسف الكان دهلوى - ٣ أجزاء ، وقد طبع فى القاهرة فى مطبعة دار النصر عام ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ فى ثلاثة أجزاء

٦ — مكة والمدينة فى العصر الجاهلى وعهد الرسول - لأحمد الشريف ، وهو رسالة ماجستير من آداب عين شمس عام ١٩٦٣ - بإشراف د . عبد الهادى سعده

٧ — السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة للدكتور محمد أبو شهبة - جزءان

من مشاهير مؤرخى السيرة :

نشر الدكتور إبراهيم أحمد العدوى بحثا فى المجلة التاريخية المصرية ص ١٦٩ - ١٨٣ المجلد ١٣ الصادر عام ١٩٦٧ عن مشاهير مؤرخى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قسمهم إلى أربعة مدارس :

١ — المدرسة الأولى ، وتشمل : عروة (ت ٩٤ هـ) ، أبان بن عثمان

(ت ٩٥ أو ١٠٥ﻫ) ، شرحبيل بن سعد (ت ١٢٣ ﻫ) ، وهب بن منبه (ت ١١٠ ﻫ)

٢ — المدرسة الثانية وتشمل : عاصم بن عمرو بن قتادة (ت ١٢٠ﻫ) ، وعبد الله بن حزم (١٣٠ ﻫ) ، والزهرى (١٢٤ ﻫ)

وفى رأيى أن هاتين المدرستين يجب أن تعدا مدرسة واحدة

٣ — المدرسة الثالثة وتشمل : موسى بن عقبة (١٤١ ﻫ) ، معمر ابن راشد (١٥٤ ﻫ) ، محمد بن إسحاق (١٥١)

٤ — المدرسة الرابعة ومنها : الواقدى (١٣٠ - ٢٠٧ ﻫ) ، وأضيف أنا إليها البكائى (١٨٣ﻫ) :

استدراك

السطر	الصفحة	الكلمة	صحتها
١٤	٢٤	٤٦٧	٢٦٧
١٥	٣٤	٢٨٣	٢٧٣
٥	٢٥	٤٨٠	٥٨٠

فهرست الجزء الأول من السيرة

سيرة رسول الله

صلى الله عليه وسلم

كتابات جديدة للسيرة النبوية ، مع مراجعات واقتباسات من أمهات كتب السيرة ، وبخاصة سيرة ابن هشام .

بقلم

محمد عبد المنعم خفاجي

الجزء الثاني

دار الطباعة المحمدية
بالأزهر - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

— ١ —

صلى الله عليك وسلم يارسول الله ، ومحرر الإنسانية ، ومنقذ الشعوب ومحطم الوثنية ، ومن اهتزت لذكره الطغاة ، وهتفت باسمه الحياة ، وعنت لجلاله وجوه العظماء ، وآمنت برسالته الامم .

صلى الله عليك وسلم يامحمد بن عبد الله فى جلالك وكمالك ، وتواضعك وحلمك ، وعظمتك وعزة نفسك وثباتك فى الشدائد ، وصبرك على المحن ، وتحدّيك للتاريخ وللناس فى سبيل رسالة الله وشريعته العظمة ، الإسلام .

صلى الله وسلم عليك فى مولدك ونشأتك ، وفى طفولتك وشبابك ، وفى تلقيك الوحى فى حراء ، وتبليغه لقومك وأهلك ، وفى هجرتك وغزواتك ، ويوم صعدت روحك إلى الرفيق الأعلى بعد أن أديت الرسالة ، وبلغت الامانة ، ونشرت الوحى ، وأذعت كلمة الله على الأفواه ، وحطمت الاصنام من بيت الله العتيق ، ومن كل مكان فى جزيرة العرب .

صلى الله وسلم عليك يابن عبد الله ، فلقد أنشأت أساس حضارة سامية ، وأقمت دعائم مدنية رفيعة ، وسارت باسم الله وبدعوتك الجيوش الإسلامية ، تنشر النور وتبلغ الشريعة وتهزم الظلم وتحطم الطغيان وتنشر العلم والثقافة فى كل مكان ،

صلى الله وسلم عليك يانبى العرب ، يامن حطمت الفروق الظالمة بين الانسان والانسان ، وحاربت العصبية والطائفية ، ومحوت سيادة العناصر والالوان والاجناس ، وأكدت أن لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأعجمى على عربى إلا بالتقوى والعمل الصالح .

صلى الله وسلم عليك يارسول الحرية والسلام يامن اعتزت بك

وبشريعتك كل الطوائف والافراد فحررت المرأة والعامل والخادم والصانع والرقيق ، وجعلت الشعوب تشعر بمعنوياتها ، والرعاة يعتزون بكرامتهم ، وقامت شريعتك مقام السيف فى تأديب الطغاة، وتقليم أظافر الضلال والجمود والشرك والطغيان .

صلى الله عليك وسلم ، يانبى الرحمة ، ويامن أثنى عليه الله جل جلاله فى وحيه ، ونزل الفرقان ناطقا برسالته ، وأكد الوحى ختمه الرسالات والنبوات فى الأرض ، وارتعبت اليهودية المحرفة وسواها من الشرائع المبدلة كلما ذكر اسمك ، أو ذكرت رسالتك وشريعتك .

صلى الله وسلم عليك ياخير الخلق وياهادى الانسانية ومرشد الناس . ومهذب الجماعات ، وصديق المظلوم ، ويامن انتصرت على الباطل والوثنية والظلم والضلال والظلام ، بتأييد الله ونصره وعونه ورعايته . ولازالت الشعوب الاسلامية ينصرها تأييد الله وعونه ورعايته مهما تألبت عليها الاحداث ، ودبرت لها المكائد ، ومهما حاول دعاة الالحاد القضاء على شريعتك ورسالتك، وعلى معنويات أتباعك وحملة رسالتك ، والنصر بيد الله يهبه من يشاء من عباده المؤمنين .

صلى الله وسلم عليك ، والعزة لله ولشريعتك ، والنصر والتأييد لكلمة الحق ، ودعوة الحرية، ورسالة العزة والكرامة والإخاء والمساواة : للإسلام الكريم ، ولشعوبه المكافحة فى الحياة .

— ٢ —

وبعد ، فهذا هو الجزء الثانى من كتابنا « سيرة رسول الله » ، نقدمه للقارىء المسلم فى كل مكان ، داعين الله أن ينفع به ، وأن يجعله لسان صدق فى الدنيا والآخرة :

إنه المسئول المأمول ، والهادى إلى الحق ، وإلى سواء السبيل .

وماتوفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ؟ .

شخصية الرسول

كان محمد صلوات الله عليه أعظم شخصية ظهرت فى العالم كله خلال مختلف عصور التاريخ ، كان مثلا أعلى للإنسانية فى حياتها الطويلة ، وكان ملاذاً للمثل العليا ، وللقيم الروحية فى الحياة ، وحسبك به من رسول غير مجرى الحياة ، وإنسان بدل سير التاريخ ، وبشر جمع صنوف الكمالات ، وقائد ضرب أروع الأمثال ، ومعلم للبشرية بدلها بالظلام نورا ، وبالجهل علما ، وبالوثنية والشرك إيماناً وتوحيداً ، وبالوحشية مدنية وحضارة وعمراناً .

كان فى طفولته ويتمه مثال النبل والجمال والكمال ، وفى شبابه مثال الأمانة والعفة والخلق الرفيع ، وفى رجولته كان أرفع شخصية فى مكة ، وكان الحكم بين القبائل حين اختلفت على من يضع الحجر الأسود فى مكانه يوم أن جددت قريش البيت العتيق ثم نزل عليه الوحى من السماء . وأضاف إلى هذه الكمالات اللانهائية كمالا آخر مستمداً من الله وعنايته .

وسخرت به قريش وناوأوه وعذبوه ، وشردوا أنصاره وفتنوهم ، ومحمد صامد صمود الجبال ، لاتلين له قناة ، ولا يفرط فى أمانة . . إن من شأن الإنسان أن يجامل ويدارى وينافق ، حين يشتد الظلم ، وأن يسكت عن عقيدته أحيانا حين يسلط عليه العذاب ، ومع ذلك فان محمداً لم يلن ولم يهن ولم يسكت ولم يجامل ، وقال لعمه : « والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ماتركته أو أهلك دونه » ، ثم هاجر بدينه وهاجر من بلاد قومه ، وصار الزعيم الروحى الأكبر لكل من آمن برسالته ، كما صار الحاكم الأكبر للمدينة ، فضرب أروع الأمثال فى السياسة والشورى والديمقراطية وحب العدالة والإيمان بالحق والحرية والإخاء والمساواة .

وقاد محمد المسلمين ليدفع عن العقيدة الإسلامية عدوان جيوش المشركين ، فكان أعظم قائد فى السلام ، ومعاملته للأسرى وللقبائل المهزومة وللبلاد المفتوحة دستور عظيم من التسامح والإنسانية ، وهو الذى قال لخصومه من قريش بعد فتح مكة (اذهبوا فأنتم الطلقاء) .

ثم استقرت الدعوة الإسلامية فى الحجاز ، فبعث بكتبه ورسله إلى الملوك والأمراء فى كل مكان حتى إلى كسرى وقيصر ؟ نعم وأيم الله ، أرسل يدعوهما إلى الإسلام ، وهما القادران على أن يدكا جزيرة العرب كلها بمن فيها وما فيها دكاً بالجيوش والسلاح .

ومن عجب أن تنبغ شخصية الرسول محمد اليتيم فى طفولته فى وقت مبكر جداً وغير مألوف ، أليس ذلك معجزة لرسول الله حتى وهو فى المهد صبى ، وكذلك من شأن الشاب أن يعيش كما يعيش الناس فى بيئته ، وأن يفكر فيما يفكرون فيه ، ولكن محمداً خالف ذلك كله فأضرب عما فيه قومه وأخذ يبحث عن الحق والنور .

ومن شأن أبناء الأسر الكبيرة أن ينشأوا على اللهو والترف ، أو على الفجور والطغيان ، ولكن محمداً لم يكن كذلك بأية حال فى شبابه .

معجزات فى معجزات فى حياة الرسول الأكرم ، وشخصية ويالها من شخصية ، اهتزت لها الجبال ، وهتفت باسمها الأجيال ، ولا يزال التاريخ يذكرها بالإعجاب والتقدير والإجلال . فسلام عليك يامحمد فى الخالدين ، وسلام على أمتك فى العالمين ، والمجد لدينك كلما أضاء النيران ، وتعاقب الجديدان ، وأنت حقاً آخر المرسلين ، وخاتم النبيين ؟

الفصل الثامن
من الباب الرابع

مقاطعة قريش ابنى هاشم وبنى المطلب

في العام السابع من البعثة

وما تلاها من أحداث ، وما لقيه الرسول من إيذاء

— ١ —

رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلدا ـ الحبشة ـ أصابوا به أمنا وقرارا ، وأن النجاشى منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمزة مع رسول الله وأصحابه ، وجعل الإسلام ينتشر فى القبائل .

فاجتمعوا واتمروا أن يكتبوا معاهدة يتعاقدون فيها على بنى هاشم ، وبنى المطلب : ألا يتزوجوا منهم ، ولا يزوجوا أحدا من بناتهم فيهم ، ولا يبيعوهم شيئا ، ولا يشتروا منهم .

وتعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، وكتبوه فى صحيفة . ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم [1] .

---

(١) يقول ابن القيم فى زاد المعاد (١ : ٤٧) : إن الحصار كان فى شعب أبى طالب ثلاث سنين وخرج رسول الله من الحصار وله ٤٩ عاما وقيل ٤٨ عاما ، وبعد ذلك مات عمه عن سبع وثمانين سنة ، ثم خديجة . وفى الشعب ولد ابن عباس .

وكان كاتب الصحيفة هو منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم ابن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى(١) . فدعا عليه رسول الله ، فشل بعض أصابعه .

— ٢ —

وإثر ذلك انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبى طالب فدخلوا معه فى شعبه(٢) ، فاجتمعوا إليه ، ما عدا أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب ، فخرج إلى قريش فظاهرهم وتحالف معهم . . وهذا الشعب بأواسط مكة ، وكان الحصار فى مطلع السنة السابعة للبعثة .

ولقى أبو لهب هند بنت عتبة بن ربيعة، وقد فارق قومه ، وأعان عليهم قريشا ، فقال لها : يا بنت عتبة ، هل نصرت اللات والعزى . وفارقت من فارقهما وظاهر عليهما ؟

قالت : نعم ؛ فجزاك الله خيرا .

وكان يقول : يعدنى محمد أشياء لا أراها ، يزعم أنها كانت كائنة بعد الموت ، فماذا وضع فى يدى بعد ذلك ؟ وينفخ فى يده ، ثم يقول : تباً لكما ما أرى فيكما شيئا مما يقول محمد فأنزل الله تعالى فيه : تبت يدا أبى لهب ، وتب(٣) (١ : ١١١) .

— ٣ —

وفى ذلك يقول أبو طالب :

ألا أبلغا عنى على ذات بيننا لؤيا ، وخصا من لؤى بنى كعب

---

(١) ويقال : هو النضر بن الحارث . وقال السهيلى : للنساب من قريش فى كاتب الصحيفة قولان : أنه بغيض بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، أو أنه منصور بن عبد شرحبيل بن هاشم من بنى عبد الدار .

(٢) الشعب : كل فرجة بين جبلين .

(٣) التباب : الخسار والهلاك .

ألم تعلموا أنا وجدنا محمدا	نبيا كموسى ، خط فى أول الكتب
وأن عليه فى العباد محبة	ولا خير ممن خصه الله بالحب
وأن الذى ألصقتم من كتابكم	لكم كائن نحسا كراغية السقب(١)
أفيقوا أفيقوا قبل أن يحفر الثرى	ويصبح من لم يجن ذنبا كذى الذنب
ولا تتبعوا أمر الوشاة وتقطعوا	أواصرنا بعد المودة والقرب
فلسنا — ورب البيت — نسلم أحمدا	لعزاء من عض الزمان ولا كرب

وأقام بنو هاشم وبنو المطلب على ذلك سنتين أو ثلاثا ؛ لا يصل إليهم شيء إلا سرا ، يستخفى به من أراد صلتهم من قريش .

لقى أبو جهل حكيم بن حزام بن خويلد — وهو ابن أخى خديجة زوج الرسول — ومعه غلام يحمل قمحا ، يريد به عمته خديجة ، وهى فى الشعب مع رسول الله . فتعلق به ، وقال له : أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم ، والله لاتبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة ، فجاءه أبو البخترى ابن هشام بن الحارث ، فقال : ما لك وله ؟ فقال : يحمل الطعام إلى بنى هاشم ! فقال له أبو البخترى : طعام كان لعمته عنده بعثت إليه أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خل سبيل الرجل . . فأبى أبو جهل ، ونال أحدهما من الآخر ، فضربه أبو البخترى فشجه ووطئه وطئاً شديداً ، وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك ، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله وأصحابه ، فيشمتوا بهم : ورسول الله على ذلك يدعو قومه ليلا ونهاراً ، سراً وجهاراً ، داعياً إلى دين الله ، لا يتقى فى ذلك أحدا من الناس .

— ٤ —

ومنع الله رسوله من قريش ، وحماه من شرهم ، وقام عمه وقومه من

---

(١) الراغية من الرغاء وهو صوت الإبل . السقب : ولد الناقة — وأراد به ولد ناقة صالح .

بنى هاشم وبنى المطلب دونه ، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به .

وجعل القرآن ينزل فى قريش بأحداثهم ، وفيمن نصب لعداوته منهم :

١ — ومنهم عمه أبو لهب بن عبد المطلب ، وامرأته أم جميل بنت حرب ، حمالة الحطب . وسماها الله تعالى حمالة الحطب . لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله حيث يمر .

وحين سمعت ما نزل فيها وفى زوجها من القرآن الكريم ، أتت رسول الله وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر ، وفى يدها حجر ، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ، فلا ترى إلا أبا بكر فقالت : يا أبا بكر أين صاحبك ؟ قد بلغنى أنه يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ، أما والله إنى لشاعرة ، ثم قالت :

مذمما عصينا

وأمره أبينا

ودينه قلينا

ثم انصرفت . فقال أبو بكر : يارسول الله ، أما تراها رأتك ؟ قال : ما رأتنى ، لقد أخذ الله ببصرها عنى .

وكانت قريش قد سمت رسول الله مذمما ، تسبه بعد ما عاب أحلامها وذم أصنامها ، وكان رسول الله يقول :

« ألا تعجبون لما صرف الله عنى من أذى قريش ؟ يسبون ويهجون مذمما وأنا محمد » .

٢ — ومنهم أمية بن خلف الجمحى ، كان إذا رأى رسول الله همزه ولمزه فأنزل الله تعالى فيه (١ : ١٠٤) :

ويل لكل همزة لمزة(١)

٣ — العاص بن وائل السهمى ، قال لخباب بن الأرت(٢) ، وقد جاء يتقاضاه دينا له عليه :

أليس يزعم محمد صاحبكم هذا ، الذى أنت على دينه ، أن فى الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم .

فقال له خباب : بلى .

قال : فأنظرنى إلى يوم القيامة ياخباب حتى أرجع إلى تلك الدار ، فأقضيك هنا لك حقك ، فو الله لا تكون أنت وأصحابك — ياخباب — آثر عند الله منى ، ولا أعظم حظا فى ذلك .

فأنزل الله تعالى فيه (٧٧ وما بعدها — سورة ١٩) :

أفرأيت الذى كفر بآياتنا .

وقال لأوتين مالا وولدا .

أطلع الغيب ؟ .

٤ — ولقى أبو جهل بن هشام رسول الله فقال له : والله يامحمد لتتركن سب آلهتنا ، أو لنسبن إلهك الذى تعبد ، فأنزل الله تعالى عليه فيه (١٠٨ سورة ٦) :

---

(١) إلى آخر الآيات الكريمة من السورة (١ — ٩) — وهمزة لمزة : أى كثير الهمز — وهو الشتم — واللمز وهو الغمز بالغيب ، فهو الذى يعيب الناس سرا ويؤذيهم .

(٢) كان قينا — حدادا — يعمل السيوف بمكة ، وكان قد باع من العاص سيوفا عملها له ، حتى إذا كان له عليه مال ، جاءه يتقاضاه .

ولاتسبوا الذين يدعون من دون الله .

فيسبوا الله عدوا بغير علم .

فكف رسول الله عن سب آلهتهم ، وجعل يدعوهم إلى الله .

٥ — ومنهم النضر بن الحارث ، كان إذا جلس رسول الله مجلسا ، فدعا فيه إلى الله ، وتلا فيه القرآن ، وحذر قريشاً ما أصاب الأمم الخالية ، خلفه فى مجلسه إذا قام . فحدثهم عن رستم واسفنديار(١) وملوك الفرس ، ثم يقول : والله ما محمد بأحسن حديثا منى ، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها ، كما اكتتبها فأنزل الله تعالى فيه (٥ و ٦ من سورة ٢٥) :

وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها .

فهى تملى عليه بكرة وأصيلا .

قل أنزله الذى يعلم السر

فى السموات والأرض .

إنه كان غفورا رحيما .

٦ — وجلس رسول الله يوما مع الوليد بن المغيرة فى المسجد(٢) ،

---

(١) راجع أخبار أردشير بهمن بن اسفنديار بن بستاسب (١ : ٤٠٤ طبرى — طبعة التجارية) ، وفى عهده كان تبع تبان أبو كرب أسعد .

ومن ملوك الفرس : سابور الأول (٢٤١—٢٧٢ م) ، وفى عهده ظهرمانى، وسابور الثانى (٣٠٩ — ٣٧٩ م) .

ومن ملوكهم : كسرى الثانى (أبرويز) الساسانى الذى تولى الملك عام ٥٩٠م توفى سنة ٦٢٨ م

(٢) كان الوليد بن المغيرة قد عملت له قريش تاجا ليتوجوه به ، وكانوا يسمونه ، ريحانة قريش ، فجاء الإسلام فانتقض أمره وهو أول من خلع نعليه لدخول الكعبة (٣٨ الأوائل لأبى هلال) ، وقيل : هو أول من حرم الخمر فى الجاهلية (المرجع نفسه — ص ٣٨) . وأول من قطع فى السرقة كذلك (ص =

فجاء النضر بن الحارث، حتى جلس معهم فى المجلس ، وفى المجلس رجال من قريش ، فتكلم رسول الله ، فعرض له النضر ، فكلمه رسول الله حتى أفحمه ، ثم تلا عليه وعليهم (٩٨ : ٢١) .

« إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » .. ثم قام رسول الله ، وأقبل ابن عبد الله بن الزبعرى السهمى حتى جلس ، فقال الوليد بن المغيرة له : والله ماقام النضر لابن عبد المطلب آنفا وما قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم ، فقال ابن الزبعرى : أما والله لو وجدته لخصمته ، فسلوا محمدا أكل ما يعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده ، فنحن نعبد الملائكة ، واليهود عزيرا ، والنصارى عيسى . فعجب الوليد ومن معه فى المجلس من قوله ، ورأوا أنه قد احتج وخاصم ، فذكر ذلك لرسول الله . فقال رسول الله :

« كل من أحب أن يعبد من دون الله
فهو مع من عبده » .
وأنزل الله تعالى (٢٩ : ٢١)
« ومن يقل منهم إنى إله من دونه
فذلك نجزيه جهنم
كذلك نجزى الظالمين »

=٤٢ - المرجع) وكان أول من بوب بمكة بابا حاطب بن بلتعة ، وأول من سقف بها بيتا بديل بن ورقاء الخزاعى (ص ٤٥ المرجع) .

وهو والد خالد بن الوليد ، ومات بعد الهجرة بعام ، وكان يقول : أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ؛ ويترك ابن مسعود الثقفى سيد ثقيف ونحن عظيما القريتين .

ونزل أيضا (٥٧ : ٤٣) :

ولما ضرب ابن مريم مثلا

إذا قومك منه يصدون .

٧ - وكان الأخنس بن شريق الثقفي يصيب من رسول الله ويرد عليه، وكان من أشراف القوم ، وممن يستمع منه ، فأنزل الله تعالى فيه (١٠ : ٦٨) :

ولا تطع كل حلاف مهين .

٨ — وكان الوليد بن المغيرة يقول : «أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ويترك أبو مسعود عمرو الثقفي سيد ثقيف ، فنحن عظيما القريتين ، فأنزل الله تعالى فيه (٣١ : ٤٣) :

وقالوا لولا نزل هذا القرآن

على رجل من القريتين عظيم

٩ — ومنهم أبي بن خلف الجمحي ، وعقبة بن أبي معيط ، وكانا صديقين ، فكان عقبة قد جلس إلى رسول الله وسمع منه ، فبلغ ذلك أبيا ؛ وأتى عقبة ، فقال له : ألم يبلغني أنك جالست محمدا وسمعت منه ؟ وجهي من وجهك حرام أن أكلمك ، إن أنت جلست إليه أو سمعت منه ، أو لم تأته فتتفل في وجهه ، ففعل ذلك عدو الله عقبة ، فأنزل الله تعالى فيهما (٢٧ : ٢٢) :

ويوم يعض الظالم على يديه

يقول . ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا

وذهب أبي إلى رسول الله ، وفي يده عظم بال ، فقال : يا محمد ، أنت تزعم أن الله يبعث هذا ؟ ثم فته بيده ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ، فقال له رسول الله :

« نعم ، أنا أقول ذلك
يبعثه الله وإياك
بعد ما تكونان هكذا
ثم يدخلك الله النار »
فأنزل الله تعالى فيه (٧٨ : ٣٦) :
وضرب لنا مثلا ونسى خلقه
قال : من يحيى العظام وهى رميم ؟
قل : يحييها الذى أنشأها أول مرة .

١٠ — واعترض الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى والوليد ابن المغيرة ، وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل السهمى ، رسول الله وهو يطوف بالكعبة . وكانوا ذوى أسنان فى قومهم ، فقالوا : يامحمد هلم ، فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت فى الأمر ، فإن كان الذى تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه . فأنزل الله تعالى فيهم (١ و ٢) .

قل : يا أيها الكافرون
لا أعبد ما تعبدون — السورة كلها

١١ — ولما ذكر الله شجرة الزقوم تخويفا لهم ، قال أبو جهل :
« يا معشر قريش ، هل تدرون ما شجرة الزقوم
التى يخوفكم بها محمد ؟
قالوا : لا
قال : عجوة يثرب بالزبد »
فأنزل الله تعالى (٤٣ وما بعدها : ٤) :
« إن شجرة الزقوم
طعام الأثيم .

١٢ — ووقف الوليد بن المغيرة مع رسول الله ، والرسول يكلمه ، وقد طمع فى إسلامه ، فبينا هو فى ذلك ، مر به ابن أم مكتوم [1] الأعمى ، فكلم رسول الله ، وجعل يستقرئه القرآن ، فشق ذلك منه على رسول الله ، حتى أضجره ، وذلك أنه شغله عما كان فيه من أمر الوليد ، وما طمع فيه من إسلامه ، فلما أكثر عليه انصرف عنه عابسا ، وتركه ، فأنزل الله تعالى فيه (١ وما بعدها : ٨٠) :

«عبس وتولى
أن جاءه الأعمى»

— ٥ —

وفى هذه الأثناء بلغ المسلمين فى الحبشة إسلام أهل مكة ، فتركوا الحبشة وعادوا إلى وطنهم لما بلغهم من ذلك ، حتى إذا دنوا من مكة ، وعرفوا الأمر على وجهه ، وأن ما بلغهم من إسلام أهل مكة كان باطلا عاد الكثير منهم إلى الحبشة وهذه هى الهجرة الثانية ؛ ولم يدخل أحد منهم مكة إلا مستخفيا أو بجوار ؛ فكان ممن قدم على الرسول مكة منهم :

١ — عثمان بن عفان وامرأته رقية بنت رسول الله .

٢ — أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وامرأته سهلة بنت سهيل .

٣ — عبد الله بن جحش ،

٤ — عتبة بن غزوان .

٥ — الزبير بن العوام .

---

(١) هو أحد بنى عامر بن لؤى ، واسمه عبد الله .

٦ — مصعب بن عمير بن هاشم .

٧ - طليب بن عمير بن وهب .

٨ — عبد الرحمن بن عوف .

٩ — المقداد بن عمرو .

١٠ — عبد الله بن مسعود .

١١ أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى ، وامرأته أم سلمة

١٢ — شماس بن عثمان

١٣ — سلمة بن هشام ، حبسه عمه بمكة فلم يهاجر إلا بعد الخندق .

١٤ — عياش بن أبى ربيعة بن المغيرة ، لم يهاجر إلا بعد الخندق .

١٥ — عمار بن ياسر ، وفى هجرته إلى الحبشة شك .

١٦ — معتب بن عوف .

١٧ — عثمان بن مظعون ، وابنه السائب ، وأخواه : قدامة وعبد الله .

١٨ — خنيس بن حذافة ،

١٩ — هشام بن العاص ، هاجر بعد الخندق .

٢٠ — عامر بن ربيعة ، وامرأته ليلى بنت أبى حثمة بن غانم .

٢١ — عبد الله بن مخرمة .

٢٢ — عبد الله بن سهيل .

٢٣ — أبو سبرة بن أبى رهم بن عبد العزى وامرأته أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو .

٢٤ — السكران بن عمرو بن عبد شمس ، وامرأته سودة بنت زمعة

ابن قيس ، ومات بمكة قبل هجرة رسول الله ، فتزوج رسول الله سودة .

٢٥ — سعد بن خولة .

٢٦ — أبو عبيدة بن الجراح .

٢٧ — عمرو بن الحارث .

٢٨ — سهيل بن بيضاء .

وجميع من قدم على رسول الله مكة من أصحابه ثلاثة وثلاثون .

والذين دخلوا منهم مكة بجوار :

١ — عثمان بن مظعون (١) دخل بجوار الوليد بن المغيرة .

٢ — أبو سلمة دخل بجوار خاله أبي طالب (٢) .

فأما عثمان بن مظعون فأقام بمكة بعد عودته ، وشاهد مافيه أصحاب رسول الله من البلاء ، وهو يغدو ويروح فى أمان الوليد : فقال : والله إن غدوى ورواحى آمنا بجوار مشرك وأهل دينى وأصحابى يلقون من البلاء والأذى فى الله مالا يصيبنى لنقص كبير فى نفسى . . ومشى إلى الوليد فقال له : يا أبا عبد شمس ، وفت ذمتك ، قد رددت إليك جوارك ؛ فقال له : لم يا ابن أخى ، لعله آذاك أحد من قومى ، قال : لا ، ولكنى أرضى بجوار الله ، ولا أريد أن أستجير بغيره ، قال : فانطلق إلى المسجد فاردد على جوارى علانية كما أجرتك علانية .. فانطلقا ، حتى أتيا المسجد ، فقال الوليد هذا عثمان قد جاء يرد على جوارى ، قال عثمان : صدق ، قد وجدته وفيا

---

(١) توفى بعد بدر فى شعبان من السنة الثالثة ، وكان قد حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية ، وهو أول من دفن ببقيع الفرقد (١ / ١١٦) سير أعلام النبلاء للذهبى .

(٢) أم أبى سلمة هى برة بنت عبد المطلب .

كريم الجوار ، ولكنى قد أحببت ألا أستجير بغير الله ، فقد رددت عليه جواره . ثم انصرف عثمان .

فمر عثمان بلبيد بن ربيعة فى مجلس من قريش ينشدهم ، فجلس معهم عثمان فبدأ لبيد فأنشد :

ألا كل شىء ماخلا الله باطل

فقال عثمان : صدقت .

ثم قال لبيد :

وكل نعيم لامحالة زائل

فقال عثمان : كذبت ، نعيم الجنة لايزول .

فقال لبيد : يامعشر قريش ، والله ماكان يؤذى جليسكم ، فمتى حدث هذا فيكم . فقال رجل من المجلس : إن هذا سفيه فى سفهاء معه قد فارقوا ديننا ، فلا تجدن فى نفسك من قوله .

فرد عليه عثمان ، وتفاقم الأمر ، فقام ذلك الرجل فلطم عينى عثمان ، والوليد فى المجلس يرى ويسمع ، فقال : أما والله يا ابن أخى إن كانت عينك عما أصابها لغنية ، لقد كنت فى ذمة منيعة ، فقال عثمان : بل ـ والله ـ إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها فى الله ، وإنى والله لفى جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس ، فقال له الوليد : هلم يا ابن أخى ـ إن شئت ـ إلى جوارك ، فعد . . فقال عثمان : لا .

وأما أبو سلمة فقد دخل مكة بجوار أبى طالب ، ومشى رجال من بنى مخزوم إلى أبى طالب ، فقالوا : ياأبا طالب ، ماهذا ؟ منعت منا ابن أخيك محمدا ، فالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟ قال : إنه استجار بى ، وهو ابن أختى ، وإن أنا لم أمنع ابن أختى لم أمنع ابن أخى ، فقام أبو لهب فقال : يامعشر

قريش والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ ، ماتزالون تتواثبون عليه فى جواره من بين قومه ، والله لتنتهن عنه أو لنقومن معه فى كل ماقام فيه حتى يبلغ ماأراد ، فقالوا : بل ننصرف عما تكره ياأبا عتبة .

وطمع أبو طالب فى أبى لهب حين سمعه يقول مايقول ، ولكن لم يرد الله له الهداية .

ومن عدا هؤلاء عادوا إلى الحبشة ثانية ، وهذه هى الهجرة الثانية إلى بلاد النجاشى .

— ٦ —

وضاقت على أبى بكر الصديق مكة ، وأصابه فيها الأذى ، ورأى من تظاهر قريش على رسول الله وأصحابه مارأى ، فاستأذن رسول الله فى الهجرة ، فأذن له ، فخرج أبو بكر مهاجرا ، حتى إذا سار خارجا من مكة يوما أو يومين ، لقيه ابن الدغنة سيد الأحابيش (١) ، فقال لأبى بكر :

إلى أين ياأبا بكر ؟

فرد عليه أبو بكر : أخرجنى قومى وآذونى وضيقوا على .

قال : ولم ، فوالله إنك لتزين العشيرة ، وتعين على النوائب ، وتفعل المعروف ، وتكسب المعدوم ؛ ارجع وأنت فى جوارى .

فرجع معه أبو بكر ، حتى إذا دخل مكة ، قال ابن الدغنة : يامعشر قريش ، إنى قد أجرت ابن أبى قحافة ، فلا يعرضن له أحد إلا بخير ؛ فكفوا عنه ، وكان لأبى بكر مسجد عند باب داره فى بنى جمح ، فكان يصلى فيه ، وكان

---

(١) هم أحياء من القارة ، انضموا إلى بنى ليث ، والتحبش : التجمع ـ وقيل حالفوا قريشا تحت جبل بأسفل مكة يسمى حبشيا ، فسموا بذلك . وابن الدغنة : اسمه ربيعة بن رفيع .

إذا قرأ القرآن استبكى ، فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته . .

فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة ، فقالوا له : إنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا ، إنه رجل إذا صلى وقرأ ماجاء به محمد يرق ويبكى ، وله هيئة ونحو ، فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا أن يفتنهم ، فمره أن يدخل بيته فليصنع فيه ماشاء .

فمشى إلى أبى بكر ، فقال له : يا أبا بكر ، إنى لم أجرك لتؤذى قومك، إنهم قد كرهوا مكانك الذى أنت به ، وتأذوا بذلك منك ، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت ، قال أبو بكر : أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله . قال : فاردده على جوارى ، قال : قد رددته عليك ، فقال : يامعشر قريش ، إن ابن أبى قحافة قد رد على جوارى ، فشأنكم بصاحبكم .

ومر بأبى بكر سفيه من سفهاء قريش ، وهو قاصد إلى الكعبة ، فحثا على رأسه ترابا ، فمر الوليد بن المغيرة ، فقال أبو بكر : ألا ترى مايصنع هذا السفيه ؟ قال : أنت فعلت ذلك بنفسك . فأخذ أبو بكر يقول : أى رب ، أى رب ماأحلمك . أى رب ماأحلمك ، أى رب ماأحلمك .

— ٧ —

ومضى نحو ثلاث سنوات على الصحيفة ، وبنو هاشم وبنو المطلب حيث هم .

وآذى ذلك نفرا من قريش ، من مثل : هشام بن عمرو الذى كان ابن أخى نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه وكان هشام لبنى هاشم واصلا ، وكان ذا شرف فى قومه،فكان فى الحصار يأتى بالبعير ليلا ، قد أوقره طعاما، وبنو هاشم وبنو المطلب فى الشعب ، فيضربه فيدخل عليهم الشعب .

ومشى هشام إلى زهير بن أبي أمية المخزومي ، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال له : يازهير ، أقد رضيت أن تأكل الطعام ، وتلبس الثياب ، وأخوالك حيث قد علمت لايباعون ولا يبتاع منهم ، ولاينكحون ولا ينكح ، إليهم ، قال : ويحك ياهشام ، فماذا أصنع؟إنما أنا رجل واحد ، والله أن لو كان معي رجل آخر لقمت في نقض الصحيفة حتى أنقضها ، قال : قد وجدت رجلا ، قال : من هو ؟ قال : أنا ، قال زهير : أبغنا رجلا ثالثا .

فذهب هشام إلى المطعم بن عدى فقال له : يامطعم ، أقد رضيت أن يهلك بطنان من بنى عبدمناف ، وأنت شاهد على ذلك ، موافق لقريش فيه، قال ويحك ، فماذا أصنع ؟ إنما إنا رجل واحد ، قال : قد وجدت ثانيا ، قال : من هو ؟ قال : أنا ، قال : أبغنا ثالثا،قال : قد فعلت . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبي أمية ، قال : أبغنا رابعا .

فذهب هشام إلى أبي البخترى بن هشام ، فقال له ماقال ، قال : وهل من أحد يعين على هذا ؟ قال : نعم ، قال : ومن هو قال : زهير والمطعم وأنا معك ، قال : أبغنا خامسا .

فذهب هشام إلى زمعة بن الأسود . فكلمه ، وذكر له قرابة بنى هاشم وبنى المطلب وحقهم، قال : وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد ؟ قال : نعم ، وسمى له القوم . فتواعدوا بأعلى مكة ليلا ، فاجتمعوا هنالك ، وأجمعوا أمرهم ، وتعاهدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقضوها ، وقال زهير : أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم .

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير عليه حلة ، فطاف بالبيت سبعا ، ثم أقبل على الناس ، فقال ياأهل مكة ، أنأكل الطعام ، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لايباعون ولايبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

فرد عليه أبو جهل : كذبت ، والله لانشق ، قال زمعة : أنت والله أكذب ، ما رضينا بها حيث كتبت ، وقال أبو البخترى : صدق زمعة ، لانرضى ماكتب والله فيها ولانقر به ؛ وقال هشام : نحوا من ذلك . قال أبو جهل : هذا أمر قضى بليل ، وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد ، فقام المطعم ليشقها ، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك اللهم » .

وقبل ذلك قال رسول الله لعمه أبى طالب : ياعم ، إن الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش ، فلم تدع فيها اسما هو لله إلا أثبتته فيها ، ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان ؛ قال : أربك أخبرك بهذا ؟ قال : نعم ، فخرج أبو طالب إلى قريش ، فقال : يامعشر قريش إن محمدا أخبرنى بكذاوكذا ، فإن كانت كما قال فانتهوا عن قطيعتنا ، وإن كان كاذبادفعت إليكم ابن أخى ، فقال القوم : رضينا ، ثم نظروا فإذا هى كما قال رسول الله فزادهم ذلك شرا ، فعند ذلك صنع هؤلاء الرهط من قريش فى نقض الصحيفة ماصنعوا . فقال أبو طالب فى نقض الصحيفة :

جزى الله رهطا بالحجون تتابعوا   على ملأ يهدى لحزم ويرشد
قضوا ماقضوا فى ليلهم ثم أصبحوا
على مهل إذ سائر الناس رقد
هم رجعوا سهل بن بيضاء راضيا   وسر أبو بكر بها ومحمد (١)

---

(١) كان فك الحصار بعد أن استمر ثلاث سنوات وماتت خديجة فى اليوم الثالث من فك الحصار فى رواية من الروايات .

الفصل التاسع

ما بعد نقض الصحيفة

— ١ —

العام هو الخمسون من مولد محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ولقد ظل رسول الله يبذل لقومه النصيحة ، ويدعوهم إلى النجاة ، وأخذت قريش تحذر منه الناس ومن قدم عليهم من العرب .

قدم الطفيل بن عمرو الدوسي مكة ، وكان رجلا ، شريفا ، لبيبا ، شاعراً ، له منزلته في قومه . فمشى إليه رجال من قريش ، فقالوا له : إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل ، محمد ، قد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر ، يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وزوجته ؛ وإنا نخشى عليك وعلى قومك ماقد دخـــل علينا ، فلا تكلمه ولا تسمعن منه شيئا .

فأجمع الطفيل أن لايسمع من رسول الله شيئا ، ولايكلمه ، حتى حشا في أذنيه ـ حين غدا إلى المسجد ـ قطنا ، حتى لايعلم بشيء مما يقول رسول الله ، ولايسمع منه شيئا .

ودخل الطفيل المسجد ، فإذا رسول الله قائم يصلي عند الكعبة ، فقام قريبا من رسول الله ، قال الطفيل : فسمعت كلاما حسنا ، فقلت في نفسي : واثكل أمي ، والله إني لرجل لبيب شاعر ، مايخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل مايقول ؟ فإن كان الذي يأتي به حسنا قبلته ، وإن كان قبيحا تركته .

قال الطفيل : فمكثت حتى انصرف رسول الله إلى بيته ، فاتبعته ، حتى إذا دخل دخلت عليه ، فقلت : يامحمد ، إن قومك قد قالوا لى ماقالوا ، فوالله مابرحوا يخوفوننى أمرك ، حتى سددت أذنى بقطن لئلا أسمع قولك ! ثم أبى الله إلا أن يسمعنى قولك ، فسمعته قولا حسناً ، فأعرض على أمرك ؛ فعرض عليه رسول الله الإسلام ، وتلا عليه القرآن .

قال الطفيل : فلا والله ماسمعت قولا قط أحسن ولا أجمل منه ، ولا أمرا أعدل منه ؛ والله إن هذا المعجز ، فأسلمت ، وشهدت شهادة الحق ، وقلت : يانبى الله إنى امرؤ مطاع فى قومى ، وأنا راجع إليهم ، وداعيهم إلى الإسلام ، فرجعت حتى جئتهم ، فأصبحت فيهم ، فلما نزلت أنا فى أبى ، وكان شيخا كبيراً ، فقلت : إليك عنى ياأبت ، فلست منك ولست منى ؛ قال : لم يابنى ؟ قلت : أسلمت وتابعت دين محمد ، قال : أى بنى ، فدينى دينك ، فعرضت عليه الإسلام فأسلم ؛ ثم أتتنى زوجتى ، فعرضت عليها الإسلام فأسلمت ، ثم دعوت دوسا إلى الإسلام ، فأبطأوا على ، ثم جئت إلى رسول الله بمكة . فقلت : يانبى الله : أدع الله على دوس ، فقال : اللهم أهد دوسا ، أرجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم .

فلم أزل أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله إلى المدينة ، ومضى بدر وأحد والخندق ، ثم قدمت على رسول الله بمن أسلم معى من قومى ورسول الله بخيبر ، حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتا من دوس ، ثم لحقنا برسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر ، فأسهم لنا مع المسلمين[1] .

— ٢ —

وفى هـــذا العام العاشر من البعثة المحمدية خرج الأعشى الشاعر إلى

(١) وقتل الطفيل عام ١٢ هـ فى يوم اليمامة (١ : ٢٤٨ - ٢٥٠ سير أعلام النبلاء) .

رسول الله يريد الإسلام ، ومدح الرسول بقصيدته التى يقول فيها :

فآليت لاأرثى لها من كلالة ولا من حفى حتى تلاقى محمدا
متى ماتناخى عند باب ابن هاشم تراحى وتلقى من فواضله ندى
نبى يرى مالا ترون وذكره أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا
له صدقات ماتغب ونائل وليس عطاء اليوم يمنعه غدا

فلما وصل الأعشى مكة أوقريبا منها اعترضه بعض المشركين من قريش ؛ وقال له : ياأبا بصير ، إن محمدا يحرم الخمر ، قال الأعشى أما هذه فوالله إن فى النفس منها لعلالات ، وانصرف عائدا إلى قومه ، فمات فى عامه هذا ، ولم يعد إلى رسول الله .

— ٣ —

وكان أبو جهل مع عداوته لرسول الله يذله الله له إذا رآه .

روى أن أباجهل مطل عربيا حقا له ، فأتى العربى حتى وقف على نادمن قريش ، ورسول الله فى ناحية المسجد جالس ، فقال العربى: يامعشر قريش، إنى رجل غريب ابن سبيل ، وقد غلبنى أبو الحكم على حق ، فقالوا له . أترى ذلك الرجل الجالس ، وأشاروا لرسول الله ، يهزأون به ، لما يعلمون بينه وبين أبى جهل من العداوة ، اذهب إليه ، فإنه يأخذ لك بحقك ، فأقبل العربى حتى وقف على رسول الله ، فقال: ياعبد الله ، إن أبا الحكم قد غلبنى على حق لى قبله ، وأناغريب ابن سبيل ، وقد سألت هؤلاء القوم ، فأشاروا لى إليك ، فخذ لى حتى منه ، يرحمك الله .

فقام معه رسول الله ، وخرج حتى جاءه ، فضرب عليه بابه ، فقال : من هذا ؟ قال : محمد ، فاخرج إلى ، فخرج منتقع اللون ، فقال له صلى الله

عليه وسلم : أعط هذا الرجل حقه ، قال : نعم لاتبرح حتى أعطيه الذى له ، فدخل ، ثم خرج إليه بحقه فدفعه إليه ، فأقبل العربى حتى وقف على ذلك المجلس ، فقال : جزاه الله خيرا ، فقد ـ والله ـ أخذ لى حقى . ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء ، فقالوا : ويلك مالك ، والله مارأينا مثل ماصنعت قط . قال : ويحكم ، والله ماهو إلا أن ضرب على بابى وسمعت صوته فملئت منه رعبا ، ثم خرجت إليه ، وإن فوق رأسه لفحلا من الإبل ، والله لو أبيت لأكلنى .

— ٤ —

وكان ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبدمناف أشد قريش، فخلا يوما برسول الله فى بعض شعاب مكة ، فقال له رسول الله : ياركانة ، ألا تتقى الله وتقبل ماأدعوك إليه ! قال : إنى لو أعلم أن الذى تقول حق لاتبعتك ، فقال رسول الله ، أفرأيت إن صرعتك أتعلم أن ماأقول حق ؟ قال : نعم ؛ قال فقم حتى أصارعك ، فصارعه رسول الله فصرعه ، حتى لايملك ركانة من نفسه شيئا ، ثم قال : عد يامحمد ، فعاد فصرعه ، فقال : يامحمد ، والله إن هذا للعجب ، أتصرعنى؟ قال رسول الله : فأعجب من ذلك إن شئت ، إن اتقيت الله واتبعت أمرى ، قال : ماهو ؟ قال : أدعو لك هذه الشجرة التى ترى فتأتينى ، قال : أدعها ، فدعاها ، فأقبلت ، حتى وقفت بين يدى رسول الله ، فقال لها: ارجعى إلى مكانك ، فرجعت إلى مكانها(١) .

— ٤ —

ثم قدم على رسول الله وهو بمكة عشرون رجلا من النصارى ، فوجدوه

---

(١) يقول القاضى عياض : صرع رسول الله ركانة وكان أشد أهل وقته ، وكان دعاه إلى الإسلام ، وصارع أبا ركانة فى الجاهلية وكان شديدا ، وعاوده ثلاث مرات ، كل ذلك يصرعه رسول الله (٤٤ الشفا للقاضى عياض) .

فى المسجد ، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من سؤال رسول الله عما أرادوا ، دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وآمنوا به ، وصدقوه ، وعرفوا منه ما عرفوا ، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش ، فقالوا لهم خيبكم الله من ركب ، ما نعلم ركبا ، أحمق منكم ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم، لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده ، حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال ! !

قالوا لهم : سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيرا .

— ٥ —

وكان رسول الله إذا جلس فى المسجد ، وجلس إليه المستضعفون من أصحابه: خباب ، وعمار ، ويسار، وصهيب ، وأشباههم من المسلمين ؛ هزأت بهم قريش ، وقال بعضهم لبعض : هؤلاء أصحابه كما ترون ، أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ؟ لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقنا هؤلاء إليه ، وما خصهم الله به دوننا ، فأنزل الله تعالى فيهم (٥٢ : سورة ٦) : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى[٢] الآيات .

— ٦ —

وكان العاص بن وائل السهمى ، إذا ذكر رسول الله ، قال : دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقب له ، لو قد مات لقد انقطع ذكره ، واسترحتم منه ، فأنزل الله تعالى فى ذلك (١ — ٣ من سورة ١٠٨).

---

(١) عن سعد بن أبى وقاص : قال : نزلت فى ستة ، أنا وابن مسعود منهم (١ : ٧٣ سير أعلام النبلاء للذهبى) .

« إنا أعطيناك الكوثر . . . »

— ٧ —

وظل رسول الله يدعو قومه إلى الإسلام ، فقال له : زمعة بن الأسود ، والنضر بن الحارث ، والأسود بن عبد يغوث ، وأبى بن خاف ، والعاص بن وائل : « لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ، ويرى معك !! » ، فأنزل الله تعالى فى ذلك (٨ سورة ٦) :

« وقالوا : لولا أنزل عليك ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر .. » .

الفصل العاشر

الإسراء والمعراج

— ١ —

فى العام الخمسين من الميلاد النبوى ، والعاشر من البعثة المحمدية ، أسرى برسول الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وهو بيت المقدس ، وكان الإسلام قد فشا بمكة فى قريش وفى القبائل كلها(١) .

يحدث المحدثون من أهل العلم من الصحابة رضوان الله عليهم ، ومنهم : عائشه ، وأم هانىء بنت أبى طالب ، بذلك .

وكان فى الإسراء بلاء وتمحيص وأمر من أمر الله فى قدرته وسلطانه ، فيه عبرة لأولى الألباب ، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن بالله وصدق ، وكان من أمر الله على يقين ، فلقد أسرى الله عزوجل برسوله كيف شاء ، وكما شاء، ليريه من آياته الكبرى ما رأى ، حتى عاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التى يصنع بها ما يريد .

— ٢ —

حدث عبد الله بن مسعود قال :

أوتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبراق (٢) ، فحمل عليها ، ثم خرج

---

(١) فى زاد المعاد لابن القيم (١ : ٤٧) أن الإسراء كان بعد عودة رسول الله من الطائف .

(٢) هى الدابة التى كانت تحمل عليها الأنبياء والرسل لتسير بهم بأمر الله إلى حيث يشاء الله : هذا وقد اختلف فى تاريخ الإسراء :

به جبريل يرى الآيات فيما بين السماء والأرض حتى انتهى إلى بيت المقدس.

فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى نفر من الأنبياء ، قد جمعوا له ، فصلى بهم .

ثم أتى صلى الله عليه وسلم بثلاثة آنية : إناء فيه لبن ، وإناء فيه خمر ، وإناء فيه ماء ، قال رسول الله : فسمعت قائلا يقول حين عرضت على : « إن أخذ الماء غرق وغرقت أمته ، وإن أخذ الخمر غوى وغوت أمته ، وإن أخذ اللبن هدى وهديت أمته » ، فأخذت إناء اللبن فشربت منه ، فقال لى جبريل عليه السلام : هديت وهديت أمتك يا محمد .

وعن الحسن بن أبى الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

بينا أنا نائم فى الحجر إذ جاءنى جبريل ، فهمزنى بقدمه ، فجلست ، فلم

= ١ — فى السنة الخمسين من مولد الرسول كما ذكرنا عن مصادر غير ابن هشام: وقد ذكر ابن هشام أنه كان قبل وفاة خديجة .

٢ — وابن اسحاق يقول : فى ليلة السبت لسبع عشرة خلت من شهر رمضان قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً (نهاية الأرب ١٦ : ١٨٣) .

٣ — ليلة سبع عشرة من ربيع الأول قبل الهجرة بسنة (طبقات ابن سعد قسم ١ ج ١ ص ١٤٣) .

٤ — قبل الهجرة بثلاث سنين وقيل : بسنة واحدة ، وقيل : وله من العمر إحدى وخمسون سنة وتسعة أشهر ، وقيل كان بعد البعث بخمسة أشهر ، وقيل : كان بعد بيعة الأنصار فى العقبة ، وقال الحربى : ليلة سبع وعشرين من ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة — وقال ابن اسحاق : كان ليلة السبت لسبع عشرة خلت من رمضان قبل الهجرة بثمانية وعشرين شهرا — وقيل : كان ليلة سبع عشرة من ربيع الأول قبل الهجرة ، وكانت سنه حين الإسراء اثنتين وخمسين سنة — إمتاع الإسماع للمقريزى .

أر شيئا ، فعدت إلى مضجعي ، فجاءني الثانية فهمزني بقدمه ، فجلست فأخذ بعضدي ، فقمت معه . فخرج إلى باب المسجد ، فإذا دابة أبيض في فخذيه جناحان ، فحملني عليه ، ثم خرج معي ، لايفوتني ولاأفوته .

وعن قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

لما دنوت منه لأركبه شمس(١) ، فوضع جبريل يده على معرفته(٢) ، ثم قال: ألا تستحي يابراق مما تصنع ؟ فوالله يابراق ماركبك عبد لله قبل محمد أكرم على الله منه ، فاستحيا حتى ارفض عرقا ، ثم قر(٣) حتى ركبته .

وقال الحسن في حديثه :

فمضى رسول الله ، ومضى جبريل عليه السلام معه ، حتى انتهى به إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء ، فأمهم رسول الله ، فصلى بهم ، ثم أتى بانامين : في أحدهما خمر ، وفي الآخر لبن ، فأخذ رسول الله إناء اللبن فشرب منه ، وترك إناء الخمر ، فقال له جبريل : هديت للفطرة ، وهديت أمتك يامحمد ، وحرمت عليهم الخمر ، ثم انصرف رسول الله إلى مكة .

وعن هند أم هانىء بنت أبي طالب : ماأسرى برسول الله إلا وهو في بيتي ، نائم عندي تلك الليلة في بيتي ، فصلى العشاء الآخرة ، ثم نام ونمنا ، فلما كان قبيل الفجر أهبنا - أيقظنا - رسول الله ، فلما صلى الصبح وصلينا معه ، قال :

ياأم هانىء ، لقدصليت معكم العشاء الآخرة ، كما رأيت ، بهذا الوادي ،

---

(١) أي حرن ونفر .
(٢) أي رقبته حيث ينبت شعر العرف .
(٣) أي سكن .

ثم جئت بيت المقدس ، فصليت فيه ، ثم قد صليت صلاة الغداة — الفجر — معكم الآن كما ترين ، ثم قام ليخرج ، فأخذت بطرف ردائه ، فتكشف عن بطنه ، فقلت له : يانبي الله ، لاتحدث بهذا الحديث الناس ، فيكذبوك ويؤذوك ، قال : والله لأحدثنهمه ، فقلت لجارية لى حبشية : ويحك ، اتبعى محمدا رسول الله ، حتى تسمعى مايقول للناس ، ومايقولون له . فلما خرج رسول الله إلى الناس أخبرهم ، فعجبوا ، قالوا : ما آية ذلك يامحمد ، فإنا لم نسمع بمثل هذا قط ؟ قال صلى الله عليه وسلم : آية ذلك أنى مررت بعير بنى فلان ، بوادى كذا وكذا ، فأنفرهم حس الدابة ، فند(١) لهم بعير ، فدللتهم عليه ، وأنا موجه إلى الشام ، ثم أقبلت حتى إذا كنت بـ « ضجنان »(٢) مررت بعير بنى فلان ، فوجدت القوم نياما ، ولهم إناء فيه ماء قدغطوا عليه بشىء ، فكشفت غطاءه وشربت مافيه ، ثم غطيت عليه كما كان ؛ وآية ذلك أن عيرهم الآن تصوب من البيضاء ثنية التنعيم يقدمها جمل أورق ، عليه غرارتان، إحداهما سوداء ، والأخرى برقاء(٣). فابتدر القوم الثنية ، وسألوهم عن الإناء ، فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءا ماء ثم غطوه ، وأنهم هبوا ـ أى من النوم ـ فوجدوه مغطى ولم يجدوا فيه ماء . وسألوا الآخرين وهم بمكة ، فقالوا : صدق والله ، لقد ند لنا بعير ، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه حتى أخذناه .

وعن الحسن قال : فلما أصبح رسول الله غدا على قريش ، فأخبرهم الخبر فقال أكثر الناس :

هذا ـ والله ـ الأمر(٤) البين والله إن العير لتطرد شهرا من مكة إلى

---

(١) أى شرد .

(٢) موضع بينه وبين مكة وخمسة عشرون ميلا .

(٣) ذات ألوان مختلفة .

(٤) هو الأمر الشنيع الفظيع ، أو العجيب .

الشام مدبرة ، وشهر مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ، ويرجع إلى مكة ؟

وارتد كثير ممن كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبى بكر يقولون له : هل لك يا أبا بكر فى صاحبك ؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة فى بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة .

فقال لهم أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله إنه ليخبرنى إن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه .

ثم أقبل أبو بكر حتى انتهى إلى رسول الله ، فقال :

يا نبى الله ، أحدثت هؤلاء القوم أنك أتيت بيت المقدس هذه الليلة ، قال : نعم ، قال : يا نبى الله فصفه لى فإنى قد جئته ، قال رسول الله : فرفع لى حتى نظرت إليه ، فجعل رسول الله يصفه لأبى بكر ، ويقول أبو بكر : صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، كلما وصف له منه شيئا ، قال : صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، حتى انتهى رسول الله ، فقال لأبى بكر : أنت يا أبا بكر الصديق ، فيومئذ سماه الصديق .

— ٣ —

وعن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

لما فرغت مما كان فى بيت المقدس

أتى بالمعراج

ولم أر شيئا قط أحسن منه

فأصعدنى صاحبى جبريل فيه

حتى انتهى بى إلى باب من أبواب السماء ، يقال له : باب الحفظة ، عليه ملك من الملائكة ، يقال له إسماعيل ، تحت يديه اثنا عشر ألف ملك ، تحت يدى كل ملك منهم اثنا عشر ألف ملك ، وما يعلم جنود ربك إلا هو (من آية ٤١ سورة ٧٣ المدثر) .

فلما دخل بى قال : من هذا ياجبريل ؟

قال : محمد

قال : أوقد بعث ؟

قال : نعم

فدعا لى بخير

ويروى ابن اسحاق (١) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

تلقتنى الملائكة حين دخلت السماء الدنيا ، فلم يلقنى ملك إلا ضاحكا مستبشرا يقول خيرا ، ويدعو به ، حتى لقينى ملك من الملائكة ، فقال مثل ماقالوا ، ودعا بمثل مادعوا ، إلا أنه لم يضحك ، ولم أر منه من البشر مثل مارأيت من غيره . فقلت لجبريل : ياجبريل ، من هذا الملك الذى قال لى كما قالت الملائكة ، ولم يضحك ، ولم أر منه من البشر مثل الذى رأيت منهم ؟ فقال لى جبريل : أما إنه لو كان ضحك إلى أحد قبلك أو كان ضاحكا إلى أحد بعدك لضحك إليك ، ولكنه لايضحك ، هذا مالك خازن النار ، فقلت لجبريل ، وهو من الله تعالى بالمكان الذى وصف لكم ، « مطاع ثم أمين » (آية ٢١ من سورة التكوير ٨١) : ألا تأمره أن يرينى النار ؟ قال : بلى ، يامالك ، أر محمدا النار ، فكشف عنها غطاءها ، ففارت وارتفعت حتى ظننت

---

(١) هو محمد بن إسحاق شيخ كتاب السيرة النبوية (٨٥ - ١٥٢ هـ) وسيرته أصل لسيرة النبى صلى الله عليه وسلم التى ألفها ابن هشام . ولابن إسحاق كتاب « فتوح مصر وأعمالها » طبع فى مصر عام ١٢٧٥ هـ

لتأخذن ما أرى ، فقلت لجبريل : ياجبريل ، مره فليردها إلى مكانها ، فأمره ، فقال لها : « اخبي (١) » فرجعت إلى مكانها الذى خرجت منه ، حتى إذا دخلت من حيث خرجت رد عليها غطاءها .

قال ابو سعيد الخدرى عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال :

لما دخلت السماء الدنيا رأيت بها رجلا جالسا تعرض عليه أرواح بنى آدم : فيقول لبعضها إذا عرضت عليه خيرا ويسر به ، ويقول : روح ، طيبة خرجت من جسد طيب . ويقول لبعضها إذا عرضت عليه : أف ويعبس بوجهه ، ويقول : روح خبيثة خرجت من جسد خبيث ، قلت : من هذا ياجبريل ؟ قال . هذا أبوك آدم ، تعرض عليه أرواح ذريته ، فإذا مرت به روح المؤمن منهم سر بها ، وقال روح طيبة خرجت من جسد طيب ، وإذا مرت به روح الكافر أفف منها وكرهها وساءه ذلك ، وقال : روح خبيثة خرجت من جسد خبيث .

ثم رأيت رجالا لهم مشافر (٢) كمشافر الإبل ، فى أيديهم قطع من نار كالأفهار (٣) ، يقذفونها فى أفواههم ، فتخرج من أدبارهم ، فقلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلما .

ثم رأيت رجالا لهم بطون لم أر مثلها قط ، يمرون عليهم حين يعرضون على النار ، يطؤونهم لايقدرون على أن يتحولوا من مكانهم ذلك ، قلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة الربا .

ثم رأيت رجالا بين أيديهم لحم سمين طيب ، إلى جنبه لحم غث منتن ،

---

(١) من خبت النار أى سكن لهبها
(٢) المشفر للبعير : كالشفة للإنسان
(٣) جمع فهر – بوزن مسلك – وهو الحجر

يأكلون من الغث المنتن ويتركون السمين الطيب ، قلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يتركون ما أحل الله لهم من النساء ، ويذهبون إلى ماحرم الله عليهم منهن .

ثم رأيت نساءا معلقات بثديهن ، فقلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء اللاتى أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم (١) .

ثم أصعدنى ـ جبريل ـ إلى السماء الثانية ، فإذا فيها ابنا الخالة : عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا .

ثم أصعدنى إلى السماء الثالثة ، فإذا فيها رجل صورته كصورة القمر ليلة البدر ، فقلت : من هذا ياجبريل ؟ قال : هذا أخوك يوسف بن يعقوب.

ثم أصعدنى إلى السماء الرابعة ، فإذا فيها رجل ، فسألته : من هو ؟ فقال: هذا إدريس ، يقول رسول الله : ورفعناه مكانا عليا (٥٧ سورة ١٩) .

ثم أصعدنى إلى السماء الخامسة فإذا فيها كهل أبيض الرأس واللحية لم أر كهلا أجمل منه ، قلت : من هذا ياجبريل ؟ قال هذا المحبب فى قومه هارون بن عمران .

ثم أصعدنى إلى السماء السادسة ، فإذا فيها رجل آدم طويل ، فقلت له : من هذا ياجبريل ، قال : هذا أخوك موسى بن عمران .

ثم أصعدنى إلى السماء السابعة فإذا فيها كهل جالس على كرسى إلى باب البيت المعمور ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لايرجعون فيه إلى يوم

---

(١) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشتد غضب الله على امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فأكل حرائبهم (أموالهم التى يعيشون بها) واطلع على عوراتهم .

القيامة ، لم أر رجلا أشبه بصاحبكم (١) ، ولا صاحبكم أشبه به منه ، قلت : من هذا ياجبريل قال : هذا أبوك إبراهيم .

ثم دخل بى إلى الجنة ، فرأيت فيها جارية لعساء (٢) ، فسألتها : لمن أنت ؟ فقالت : لزيد بن حارثة ، فبشر بها رسول الله زيد بن حارثة .

ومن حديث عبد الله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أن جبريل انتهى به صلى الله عليه وسلم إلى السماء السابعة ، ثم انتهى به إلى ربه ، ففرض عليه خمسين صلاة كل يوم .

قال رسول الله : فأقبلت راجعا ، فلما مررت بموسى ، سألنى : كم فرض عليك من الصلاة ؟

فقلت : خمسين صلاة كل يوم .

فقال : إن الصلاة ثقيلة ، وإن أمتك ضعيفة ، فارجع إلى ربك ، فاسأله أن يخفف عنك وعن أمتك .

فرجعت ، فسألت ربى أن يخفف عنى وعن أمتى .

فوضع عنى عشرا

ثم انصرفت فررت على موسى فقال لى مثل ذلك ، فرجعت ، فسألت ربى أن يخفف عنى وعن أمتى ، فوضع عنى عشرا ؛ ثم انصرفت ، فررت على موسى ، فقال لى مثل ذلك ، فرجعت ، فسألته فوضع عنى عشرا فررت على موسى ، ثم لم يزل يقول لى مثل ذلك كلما رجعت إليه ، فأرجع ، فأسأل ، حتى انتهيت إلى أن وضع ذلك عنى إلا خمس صلوات فى كل يوم وليلة .

ثم رجعت إلى موسى ، فقال لى مثل ذلك ، فقلت : قد راجعت ربى ،

---

(١) أى محمد رسولنا عليه الصلاة والسلام ، يعنى رسول الله نفسه .

(٢) فى شفتها حمرة تضرب إلى السواد .

وسألته حتى استحييت منه ، فما أنا بفاعل فمن أداهن منكم إيمانا بهن واحتسابا ، فهن كان له أجر خمسين صلاة (١) .

— ٤ —

قال الله تعالى : « وماجعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس (٦٠ من سورة ١٧) .

وعن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم :

مافقد جسد رسول الله ، ولكن الله أسرى بروحه .

وعن معاوية ، وكان إذا سئل عن مسرى رسول الله قال : كانت رؤيا من الله تعالى صادقة ، ثم مضى على ذلك ، فعرفت أن الوحى من الله يأتى الأنبياء أيقاظا ونياما .

وكان رسول الله يقول : تنام عينى وقلبى يقظان .

---

(١) كان أول شىء فرضه الله بعد الإقرار بالتوحيد والبراءة من الأوثان الصلاة (٢ / ٣٠٥ الطبرى)

الفصل الحادى عشر

مواصلة الجهاد فى سبيل الله والرسالة

— ١ —

المستهزئون :

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله تعالى ، صابرا ، محتسبا ، مؤديا إلى قومه النصيحة ، على ما يلقى منهم من التكذيب والاستهزاء .

وكان عظماء المشركين خمسة نفر من قومه ، وكانوا ذوى أسنان وشرف فى قومهم :

١ — أبو زمعة الأسود بن المطلب بن أسد من بنى أسد بن عبد العزى ابن قصى . وكان رسول الله قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه به ، فقال : اللهم أعم بصره ، وأثكله ولده .

٢ - الأسود بن عبد يغوث من بنى زهرة .

٣ — الوليد بن المغيرة المخزومى .

٤ — العاص بن وائل بن هشام السهمى .

٥ — الحارث بن الطلاطلة الخزاعى ... فلما تمادوا فى الشر ، وأكثروا برسول الله الاستهزاء ، أنزل الله تعالى عليه : « . . فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين ، إنا كفيناك المستهزئين » .

وعن عروة بن الزبير أن جبريل أتى رسول الله ، إذ هم يطوفون بالبيت ،

فقام وقام رسول الله إلى جنبه ، فمر به الأسود بن المطلب ، فرمى فى وجهه بورقة خضراء ، فعمى ؛ ومر به الأسود بن عبد يغوث ، فأشار إلى بطنه ، فاستسقى بطنه ، فمات منه ؛ ومر به الوليد فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله كان قد أصابه قبل ذلك بسنين ، فانتقض (١) به ، فقتله ، ومر العاص ، فأشار إلى أخمص رجله ، فدخلت فيها شوكة فقتلته ؛ ومر به الحارث ، فأشار إلى رأسه ، فامتخض قيحا فقتله .

ولما حضرت الوليد بن المغيرة الوفاة دعا بنيه ، وكانوا ثلاثة : هشام ، والوليد ، وخالد بن الوليد ، فقال لهم :

أى بنى ، أوصيكم بثلاث ، فلا تضيعوا فيهن :

١ — دمى فى خزاعة ، فلا تطلنه (٢) ، والله إنى لأعلم أنهم منه برآء ، ولكنى أخشى أن تسبوا به بعد اليوم .

٢ — رباى فى ثقيف فلا تدعوه حتى تأخذوه .

٣ — وعقرى (٣) عند أبى أزيهر الدوسى فلا يفوتنكم .

فطالب بنوه بدمه ، فأعطتهم خزاعة بعض الدية ، وانصرفوا عن بعض وقتل هشام بن الوليد أبا أزيهر الدوسى ، وذلك بعد بدر ، فطالب يزيد

---

(١) أى عاوده بعدما برىء منه .

(٢) أى لاتضيعوه ، ولا تهدروه — وذلك أنه مر برجل من خزاعة قبل ذلك بسنين ، وهو يجر رداءه ، وكان الخزاعى يريش نبلا له ، فتعلق سهم من نبله بإزاره ، فخدش رجله ، ذلك الخدش ، ولم يكن بشىء ، فبرىء منه ، ثم عاوده فقتله .

(٣) هو دية الزواج الذى تم ولم ينفذ ، ويقال له : دية الفرج . وكان الدوس قد زوجه بنتا له ثم أمسكها عنه فلم يدخلها عليه حتى مات ، وتزوجها أبو سفيان ، وكان الدوس رجلا شريفا فى قومه .

ابن أبي سفيان بثار صهر أبيه ، فمنعه أبوه ، واكتفى بأخذ الدية ، ولما أسلم أهل الطائف كلم خالد بن الوليد رسول الله فى ربا الوليد الذى كان فى ثقيف فنزل قوله تعالى (٢٧٨ - سورة ٢) : « ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى منه الربا إن كنتم مؤمنين » .

— ٢ —

النفر الذين كانوا يؤذون رسول الله فى بيته :

كان عدة رجال من قريش، يؤذون رسول الله فى بيته ؛ وهم : أبو لهب، والحكم بن العاص ، وعقبة بن أبى معيط ، وعـــدى بن حمراء الثقفى ، وابن الأصداء الهذلى ، وكانوا جيران رسول الله .

ولم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن العاص (١) .

وكان أحد هؤلاء يطرح رحم الشاة على رسول الله وهو يصلى ، وأحدهم يطرحها فى برمة (٢) ، حتى اتخذ رسول الله . حجرا يستتر به منهم إذا صلى ، فكان إذا طرحوا عليه الأذى خرج به رسول الله ، فيقف به على بابه ، ثم يقول : يابنى عبد مناف ، أى جوار هذا ؟ ثم يلقيه فى الطريق.

— ٣ —

وفاة أبى طالب وخديجة :

وفى العام الخمسين هذا ، ماتت خديجة زوج الرسول ، وكانت له وزير صدق على الإسلام ، يشكو إليها ، ومات أبو طالب عم الرسول ، فتتابعت على رسول الله المصائب ، وكان أبو طالب له عضدا ، وحرزا فى أمره ،

---

(١) ذكره ابن هشام مرة : ابن العاص ، ومرة بن أبى العاص .
(٢) البرمة مثل العمرة : القدر .

ومنعة ، وناصرا له على قومه ، فلما مات نالت قريش من الرسول مالم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب من الأذى ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش ، فنثر على رأسه ترابا .

وكان موتها قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين ، وماتت خديجة بعد عمه أبى طالب بثلاثة أيام (١) ،

ولما نثر ذلك السفيه التراب على رأس الرسول دخل صلى الله عليه وسلم بيته ، والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته ، فجعلت تغسل عنه التراب ، وهى تبكى ، ورسول الله يقول لها : « لاتبكى يابنية فإن الله مانع أباك » .

وكان يقول صلى الله عليه وسلم : « مانالت منى قريش شيئا أكرهه ، حتى مات أبو طالب » .

وقبيل وفاة أبى طالب بقليل مشى رجال من قريش إلى أبى طالب ، فكلموه ، وهم أشراف قومه : عتبة بن ربيعة ، شيبة بن ربيعة ، أبو جهل ابن هشام ، أمية بن خلف ، أبو سفيان ، فى رجال من أشرافهم ، فقالوا : يا أبا طالب ، إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ماترى ، وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه ، فخذ له منا ، وخذ لنا منه ، ليكف عنا ، ونكف عنه ، وليدعنا وديننا وندعه ودينه .

فبعث أبو طالب إلى رسول الله ، فجاءه ، فقال : ياابن أخى ، هؤلاء أشراف قومك ، قد اجتمعوا لك ، ليعطوك ، وليأخذوا منك ، فقال رسول الله :

ياعم ، كلمة واحدة ، يعطونيها ، تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم .

---

(١) ١ : ٣٢٠ العقد الثمين للفاسى .

فقال أبو جهل : نعم وأبيك . وعشر كلمات .

فقال رسول الله : تقولون : لا إله إلا الله ، وتخلعون ماتعبـــدون من دونه .

فصفقوا بأيديهم ، ثم قالوا : أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلها واحداً ؟ إن أمرك لعجب .

وقال بعضهم لبعض : إنه ـ والله ـ ماهذا الرجل بمعطيكم شيئاًمماتريدون . فانطلقوا وامضوا على دين آبائـكم ، حتى يحكم الله بينكم وبينه .

ثم تفرقوا .

فقال أبو طالب لرسول الله : والله يا ابن أخى ما رأيتك سألتهم شططا(١) .

فطمع رسول الله فى إسلامه ، فجعل يقول له ، أى عم ، فأنت فقلها ، أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة .

فرد أبو طالب : يا ابن أخى ، والله لولا مخافة السبة عليك وعلى بنى أبيك من بعدى وأن تظن قريش أنى إنما قلتها جزعا من الموت لقلتها ، لا أقولها إلا لأسرك بها .

ونزل فى ذلك قوله تعالى (١ ــ ٧ من سورة ص ٣٨) :

ص . والقرآن ذى الذكر .

بل الذين كفروا فى عزة وشقاق ـ إلى آخر هذه الآيات .

ومات أبو طالب .

---

(١) أى شيئا مبالغاً فيه .

ونالت قريش من رسول الله مالم تكن تنال منه فى حياة عمه أبى طالب . من الأذى(١) .

— ٤ —

إلى الطائف :

وخرج رسول الله إلى الطائف (٢) ، يلتمس النصرة من ثقيف ، والمنعة بهم من قومه ؛ ورجاء أن يقبلوا منه ماجاءهم به من الله عزوجل .

فخرج إليهم وحده ، وقيل : كان معه زيد بن حارثة مولاه .

ولما انتهى - وصل - رسول الله إلى الطائف ، عمد إلى نفر من ثقيف ، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافها ، وهم إخوة ثلاثة :

١ — عبد ياليل بن عمرو بن عمير .

٢ — وأخوه مسعود .

٣ — وأخوهما حبيب .

وعند أحدهم امرأة من قريش من بنى جمح .

فجلس إليهم رسول الله ، فدعاهم إلى الله ، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه .

---

(١) كان خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعـــد موت عمه أبى طالب وزوجه خديجة بثلاثة أشهر (١ : ٢٣٠ العقد الثمين للفاسى) وذلك فى شوال سنة عشر من البعثة ، وقبل الهجرة بثلاث سنين (١ : ٢٣١ المرجع نفسه) ، وكان معه زيد بن حارثة (١ : ٤٧ زاد المعاد) .

(٢) ما أكثر مانال رسول الله من الأذى فى سبيل تبليغ رسالة الله إلى الناس .

فقال أحدهم لرسول الله - إن كان الله أرسلك .

وقال الآخر : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك .

وقال الثالث : والله لا أكلمك أبدا، لئن كنت رسول من الله - كما تقول - لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ؛ ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لى أن أكلمك .

فقام رسول الله من عندهم : وقد يئس من ثقيف . وقال لهم :

« إذ قد فعلتم ما فعلتم ، فاكتموا عنى » . فلم يفعلوا ذلك .

وأغروا برسول الله سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجأوه إلى بستان لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه . فعمد إلى ظل كرمة من عنب فجلس فيه ، وعتبة وشيبة ينظران إليه ، ويريان مالقى من سفهاء ثقيف أهل الطائف .

ومرت به المرأة القرشية التى من بنى جمح ، فقال لها .

ماذا لقينا من أحمائك ؟

ولما اطمأن رسول الله ، أخذ يبتهل إلى الله .

اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس .

يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى .

إلى من تكلنى ؟

إلى بعيد يتجهمنى .

أم إلى عدو ملكته أمرى .

إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ولكن عافيتك هى أوسع لى .

أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أويحل على سخطك .

لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك .

فلما رآه عتبة وشيبة وما لقى ، تحركت له رحمهما ، فدعوا غلاما لهما نصرانيا ، فقالا له :

خذ عنقودا من هذا العنب ، فضعه فى هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل . فقل له يأكل منه .

ففعل الغلام ، واسمه عداس ، ثم أقبل به ، حتى وضعه بين يدى رسول الله ثم قال له : كل .

فلما وضع رسول الله فيه يده ، قال :

بسم الله

ثم أكل

فنظر (عداس) فى وجهه : وقال : إن هذا الكلام مايقوله أهل هذه البلاد

فقال له رسول الله : ومن أهل أى البلاد أنت ياعداس ؟ ومادينك ؟

قال : نصرانى ، وأنا رجل من أهل نينوى فقال له رسول الله : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى .

قال عداس : ومايدريك يونس؟ فقال رسول الله : ذاك أخى ، كان نبيا وأنا نبى فأكب عداس على رسول الله يقبل رأسه ويديه وقدميه .

فقال عتبة لأخيه ، أما غلامك فقد أفسده عليك .

ولما جاء عداس قالا له : ويلك مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟

قال ياسيدى مافى الأرض شيء خير من هذا ، فقد أخبرنى بأمر مايعلمه إلا نبي .

فقالا له : ويحك ياعداس ، لايصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه .

وانصرف رسول الله من الطائف . راجعاً إلى مكة ، حين يئس من ثقيف ، ودخل مكة بجوار المطعم بن عدى ، قيل : إن رسول الله أقام بعد الطائف بنخلة أيامه ، فقال له زيد بن حارثة . كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ، فقال . يازيد ، إن الله جاعل لما ترى مخرجا ، وإن الله ناصر دينه ، ومظهر نبيه ، ثم انتهى إلى مكة ، فأرسل إلى مطعم بن عدى : أدخل فى جوارك؟ ، فقال : نعم. ودعا بنيه وقومه، فقال: البسوا السلاح ، وكونوا عند أركان البيت فإنى قد أجرت محمدا ، فدخل رسول الله ، معه زيد بن حارثة ، حتى انتهى إلى المسجد الحرام ، فقام مطعم على راحلته فنادى : يامعشر قريش ، إنى قد أجرت محمدا فلايهجه أحد منكم فانتهى رسول الله إلى الركن ، فاستلمه ، وصلى ركعتين ، وانصرف إلى بيته ، ومطعم بن عدى وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته ـ راجع ١ : ٤٧ زاد المعاد ، و٢ : ١٦٠ أيضا ـ وكان مطعم ممن مشى فى نقض الصحيفة .

ومن أولاده . جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف بن قصى ، وكان من أنسب قريش لقريش وللعرب قاطبة ، وكان يقول . إنما أخذت النسب من أبى بكر وكان أبوبكر أنسب العرب (١:٨ سير أعلام النبلاء) .

ويقول ابن القيم فى زاد المعاد (١ : ٤٧) :إن الإسراء والمعراج كان بعد الطائف .

الفصل الثاني عشر

عرض الرسول نفسه على القبائل

— ١ —

وقدم رسول الله مكة ، من رحلته إلى الطائف ، وقريش أشد ماتكون عليه من خلافه وفراق دينه ، إلا قليلا مستضعفين ممن آمن به .

وأخذ رسول الله يعرض نفسه فى المواسم على قبائل العرب ، يدعوهم إلى الله ، ويخبرهم أنه نبي مرسل ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه ، حتى يبلغ عن الله مابعثه به .

— ٢ —

عن ربيعة بن عباد عن أبيه ، قال :

إنى لغلام شاب مع أبى بمنى ، إذا رسول الله فى منى يقف على منازل القبائل من العرب ، يقول :

يا بنى فلان

إنى رسول الله إليكم

يأمركم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ماتعبدون من دونه من هذه الأنداد وأن تؤمنوا بى ، وتصدقوا بى ، وتمنعونى ، حتى أبين عن الله مابعثنى به

وخلف رسول الله رجل أحول وضيء ، عليه حلة عدنية ، فإذا فرغ رسول الله من قوله ، ومادعا إليه ، قال ذلك الرجل :

يابنى فلان ، إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم ، إلى ماجاء به من البدعة والضلالة . فلاتطيعوه ، ولاتسمعوا منه. فاذا الرجل عمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وهو أبو لهب .

— ٣ —

وأتى رسول الله كندة فى منازلهم فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم نفسه ، فأبوا عليه .

— ٤ —

وأتى رسول الله (كلبا) فى منازلهم ، فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، حتى إنه ليقول لهم :

يابنى عبد الله . .

إن الله عزوجل قد أحسن اسم أبيكم وكان هذا البطن من كلب يقال لهم: بنو عبد الله فلم يقبلوا منه ماعرض عليهم .

— ٥ —

وأتى رسول الله بنى حنيفة فى منازلهم فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه ردا منهم .

— ٦ —

وأتى صلى الله عليه وسلم بنى عامر بن صعصعة ، فدعاهم إلى الله عزوجل وجل ، وعرض عليهم نفسه ، فقال له رجل منهم يقال له بحرة بن فراس : والله لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ، ثم قال له : أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟

قال صلى الله عليه وسلم : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء .

فرد على رسول الله : أفنهدف (١) نحورنا للعرب دونك . فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، لاحاجة لنا بأمرك ، وأبوا على رسول الله .

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم ، فقالوا له ، وقال لهم ماقال (٢) .

---

(١) أى نجعلها هدفا .

(٢) يروى عبد الرحمن العامرى عن أشياخ من قومه العامريين . قالوا : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بسوق عكاظ فقال : من القوم ؟ قلنا : من بنى عامر بن صعصعة ! قال من أى بنى عامر . قلنا : بنو كعب بن ربيعة قال : كيف المنعة فيكم؟ قلنا : لايرام ماقبلنا . ولا يصطلى بنارنا ، فقال : إنى رسول الله . فإن أتيتكم تمنعونى حتى أبلغ رسالة ربى . ولم أكره أحداً منكم على شيء . قالوا : ومن أى قريش أنت . قال : من بنى عبد المطلب ، قالوا : فأين أنت من بنى عبد مناف قال : هم أول من كذبنى وطردنى ! قالوا ولكنا لانطردك ولا نؤمن بك ولا نمنعك أن تبلغ رسالة ربك .

فنزل إليهم والقوم يتسوقون ، إذ أتاهم بحرة بن قيس القشيرى (أو بحرة بن فراس كما فى الطبرى ٢ / ٢٣٢) فقال : من هذا الذى أراه عندكم أنكره . قالوا : هذا محمد بن عبد الله القرشى . قال : وما لكم وله ؟ قالوا : زعم لنا أنه رسول الله ويطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه . قال فماذا رددتم عليه ؟ قالوا : قلنا : فى الرحب والسعة . نخرجك إلى بلادنا . ونمنعك مما نمنع منه أنفسنا . قال بحرة : ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشيء أشر من شيء ترجعون به . بدأتم لتنابذكم الناس ، وترميكم العرب عن قوس واحدة ، قومه أعلم به ؟ لو آنسوا منه خيراً لكانوا أسعد الناس به . تعمدون إلى مرهق قد طرده قومه وكذبوه فتؤونه وتنصرونه ! فبئس الرأى مارأيتم .

ثم أقبل على رسول الله فقال . قم ، الحق بقومك ، فوالله لولا أنك عند قومى لضربت عنقك . فقام رسول الله إلى ناقته فركبها فغمزها بحرة فقمصت برسول الله فألقته . وعند بنى عامر يومئذ ضباعة بنت عامر بن قرط وكانت من النسوة اللاتى أسلمن مع رسول الله بمكة . جاءت زائرة إلى بنى عمها فقالت : =

— ٧ —

وظل رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك من أمره ، كلما اجتمع له الناس بالموسم ، أتاهم يدعو القبائل إلى الله ، وإلى الإسلام ، ويعرض عليهم نفسه ، وما جاء به من الله من الهدى والرحمة ، وهو لا يسمع بقادم من العرب ، له اسم وشرف ، إلا تصدى له ، فـدعاه إلى الله ، وعرض عليه ما عنده .

قدم سويد بن صامت ، من عمرو بن عوف ، مكة ، حاجا أو معتمرا ، وكان يسميه قومه الكامل ، لجلده وشرفه ونسبه ، فتصدى له رسول الله حين سمع به ، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام ، فقال له سويد : فلعل الذى معك مثل الذى معى .

فقال له رسول الله : وما الذى معك ؟ قال : مجلة لقمان ، يعنى حكمة لقمان فقال له رسول الله : اعرضها على .

= يا آل عامر . أيصنع هذا برسول الله بين أظهركم لا يمنعه أحد منكم ، فقام ثلاثة نفر من بنى عمها إلى بجرة وثلاثة أعانوه . فأخذ كل رجل منهم رجلا . فجلد به الأرض . ثم جلس على صدره . فقال رسـول الله : اللهم بارك على هؤلاء والعن هؤلاء .

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم ، قد كان أدركته السن حتى لا يقدر أن يوافى معهم الموسم ، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون فى ذلك الموسم ، فلما قدموا عليه سألهم عمن كان فى الموسم ، فقالوا جاءنا فتى من قريش ، ثم حدثك أنه أحد بنى عبد المطلب ، يزعم أنه نبى يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ، ونخرج به معنا إلى بلادنا ، فوضع الشيخ يده على رأسه ، ثم قال : يا بنى عامر ، هل لها من تلاف ، هل لذناباها تطلب ، فوالذى نفس فلان بيده ما تقولها إسماعيلى قط ، ألا إنها الحق ، فأين كان رأيكم .

(مأثورات نبويه ـ المؤلف ـ ص ٢٥١)

فعرضها عليه

فقال له : إن هذا الكلام حسن والذى معى أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله تعالى على ، هو هدى ونور ، وتلا عليه رسول الله القرآن ، ودعاه إلى الإسلام . فلم يبعد منه ، وقال : إن هذا لقول حسن .

ثم انصرف عنه ، فقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتلته الخزرج قبل « يوم بعاث » (١) .

— ٨ —

وقدم أنس بن رافع مكة ، وكان معه فتية من بنى عبد الأشهل ، فيهم إياس بن معاذ ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج ، وسمع بهم رسول الله ، فأتاهم ، فجلس إليهم ، فقال لهم : هل لكم فى خير مما جئتم له ؟

قالوا لرسول الله : وما ذاك ؟

قال . أنا رسول الله ، بعثنى إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ، ولا يشركوا به شيئا ، وأنزل على الكتاب .

ثم ذكر رسول الله لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن .

فقال إياس ـ وكان غلاما حدثا ـ : أى قوم ، هذا والله خير مما جئتم له .

فأخذ أنس بن رافع حفنة من التراب ، فضرب بها وجه إياس ، وقال : دعنا منك ، فلعمرى لقد جئنا لغير هذا .

فصمت إياس ، وقام رسول الله عنهم ، وانصرفوا إلى المدينة ، ثم لم يلبث أن مات إياس ؛ وما كانوا يشكون أنه مات مسلما ، فلقد كان استشعر الإسلام فى ذلك المجلس ، حين سمع من رسول الله ما سمع .

(١) مكان كانت فيه حرب شديدة بين الأوس والخزرج .

الفصل الثالث عشر

نور على الطريق

فلما أراد الله إظهار دينه ، وإعزاز نبيه ، وإنجاز موعده له ، خرج رسول الله فى الموسم الذى لقى فيه النفر من الأنصار وكان ذلك فى العام الخمسين من مولده الشريف فعرض نفسه على قبائل العرب ،كما كان يصنع فى كل موسم ، فبينما هو عند العقبة لقى رهطا من الخزرج ، أراد الله بهم خيرا

فقال لهم : من أنتم؟

قالوا : نفر من الخزرج

قال : أمن موالى يهود ؟

قالوا : نعم

قال : أفلا تجلسون أكلمكم

قالوا : بلى

فجلسوا معه

فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن.

وكان مما صنع الله لهم به فى الإسلام أن يهود كانوا معهم فى بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان . فكان يهود إذا كان بينهم شيء قالوا لهم : إن نبيا مبعوث الآن ، قد أظل زمانه ، نتبعه ، فنقتلكم معه قتل عاد ، فلما كلم رسول الله أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض :

ياقوم ، تعلموا والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه .

فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدقوه وقبلوا منه ماعرض عليهم من الإسلام ، وقالوا له . إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين . فإن يجمعهم الله عليه ، فلا رجل أعز منك .

ثم انصرفوا عن رسول الله راجعين إلى بلادهم ، وقد آمنوا وصدقوا .

وكانوا ستة من الخزرج ، هم :

١ — أسعد بن زرارة من بنى النجار .

٢ — عوف بن الحارث من بنى النجار .

٣ — رافع بن مالك

٤ — قطبة بن عامر .

٥ — عقبة بن عامر .

٦ — جابر بن عبد الله .

فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم رسول الله ، ودعوهم إلى الإسلام ، حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

الفصل الرابع عشر

بيعة العقبة الأولى

— ١ —

رأينا هؤلاء الستة من الخزرج ، الذين أسلموا ، بعد أن دعاهم رسول الله فى الموسم إلى الإسلام .

فلما كان العام المقبل - الحادى والخمسون من الميلاد النبوى الكريم - وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا ، فلقوه بالعقبة ، فبايعوا رسول الله على بيعة النساء ، وذلك قبل أن يفرض عليهم الحرب ؛ وتلك هى بيعة العقبة الأولى . . والذين بايعوا رسول الله هم :-

١ — أسعد بن زرارة من بنى النجار .

٢ — عوف بن الحارث بن رفاعة من بنى النجار .

٣ — معاذ بن الحارث بن رفاعة من بنى النجار .

٤ — رافع بن مالك .

٥ — عبادة بن الصامت (١) .

٦ — العباس بن عبادة .

٧ — عقبة بن عامر .

٨ — وشهدها من الأوس أبو الهيثم بن التيهان ، وكان فى الجاهلية يكره

---

(١) توفى عام ٢٤ هـ - ٦٥٤ م عن عام ٧٢ .

الأصنام ويقول بالتوحيد هو وأسعد بن زرارة ، وكانا أول من أسلم من الأنصار بمكة ، وتوفى أبو الهيثم عام ٢٠ هـ كما تذكر بعض المصادر (١) .

٩ - عويم بن ساعدة .

١٠ - ذكوان بن عبد قيس .

١١ - يزيد بن ثعلبة .

١٢ - قطبة بن عامر .

وهؤلاء الاثنا عشر بايعوا رسول الله على أن لايشركوا بالله شيئا ، ولايسرقوا ولايزنوا ، ولايقتلوا أولادهم ولايأتوا ببهتان يفترونهم من بين أيديهم وأرجلهم ، ولايعصوا الرسول فى معروف ، وقال لهم رسول الله :

فإن وفيتم فلكم الجنة .

وإن غشيتم من ذلك شيئا فأمركم إلى الله عزوجل ، إن شاء غفر ، وإن شاء عذب .

- ٢ -

فلما انصرف القوم عن رسول الله بعث معهم مصعب بن عمير بن هاشم ابن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم فى الدين فسمى بالمدينة المقرىء ، وكان نزوله على أسعد بن زرارة ، وهو أول من صلى الجمعة بالمسلمين فى المدينة .

- ٣ -

وفى اجتماع لمصعب بالمسلمين ، قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير وكانا

---

(١) ١ : ١٣٩ سير أعلام النبلاء الذهبى .

مشركين : لا أبالك انطلق إلى هذين الرجلين - أسعد بن زرارة ، ومصعب بن عمير - الذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا ، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا ، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث قد علمت - وكان أسعد بن خالة سعد - كفيتك ذلك .

فأخذ أسعد حربته ، ثم أقبل إليهم وقال : ما جاء بكما إلينا ، تسفهان ضعفاءنا ، اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة .

فقال مصعب : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره .

قال له أسيد : أنصفت ، ثم ركز حربته وجلس إليهما ، فكلمه مصعب بالإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، فقالا فيما يروى عنهما ؟ والله لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم به ، ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأجمله ، ثم شهد شهادة الحق ، ثم قال لهما : إن ورائى رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، سعد بن معاذ .

وأخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم ، فلما نظر إليه سعد مقبلا قال : أحلف بالله لقد جاء أسيد بغير الوجه الذى ذهب من عندكم .

فلما وقف على النادى ، قال له سعد : ما فعلت ؟

قال : كلمت الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأسا ، وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت ، وقد أخبرت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد ليقتلوه ، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ، ليخفرك .

فقام سعد مغضبا ، فأخذ الحربة من يده ، وخرج إليهما ، ثم قال لأسعد : أتغشانا فى دارنا بما نكره ؟ قال له مصعب : أو تقعد فتسمع ؛ فإن

رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره .

قال سعد : أنصفت ـ ثم ركز الحربة وجلس ، فعرض عليه الإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، قالا : فعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، ثم شهد سعد شهادة الحق .

ثم أخذ حربته ، وانصرف ، فأقبل عامدا إلى نادى قومه ، ومعه أسعد ، فقال قومه : نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم .

فلما وقف عليهم قال :

يابنى عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا ، وأفضلنا رأيا ، وأيمننا نقيبة .

قال : وإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله .

فما أمسى منهم رجل ولا امرأة إلا مسلما أو مسلمة .

وأقام مصعب عند أسعد بن زرارة يدعو الناس إلى الإسلام ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون .

الفصل الخامس عشر

بيعة العقبة الثانية أو الكبرى

في العام الثاني والخمسين من ميلاده الكريم

— ١ —

رجع مصعب بن عمير — داعية الإسلام في المدينة إلى مكة، ليحضر موسم الحج.

وخرج جماعات من الأنصار من المسلمين إلى الموسم، مع حجاج قومهم من أهل الشرك، حتى قدموا مكة، واتصلوا بالرسول أيام التشريق، وهو اليوم الثاني لعيد الأضحى من العام الثاني عشر للبعثة المحمدية، ولم يكن عيد الحج قد سمي بعد بعيد الأضحى.

وذلك كله حين أراد الله بهم ما أراد، من كرامته، والنصر لنبيه، وإعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وحزبه.

وحدث عبد الله بن كعب بن مالك، وكان من أعلم الأنصار أن أباه كعبا حدثه، وكان كعب ممن شهد العقبة، وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم بها، قال:

خرجنا في حجاج قومنا من المشركين، وقد صلينا وفقهنا، ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا.

فلما خرجنا من المدينة قال لنا البراء: ياهؤلاء إني قد رأيت رأيا، ووالله ما أدري توافقونني عليه أم لا؟ قلنا: وماذاك؟ قال: قد رأيت ألا أدع الكعبة مني بظهر وأن أصلي إليها، فقلنا: والله ما بلغنا أن نبيا

صلى الله عليه وسلم يصلى إلا إلى الشام ، وما نريد أن نخالفه ، فقال : إنى لمصل إليها . فقلنا له : لكنا لا نفعل .

فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام وصلى إلى الكعبة ، حتى قدمنا مكة ، وقد كنا عبنا عليه ما صنع ، وأبى إلا الإقامة على ذلك .

فلما قدمنا إلى مكة قال لى : يا ابن أخى ، انطلق بنا إلى رسول الله ، حتى أسأله عما صنعت فى سفرى هذا . فخرجنا نسأل عن رسول الله ، وكنا لا نعرفه ، لأنا لم نره قبل ذلك ، فلقينا رجلا من أهل مكة ، فسألناه عن رسول الله ، فقال : هل تعرفانه ؟ قلنا : لا ، قال : هل تعرفان العباس عمه ، قلنا نعم ، وكنا نعرفه إذ كان يقدم علينا المدينة تاجرا . قال : فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس .

فدخلنا المسجد ، فإذا العباس ، ورسول الله جالس معه ،فسلمنا ، ثم جلسنا إليه ، فقال رسول الله للعباس : هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟ قال : نعم ، هذا البراء سيد قومه ، وهذا كعب بن مالك ، فقال رسول الله : الشاعر ؟ قال عمه العباس بن عبد المطلب : نعم ، فقال البراء : يارسول الله ، إنى خرجت فى سفرى هذا ، وقد هدانى الله للإسلام ، فرأيت ألا أجعل هذه البنية منى بظهر ، فصليت إليها ، وقد خالفنى أصحابى فى ذلك ، حتى وقع فى نفسى من ذلك شىء ، فماذا ترى يارسول الله ؟ .

قال له صلى الله عليه وسلم : قد كنت على قبلة ، لو صبرت عليها ؟ فرجع البراء إلى قبلة رسول الله وصلى إلى الشام .

قال كعب : ثم خرجنا إلى الحج ، وواعدنا رسول الله العقبة من أوسط أيام التشريق ، فلما فرغنا من الحج ، وكانت الليلة الموعودة ،

ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ، أخذناه معنا ، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا ، فقلنا : أى ابن حرام أبا جابر ، إنك سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه ، أن تكون حطبا للنار غداً ، ودعوناه إلى الإسلام ، وأخبرناه بميعاد رسول الله إيانا العقبة ، فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيباً :

قال كعب : فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا ، لميعاد رسول الله ، نتسلل مستخفين ، حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ، ومعنا امرأتان من نسائنا :

١ — نسيبة بنت كعب ، أم عمارة ، من بنى مازن بن النجار .

٢ — وأسماء بنت عمرو ، من بنى سلمة ، وهى أم منيع .

قال كعب بن مالك : فاجتمعنا فى الشعب ، ننتظر رسول الله ، حتى جاءنا ومعه العباس ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ، ويتوثق له : فلما جلس كان هو أول متكلم !

قال العباس : يامعشر الخزرج(١) ، إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، فهو فى عز من قومه ، ومنعة فى بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، وما نعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده(٢)

---

(١) كانت العرب تسمى الأوس الخزرج باسم الخزرج .

(٢) كان خروج العباس مع رسول الله للسبب الذى ذكره ابن هشام ، ولسبب آخر هو أنه كان أكثر خبرة بالمدينة وأهلها وأشرافها لتردده عليها للتجارة .

فقلنا له : قد سمعنا ماقلت ، فتكلم يارسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ، ما أحببت .

فتكلم رسول الله ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب فى الإسلام ثم قال :

— أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

فأخذ البراء بيده ، وقال :

نعم والذى بعثك بالحق ، لنمنعك مما نمنع منه نساءنا ، فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله أهل الحروب ، ورثناها كابراً عن كابر .

وقال ابن التيهان ، أبو الهيثم :(١) — يارسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالا — عهودا — ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

فتبسم رسول الله ثم قال :

بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم ، وأنتم منى ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم .

وقال رسول الله :

اخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا ، ليكونوا على قومهم بما فيهم .

فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا : تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس .

---

(١) يعنى اليهود .

وهم :

١ - أبو أمامة ، أسعد بن زرارة ، الخزرجي الأنصاري(١) :

٢ - سعد بن الربيع الخزرجي قتل في أحد .

٣ - عبد الله بن رواحة الخزرجي .

٤ - رافع بن مالك الخزرجي .

٥ - البراء بن معرور(٢)

٦ - عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي .

٧ - عبادة بن الصامت(٣) الخزرجي .

٨ - سعد بن عبادة الخزرجي .

٩ - المنذر بن عمرو الخزرجي .

١٠ - أسيد بن حضير الأوسي(٤) .

١١ - سعد بن خيثمة الأوسي .

---

(١) مات في السنة الأولى من الهجرة ، ومات في هذه السنة من المشركين : الوليد بن المغيرة والد خالد بن الوليد ، وسعيد بن العاص ، والعاص بن وائل السهمي (١ : ٢١٨ - ٢٢٠ سير أعلام النبلاء)

(٢) أنصاري خزرجي - مات في المدينة في صفر قبل قدوم الرسول مهاجرا إليها بشهر واحد (١ : ١٩٤ سير أعلام النبلاء) - وابنه بشر بن البراء هو الذي أكل مع النبي صلى الله عليه وسلم من الشاة المسموحة يوم خيبر ، فمات (١ : ١٩٥ المرجع نفسه)

(٣) توفي عام ٣٤ هـ : ٦٥٤ م عن ٧٢ عاما .

(٤) توفي عام ٢٠ هـ (٢٤٦/١ سير أعلام النبلاء) .

١٢ — رفاعة بن عبد المنذر ، ومن العلماء من يجعل مكانه أبا الهيثم ابن التيهان .

وقال رسول الله للنقباء :

— أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ؛ وأنا كفيل على قومى - المسلمين - .

قالوا له :

— نعم

— ٢ —

وقال العباس بن عبادة لقومه :

- يامعشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟

قالوا : نعم ؟

قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس : فان كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتل ، أسلمتموه ؛ فن الآن ، فهو - والله - إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة ؛ وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، على نهكة - نقص - الأموال ، وقتل الأشراف ، فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة .

قالوا له :

- فإنا نأخذه على مصيبة الأموال ، وقتل الأشراف . فما لنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا ؟

قال رسول الله لهم : الجنة .

قالوا : ابسط يدك .

فبسط رسول الله يده ، فبايعوه .

وكان من أول من بايع رسول الله : أسعد بن زارة ، وقيل : أبو الهيثم ابن التيهان .

ثم بايع القوم .

ثم قال رسول الله :

ارفضوا[1] إلى رحالكم .

فقال العباس بن عبادة :

والله الذى بعثك بالحق ، إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا

فقال رسول الله :

— لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم .

قال كعب بن مالك :

فرجعنا إلى مضاجعنا ، فنمنا عليها ، حتى أصبحنا ؛ فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش ، حتى جاءونا فى منازلنا ، فقالوا : يامعشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا ، تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا وإنه والله مامن حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم .

فانبعث من هناك من مشركى قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شىء ، وماعلمناه ، وبعضنا ينظر إلى بعض .

ثم قام القوم ، وفيهم : الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومى . . وأتوا عبد الله بن أبى بن سلول ، فقالوا له مثل ماقالوا ، فقال لهم : إن هذا لأمر جسيم ؛ ماعلمته كان .. فانصرفوا عنه .

---

(١) أى تفرقوا

قال كعب :

ونفر الناس من منى ، وعلمت قريش أن الخبر صادق قد كان ، فخرجوا في طلب القوم ، فأدركوا سعد بن عبادة ، والمنذر بن عمرو ، ففاتهم المنذر وأخذوا سعدا فقيدوه ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجمته ، وكان ذا شعر كثير قال سعد : فقال لى رجل ، ممن كان معهم[1] : ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد ؟ قلت : بلى والله ، جبير بن مطعم ، والحارث بن حرب ، قال : ويحك ، فاهتف باسم الرجلين واذكر ما بينك وبينهما ، ففعلت ، وخرج ذلك الرجل إليهما فوجدهما في المسجد عند الكعبة ، فقال لهما : إن رجلا من الخزرج الآن يضرب بالأباطح ليهتف بكما ، ويذكر أن بينه وبينكما جواراً ، قالا : ومن هو ؟ قال : سعد بن عبادة ، قالا : صدق والله ، إن كان ليجير لنا تجارتنا ، فجاءا فخلصاه من أيديهم .

— ٣ —

وقدم المسلمون المدينة ، فأظهروا الإسلام بها(١) ، وتسمى بيعة العقبة الثانية بيعة الحرب ، وكانت العقبة الأولى بيعة النساء ، لأن الله تعالى لم يكن أذن لرسوله في الحرب ، فلما أذن لهم فيها ، وبايعهم رسول الله في العقبة الآخرة على حرب الأحمر والأسود أخذ لنفسه ، واشترط على القوم لربه ، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة .

حدث عبادة بن الصامت ، وكان أحد النقباء ، وكان من الذين بايعوا في العقبة الأولى على بيعة النساء قال :

بايعنا رسول الله بيعة الحرب ، على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ،

---

(١) هو أبو البختري بن هشام .

(٢) وكان يوم المهاجرين بقباء قبل هجرة رسول الله سالم مولى أبي حذيفة .

ومنشطنا ومكرهنا ، وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول ، الحق أينما كنا ، لانخاف فى الله لومة لائم .

— ٤ —

وكان رسول الله قبل بيعة العقبة لم يؤذن له فى الحرب ، ولم تحلل له الدماء ؛ إنما يؤمر بالدعاء إلى الله ، والصبر على الأذى ، والصفح عن الجاهل، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من قومه ، فتنوهم عن دينهم ، ونفوهم من بلادهم ؛ فهم من بين مفتون فى دينه ، ومن بين معذب فى أيديهم ، وبين هارب فى البلاد فراراً ، بالحبشة ، أو بالمدينة ، وفى كل وجه .

فلما عتت قريش على الله ، وكذبوا نبيه ؛ وعذبوا ونفوا من عبده ووحده وصدق نبيه ، واعتصم بدينه .

أذن الله لرسوله فى القتال ، والامتناع والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم.

فلما أذن الله له فى الحرب ، وتابعه هذا الحى من الأنصار على الإسلام والنصرة ولمن اتبعه ، أمر رسول الله أصحابه ، من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة ، بالخروج إلى المدينة ، والهجرة إليها ، واللحوق بإخوانهم من الأنصار وقال لهم :

— إن الله قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها .

فخرجوا أرسالا ، وأقام رسول الله بمكة ، ينتظر أن يأذن الله له فى الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة . . .

— ٥ —

وكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله من المهاجرين من قريش من بنى مخزوم : أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى ، واسمه عبد الله ، قدم على رسول الله مكة من الحبشة ، فلما آذته قريش ، وبلغه إسلام من أسلم

من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجراً ، ويروى أنه هاجر قبل بيعة العقبة بسنة ، وتقص أم سلمـــة المخزومية زوج النبي(١) صلى الله عليه وسلم قصة هجرته ، فتقول :

لما أجمع أبو سلمة الرأى على الهجرة إلى المدينة ، أتى ببعيره فحملني عليه ومعى ابنى سلمة فى حجرى ، ثم خرج بى يقود البعير .

فلما رأته رجال بنى مخزوم قاموا إليه ، فقالوا له :

هذه نفسك غلبتنا عليها أرأيت صاحبتنا هـذه ، علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟

ونزعوا مقود البعير من يده ، فأخذونى منه ، وغضب عند ذلك قوم أبى سلمة من بنى عبد الأســـد ؛ وقالوا : والله لا نترك سلمة ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا .

فتجاذبوا ابنى سلمة بينهم ، حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد وحبسنى قومى بنو المغيرة المخزوميون عندهم ، وانطلق زوجى أبو سلمة إلى المدينة ، وفرقوا بينى وبين زوجى وبين ابنى .

---

(١) هى هند بنت أبى أمية بن المغيرة ، المخزومية بنت عم خالد بن الوليد ، كانت قبل النبى عند أخيه من الرضاعة أبى سلمة ودخل بها الرسول سنة أربع من الهجرة ، وكانت من أجمل النساء وأشرفهن نسبا ، وهى آخر من مات من أمهات المؤمنين ، وذلك بعد مقتل الحسين . وقيل توفيت عام ٥٩ هـ فى شهر ذى القعدة. والأرجح أن وفاتها عام ٦١ هـ ، وصلى عليها أبو هريرة (٢ : ١٤٢ - ١٤٨ سير أعلام النبلاء) .

وأبو سلمة أخو رسول الله من الرضاعة ؛ وابن عمته برة بنت عبد المطلب ، وأحد السابقين الأولين . هاجر إلى الحبشة ، ثم هاجر إلى المدينة ، وشهد بدرا وأحدا ومات عام ٤ هـ ، وابنه سلمة ولد له بالحبشة من زوجه أم سلمة ، كما ولد له : عمر ، ودرة ، بالحبشة أيضا (١ : ١٠٨ — ١١٠ سير أعلام النبلاء) ، وولدت له زينب فى المدينة .

فكنت أخرج كل غداة ، فأجلس بالأبطح ، فما أزال أبكي حتى أمسي ، مدة سنة أو قريبا من ذلك .

حتى مر بي رجل من بني عمي ، أحد بني المغيرة ، فرأى ما بي ، فرحمني فقال لبني المغيرة : ألا ترحمون هذه المسكينة . . فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها .

فجاءوا ، فقالوا لي : الحقي بزوجك إن شئت ، ورد قوم زوجي بنو عبد الأسد إليّ ابني .

فركبت بعيري ، ثم أخذت ابني ، فوضعته في حجري ، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة وما معي أحد من خلق الله . حتى إذا كنت بالتنعيم(١) لقيت عثمان بن طلحة ، فقال لي ؛ إلى أين يابنت أبي أمية ؟ قلت : أريد زوجي بالمدينة ، قال : أو معك أحد ؟ قلت : لا والله ، مامعي إلا الله وابني هذا ؛ فأخذ بخطام البعير ، وانطلق معي يهوي بي ، فوالله ماصحبت رجلا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ، ثم استأخر عني ، حتى إذا نزلت عنه جاء فحط عن بعيري ، ثم قيده في الشجرة ، ثم تنحى إلى الشجرة ، فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه ، فرحله ، ثم استأخر عني ، فقال : اركبي ، فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه ، فقاد بي حتى ينزل بي ، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى قدمت المدينة ، عند قباء ، فقال : زوجك في هذه القرية ـ وكان أبو سلمة نازلا بقرية بني عمرو بن عوف بقباء ـ فادخليها على بركة الله ، ثم انصرف راجعا إلى مكة .

والله ماأعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ماأصاب آل أبي سلمة ، وما رأيت رفيق سفر قط أكرم من عثمان بن طلحة .

---

(١) موضع خارج مكة يحرم منه المكيون .

— ٦ —

وهاجر بعد أبى سلمة : عامر بن ربيعة ، ومعه امرأته ليلى ، وهما من عدى كعب .

ثم عبد الله بن جحش حليف بنى أمية بن عبد شمس ، وكان معه أهله وأخوه عبد بن جحش الضرير البصر، وكان شاعرا ، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب فلم يبق أحد من بيت عبد الله بن جحش فى مكة بسبب الهجرة .

ثم قدم المهاجرون المدينة جماعات .

— ٧ —

وكان من المهاجرين : عمر بن الخطاب وعياش بن أبى ربيعة المخزومى . تواعدا اللقاء عند التناضب(١) ، فلما قدما المدينة نزلا فى بنى عمرو بن عوف بقباء ، وخرج أبو جهل والحارث بن هشام إلى عياش ، وهو ابن عمهما وأخوهما لأمهما ، فقدما المدينة ، ورسول الله بمكة ، فكلما عياشاً ، وقالا له : إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط ، ولا تستظل من شمس، حتى تراك . فرق قلبه لأمه ، وقال عمر له : ياعياش ، إنه والله مايريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك ، فاحذرهم ، فقال : أبر قسم أمى ، ولى هناك مال فآخذه ، فقلت له : والله إنك لتعلم أنى لمن أكثر قريش مالا ، فلك نصف مالى ولا تذهب معهما ، فأبى على ، فقلت له : أما إذ قد فعلت مافعلت فخذ ناقتى هذه فإنها ناقة نجيبة ، فالزم ظهرها ، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها .

فخرج عليها معهما .

---

(١) قرية من أعمال مكة بأعلى نخلة على نحو عشرة أميال من مكة .

فلما كانوا ببعض الطريق ، قال له أبو جهل : أفلا تعقبنى على ناقتك هذه فقد استغلظت ، فلما أناخ ليركبه خلفه ، أوثقاه ، ودخلا به مكة ، وفتناه عن الإسلام . وقالا وهما يدخلان به مكة : هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا ، وحبساه ومعه هشام بن العاص فلما هاجر رسول الله إلى المدينة قال لأصحابه : من لى بعياش وهشام ؟ فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة : أنا لك يارسول الله بهما . فخرج إلى مكة ، ففك قيديهما وحملهما على بعيره ، وقدم بهما على رسول الله المدينة .

— ٨ —

فنزل عمر بن الخطاب وآله ومن قدم المدينة بعد ذلك من آله فى بنى عمرو بن عوف بقباء على رفاعة بن عبد المنذر .

ونزل طلحة بن عبيد الله بن عثمان ، وصهيب ، على خبيب الخزرجى بالسنح(١) .

ونزل حمزة وزيد بن حارثة بقباء على كلثوم بن هدم ، وقيل على سعد ابن خيثمة ، وقيل على سعد بن زرارة .

ونزل عبيدة بن الحارث بن المطلب وآله على عبد الله بن سلمة بقباء

---

(١) إحدى محال المدينة ، وكان بها منزل أبى بكر ، وهى فى طرف من أطراف المدينة ، وهى منازل بنى الحارث بن الخزرج بعوالى المدينة ، وبينها وبين منزل رسول الله ميل .

وكان كفار قريش قد قالوا لصهيب حين أراد الهجرة أتيتنا صعلوكا ـ فقيرا ـ حقيرا ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذى بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ، والله لايكون ذلك ، فقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى ؟ قالوا : نعم ، قال : فإن جعلت لكم مالى . فبلغ ذلك رسول الله فقال : ربح صهيب ، ربح صهيب .

ونزل عبد الرحمن بن عوف ، ومعه رجـــال من المهاجرين على سعد بن الربيع .

ونزل الزبير بن العوام ومن معه على منذر بن محمد .

ونزل مصعب بن عمير (١) على سعد بن معاذ .

ونزل عثمان بن عفان على أوس بن ثابت أخي حسان بن ثابت ، فى دار بنى النجار ، فلذلك كان حسان يحب عثمان ، ورثاه حين قتل .

---

(١) قتل فى غزوة أحد عام ٣ ﻫ (١ : ١٠٢ و ١٠٣ سير أعلام النبلاء للذهبي)

البَابُ الخامِسُ

الهجرة النبوية

الفصل الأول

هجرة رسول الله إلى المدينة

— ١ —

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ، ينتظر أن يؤذن له فى الهجرة ، ولم يتخلف معه بمكة أحد إلا من حبس أو فتن ، إلا على بن أبى طالب وأبو بكر .

وكان أبو بكر كثيرا مايستأذن رسول الله فى الهجرة ، فيقول له رسول الله : لاتعجل لعل الله يجعل لك صاحبا ، فيطمع أبو بكر أن يكونه .

— ٢ —

ولما رأت قريش أن رسول الله صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم ، فى غير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا دارا ، وأصابوا منهم منعة ، فخافوا خروج رسول الله إليهم ، إذ قد عرفوا أنه قد أجمع لحربهم .

فاجتمعوا له فى دار الندوة ، وهى دار قصى التى كانت قريش لاتقضى أمرا إلا فيها ؛ وأخذوا يتشاورون فيما يصنعون فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم . وكان ذلك الاجتماع فى يوم الخميس السابع والعشرين من صفر عام ٦٢٢ م .

وفى الدار اجتمع أشراف قريش : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، وطعيمة بن عدى ، وجبير بن مطعم ، والحارث

ابن عامر بن نوفل ، والنضر بن الحارث ، وأبو البخترى بن هشام ، وزمعة ابن الأسود بن المطلب ، وحكيم بن حزام ، وأبو جهل بن هشام ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وأمية بن خلف ، وغيرهم .

قال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم ، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا ، فيمن قد اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأيا .

فتشاوروا ، قال قائل منهم : احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه بابا ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زهيرا ومن مضى منهم ، حتى يصيبه ما أصابهم .

وقال آخر : بل نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ، فإذا خرج عنا فوالله ما نبالى أين ذهب ، ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا من أمره فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت .

وقال أبو جهل ، والله إن لى فيه لرأيا ماوقعتم عليه بعد :

قالوا : وما هو يا أبا الحكم؟ قال : — قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة شابا قوياً نسيبا وسيطا . ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارماً ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فنستريح منه وإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً .

ونزل جبريل ، فحدث رسول الله بالأمر ، وقال له : لاتبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه . وكان الرسول قد أعد من قبل عدته للهجرة : متى ما أذن له بها .

فلما كان الظلام اجتمعوا على باب الرسول يرصدونه ، متى ينام فيثبون

عليه ، فلما رأى رسول الله مكانهم ، قال لعلى : نم على فراشى ، وتسجَّ ببردى هـــذا ، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شىء تكرهه منهم . وكان رسول الله ينام فى برده ذلك إذا نام .

وخرج رسول الله ، فأخذ حفنة من تراب فى يده ، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلايرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم ، وهو يتلو الآيات (١ — ٩ من سورة يس) :

يس .

والقرآن الحكيم .

إلى قوله تعالى : فأغشيناهم فهم لا يبصرون .

ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب وكان ذلك فى صباح يوم الجمعة الثامن والعشرين من صفر سنة ١ هجرية .

وجعلوا يتطلعون فيرون عليا على الفراش متسجيا ببرد رسول الله ، فيقولون : والله إن هذا لمحمد نائما عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا ، وقام على من الفراش .

ونزل قوله تعالى :

« وإذ يمكر بك الذين كفروا : ليثبتوك ، أو يقتلوك ، أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » .

— ٣ —

كيف كان تدبير الرسول للهجرة(١) ؟

---

(١) ذكرى الهجرة تتكرر كل عام ، رمزا خالدا لانتصار الرسول=

. . . .

= الأعظم ، محمد صلى الله عليه وسلم ، على الشرك والمشركين ، والوثنية والوثنيين ، هذا الانتصار الباهر العظيم المتألق على مرور الأيام والأعوام ..

ذكرى أكبرها الفاروق عمر ، ومعه مستشاروه من جلة الصحابة ، وأعلام الدعوة ، ووجوه المسلمين الأولين ، فجعلوها مطلع التاريخ الإسلامى ومفتتحه ومبدأه ، وأرخوا بها أحداث الإسلام منذ كانت الهجرة حتى اليوم ، طيلة تسعين وثلاثمائة وألف من الأعوام .

ولقد انتصر الرسول الأعظم على الشرك والظلام انتصارات كبيرة وكثيرة ، انتصر فى بدر ، وانتصر بالفتح ، وانتصر من قبل فى معركة الصمود لقوى الظلام والشر والحرب ، ولكن أعظم الانتصارات فى حياة الإسلام وحياة المسلمين الأولين كانت هى الهجرة .. هجرة محمد بن عبد الله من مكة إلى المدينة ، ومعه صاحبه ورفيق جهاده ، أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

كان الإسلام قبل الهجرة لا يشق طريقه إلى قلوب العرب إلا بمشقة شديدة ، لأن قريشا كمت الأفواه ، وفرضت القيود ، وحجرت على الحريات ، وبطشت بالمسلمين ، وعذبت من تشاء وفتنت من تشاء ، وقتلت من تشاء .. فأصبح الإسلام بعد الهجرة حرا طليقا ، لا قيود ولا سدود ولا حدود أمامه ، يسير إلى قلوب الناس وعقولهم كما يشاء ويشاءون ، ولأن المسلمين خلصوا نهائيا من حياة التعذيب والاضطهاد التى فرضت عليهم فرضا ، وأحاطت بهم .

وكان الإسلام قبل الهجرة مبادىء لا تجد مجتمعها المسلم الذى تعيش فيه ، لأن المجتمع القرشى كان وثنيا ، وكان يحول بين الإسلام وبين أن تكون له السيادة فى مكة ، وكان المسلمون يعيشون غرباء فى هذا المجتمع =

. . . .

= الوثنى ، يدعون إلى دينهم دعوة سلام ، ومن حولهم طواغيت الوثنية تعلن عليهم حالة الحرب ، وتعبىء كل قواها للقضاء عليه وعليهم . . فأصبح للاسلام بعد الهجرة مجتمع إسلامى كبير يعيش بالإسلام وعليه وله ، ويطبقه تطبيقا كاملا كما أراد الله ورسوله .

وكان الناس ينظرون إلى الرسول قبل الهجرة على أنه ثائر على شرائع آبائه وأجداده ، وإلى أصحابه على أنهم صابئون يناهضون مجتمعهم وعقائدهم الموروثة . . فأصبحوا بعد الهجرة يزدادون يوما بعد يوم إيمانا بالرسالة والرسول وبالدين الذى نزل من السماء .

ولم يكن للاسلام قبل الهجرة قوة تحميه ، فصار له بعد الهجرة جيش يناضل دونه ، وينافح عن حياضه ويذود عن ذماره ، ويرد عنه شر أعدائه وخصومه .

وكان المسلمون قبل الهجرة يعيشون أفرادا لايستطيعون أن يجتمعوا ولا أن يتلاقوا فصاروا بعد الهجرة جماعة كبيرة تعبد الله فى الأرض . وتدعو إلى دينه الإلهى بالحسنى والسلام والمنطق والعقل .

وكان الإسلام قبل الهجرة محاصراً لا ينفذ نوره إلى مكان آخر خارج مكة ومن آمن به من المكيين . . وبعد الهجرة ، بل وبالهجرة ، أزيل هذا الحصار وامتد نور الإسلام المشرق إلى كل مكان .

إلى غير ذلك من مآثر الهجرة على الإسلام والمسلمين ، ومن فضائلها على العرب والعالم قاطبة ، وعلى الإنسانية والحضارة والشعوب كافة .

ولماذا كانت الهجرة ؟

كانت الهجرة ضرورة لا بد منها ليتخلص رسول الله صلى الله عليه وسلم =

. . . .

مما فرضه المشركون عليه ، وعلى المؤمنين برسالته ، وعلى الرسالة نفسها ، من قيود وسدود ، وليخرج هو وأصحابه مما هم فيه من اضطهاد وتعذيب وبطش وتنكيل وليجد الأفق الحر الرحب الذى يتنفس فيه أتباعه وتنتشر فيه أضواء دعوته الإلهية الصادقة .

وزاد من ضرورتها تكالب قوى الشر والوثنية وتألبهم على الرسول والمؤمنين به بعد وفاة عمه أبى طالب وزوجه خديجة .

وجعل الهجرة حتمية حدث آخر جلل هو تآمر المشركين فى مكة على الرسول ، حيث اجتمعوا قبل الهجرة بأيام فى دار الندوة فى مكة وأجمعوا أمرهم على قتل الرسول بيد شباب يجمعونهم من كل بطون قريش ، حتى يتفرق دمه فى القبائل ، فلا تقدر عشيرته بنو عبد مناف على الأخذ بثأره ويرضون بالدية صاغرين ، وأعلم الله عز وجل رسوله الكريم بما أجمعت عليه قريش وأمره بالهجرة من مكة إلى المدينة . . وأعد الرسول الأعظم للأمر عدته وأعلم رفيق حياته وكفاحه بما انتواه ، وأذن له أن يكون رفيقه فى الهجرة . . . وجاءت الليلة الموعودة ، وحاصر شباب القبائل دار محمد فى مكة انتظاراً لموعد تنفيذ المؤامرة ، ورأى الرسول مكانهم حول داره ، فخرج من بينهم إلى طيبه ، وإلى حيث يريد الله له . . واصطحب أبا بكر إلى غار ثور فى أول ربيع الأول من العام الثالث عشر للبعثة النبوية العظيمة ، وهو فى جنوبى مكة على ثلاثة أميال منها ، فأقاما فيه ثلاث ليال ، وفى اليوم الأول من شهر ربيع الأول خرج المهاجران من الغار وشقا طريقهما إلى المدينة عبر الطريق الوعرة الساحلية بين مكة والمدينة ، وهى غير مألوفة ووصل الركب العظيم إلى قباء يوم الاثنين الثامن من ربيع الأول ، وفى يوم الجمعة التاسع عشر منه غادارها

. . . .

إلى المدينة ، وتمت الهجرة ، وعلت كلمة الله ، وتحققت المعجزة وبلغ الرسول وصاحبه المدينة فى السادس عشر من ربيع الأول — العشرين من سبتمبر عام ٦٢٢ م .

وكان من نتائج الهجرة القريبة أن صار الإسلام دولة ، وصارت له قوة ، وصار الرسول حراً يدعو إلى دين الله كما أمره الله دون قيد أو حد ، وصار المسلمون أحراراً يعبدون الله كما يشاؤون ، ويجهرون بهذه العبادة كما يريدون ، ويجندون القوة لحماية الدعوة ، ورد عادية الشرك والضلال عنها كلما حاولت أن تنال منها .

ومع أن خصوم الرسالة كانوا كثراً ، وزاد أمرهم استفحالا ، وتحالفوا عليها وعلى الرسول أحيانا ، فقد نصر الله رسوله ، وصدق وعده وأعز جنده وهزم الشرك والضلال بقوة منه وكلمة من عنده .

المشركون من مختلف القبائل وأهل الكتاب من نصارى ويهود والمنافقون والحاقدون والحاسدون ، كلهم وقفوا صفا طويلا أمام دعوة الإسلام يحاربونها باللسان والسنان وبالمال وبالدعاية وبكل وسائل الحرب الظاهرة والخفية .

ولكن الإسلام انتصر عليهم جميعا لأنه وحى الله ودينه وكلمته ورسالته ، ولأنه الحق والتوحد والإيمان والفضيلة والخير وكل القيم الرفيعة فى الحياة .

لم تكن الهجرة من مكة إلى المدينة فرارا من المعركة ، ولا هرباً من ميدان النضال . . ولكنها كانت خروجا من أحد ميادين النضال الضيقة المحدودة الميئوس من نتائجها إلى ميدان النضال الأكبر ، فى سبيل الرسالة

. . . .

= والإيمان والعقيدة كانت خروجا إلى ميادين رحبة من النضال فى سبيل الله ، ومن إعزاز دينه ، ونشر كلمته فى الأرض .

وكان من رعاية الله للدين وللرسول أن بعث قبل الهجرة نفرا من المدينة ، من الأوس والخزرج ، فى موسم الحج من العام الحادى عشر للبعثة المحمدية ، على أن يبايعوا الرسول بيعة العقبة الأولى على الإيمان والتوحيد والدخول فى الإسلام ، وأن هيأ الأسباب لبيعة العقبة الثانية فى موسم الحج فى العام الثانى عشر من البعثة ، وهى البيعة التى أكد فيها وفد المدينة من الأوس والخزرج تصميمهم على حرب الأحمر الأسود من الناس فى سبيل حماية الرسول والدعوة إذا مالزم الأمر واقتضت الأحداث ذلك .

وكان موكب أهل المدينة فى استقبال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه — مع بساطته — من أروع المواكب فى تاريخ الإنسانية الطويل الممتد .

جماعات قليلة من المسلمين تهتف للرسول وصحبه ، تردد فى عزم وصدق أنها جند الله الذى يحمى بها رسالته ، تحوط الرسول ومن معه بالحب والإكبار ، وتؤكد أنها معه فى سبيل نشر الدين ، ودفع الأذى عن المسلمين ، ومن أجل حماية الدعوة ، ومؤازرة كلمة التوحيد والحق والإيمان .

وكان هذا الموكب الجليل مقدمة لمواكب رائعة منتصرة فى بدر ، وفى خيبر ، وفى فتح مكة ، ومقدمة لموكب رسول الله والمسلمين فى عرفة فى عام حجة الوداع .

كان أبو بكر ذا مال ، وكان يستأذن رسول الله فى الهجرة ، فيقول له رسول الله :

لا تعجل ، لعل الله يجعل لك صاحبا .

فطمع أبو بكر بأن يكون رسول الله هو صاحبه فى الهجرة .

فابتاع راحلتين ، وحبسهما فى داره ، يعلفهما إعدادا لذلك .

وكان رسول الله لايخطىء ان يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار ، إما بكرة ، وإما عشية .

حتى إذا كان ذلك اليوم الذى أذن الله فيه لرسوله فى الهجرة والخروج من مكة ، أتى رسول الله — كما تحدث عائشة بنت أبى بكر — بالهاجرة ، فى ساعة كان لا يأتى فيها .

= وكانت الهجرة المقدمة الرائعة التى كتبها الرسول لانتصارات الاسلام الكبرى فى تاريخه العظيم ، ومن أجل بناء الحضارة ، وإعزاز الفكر ، وسيادة كلمة الله فى الأرض ، بل كانت مقدمة مهدت لكل مآثر الاسلام فى خدمة الحياة والانسانية والشعوب ، وفى إعزاز قيم الحياة ومثلها العليا ومن أجل نشر الاخاء والسلام والمساواة والعدل فى الأرض .

ما أجملك وأكرمك يارسول الله ، لقد أديت الرسالة ، وبلغت الأمانة ، وكتبت فى تاريخ الإسلام أخلد الصفحات ، وتركت للمسلمين أروع الذكريات .

وما أعظمك ياعمر ، اتخذت من الهجرة عيدا للمسلمين ، ومطلعا لتاريخهم ، ومفتتحا لأعوامهم ، لأنك كنت أعمق الناس إدراكا لعظمتها وأهميتها ومكانتها .

فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء رسول الله هـــذه الساعة إلا لأمر حدث .

ولما دخل رسول الله تأخر له أبو بكر عن سريره ، فجلس عليه . فقال رسول الله : أخرج عنى من عندك . . وكان عنده عائشة وأسماء ، فقال : يارسول الله إنما هما ابنتاى ، وما ذاك فداك أبى وأمى ؟ فقال له صلى الله عليه وسلم : إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة :

فقال أبو بكر : الصحبة يارسول الله :

قال صلى الله عليه وسلم الصحبة :

قالت عائشة : فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكى من الفرح ، حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ ، ثم قال : يا نبى الله إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا .

فاستأجرا عبد الله بن أرقط ، وكانت أمه من بنى سهم بن عمرو ، وكان مشركا ، يدلهما على الطريق ، فدفعا إليه راحلتيهما ، يرعاهما لميعادهما .

ولم يعلم أحد بهجرة رسول الله إلا على وأبو بكر ، وبيت أبى بكر .

أما على فقد أمره رسول الله أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدى عن رسول الله الودائع التى كانت عنده للناس ، وكان رسول الله ليس بمكة أحد عنده شىء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته .

— ٤ —

وفى الليلة الموعودة خرج رسول الله من داره ، وأمر أبا بكر ، ليصحبه فى هجرته ، وخرجا من خوخة(١) لأبى بكر فى ظهر بيته ، ثم عمدا إلى غار بجبل ثور أسفل مكة ، فدخلاه ، ومكثا فيه . . وأصبح فتيان قريش الذين كانوا يرصدون رسول الله ، فدخلوا الدار ، فقام على عن فراشه ، فلما دنوا منه عرفوه ، وقالوا له : أين صاحبك ؟ قال : لا أدرى ، أو رقيبا كنت عليه ، أمرتموه ، بالخروج فخرج ، فانتهروه وضربوه وأخرجوه إلى المسجد فحبسوه ساعة ثم تركوه .

وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما مايقول الناس فيهما نهاره ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر .

وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره ، ثم يريحها عليهما ، يأتيهما إذا أمسى فى الغار ، فاحتلبا وذبحا ، ويعفى بالغنم على أثر عبد الله ابن أبى بكر .

وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما ، وسميت ذات النطاقين (٢) .

وأقام رسول الله فى الغار ثلاثة أيام بلياليها ، ومعه أبو بكر .

وخرج رسول الله من الغار بعد ثلاث وذلك فى صباح يوم الإثنين غرة ربيع

---

(١) باب صغير كالنافذة الكبيرة تكون بين بيتين ينصب عليها باب .

(٢) أتت رسول الله وأبا بكر بسفرتهما ، فلما أرادت أن تعلق السفرة إذ هى ليس فيها (عروة) ، فشقت نطاقها اثنين ، فعلقت السفرة بواحد ، وانتطقت بالآخر ، فسميت ذات النطاقين .

الأول سنة ١ هـ ، فلما قرب أبو بكر الراحلتين إلى الرسول قدم له أفضلهما ، ثم قال : اركب فداك أبى وأمى ، فقال رسول الله : إنى لا أركب بعيرا ليس لى ، فقال أبو بكر : فهى لك يارسول الله بأبى أنت وأمى ، قال : لا ، ولكن ، ما الثمن الذى ابتعتها به ؟ قال : كذا وكذا ، قال صلى الله عليه وسلم : قد أخذتها به ، قال : هى لك يارسول الله : فركبها ، وانطلقا ؛ وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة مولاه خلفه ليخدمهما فى الطريق ، وكان خروجه من مكة إلى المدينة يوم الإثنين ٢٨ من صفر .

— ٥ —

قالت أسماء : لما خرج رسول الله وأبو بكر أتانا نفر من قريش ، فيهم أبو جهل ، فوقفوا على الباب ، فخرجت إليهم ، فقالوا . أين أبوك ، يابنت أبى بكر ؟ قلت : لا أدرى والله أين أبى ، فرفع أبو جهل — لعنه الله — يده ، فلطم خدى لطمة طرح منها قرطى . . ثم انصرفوا ، فمكثنا ثلاث ليال ، وما ندرى أين وجه رسول الله ، ثم عرفنا أن وجهه إلى المدينة .

وكان أبو بكر حين أراد الخروج احتمل ماله كله معه ، خمسة آلاف أو سته آلاف درهم ، فانطلق بها معه ، قالت أسماء : فدخل علينا جدى أبو قحافة وقد ذهب بصره ، فقال : والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه ، قالت له أسماء : كلا ياأبت إنه قد ترك لنا خيرا كثيرا ، وأخذت أحجارا فوضعتها فى كوة فى البيت كان يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوبا ، ثم أخذت بيده ، وقالت له : يا أبت ، ضع يدك على هذا المال ، فوضع يده عليه ، فقال : لابأس ، إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاغ لكم . قالت أسماء : ولا والله ماترك لنا أبو بكر شيئا ، ولكنى أردت أن أسكن الشيخ بذلك .

— ٦ —

وسار الركب الكريم ، رسول الله ، والصديق ، ومعهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر ، وعبد الله بن أرقط دليلهما .

وكانت قريش لما خرج رسول الله من مكة مهاجرا إلى المدينة جعلت فيه مائة ناقة لمن يرده عليهم .

قال سراقة بن مالك (١) : بينا أنا جالس فى نادى قومى إذ أقبل رجل منا حتى وقف علينا ، فقال : والله لقد رأيت ثلاثة رجال مروا على آنفا ، إنى لأراهم محمدا وأصحابه ، فأومأت إليه بعينى أن اسكت ، وقلت : إنما هم بنو فلان ينشدون ضالة لهم ، ثم مكثت قليلا . وقمت ، فدخلت بيتى ، ثم أمرت بفرسى فقيد لى إلى بطن الوادى ، وأمرت بسلاحى فأخرج لى ، ثم انطلقت فلبست لأمتى ، وكنت أرجو أن أرده على قريش فآخذ المائة الناقة .

فركبت ، فبينا فرسى يعدو عثر بى ، فسقطت عنه ، فقلت : ماهذا ؟ فأبيت إلا أن أتبعه ، فركبت فى أثره ، فبينا فرسى يشتد بى عثر بى ، فسقطت عنه ، فقلت : ماهذا ، فأبيت إلا أن أتبعه ، فركبت فى أثره ، فلما بدا لى القوم ، ورأيتهم عثر بى فرسى ، فسقطت عنه ، وعرفت أنه قد منع منى ، وأنه ظاهر ، فناديت : أنا سراقة ، انظرونى أكلمكم ، فوالله لاأريبكم ولا يأتيكم منى شيء تكرهونه .

فقال رسول الله لأبى بكر : قل له وماتبتغى منا ؟ ، فقال ذلك أبو بكر ،

---

(١) من جلة الصحابة ، روى عنه ابن عباس وجابر والمسيب وطاووس ومات فى أول خلافة عثمان عام ٢٤ هـ .

فقلت : تكتب لى كتابا يكون آية بينى وبينك .

قال : اكتب له ياأبا بكر ، فكتب لى كتابا فى عظم أو فى رقعة أو فى خرقة ، ثم ألقاه إلى ، فأخذته فجعلته فى كنانتى .

ثم رجعت ، فسكت ، فلم أذكر شيئا مما كان . حتى إذا كان فتح مكة وفرع من حنين والطائف ، خرجت ومعى الكتاب لألقاه ، فلقيته بالجعرانة(١) ، فدخلت فى كتيبة من خيل الأنصار ، فجعلوا يقرعوننى بالرماح ، ويقولون : إليك ، إليك . ماذا تريد ؟ فدنوت من رسول الله وهو على ناقته فرفعت يدى بالكتاب ، ثم قلت : يارسول الله ، هذا كتابك لى ، وأنا سراقة فقال رسول الله : « يوم وفاء وبر ، ادنه » ، فدنوت منه ، فأسلمت ، ثم رجعت إلى قومى ، فسقت إلى رسول الله صدقتى .

— ٧ —

سلك بهما عبد الله بن أرقط أسفل مكة ، ثم مضى بهما على الساحل :

أسفل من عسفان على مرحلتين من مكة

ثم أمج وهى واد يأخذ من حرة بنى سليم

ثم قديدا وهى ماء بالحجاز بين مكة والمدينة

ثم سلك بهما الخرار وهو موضع بينهما

ثم ثنية المرة

ثم لقفا ثنية بين مكة والمدينة

ثم مدلجة لقف

---

(١) بين الطائف ومكة .

ثم مدلجة مجاح

ثم مرجح مجاح

ثم مرجح من ذى الغضوين

ثم بطن ذى كشر بين مكة والمدينة

ثم الجد اجد

ثم الأجرد

ثم ذا سلم وهو جبل من جبال القبلية

ثم بطن أعدا مدلجة تعهن ، وهو ماء وموضع على ثلاثة أميال من السقيا بين مكة والمدينة .

ثم العبابيد

ثم القاحة على ثلاثة مراحل من المدينة قبل السقيا

ثم العرج وهو عقبة بين مكة والمدينة ، وهنا أبطأ عليهما بعض إبلهما فحمل رسول الله رجل من أسلم ، اسمه أوس بن حجر على جمل له إلى المدينة وبعث معه غلاما يقال له مسعود بن هنيدة .

ثم ثنية العائر وهى عن يمين ركوبة عند العرج ، وكان دليله صلى الله عليه وسلم إليها عبد الله ذو البجادين .

ثم بطن رئم وهو على أربعة برد من المدينة

ثم قباء فى يوم الإثنين الثامن من ربيع الأول على الأصح حين اشتد الضحى وكادت الشمس تعتدل (١) ، فنزل صلى الله عليه وسلم على بنى عمرو

---

(١) الصحيح أن ذلك فى اليوم العشرين من سبتمبر عام ٦٢٢ ميلادية ، وهو الثامن من ربيع الأول .

بْنَ عوف . وهذا اليوم يوافق العشرين من سبتمبر عام ٦٣٢ م .

— ٨ —

وعن بعض الصحابة : لما سمعنا بخروج رسول الله من مكة ، كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرتنا ، ننتظر رسول الله ، فو الله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال ، فإذا لم نجد ظلا دخلنا بيوتنا ؛

وقدم رسول الله حين دخلنا البيوت ، وكان أول من رآه رجل من اليهود ، فصرخ بأعلى صوته : يابنى قيلة (١) ، هذا جدكم قد جاء .

فخرجنا إلى رسول الله ، وهو فى ظل نخلة : ومعه أبو بكر فى مثل سنه ، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله قبل ذلك ، وما يعرفونه من أبى بكر ، ولما زال الظل عن رسول الله قام أبو بكر ، فأظله بردائه ، فعرفنا رسول عند ذلك .

— ٩ —

ونزل رسول الله على كلثوم (٢) بن هدم أخى بنى عمرو بن عوف :

ويقال : بل نزل على سعد بن خيثمة لأنه كان عزبا لا أهل له ، وكان منزله منزله العزاب من أصحاب رسول الله من المهاجرين .

ونزل أبو بكر على خبيب بن إساف ، أحد بنى الحارث بن الخزرج بالسنح(٣) - وقيل : نزل على خارجة بن زيد .

---

(١) يريد بهم الأنصار ، سموا باسم جدة لهم .

(٢) توفى بعد قدوم رسول الله المدينة ، فهو أول من مات من الأنصار بعد الهجرة ، ثم مات بعده أسعد بن زرارة ، وسعد بن خيثمة .

(٣) إحدى محال المدينة

وأقام على بن أبى طالب بمكة ثلاث ليال وأيامها ، حتى أدى عن رسول الله الودائع التى كانت عنده للناس ، فلما فرغ منها لحق برسول الله ، فنزل معه على كلثوم بن هدم ، ليلة أو ليلتين .

وأقام رسول الله بقباء ، وفى صباح يوم الجمعة التاسع عشر من ربيع الأول سنة ١ هـ خرج منها إلى المدينة ، فأدرك رسول الله الجمعة ، فى بنى سالم بن عوف ، فصلاها فى المسجد الذى فى بطن الوادى ، وادى رانوناء ، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة (١) ، ودخل المدينة فى اليوم نفسه .

---

(١) كانت أول خطبة جمعة بالمدينة أى قباء على ما أرجح كما يروى هى : الحمد لله - أحمده ، وأستعينه ، وأستغفره وأستهديه ، وأومن به ولا أكفره ، وأعادى من يكفره .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى والنور والموعظة ، فى فترة من الرسل ، وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمن ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل ، ومن يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصه فقد غوى ، وفرط ، وضل ضلالا بعيدا .

وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم ، أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله ، فاحذروا ماحذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكرا . وإن تقوى الله يوقى مقته ، ويوقى عقوبته ، وإن تقوى الله يبيض الوجوه ، ويرضى الرب ، ويرفع الدرجة .

ويقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام بقباء أربعة عشر يوما ، حيث أسس مسجد قباء ، وهو أول مسجد بنى فى الإسلام. ووصول رسول الله إلى المدينة كان يوم الجمعة الثانى عشر من ربيع على أصح الآراء .

ويذكر الطبرى أن قدوم رسول الله المدينة يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول (٢ / ٩٥) .. والصحيح أن يوم الإثنين كان أول ربيع الأول والاثنين الذى بعده كان يوم ٨ وهو وصول الرسول قباء .

فأتاه عتبان بن مالك ، وعباس بن عبادة فى رجال عن بنى سالم بن عوف ، فقالوا :

يارسول الله ، أقم عندنا فى العدد والعدة والمنعة ،

قال صلى الله عليه وسلم :

خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة ، يريد ناقته .

فلما كان فى دار بنى بياضة تلقاه رجال منهم ، فقالوا :

يارسول الله ، هلم إلينا ، فى العدد والعدة والمنعة .

قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة .

وعند دار بنى ساعدة اعترضه سعد بن عبادة فى رجال من بنى ساعدة ، فقالوا :

يارسول الله ، هلم إلينا فى العدد والعدة والمنعة .

فقال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة .

فلما وصل دار بنى الحارث بن الخزرج ، اعترضه رجال منهم ، فقالوا :

يارسول الله ، هلم إلينا ، إلى العدد والعدة والمنعة .

قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة :

فلما وصل دار أخواله بنى عدى بنى النجار ، وكانت أم عبد المطلب منهم ، وهى سلمى بنت عمرو إحدى نسائهم ؛ اعترضه رجال منهم ، فقالوا :

يارسول الله ، هلم إلى أخوالك ، إلى العدد والعدة والمنعة .

قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة .

فلما وصل دار مالك بن النجار بركت عند باب مسجده صلى الله عليه وسلم ، وهو يومئذ مربد لغلامين يتيمين من بنى مالك بن النجار ،

وكأنا فى حجر معاذ بن عفراء ، وهما : سهل وسهيل ابنا عمرو ورسول الله واضع لناقته زمامها لايثنيها به .

ثم قامت فسارت غير بعيد ، ثم التفتت إلى خلفها ، فرجعت إلى مبركها الأول ، فبركت فيه ، فنزل عنها رسول الله(١)

---

(١) وهكذا تمت الهجرة ، ويقال: إن وصول رسول الله إلى المدينة كان لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من العام الثالث عشر للبعثة المحمدية ، وذلك يوافق ٢٨ من يونيو ٦٢٢ م .

ويروى عن ابن عمر قال : قال أهل المدينة لرسول الله ادخل المدينة راشدا مهديا ، فدخلها وخرج الناس ينظرون إليه ، كلما مر على قوم قالوا : يارسول‌الله هاهنا ، فقال : دعوها فإنها مأمورة ، يعنى الناقة ، حتى بركت على باب أبى أيوب (٢:٢٩١ سير أعلام النبلاء ـ للذهبى) .

ومات أبو أيوب عام ٥٢ هـ ودفن بأصل حصن القسطنطينية (٢٨٨-٢/٢٩٦ سير أعلام النبلاء) .

وقد خص رسول الله أبا أيوب بالنزول عليه فى بنى النجار إلى أن بنيت له حجرة أم المؤمنين سودة وبنى المسجد الشريف (٢٢٨ : ٢ سير أعلام النبلاء) .

ومنذ ذلك اليوم أطلق على يثرب اسم المدينة أى مدينة النبى . كما أطلق على ذلك اليوم اسم يوم الهجرة . وقد مثل هذا اليوم مفترق طريق فى حياة النبى وفى تاريخ الإسلام .

هذا التاريخ ٢٨ يونيو ٦٢٢م أصبح نقطة انطلاق لأيام الإسلام ، وتم اختياره كبداية لحولية تاريخية جديدة . وتبعا لهذه الحولية أصبحت سنة المسلم هى السنة القمرية ، وهى تتألف من ستة شهور مدة كل منها ٢٩ يوما وستة أخرى مدة كل منها ٣٠ يوما فيكون مجموع أيام السنة القمرية ٣٥٤ يوما كما يكون الفرق بين القرن الهجرى والقرن الميلادى فوق ثلاث سنوات .

بناء المسجد النبوى بعد قدوم الرسول المدينة :

فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله صلى الله عليه وسلم ، فوضعه فى بيته ، ونزل عليه رسول الله حتى بنى مسجده ومساكنه .

وسأل صلى الله عليه وسلم عن المربد : لمن هو ؟ فقال له معاذ بن عفراء : هو يارسول الله لسهل وسهيل ابنى عمرو ، وهما يتيمان لى ، وسأرضيهما منه فاتخذه مسجداً .

فأمر به رسول الله أن يبنى مسجداً ، وعمل فيه رسول الله ، ومعه المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه .

ثم انتقل صلى الله عليه وسلم من بيت أبى أيوب إلى مساكنه .

وحدث أبو أيوب : لما نزل على رسول الله ، فى بيتى ؛ نزل فى السفل ، وأنا وأم أيوب فى العلو .

فقلت له : يانبى الله ، بأبى أنت وأمى ، إنى لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتى ، فاظهر أنت فتكون فى العلو .

ونزل نحن فنكون فى السفل فقال صلى الله عليه وسلم : « يا أبا أيوب إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى سفل البيت(١) .

وتم بناء المسجد الشريف وبناء مساكن أزواج رسول الله ، واتخذها الرسول سكنا له ولأزواجه أمهات المؤمنين ، رضى الله عنهن .

---

(١) وعن أبى رهم أن أبا أيوب حدثه أن رسول الله نزل فى بيتنا الأسفل وكنت فى الغرفة ، فأهريق ماء فى الغرفة ، فقمت أنا وأم أيوب نتتبع الماء بقطيفة لنا ، ونزلت فقلت : يارسول الله ، لاينبغى أن نكون فوقك ، انتقل إلى الغرفة ، فأمر بمتاعه فنقل ، ومتاعه قليل (٢٩١ : ٢ سير أعلام النبلاء للذهبى) .

ومات والمسجد يبنى : أسعد بن زرارة رحمه الله وكان نقيب بنى النجار ، فصار رسول الله نقيب بنى النجار ، وهم أخواله .

ومن هنا نعلم أن رسول الله أقام بالمدينة منذ قدمها فى شهر ربيع الأول وظل إلى صفر عام اثنين من الهجرة ، حتى بنى مسجده ومساكنه ، واستجمع له إسلام الأنصار ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها إلا بعض بطون قلائل من الأوس ، فإنهم أقاموا على شركهم .

وقد تحدث القرآن الكريم عن الهجرة ، فقال الله تعالى ، وهو أصدق القائلين : بسم الله الرحمن الرحيم - «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكرهون(٥) يجدلونك فى الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون(٦) وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلمته ويقطع دابر الكفرين(٧) ليحق الحق ويبطل البطل ولو كره المجرمون (٨) إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملئكة مردفين(٩) ، وماجعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم» (١٠) (من سورة الأنفال) .

الفصل الثانى

ما بعد الهجرة

— ١ —

تدفق المهاجرين على المدينة :

تلاحق المهاجرون إلى رسول الله فى المدينة ، ولم يبق بمكة أحد إلا مفتون أو محبوس ، ومن البيوت التى هاجر أهلوها جميعا إلى المدينة : بنو مظعون ، وبنو جحش ، وبنو البكير . فإن دور هؤلاء بمكة أغلقت لهجرة جميع أهليها إلى المدينة .

أول خطبة خطبها رسول الله فى المدينة(١) :

مضت أول خطبة خطبها رسول الله فى قباء ، وهذه أول خطبة خطبها فى المدينة حمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

أما بعـــد :

أيها الناس ، فقدموا لأنفسكم ، تعلمن والله ليصعقن أحدكم ، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه — وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه — : ألم يأتك رسولى ، فبلغك ، وآتيتك مالا ، وأفضلت عليك ، فما قدمت لنفسك ؟ .

---

(١) يروى الطبرى (٢ / ١١٥) نص خطبة أخرى خطبها الرسول فى أول جمعة له .

فلينظرن يمينا وشمالا فلا يرى شيئا ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم .

فمن استطاع أن يق وجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل .

ومن لم يجده فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة إلى عشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

خطبة ثانية :

ثم خطب رسول الله مرة أخرى ، فقال :

إن الحمد لله ، أحمده وأستعينه نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .

من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى .

قد أفلح من زينه الله فى قلبه ، وأدخله فى الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ماسواه من أحاديث الناس .

إنه أحسن الحديث وأبلغه

أحبوا ما أحب الله

أحبوا الله من كل قلوبكم

ولا تملوا كلام الله وذكره

ولا تقس عنه قلوبكم

فإنه من كل مايخلق الله ، يختار ويصطفى قد سماه الله خيرته من الأعمال، ومصطفاه من العباد ، والصالح من الحديث ومن كل ما أوتى الناس من الحلال والحرام .

فاعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا ، واتقوه حق تقاته ، واصدقوا الله صالح ماتقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، إن الله يغضب أن ينكث عهده .

والسلام عليكم

موادعة رسول الله لليهود :

وكتب رسول الله كتابا ـ أو معاهدة ـ وادع فيه اليهود ، وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، واشترط عليهم ، وشرط لهم .

ومما جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ، ويثرب ، ومن تبعهم ، فلحق بهم وجاهد معهم .

إنهم أمة واحدة من الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم(١) يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم(٢) بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

---

(١) أى على الحال التى جاء الإسلام وهم عليها .
(٢) العانى : الأسير .

وبنو ساعدة على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو الحارث على ربعتهم . يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وإن المؤمنين لايتركون مفرحا(١) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل .

ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة ـ عطية ـ ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليهم جميعا ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن .

---

(١) هو المثقل من الدين الكثير العيال .

وإن ذمة الله واحدة : يجير عليهم أدناهم .

وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .. وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحدة ، لايسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم .

وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا .

وإن المؤمنين يبىء — يكف — بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله .

وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه .

وإنه لايجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن.

وإنه من اعتبط — قتل — مؤمنا قتلا عن بينة ، فإنه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول .

وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

وإنه لايحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر ، أن ينصر محدثا ، ولا يؤويه .

وإنه من نصره ، أو آواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

وإنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد صلى الله عليه وسلم .

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين .

وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين : لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ،

مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ - لا يهلك - إلا نفسه ، وأهل بيته .

وإن ليهود بني النجار مثل ماليهود بني عوف .

» » » الحارث » » » » .

» » » ساعدة » » » » .

» » » جشم » » » » .

» » » الأوس » » » » .

» » » ثعلبة » » » » ، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ إلا نفسه .

وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

» لبني الشطيبة مثل ماليهود بني عوف ، وإن البر دون الإثم ، وإن موالي بني ثعلبة كأنفسهم .

وإن بطانة يهود كأنفسهم ، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم .

وإنه لا ينحجر على ثأر جرح .

» من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم .

وإن الله على أبر هذا .

» على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم .

» بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .

» بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم ، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه.

وإن النصر للمظلوم .

« اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين .

« يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

« الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها .

وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث ، أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره .

وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها .

وإن بينهم النصر على من دهم يثرب .

وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه .

وإنهم إذا دعو إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم ، وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة ، مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفة .

الفصل الثالث

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار وقال لهم :

« تآخوا فى الله ، أخوين أخوين »

وأخذ بيد على فقال : هذا أخى

وكان حمزة وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين

وكان جعفر بن أبى طالب (١) ومعاذ بن جبل أخوين

وكان أبو بكر وخارجة الخزرجى أخوين

وكان عمر وعتبان بن مالك الخزرجى أخوين

وأبو عبيدة وسعد بن معاذ أخوان

وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع الخزرجى أخوان

والزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود أخوان

وسعيد بن زين وأبى بن كعب أخوان

وطلحة وكعب بن مالك أخوان

وكان أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وعباد بن بشر أخوين

وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان(٢) أخوان

---

(١) كان جعفر آنذاك بأرض الحبشة .

(٢) ويقال : ثابت بن قيس الخزرجى خطيب رسول الله مكان حذيفة .

وأبو ذر والمنذر بن عمرو الخزرجى أخوان

وسلمان الفارسى وأبو الدرداء الخزرجى أخوان

وبلال وأبو رويحة الخثعمى أخوان

وحاطب بن أبى بلتعة وعويم بن ساعدة أخوان

وتمت هذه المؤاخاة الفريدة فى تاريخ الإنسانية

ولقد وجد الرسول نفسه أمام ثلاث طوائف فى المدينة :

أولاها - طائفة المهاجرين الفقراء ، الذين ضحوا بوطنهم ومالهم وتجارتهم طلبا للحرية ، وفرارا من الطغيان ، فهاجروا من مكة إلى المدينة ، فرادى وجماعات ، بعد هجرة محمد عليه الصلاة والسلام ، وكان أغلبهم يعمل بمكة فى التجارة يكسب منها الأموال الطائلة ، ويصفهم الله تعالى فى القرآن بقوله « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون » ، ويصف الطبقة التى تلتهم فى الهجرة بقوله : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا الذين آمنوا ؛ ربنا إنك رءوف رحيم .

والطائفة الثانية - هم الذين أحبوا الرسول ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه : من الأوس والخزرج سكان المدينة ، وكانت مهنة أكثرهم الزراعة وتعهد الثمار والأشجار والفاكهة ، وكانوا ذوى عدد ، ووصفهم الله تعالى بقوله : « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

والطائفة الثالثة - يهود المدينة ، الذين طالما أشعلوا نار الخصومة والحرب بين الأوس والخزرج ، وسخروا برسالة محمد وأصحابه .

مجتمع كهذا المجتمع ، فيه الفقراء والأغنياء ، والمفسدون والمتآمرون ، لابد فيه من بناء جديد ، وحركة بعث وتجديد ؛ فماذا فعل محمد صلوات الله عليه ؟ بدأ الرسول يعالج هذه المشكلات بإلهام سديد ، وعقل حصيف ، وسياسة حكيمة :

طمأن اليهود على حرياتهم الدينية والشخصية ، وتعهد بحمايتهم والدفاع عنهم ، فى وثيقة سياسية بارعة ، وادع فيها اليهود وعاهدهم وحذرهم ، ليضمن سلامة الدولة وأمنها .

والتفت إلى علاج مشكلة التفاوت الشديد فى الثروة ، بين الأغنياء والفقراء ، بين الأنصار والمهاجرين ، فآخى بينهم إخاء فريداً فى تاريخ الإنسانية ، إخاء مودة وتعاون وإخلاص ، فكان يأخذ بيدى المهاجرى والأنصارى ويقول : « تآخيا فى الله أخوين » . قال ابن هشام : آخى رسول الله بين المهاجرى والأنصارى فقال : تآخوا فى الله أخوين .

وهكذا تنازل الأنصار الأغنياء ، بوازع من دينهم وضميرهم وحبهم وطنهم ، لإخوانهم المهاجرين الفقراء عن نصف مايملكون من ثروة وعقار وأرض ، دون تردد أو إبطاء .

وجدت مشكلة أخرى . فقد كان الأنصار أصحاب زراعة ، بينما المهاجرون أهل تجارة لاعهد لهم بسواها من الحرف ، فماذا يفعلون بالأرض التى أصابتهم؟

هنا تجلت عظمة إيمان الانصار ، وجلال أخلاقهم ، وإيثارهم على أنفسهم ، فقد أصروا على أن يزرعوا أرضهم وأرض المهاجرين بأنفسهم ويقسموا محصولها مناصفة فيما بينهم ، ويكفوهم العمل والمؤونة ، تعاونا منهم فى بناء الأمة والمجتمع .

ومع ذلك فقد عمل كثير من المهاجرين فى الزراعة ، كأبى بكر وعلى

وسواهم . وعمل آخرون فى التجارة ونجحوا فيها كعبد الرحمن بن عوف الذى عرض أخوه الانصارى سعد بن الربيع أن يشاطره ماله فأبى ، وطلب إليه أن يدله على السوق فتاجر وربح ، ولما توفى وترك ثروة واسعة قال أناس من أصحاب رسول الله : إنا نخاف على عبدالرحمن فيما ترك ، فقال كعب : سبحان الله : ولم تخافون عليه ؟ كسب طيباً ، وأنفق طيباً ، وترك طيباً .

ولم يكن هذا هو العلاج الوحيد الذى عالج به الرسول الكريم مشكلة الفقر فى المدينة ، بل خص المهاجرين ببعض الغنائم كأموال بنى النضير ، فلم يعط الأنصار منها شيئاً ، إلا ثلاثة نفر محتاجين ، وقال لهم : إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم فى هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شىء من الغنيمة ،فقال الأنصار بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها . . وهكذا كانت يد الأنصار جليلة على المهاجرين ، حتى قالوا فيهم : ما رأينا مثل أنصار المدينة ، لقد أحسنوا مواساتنا ، وبذلوا الكثير ، وأشركونا فى المهنة ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله .

الفصل الرابع

الأذان

— ١ —

اطمأن رسول الله بالمدينة ، واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين ، واجتمع أمر الأنصار

وبذلك استحكم أمر الإسلام ، فقامت الصلاة . وفرضت الزكاة والصيام وقامت الحدود ، وفرض الحلال والحرام ، وتبوأ الإسلام بين أظهرهم ، وكان الأنصار هم الذين تبوأوا الدار والإيمان .

— ٢ —

وكان الناس يجتمعون إلى رسول الله للصلاة فى مواقيتها بغير دعوة .

وهم رسول الله حين قدم المدينة أن يتخذ بوقا كبوق اليهود ؛ ولكن كره ذلك . ثم فكر فى اتخاذ الناقوس كالنصارى ، لكنه عدل عن ذلك .

وأخذ رسول الله يشاور صحابته فى ذلك .

فجاءه عبد الله بن زيد الخزرجى ، يقول : إنه رأى فى نومه النداء للصلاة ، أى الاذان ، قال : يارسول الله ، طاف بى هذه الليلة طائف ، مر بى رجل عليه ثوبان أخضران ، يحمل ناقوسا فى يده ، فقلت له : ياعبد الله ، أتبيع هذا الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ؟ قلت : ندعو به إلى الصلاة . قال : أفلا أدلك على خير من ذلك ؟

قلت : وما هو ؟

قال : تقول :

الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله .

حي على الصلاة ، حي على الصلاة

حي على الفلاح ، حي على الفلاح .

الله أكبر ، الله أكبر

لا إله إلا الله

فقال صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن زيد : إنها لرؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه ، فليؤذن بها ، فإنه أندى صوتا منك .

فلما سمع عمر الأذان وهو فى بيته ، خرج إلى رسول الله يجر رداءه ، وهو يقول : يا نبي الله ، والذى بعثك بالحق ، لقد رأيت مثل الذى رأى .

فقال له رسول الله : فلله الحمد .

وقيل : رأى عمر فى المنام : أن لا تجعلوا الناقوس ، بل أذنوا للصلاة ، فذهب إلى للنبي ليخبره بالذى رأى ، وقد جاء النبي الوحى بالأذان ، فما راع عمر إلا بلال(١) يؤذن ، فقال رسول الله لعمر حين أخبره بذلك : قد سبقك بذلك الوحى .

---

(١) عاش بضعا وستين سنة ، وتوفى عام ٢٠ هـ أو ٢١ هـ (راجع ١ : ٢٥١ — ٢٥٩ سير أعلام النبلاء للذهبي) .

وجاء بعض أحبار اليهود إلى رسول الله ، وقالوا له : كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيراً ابن الله ، فنزل قوله ، تعالى : « وقالت اليهود : عزير ابن الله (٣١ التوبة) » .

— ٣ —

فلما اطمأنت برسول الله داره ، وأظهر الله بها دينه ، سره بما جمع إليه من المهاجرين والأنصار من المؤمنين بالإسلام ، قال أبو قيس بن قيس صرمة بن أبى أنس الأنصارى(١) .

سبحوا الله شرق كل صباح | طلعت شمسه وكل هلال
عالم السر والبيان لدينا | ليس ما قال ربنا بضلال

إلى آخر هذه القصيدة الحكيمة :

وقال كذلك أيضا يحدث عن رسول الله وعن الأنصار :

ثوى فى قريش بضع عشرة حجة | يذكر لو يلقى صديقا مواتيا
ويعرض فى أهل المواسم نفسه | فلم ير من يؤوى ، ولم ير داعيا
فلما أتانا أظهر الله دينه | فأصبح مسرورا بطيبة راضيا

---

(١) كان ممن ترهب فى الجاهلية ، وفارق الأوثان ، ودخل بيتا فاتخذه مسجدا ، وقال : أعبد رب إبراهيم ، حين فارق الأوثان وكرهها . فلما قدم رسول الله المدينة أسلم وهو شيخ كبير ، وكان شعره فى توحيد الله وتعظيمه ، فى الجاهلية ، وفى الحكمة . . وهو من بنى النجار .

وألفى صديقاً واطمأنت به النوى
وكان لنا عوناً من الله باديا
يقص لنا ما قال نوح لقومه
وما قال موسى إذ أجاب المناديا

وحولت القبلة فى شعبان من السنة الثانية من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان عبد الله بن الزبير أول مولود فى الإسلام بعد الهجرة ، وميلاده فى العام — الأول من هجرة رسول الله .

الفصل الخامس

اليهود يظهرون العداوة للإسلام

— ١ —

ورأت اليهود ما أصاب الإسلام فى المدينة من تمكين فنصبوا هم وأحبارهم لرسول الله العداوة بغيا وحسداً .

ومال إليهم فى عداوتهم للإسلام رجال من الأوس والخزرج كانوا قد ظلوا على جاهليتهم وشركهم ، وأظهروا الإسلام نفاقا وعصمة لأنفسهم .

وأخذ أحبار اليهود يسألون فى تعجيز رسول الله ، ويتعنتونه ، ويأتونه باللبس ، ليلبسوا بين الحق والباطل .

فنهم حيي بن أخطب ، وسلام من مشكم وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ، وسلام بن أبى الحقيق ، وأخوه سلام بن الربيع ، والربيع بن الربيع بن أبى الحقيق ، وكعب بن الأشرف ، وعبد الله بن صورى الأعور الذى لم يكن بالحجاز أحد أعلم بالتوراة منه ، ورفاعة بن قيس ، ورافع بن أبى رافع ، ورافع بن خارجة ، وعبد الله بن سلام ، وكان حبرهم وأعلمهم ، ووهب بن يهوذا ، ولبيد بن أعصم . . وسواهم من الأحبار وأهل الشر والعداوة لرسول الله وأصحابه ، والعداوة للاسلام والعمل لإطفاء نوره .

— ٢ —

وقد كان عبد الله بن سلام(١) يقاوم مايصنعه اليهود أهل ملته .

وكان حبرا عالما ، قال : لما سمعت برسول الله عرفت صفته واسمه وزمانه الذى كنا نترقب له ، فكنت مسرا لذلك ، حتى قـــدم رسول الله المدينة .

فلما نزل رسول الله بقباء ، أقبل رجل حتى أخبر بقدومه .

قال ابن سلام : وأنا فى رأس نخلة لى أعمل فيها ، وعمتى خالدة تحتى جالسة ، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله كبرت .

فقالت لى عمتى حين سمعت تكبيرى : خيبك الله ، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادما مازدت .

فقلت لها : أى عمة ، هو والله أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه ، بعث بما بعث به .

فقالت : أهو النبي الذى كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة .

فقلت لها : نعم .

فقالت : فذاك إذا .

ثم خرجت إلى رسول الله ، فأسلمت ، ورجعت إلى أهل بيتى فأمرتهم فأسلموا ؛ وكتمت إسلامى من يهود .

---

(١) راجع فضائل عبد الله بن سلام فى مسلم ٢ : ٢١٠ مختصر صحيح مسلم للمنذرى .

ثم جئت رسول الله فقلت : يارسول الله أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك وتغيبنى عن يهود ، ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا إسلامى ، فإنهم إن علموا به عابونى .

فأدخلنى رسول الله فى بعض بيوته ، ودخلوا عليه فكلموه وسألوه ، ثم قال لهم : أى رجل ابن سلام فيكم ؟

قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، وحبرنا وعالمنا .

فخرجت عليهم ، فقلت لهم : يامعشر يهود ، اتقوا الله ، واقبلوا ماجاءكم به ، فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله ، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة باسمه وصفته ، فإنى أشهد أنه رسول الله ، وأومن به وأصدقه وأعرفه .

فقالوا : كذبت ، ثم وقعوا بى .

وأظهرت إسلامى وإسلام أهل بيتى، وأسلمت عمتى خالدة، فحسن إسلامها.

وقالت الأحبار : ما آمن بمحمد ولا اتبعه إلا شرارنا ، ولو كانوا من أخيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره ، وقد عاش ابن سلام حتى على ، مات عام ٤٣ هـ (١) .

- ٣ -

وأما مخيريق ، فكان حبرا عالما ، وكان رجلا غنيا كثير الأموال من النخل ، وكان يعرف رسول الله بصفته ، وغلب عليه إلف دينه ، فلم يزل ذلك حتى كان يوم أحد ، وكان يوم أحد يوم السبت .

فقال : يامعشر يهود ، والله إنكم لتعلمون إن نصر محمد عليكم لحق . وأخذ سلاحه ، وقاتل حتى قتل .

---

(١) ٢ : ٢٩٦ - ٣٠٥ سير أعلام النبلاء .

وحدثت صفية بنت حيي بن أخطب قالت :

لما قدم رسول الله المدينة ، ونزل بقباء ، غدا عليه أبي حيي ، وعمي أبو ياسر ، فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس،فأتيا مكدودين كسلانين يمشيان الهوينى ، فوالله ماالتفت إلى واحد منهما مع مابهما من الغم،وسمعت عمي وهو يقول لأبي : أهو هو ؟ قال : نعم ، قال : أتعرفه وتثبته ؟ قال : نعم ، قال : فما بقي في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله مابقيت .

— ٤ —

وكان ممن دخل في الإسلام مع المسلمين ، وأظهر الدين وهو منافق ، من أحبار اليهود : سعد بن حنيف ، ونعمان بن أوفى ، وأخوه عثمان ، وزيد بن اللصيت .

وزيد هذا هو الذي قاتل عمر بسوق بني قينقاع . . وهو الذي قال حين ضلت ناقة رسول الله : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ، وهو لايدري أين ناقته ؟ فقال رسول الله ، وجاءه الخبر بما قال عدو الله في رحله ، ودل الله رسوله صلى الله عليه وسلم على ناقته :

إن قائلا قال : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ، ولا يدري أين ناقته ؟ وإني والله ماأعلم إلا ماعلمني الله . وقد دلني الله عليها،فهي في هذا الشعب(١) قد حبستها شجرة بزمامها ؛ فذهب رجال من المسلمين فوجدوها حيث قال رسول الله ، وكما وصف .

وكان من هؤلاء كذلك : رافع بن حريملة ، ورفاعة بن زيد ، وقد أهلكهما الله عز وجل . وقال رافع بن حريملة ووهب بن زيد : يامحمد ، ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه ، وقال رافع للرسول : يامحمد ، إن كنت رسولا من الله فليكلمنا الله حتى نسمع كلامه .

---

(١) هو الطريق في الجبل .

— ٥ —

وكان من أحبار اليهود ممن ناصبوا رسول الله العداء : أبو ياسر ابن أخطب : وأخوه حيي بن أخطب ؛ وكانا من أشد اليهود للعرب حسدا ، إذ خصهم الله تعالى برسول الله . وكانا جاهدين فى رد الناس عن الإسلام .

مر أبو ياسر هذا برسول الله ، وهو يتلو فاتحة البقرة : « الم ، ذلك الكتاب لاريب فيه » ، فأتى أخاه حيي بن أخطب فى رجال من اليهود ، فقال لهم : لقد سمعت محمدا يتلو فيما أنزل عليه « الم » .

فقالوا : أأنت سمعته .

قال : نعم .

فمشى حيي فى أولئك النفر من اليهود إلى الرسول فقالوا له : يامحمد ، ألم يذكر لنا أنك تتلو فيما أنزل إليك : « الم ذلك الكتاب » ؟

فقال رسول الله : بلى .

فقالوا : أجاءك بها جبريل من عند الله ؟

قال: نعم.

قالوا : لقد بعث الله قبلك أنبياء مانعلمه بين لنبى منهم مامدة ملكه غيرك .

فقال حيي لمن معه : الألف واحد ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، فهذه إحدى وسبعون ، أفتدخلون فى دين إنما مدة ملكه إحدى وسبعون سنة ؟ ـ ثم أقبل على رسول الله ، فقال : يامحمد ، هل مع هذا غيره ؟

قال : صلى الله عليه وسلم : نعم .

قال : ماذا ؟

قال : ألمص .

قال : والله هذه أثقل وأطول ، إحدى وستون ومائة ستة ؛ هل مع هذا يامحمد غيره ؟ قال : نعم ، ألر .

قال : هذه أثقل وأطول ، إحدى وثلاثون ومائتان ، هل مع هذا غيره يامحمد ؟

قال : نعم ، المر .

قال : هذه أثقل وأطول ، إحدى وسبعون ومائتان .

ثم قال : لقد لبس علينا أمرك يامحمد ، حتى ماندرى أقليلا أعطيت أم كثيرا ؟

ثم قاموا عنه ، فقال أبو ياسر لأخيه حيي : مايدريكم ، لعله قد جمع هذا كله لمحمد .

فقالوا : لقد تشابه علينا أمره .

— ٦ —

وكان اليهود يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به ، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه .

فقال لهم معاذ بن جبل : اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك وتخبروننا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته .

فقال أحد اليهود : ماجاءنا بشيء نعرفه ، وماهو بالذى كنا نذكره لكم.

— ٧ —

ولما قدم نصارى نجران على رسول الله أتتهم أحبار اليهود ، فتنازعوا عند رسول الله

فقال رافع بن حريملة : ماأنتم على شيء ، وكفر بعيسى وبالإنجيل .

وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود : ماأنتم على شيء ، وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة ، فأنزل الله تعالى (١١٣ سورة البقرة) :

« وقالت اليهود : ليست النصارى على شيء .

وقالت النصارى : ليست اليهود على شيء »

وقالت الأحبار : ماكان إبراهيم إلا يهوديا

وقالت النصارى من أهل نجران : ماكان إبراهيم إلا نصرانيا

فأنزل الله تعالى : ماكان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا (الآية ٧١ من سورة آل عمران) .

وقال عبدالله بن صورى الأعور لرسول الله : ماالهدى إلا مانحن عليه ، فاتبعنا يامحمد تهتد ، وقالت النصارى مثل ذلك ، فأنزل الله تعالى (١٣٥ سورة البقرة) .

وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا

قل بل ملة إبراهيم حنيفا

وماكان من المشركين

وكان فى وفد نصارى نجران ستون راكبا ، فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم ، ومنهم رؤساؤهم : العاقب ، والسيد ، وأبو حارثة بن علقمة صاحب مدراسهم ، وكان أبو حارثة هذا مقدما عند ملوك الروم من أهل

النصرانية ، لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده فى دينهم ، فقال رجل من الوفد وقد عثرت بغلة أبى حارثة : تعس الأبعد ، يريد رسول الله ، فقال له أبو حارثة : بل أنت تعست ، قال : ولم يا أخى ؟ قال والله إنه للنبى الذى كنا ننتظر ، فقيل له : وما يمنعك منه وأنت تعلم هذا ؟ قال أبو حارثة : ماصنع بنا هؤلاء القوم شرفونا وأكرمونا وقد أبوا إلا خلافه ، فلو فعلت — أى آمنت بمحمد — نزعوا منا كل ماترى .

فدخلوا عليه المسجد حين صلى رسول الله العصر ، ولهم منظر وروعة ، وحانت صلاتهم ، فقاموا فى مسجد رسول الله يصلون ، فقال رسول الله : دعوهم ، فصلوا إلى المشرق ، فأخذوا يجادلون رسول الله فى أمر المسيح وأمه ، فنزل فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها ، فدعاهم رسول الله إلى الملاعنة : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل ، فنجعل لعنة الله على الكاذبين ، (٦١ آل عمران) — فنكصوا ، وقالوا : يا أبا القاسم قد رأينا ألا نلاعنك ، وأن نتركك على دينك ونرجع على ديننا ، ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا فى أشياء اختلفنا فيها من أموالنا ، فإنكم عندنا رضا ، فقال رسول الله : ائتونى العشية أبعث معكم القوى الأمين ، فبعث معهم أبا عبيدة .

— ٨ —

ولما حولت القبلة من الشام إلى الكعبة فى شهر شعبان ، على رأس سبعة عشر شهرا من هجرة رسول الله إلى المدينة ، أتى رسول الله رفاعة بن قيس وكعب بن الأشرف ورافع بن أبى رافع والربيع بن الربيع وغيرهم .

فقالوا : يامحمد ، ماولاك عن قبلتك التى كنت عليها ، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ؟ ارجع إلى قبلتك التى كنت عليها نتبعك ونصدقك .

فأنزل الله تعالى (١٤٢ سورة البقرة) :

سيقول السفهاء من الناس : ماولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟

قل : لله المشرق والمغرب

يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم

— ٩ —

ودعا رسول الله اليهود من أهل الكتاب إلى الإسلام ، ورغبهم فيه ، وحذرهم عذاب الله ونقمته ، فقال له رافع بن خارجة . بل نتبع يامحمد ماوجدنا عليه آباءنا ، فهم كانوا أعلم وخيرا منا .

ولما أصاب رسول الله قريشاً يوم بدر جمع رسول الله اليهود فى سوق بنى قينقاع فقال :

يامعشر يهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمثل ماأصاب به قريشاً .

فقالوا له : يامحمد ، لايغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغمارا ، لايعرفون القتال . . إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا .

— ١٠ —

ودخل رسول الله بيت المدراس(١) على جماعة من اليهود ، فدعاهم إلى الله .

فقال له النعمان بن عمرو ، والحارث بن زيد : وعلى أى دين أنت محمد ؟

قال : بل على ملة إبراهيم ودينه

---

(١) بيت عبادة اليهود .

قالا : فإن إبراهيم كان يهوديا

فقال لهما رسول الله فهلم إلى التوراة ، فهى بيننا وبينكم ، فأبيا عليه .

واجتمع الأحبار من اليهود ، والنصارى من أهـــل نجران ، عند رسول الله ، فدعاهم إلى الإسلام ، فقال أبو نافع القرظى : أتريد منا يامحمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم ، وقال رجل من أهل نجران نصرانى: أوذاك تريد منا يامحمد وإليه تدعونا ؟ فقال رسول الله : «معاذ الله، أن أعبد غير الله ، أو آمر بعبادة غيره ، فما بذلك بعثنى الله ولا أمرنى ، فأنزل الله تعالى قوله : «ماكان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس : كونوا عبادا لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين ، بما كنتم تعلمون الكتاب . وبما كنتم تدرسون » (٧٩ من سورة آل عمران) — والربانيون : العلماء الفقهاء السادة .

— ١١ —

ومر شاس بن قيس ـ وكان شيخا عظيم الكفر ، شديد الحسد للمسلمين على نفر من أصحاب رسول الله ، من الأوس والخزرج ، فى مجلس قد جمعهم ، يتحدثون فيه ؛ فغاظه مارأى من ألفتهم وجماعتهم على الإسلام ، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية ، فقال :

قد اجتمع ملأ بنى قيلة(١) بهذه البلاد ، لا والله مالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر فتى شابا من اليهود كان معه ، فقال له : اعمد إليهم ، فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بعاث(٢) ، وما كان قبله ، وأنشدهم بعض

(١) الملأ : الجماعة من الناس . قيلة : أم الأنصار .

(٢) كان بين الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس ، وكان زعيم الأوس حضير الأشهلى ، وزعيم الخزرج عمرو بن النعمان البياضى : فقتلا جميعا .

ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ، ففعل الشاب ذلك .

فتنازع القوم ، وتفاخروا ، وغضب الفريقان جميعا ، ورددوا : السلاح السلاح ، فبلغ ذلك رسول الله ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين وقال :

يامعشر المسلمين ، الله ، الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بين قلوبكم .

فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان ، وكيد من عدوهم . . فبكوا ، وعانق بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع رسول الله سامعين مطيعين ، وأنزل الله تعالى على رسوله الكريم (١٠٠ سورة آل عمران) :

يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين .

— ١٢ —

ودخل أبو بكر بيت المدراس على اليهود ، فوجد منهم ناسا كثيرا ، قد اجتمعوا إلى رجل من علمائهم ، هو فنحاص ، فقال له : ويحك يافنحاص ، اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم إن محمدا لرسول الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل . فرد عليه فنحاص : والله ياأبا بكر ، مابنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء ، وما هو عنا بغنى ؛ ولو كان عنا غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان عنا غنيا ماأعطانا الربا .

فغضب أبو بكر ، وضرب وجه فنحاص ضربا شديدا ، وقال له :

والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينك لضربت رأسك أى عدو الله ، فشكا فنحاص إلى رسول الله ، وقال : يامحمد ، انظر ماصنع بى صاحبك ؟

فقال رسول الله لأبى بكر : ماحملك على ماصنعت ؟ ، فقال أبو بكر : يارسول الله ، إن عدو الله قال قولا عظيما ، إنه زعم أن الله فقير إليهم وأنهم عنه أغنياء ، فجحد ذلك اليهودى ، فأنزل الله : لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء (١٨١ آل عمران) .

— ١٣ —

وكلم رسول الله رؤساء من أحبارهم ، منهم عبد الله بن صورى الأعور ، وكعب بن أسد ، فقال لهم :

يامعشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا فوالله إنكم لتعلمون إن الذى جئتكم به لحق .

قالوا : مانعرف ذلك يامحمد ، فجحدوا ماعرفوا وأصروا على الكفر ، فأنزل الله تعالى فيهم (٤٧ النساء) :

« يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم ، من قبل أن نطمس وجوها ، فنردها على أدبارها ، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت ، وكان أمر الله مفعولا » .

وقال أحبار من اليهود لقريش حين سألوهم « أديننا خير أم دين محمد ؟ » : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه ، فأنزل الله تعالى فيهم : ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت(١) والطاغوت (٥١ النساء) .

---

(١) الجبت : ماعبد من دون الله . والطاغوت : كل ما أضل عن الحق .

ودخل جماعة منهم على رسول الله ، فقال لهم : أما والله إنكم لتعلمون أنى رسول إليكم من الله ؟ . قالوا : مانعلمه وما نشهد عليه ، فنزل قوله تعالى: لكن الله يشهد بما أنزل إليك ، أنزله بعلمه ، والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيدا .

— ١٤ —

وبلغ بهم الأمر أن حاولوا قتل الرسول ، لما خرج إلى بنى النضير ، يستعينهم فى دية العامريين الذين قتلهما عمرو بن أمية ، فقال بعضهم لبعض : لن تجدوا محمدا أقرب منه الآن ، فمن يظهر على هذا البيت فيرميه بصخرة ، فيريحنا منه ، فقال رجل منهم : أنا ، فنزل الوحى على الرسول بالأمر ، فانصرف عنهم ، فنزل قوله تعالى :

يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم ، فكف أيديهم عنكم (١١ المائدة) .

وكانوا يقولون كقول النصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه ، فنزل قوله تعالى :

وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم ؟

ودعاهم رسول الله إلى الإسلام ، ورغبهم فيه وحذرهم ، فأبوا وكفروا بما جاءهم به ، فقال لهم معاذ بن جبل ، وسعد بن عبادة : يامعشر يهود ، اتقوا الله ، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه ، وتصفونه لنا بصفته ، فقال رافع بن حريملة : ماقلنا لكم هذا ، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى ، ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا بعده ، فنزل قوله تعالى : يا أهل الكتاب ، قد جاءكم رسولنا ، يبين لكم على فترة من

الرسل ، أن تقولوا ، ماجاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير » ١٩ المائدة .

— ١٥ —

واجتمع أحبار لهم فى بيت المدراس ، بعد الهجرة ، وقد زنى رجل منهم بعد إحصانه بامرأة من اليهود محصنة ؛ فقالوا : ابعثوا بها إلى محمد ، فسلوه : كيف الحكم فيها ، وولوه الحكم عليها .

فأتوه فقالوا : يامحمد ، هذا رجل قد زنى بعد إحصانه بامرأة قد أحصنت ؛ فاحكم فيهما ، فقد وليناك الحكم .

فمشى رسول الله ، حتى أتى أحبارهم ، فقال : يامعشر يهود ، أخرجوا إلى علماءكم ، ففعلوا ، فقال لعبد الله بن صورى .

يا ابن صورى ، أنشدك الله وأذكرك بأيامه عند بنى إسرائيل هل ، تعلم أن الله حكم فيمن زنى بعد إحصانه بالرجم فى التوراة ؟ قال : اللهم نعم . أما والله يا أبا القاسم إنهم ليعرفون إنك لنبى مرسل ، ولكنهم يحسدونك ؛ فأمر رسول الله بهما فرجما عند باب مسجده . ثم كفر بعد ذلك ابن صورى ، وجحد نبوة رسول الله

وقال عبد الله بن سلام : هذه يانبى الله آية الرجم فى التوراة ، ولكنهم يخفونها ، فقال لهم رسول الله :

ويحكم ، يامعشر يهود ، مادعاكم إلى ترك حكم الله وهو بأيديكم ؟

قالوا : قد كان فينا يعمل به ، حتى زنى رجل منا ـ بعد إحصانه ـ من بيوت الملوك وأهل الشرف ، فمنعه الملك من الرجم ، ثم زنى رجل بعده ، فأراد أن يرجمه ، فقالوا : لا . والله ، حتى ترجم فلانا ، فأماتوا ذكر الرجم والعمل به ؛ فقال رسول الله :

فأنا أول من أحيا أمر الله وكتابه وعمل به (١) .

— ١٦ —

وقال بعض أحبارهم لبعض : اذهبوا بنا إلى محمد ، لعلنا نفتنه عن دينه ، فإنما هو بشر ، فأتوه ، فقالوا له : يا محمد ، إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وسادتهم . وإنا إن اتبعناك اتبعتك يهود ، ولم يخالفونا ؛ وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة ، أفنحاكمهم إليك ، فتقضى لنا عليهم ونؤمن بك ونصدقك ؟ فأبى ذلك رسول الله ، فأنزل الله فيهم : وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم (٤٩ المائدة) .

وأتى رسول الله بعض أحبارهم فقالوا : يا محمد أما تعلم مع الله إلها غيره ؟ فقال رسول الله : « الله لا إله إلا هو ، بذلك بعثت ، وإلى ذلك أدعو » ، فأنزل الله تعالى :

أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد ، قل : إنما هو إله واحد (١٩ الأنعام) .

— ١٧ —

وكان رجال منهم قد أظهروا الإسلام ونافقوا : كرفاعة بن زيد ، وسويد بن الحارث ؛ وكان رجال من المسلمين يوادونهما ، فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا » (٥٧ المائدة) .

وكان هؤلاء المنافقون يحضرون المسجد ، فيسمعون أحاديث المسلمين ويسخرون منهم ، ويستهزئون بدينهم ، فاجتمع فى المسجد يوما ناس منهم ،

---

(١) ويقال : إن أول من رجم فى الزنا ربيعة بن حذار الأسدى (ص ٥٥ الأوائل لأبى هلال) .

فأمر بهم رسول الله فأخرجوا من المسجد إخراجا عنيفا ، وأنزل الله فيهم صدر سورة البقرة إلى الآية المائة منها .

وقال بعض منافقيهم : لئن كان هذا الرجل صادقا لنحن شر من الحمر ؛ فرفع ذلك لرسول الله ، فأنكر الذى قال ذلك ، فنزل قوله تعالى :

« يحلفون بالله ماقالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إسلامهم » (٧٤ التوبة) .

— ١٨ —

وقال بعض أحبارهم لرسول الله : أحق يامحمد بأن هذا الذى جئت به الحق من عند الله ؟ فإنا لانراه متسقا كما تتسق التوراة ؟

فقال لهم رسول الله :

أما والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله ، تجدونه مكتوبا عندكم ، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ماجاءوا به .

فقالوا : يامحمد ، أما يعلمك هذا إنس ولا جن .

فقال لهم رسول الله :

أما والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله ، وإنى لرسول الله ، تجدون ذلك مكتوبا عندكم فى التوراة .

فقالوا : يامحمد ، فإن الله يصنع لرسوله إذا بعثه مايشاء ، فأنزل علينا كتابا من السماء نقرؤه ونعرفه ، وإلا جئناك بمثل ماتأتى به ، فنزل : قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (٨٨ الاسراء) .

ولما قدم رسول الله المدينة كان سيد أهلها عبد الله بن أبي بن سلول ، لايختلف عليه فى شرفه اثنان ، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين غيره ، حتى جاء الاسلام ، ومعه فى الأوس رجل هو فى قومه شريف مطاع ، وهو أبو عامر عبد عمرو بن صيفى ، وكان قد ترهب فى الجاهلية ، ولبس المسوح فكان يقال له : الراهب .

فشقيا بشرفهما وحسدهما لرسول الله .

فأما ابن أبي فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ، ثم يملكوه عليهم ، فلما انصرف قومه عنه إلى الاسلام حقد ، ورأى أن رسول الله قد سلبه ملكا ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الاسلام دخل فيه كارها على نفاق وحقد.

وأما أبو عامر الأوسى فأبى إلا الكفر والفراق لقومه ، فخرج من المدينة إلى مكة فى خمسين رجلا ، وقيل: فى بضعة عشر رجلا ، مفارقا للإسلام ولرسول الله ، فقال رسول الله : « لاتقولوا الراهب ، ولكن قولوا الفاسق » وكان أبو عامر وهو فى المدينة أتى رسول الله ، فقال : ما هذا الدين الذى جئت به ؟ قال له رسول الله : جئت بالحنيفية دين ابراهيم ، قال : فأنا عليها ، قال له رسول الله : إنك لست عليها ، قال : « بلى ، إنك ، إنك أدخلت يا محمد فى الحنيفية ماليس منها » ، قال: مافعلت ، ولكنى جئت بها بيضاء نقية.

وأقام أبو عامر فى مكة ، فلما افتتحها رسول الله خرج إلى الطائف ، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام ، فمات بها طريدا غريبا وحيدا ، وسوف يأتى أنه كان أول المحاربين لرسول الله فى أحد .

وكان قد خرج معه علقمة بن علاثة ، وكنانة بن عبد ياليل . فلما مات أبو عامر اختصما فى ميراثه إلى قيصر صاحب الروم ، فقال قيصر : يرث أهل المدر ـ البادية ـ أهل المدر ، ويرث أهل الوبر ـ الحاضرة ـ أهل الوبر ، فورثه كنانة دون علقمة .

— ٢٠ —

وركب رسول الله إلى سعد بن عبادة يعوده ، وأردف أسامة بن زيد خلفه فمر رسول الله بابن أبى وهو فى ظل أطمه – حصنه – وحوله رجال من قومه .

فلما رآه رسول الله نزل ، فسلم ، فجلس قليلا ، وتلا القرآن ، ودعا إلى الله وذكر به ، وحذر وبشر وأنذر ، حتى إذا فرغ رسول الله ، قال ابن أبى :

ياهذا ، إنه لاأحسن من حديثك هذا ، إن كان حقا فاجلس فى بيتك ، فمن جاءك له فحدثه إياه ، ومن لم يأتك فلا تأته فى مجلسه بما يكره منه . فقال عبد الله بن رواحة فى رجال كانوا عنده من المسلمين : بلى ، فاغشنا به ، وائتنا به فى مجالسنا ، ودورنا وبيوتنا ، فهو والله مما نحب ومما أكرمنا الله به ، وهدانا له .

وقام رسول الله فدخل على سعد ، وفى وجهه أثر ماقاله ابن أبى ، فقال: والله يارسول الله إنى لأرى فى وجهك شيئا ، لكأنك سمعت شيئا تكرهه ، فقال : أجل ، وأخبره بما قال ابن أبى ، فقال سعد : يارسول الله ، ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له الخرز لنتوجه ، وإنه ليرى أن قد سلبته ملكا .

— ٢١ —

وقد كان اليهود من قبل عونا للمشركين فى مكة على رسول الله وأصحابه وهم الذين قالوا لوفد المشركين : سلوا محمدا عن ثلاثة إن أجابكم عنها فهو نبى وإلا فلا ؛ وكان من هذه الثلاثة الأمور : الروح ، وتقول التوراة عن الروح : فى البدء كانت الكلمة ، وكان روح الله يرف على وجه الماء .

الفصل السادس

ذكر من اعتل بالمدينة من أصحاب رسول الله

— ١ —

لما قدم رسول الله المدينة ، يوم الإثنين ، حين اشتد الضحاء ، وكادت الشمس تعتدل ، لثنتى عشرة ليلة مضت من ربيع الأول ، على رواية ، وهو يومئذ ابن ثلاث وخمسين سنة ، بعد أن بعثه الله عز وجل بثلاث عشرة سنة ، أقام بها ، حتى نهاية العام والمحرم من العام الثانى ، ثم خرج غازيا بعد ذلك فى صفر على رأس اثنى عشر شهراً من الهجرة .

— ٢ —

ولما قدم صلى الله عليه وسلم المدينة قدمها وهى أوبأ أرض الله من الحمى .

فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم ، وصرف الله تعالى ذلك عن نبيه . .

ومرض أبو بكر ومن معه من الصحابة فيها ، وقال رسول الله عنهم : إنهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى .

— ٣ —

ودعا رسول الله ربه للمدينة أن يجعلها دار سلام وخير ، قال :

اللهم حبب إلينا المدينة ، كما حببت مكة أو أشد ، وبارك لنا فى

مدها وصاعها وانقل وباءها إلى مهيعة (١) .

ولقد جهد المسلمون قبل ذلك مرضا فى المدينة ، حتى ما كانوا يصلون إلا وهم قعود ، وصرف الله تعالى ذلك عن نبيه .

فلما دعا رسول الله للمدينة ، باركها الله ، وصارت أحب بقعة من بقاع الإسلام إلى قلب كل مسلم .

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

تحويل القبلة

وحولت القبلة فى شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من هجرة رسول الله ، فصارت إلى الكعبة ، والبيت الحرام ، بعد أن كانت إلى بيت المقدس .

وبذلك تمت كلمة الله ، وقوى أمر الدين .

* * *

---

(١) هى الجحفة

خاتمة الجزء الثانى

— ١ —

تلك الانسانية الحائرة المضللة ترنو ببصرها إلى السماء ، تنشد النور والهدى والحق والسلام ، وهذه الحياة الموحشة الكئيبة تتنسم روائح الحرية والعدالة والإخاء ، بعد أن عافت رؤية الدماء والأشلاء واستبداد الأقوياء بالضعفاء ، وملت سماع أنغام العبودية والرق والاستعبادوالسيطرة على الناس والاستهانة بحريات الأفراد والجماعات والشعوب ، وهـــذه الأرواح والقلوب والمشاعر الظامئة إلى نبع الروحية والإيمان والأمان تحوم فى أجواء السماء ، باحثة عن الصوت السماوى الخالد الذى دوى فى أسماع البشرية حينا بعد حين ، وجيلا بعد جيل ، ليبلغها رسالة الكمال الإنسانى الأعلى ، وليرشدها إلى الحقيقة الكبرى التى قامت عليها الأرض والسموات والكون .

واتجهت الآمال والأبصار كلها إلى جزيرة العرب ، إلى قلبها النابض بالحياة : مكة ، وإلى ذؤابة العرب كلها فى قريش ، وإلى ميراث النبوة الخالد من آل عبد المطلب بن هاشم ، وإلى بيت عبد الله بن عبد المطلب وزوجه الطاهرة آمنة بنت وهب . واستقر الإلهام الصادق على أن رسولا جديداً يوشك أن يظهر فى الكون ليحدث أعظم ثورة إنسانية أرادها الله وعرفها التاريخ وباركتها السماء ، وليقود الناس من جديد إلى الحرية الكاملة والمساواة التامة والمدنية الباهرة والحضارة الزاهرة والسلام المنشود .

وأخذت الأحبار والرهبان والكهان تهتف من أعماق قلوبها فى صمت عميق وعجيب عجيب : لا بد من ميلاد النور الأعظم ، الذى سيضىء

الآفاق ويحرر العالم كله من إسار الظلام والظلم والعبودية ، لابد من ذلك ، فالأمل قريب والبشرى توشك أن تتحقق ، والنشيد الخالد الذى طالما ظمئنا إلى لحنه الرائع قد بدأت أنغامه الموقعة وكأنها صيحة البعث والحرية ، لابد من أن تتحقق نبوءة موسى وعيسى بمولد « روح الفهم والمشورة ، وروح الحكمة والقوة ، وروح الخوف والمحبة ، وروح التبصر والاعتدال ، والعدل والتقوى والرحمة ، فما أسعد الزمن الذى سيأتى فيه إلى العالم(١) » كله .

ومات عبد الله ، وترك النور متألقا فى هذا الجنين الطاهر المطهر ، المودع فى مجمع الأصلاب الطاهرة ، وسلالة أشرف من فى الوجود من أهل الدنيا والآخرة . . ومسحت آمنة دموعها ، وأقامت على الإيمان والصبر والعزاء الكريم ، ولكنها كانت تسير وتقف وتنام وتستيقظ وتصبح وتمسى وتعيش فى كل لحظة لتسمع هتافا أبديا خالدا تردده الأجيال من أعماق الزمن وأغوار الأنسانية : بشراك يا آمنة فإنك تحملين النور الأعظم الذى سيضىء على الآفاق وسيملأ الدنيا ذكرا وبشرا وخيراً وبراً وأملا وسعادة وحيوية وحياة ، بشراك يا آمنة بميلاد خاتم النبيين وآخر المرسلين ، بشراك بما بشر به يسوع بابتهاج قلب : « إنه محمد رسول الله ، ومتى جاء إلى العالم فسيكون ذريعة للأعمال الصالحة بين البشر ، بالرحمة الغزيرة التى يأتى بها ، فهو غمامة بيضاء ملأى برحمة الله » ، « وهى رحمة ينثرها الله رذاذا على المؤمنين كالغيث(٢) » .

ثم جاء فجر الميلاد النبوى الكريم(٣) ، فرأت آمنة نوراً أضاءت

---

(١) من إنجيل برنابا إصحاح ٤٤ (٢) إنجيل برنابا إصحاح ١٦٣

(٣) كان ذلك فى ليلة الأثنين اليوم التاسع من ربيع الأول عام ، الفيل الموافق ٢٠ إبريل عام ٥٧٠ م .

له قصور بصرى بالشام ، واهتز إيوان كسرى معلنا قرب زوال العبودية من على ظهر الأرض ، وكبرت الكعبة إيذانا بميلاد نبي السلام والإسلام والتوحيد ، ورأى هرقل أن ملك الختان قد ظهر فأيقن أن دولة الرومان ستصير أثراً بعد عين ، وأخذت الملائكة تفد على مكة ، تحيي الميلاد الكريم والطفل العظيم : روح الله ، والإنسانية ، وقائد الناس إلى السمو والخير والإخاء والحرية ، « قدوس القديسين الآتي بالبر الأبدي ، وهو القرآن المحفوظ إلى يوم القيامة » ، و « روح الحق الذي يرشد إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به » .

ثم نما الطفل وكبر ، فرأى من آيات ربه ما رأى ، وأصبح شابا ، وأصبح حكيما يومى إليه بالبنان ، ورجلا تهتز لحديثه المشاعر وتصغى إليه الناس وتهتف به الحياة ، وتردد ذكره الدنيا . .

ثم نزل عليه الوحي من ربه فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وجدد معالم الوجود وغير مجرى الحياة والحضارة ، وحارب الوثنية والشرك ، كما حارب العبودية والرق والطغيان ، والاستغلال والباطل والزور والبهتان ، وحرر الرقيق والعامل والمرأة والخادم ، وحمى حقوق الفقراء والضعفاء ، وأقر حقوق الإنسان ورعاها ، وأقام الحياة على أصول تجمع بين الحق والواجب والخير والرحمة والعدالة والمساواة والإخاء والحرية والكرامة والشرف والروحية والمادية والمهذبة ، ومحا الجهل وحارب الفقر ، وقضى على الظلم والجور والظلام ، وهدى الناس كافة إلى دين الله ، وبعث الأمن والسلام والسعادة والرفاهية في الأرض ، وأيقظ القلوب الغافية التي تحجرت في الصحراء فأصبحت تبكي لدموع اليتيم ، وتهتز لمرأى المسكين والمحروم وابن السبيل ، وتسعى في الأرض تطلب المجد والذكر والعظمة ، وآثرت حياة البطولة والتضحية والشرف على كل شيء ، وضربت أروع

الأمثال للناس فى مشارق الأرض ومغاربها، ونشرت هدى الله ونور الاسلام فى كل مكان وطئته أقدامها .

رسالة ليس لها نظير فى الدنيا كلها ، وآيات بينات كلها هدى ونور أضاء الآفاق وغمر الأكوان وملأ العالم بهجة ومرحا ونشوة وشعوراً عميقاً بالسعادة ، هدى هذا النور الدنيا أجيالا طوالا ، ومع ذلك كله فما يزال هذا النور يهدى الانسانية ، ولن يزال كذلك أبد الآباد حتى تقوم الساعة باذن الله .

— ٢ —

وبعد فهذا هو آخر هذا الجزء ـ الثانى ـ من كتابنا « سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ويلى ذلك الجزء الثالث بإذن الله وعونه .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

المؤلف

فهرست الجزء الثانى

سيرة رسول الله

صلى الله عليه وسلم

كتابات جديدة للسيرة النبوية ، مع مراجعات واقتباسات من أمهات كتب السيرة ، وبخاصة سيرة ابن هشام .

بقلم

محمد عبد المنعم خفاجي

الجزء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة الجزء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

— ١ —

مضى على انتقال رسول الله محمد صلوات الله عليه إلى الرفيق الأعلى نحو أربعة عشر قرناً ، ولا تزال عظمته ملء القلوب والأسماع ، وذكراه نشيد الحياة الظامئة إلى نبع هذا الالهام الكريم ، وإلى فيض هذه البطولة الفذة والعظمة الكاملة .

وإذا ذكر المسلمون هذا النبي الأمي تقديسا للرسالة التي حملها ، وبلغها عن الله ، ونشرها في الخافقين ، وإيمانا بما جاء به من عقيدة وتشريع ، فإن الانسانية كلها لتذكر أنه رسولها الفذ الكريم ، وأبوها البر الرحيم والعلم المفرد في تاريخها الحافل المثير .

إن عظمته عليه السلام ليست مستمدة من عصبية أو جاه أو مال ، ولا من عظمة الأمة التي ظهر فيها ، ولا من سمو حسبه وشرفه ، وجلال شخصيته ، وكمال خلقه ، وسعة أفقه ، وأنه المثل الأعلى للانسان الكامل ، وأنه عاش مجاهداً ، ومات مجاهداً ، في سبيل الله والحق والهدى والنور .

وإنما ترجع مع ذلك إلى أنه الرسول المبعوث الذي اختارته العناية الإلهية من بين الخلق ، ليبلغ رسالة الله إلى العالم ، على فترة من الرسل ، ضل فيها الناس ، وجهلوا هداية السماء ، التي بشر بها الأنبياء والمرسلون .

وترجع إلى أنه جاء بآخر الرسالات لتكون دين البشرية عامة ، وعقيدة الناس قاطبة ، وهي الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

فقد دعت إلى التوحيد المطلق . وقررت مبادىء العدالة والحرية والمساواة والإخاء بين الناس كافة ، وكانت دين البشرية بسمو روحها ، وجلال نزعاتها ، ونبل أهدافها ، ورفعها من كرامة الإنسان ، وديمقراطيتها الحقة ، وماسنته من حب ورحمة وتعاون . . وبما تدعو إليه من إيقاظ للضمير ،وشعور بالمسئولية ، وتقدير للعهود والحرمات ،ونشر للعلم والعمران والمدنية ، وحرب على الوثنية والشرك ، والضلال والفساد ، والرذائل والمنكرات ، والأهواء الضالة ، والأوهام الضارة والشهوات الجامحة والخرافات الكاذبة والتقاليد البالية .

وبحسب محمد عظمة أنه أول داع إلى الأخوة الإنسانية والزمالة البشرية ، وأنه حارب العصبيات والتقاليد الفاسدة ، وجمع الناس تحت لواء واحد من هدى الله ، وفى ظل رسالة كاملة هى شريعة الله .

ثم لم يمض إلى جوار ربه ، إلا وقد جمع العرب عليها ، ودعا الملوك والأمراء إليها ،فأرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، إلى كسرى وملك البحرين والحبشة ، وحاكم مصر ، وهرقل قائد الدولة الرومانية الشرقية ، وما أجل مايقول فى رسالته إليه : بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم - سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم . يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الاريسيين - عامة الشعب - . . يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وحمل خلفاؤه من بعده عبء هداية الأمم وتحرير الإنسانية ، فوصلت هذه الرسالة إلى أطراف الدنيا ، وقامت عليها حضارة مشرقة ، ولم تزل

عقيدة كثير من الأمم والشعوب ، ولن تزال حية بما فيها من حرارة ، وحياة ونمو وتجدد .

وصدق الله العظيم حين يقول : « ياأيها النبي : إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا » . .

— ٢ —

وبعد فهذه هي فاتحة الجزء الثالث من كتابنا « سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، الذي تقدمه إلى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها مبتهلين إلى الله عز وجل أن يعز الإسلام ، ويعلي كلمة الدين وينصرنا نصرا مؤزرا على أعدائنا ، إنه سميع مجيب الدعوات .

وما توفيقي إلا بالله ؟ المؤلف

القسم الثاني

غزوات رسول الله

صلى الله عليه وسلم

من صفر عام ٢ هـ — حتى عام ٨ هـ

الفصل الأول

غزوة ودان(1) أو الأبواء

وهى فى النصف من صفر من السنة الثانية للهجرة

أولى غزواته عليه السلام ، وودان : قرية بين مكة والمدينة من ناحية الفرع ، بينها وبين الأبواء نحو ثمانية أميال ، من الجحفة ، وفيها قبائل ضمرة وغفار وكنانة ، والأبواء : قرية من أعمال الفرع ، وبالأبواء قبر آمنة بنت وهب أم الرسول صلى الله عليه وسلم ... بلغ رسول الله أن جمعا من قريش خرجوا لحرب رسول الله .

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى ودان ، وعين سعد بن عبادة نائبا له على المدينة ، وقيل : عبادة بن الصامت ، وأراد قريشا وبنى ضمرة بن بكر من كنانة ، فوادعته بنو ضمرة ، وكان سيدهم فى زمانه ذلك مخشى بن عمرو الضمرى . ثم رجع الرسول إلى المدينة .

---

(1) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ٢٨ غزوة خلال سبع سنين بعد هجرته إلى المدينة ، فكانت « غزوة ودان » أول غزوة قادها بنفسه فى صفر من السنة الثانية للهجرة ، وكانت غزوة تبوك آخر غزواته فى رجب من السنة الثامنة . وقد نشب القتال بينه وبين أعداء الإسلام من مشركين ويهود فى تسع غزوات فى : بدر – أحد – الخندق – قريظة – المصطلق – خيبر – فتح مكة – حنين – الطائف – وفر المشركون فى تسع عشر غزوة بدون قتا :

٢ — غزوة ثنية المرة

فى ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة

مضى ذكر ثنية المرة فى وصف طريق هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .

بعث رسول الله من مقامه بالمدينة عبيدة بن الحارث بن المطلب ابن عبد مناف فى ستين أو ثمانين من المهاجرين ، ليس فيهم من الأنصار أحد . وكانت راية عبيدة أول راية عقدها الرسول فى الإسلام ، لأحد من المسلمين .

فسار عبيدة حتى بلغ ماء بالحجاز بأسفل ثنية المرة ، فلقى بها جمعا عظيما من قريش ، عليه منهم عكرمة بن أبى جهل ، فلم يكن بينهم قتال . إلا أن سعد بن أبى وقاص رمى يومئذ بسهم ، فكان أول سهم رمى به الإسلام ، ثم انصرف القوم عن القوم وللمسلمين حامية .

وفر من المشركين إلى المسلمين :

١ — المقداد بن عمرو البهرانى حليف بنى زهرة .

٢ — عتبة بن غزوان المازنى .

إذ كانا مسلمين ، ولكنهما خرجا ليتوصلا بالكفار ، وعاد المسلمون إلى المدينة .

٣ — غزوة حمزة إلى شاطئ البحر الأحمر

ربيع الأول عام ٢ هـ

بعث الرسول فى مقامه بالمدينة عمه حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر

من ناحية العيص (١) ، وهى بطريق قريش التى كانوا يأخذون منها إلى الشام .

وكان حمزة على رأس ثلاثين راكبا من المهاجرين ، ليس فيهم من الأنصار أحد

ولقى حمزة أبا جهل بن هشام بذلك الساحل فى ثلاثمائة راكب من أهل مكة ، فحجز بينهم مجدى بن عمرو الجهنى ، فانصرف بعض القوم عن بعض ، ولم يكن بينهم قتال .

ويقال : كانت راية حمزة أول راية عقدها رسول الله لأحد من المسلمين ، وذلك أن بعثه وبعث عبيدة كانا معا ، فشبه ذلك على الناس .

د — غزوة العشيرة

وهى فى جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة

غزوة غزاها رسول الله واستعمل على المدينة أبا سلمة عبد الأسد ، وخرج يريد قريشا .

فمر صلوات الله عليه بنقب بنى دينار

ثم فيفاء الخبار (٢) ، ونزل فيها فصلى ، فبنى فى هذا الموضع مسجده صلى الله عليه وسلم .

ثم الخلائق (٣)

ثم شعبة عبد الله ، والشعبة : الطريق الضيقة ، واستقى له من بئر اسمها « المشترب » ، وصنع له طعام .

---

(١) هو من ناحية ذى المروة على ساحل البحر .

(٢) اسم موضع فى نواحى العقيق بالمدينة .

(٣) موضع فيه نخل وزروع وقصور لقوم من آل الزبير .

ثم يليل (١) ، واستقى هناك من بئر « الضبوعة » .

ثم فرش ملل(٢)

ثم صخيرات اليمام

ثم نزل العشيرة من بطن ينبع

وأقام صلى الله عليه وسلم فى العشيرة جمادى الأولى وليالى من جمادى الآخرة ووادع فيها بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة .

ثم رجع إلى المدينة

ولم يلق صلى الله عليه وسلم كيدا

وكتب صلى الله عليه كتابا لبنى ضمرة ، جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب محمد رسول الله لبنى ضمرة ، بأنهم آمنون على أنفسهم ، وأن لهم النصر على من رامهم ، ألا يحاربوا فى دين الله مابل بحر صوفة ، وأن النبى إذا دعاهم لنصر أجابوه ، عليهم بذلك ذمة الله ورسوله .

وفى هذه الغزوة نام على هو وعمار بن ياسر فى نخل لبنى مدلج ، فأيقظه رسول الله وقال له : « مالك يا أبا تراب » .

٤ — غزوة بواط (٣)

فى ربيع الآخر سنة ٢ هـ

غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الغزوة ، يريد قريشا ،

---

(١) قرية قرب وادى الصفراء من أعمال المدينة .

(٢) موضع على بعد عشرين ميلا من المدينة .

(٣) جبل من جبال جهينه بقرب ينبع على أربعة برد من المدينة .

وولى على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون .

وخرج رسول الله حتى بلغ بواط من ناحية رضوى (١) ، فلم يلق كيدا .

ثم رجع رسول الله إلى المدينة .

٦ — غزوة سعد بن أبى وقاص
فى السنة الثانية

بعث رسول الله سعد بن أبى وقاص فى ثمانية رهط من المهاجرين .

فخرج سعد حتى أتى موضعا من أرض الحجاز ، يقال له الخرار .

ثم رجع ولم يلق كيدا

٧ — غزوة سفوان من ناحية بدر
وهى غزوة بدر الأولى
جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة

أغار كرز بن جابر الفهرى على سرح (٢) المدينة .

فخرج رسول الله فى طلبه

واستعمل على المدينة زيد بن حارثة

وبلغ رسول الله سفوان

وهرب كرز

ورجع رسول الله إلى المدينة

---

(١) جبل بالمدينة ، أو هو جبل على يوم من ينبع وأربعة أيام من المدينة .

(٢) السرح . الإبل تسرح بالغداة للرعى .

٨ — غزوة عبد الله بن جحش
فى السنة الثانية للهجرة فى رجب

بعث رسول الله عبد الله بن جحش فى السنة الثانية للهجرة فى رجب .

وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ، ليس فيهم من الأنصار أحد . وكتب له كتابا ، وأمره رسول الله ألا ينظر فيه ، حتى يسير يومين ، فينظر حينئذ فيه ، ويمضى لما أمره به الرسول ولا يستكره من أصحاب رسول الله أحدا .

وكان فى جيش عبد الله بن جحش من المهاجرين : أبو حذيفة بن عتبة ابن ربيعة — عتبة بن غزوان — وسعد بن أبى وقاص — وسهيل بن بيضاء ، وغيرهم .

سار عبد الله بن جحش يومين ، ثم فتح الكتاب ، فإذا فيه :

« إذا نظرت فى كتابى هذا ، فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشا ، وتعلم لنا من أخبارهم .

فقال عبد الله : سمعا وطاعة

وقال لأصحابه : قد أمرنى رسول الله أن أمضى إلى نخلة أرصد بها قريشا ، حتى آتيه منهم بخبر ، وقد نهانى أن أستكره أحدا منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماض لأمر رسول الله .

فمضى عبد الله ، ومضى معه أصحابه ، لم يتخلف عنه منهم أحد ، وسلك على الحجاز ، حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع ، يقال له « بحران ، أضل سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يعتقبانه ، فتخلفا فى طلبه .

ومضى عبد الله وبقية أصحابه ، حتى نزل بنخلة ، فمرت به عير لقريش ، تحمل زبيبا وتجارة من تجارة قريش ، فيها عمرو بن الحضرمى وغيره .

فلما رآهم القوم هابوهم ، وقد نزلوا قريبا منهم ، وقال بعضهم لبعض : عمار لا بأس عليكم منهم .

وتشاور المسلمون فيهم ، وذلك فى آخر يوم من رجب ، فرموهم ، وقتل المسلمون عمرو بن الحضرمى وأسروا عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، وهرب نوفل بن عبد الله المخزومى .

وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير وبالأسيرين ، حتى قدموا على رسول الله .

فلما قدموا على رسول الله قال :

ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام .

فسقط فى أيديهم .

وقالت قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال .

ورد عليهم المسلمون فى مكة : إنما أصابوا ما أصابوا فى شعبان .

فلما أكثر الناس فى ذلك نزل قوله تعالى (٢١٧ البقرة) :

« يسألونك عن الحرام ، قتال فيه

قل : قتال فيه كبير .

وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه ، أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل .

ففرح المسلمون

وبعثت قريش فى فداء الأسيرين ، فقال صلى الله عليه وسلم :

لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا ـ سعد بن أبى وقاص ، وعتبة ابن غزوان ـ فإنا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما نقتل صاحبكم .

فقدم سعد وعتبة

ففداهما رسول الله منهم ، فأما الحكم فأسلم وأقام فى المدينة حتى قتل يوم بئر معونة ، وأما عثمان فلحق بمكة فمات بها كافرا .

الفصل الثاني

٩ ـ غزوة بدر الكبرى

رمضان من السنة الثانية للهجرة

— ١ —

سمع رسول الله بأبي سفيان مقبلا من الشام فى قوافل تجارة عظيمة لقريش ، فيها أموال لقريش ، وفيها ثلاثون أو أربعون رجلا من قريش ، منهم : مخرمة بن نوفل ، وعمرو بن العاص .

فندب رسول الله المسلمين إليهم ، وقال : «هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها ، لعل الله ينفلكموها »(١) .

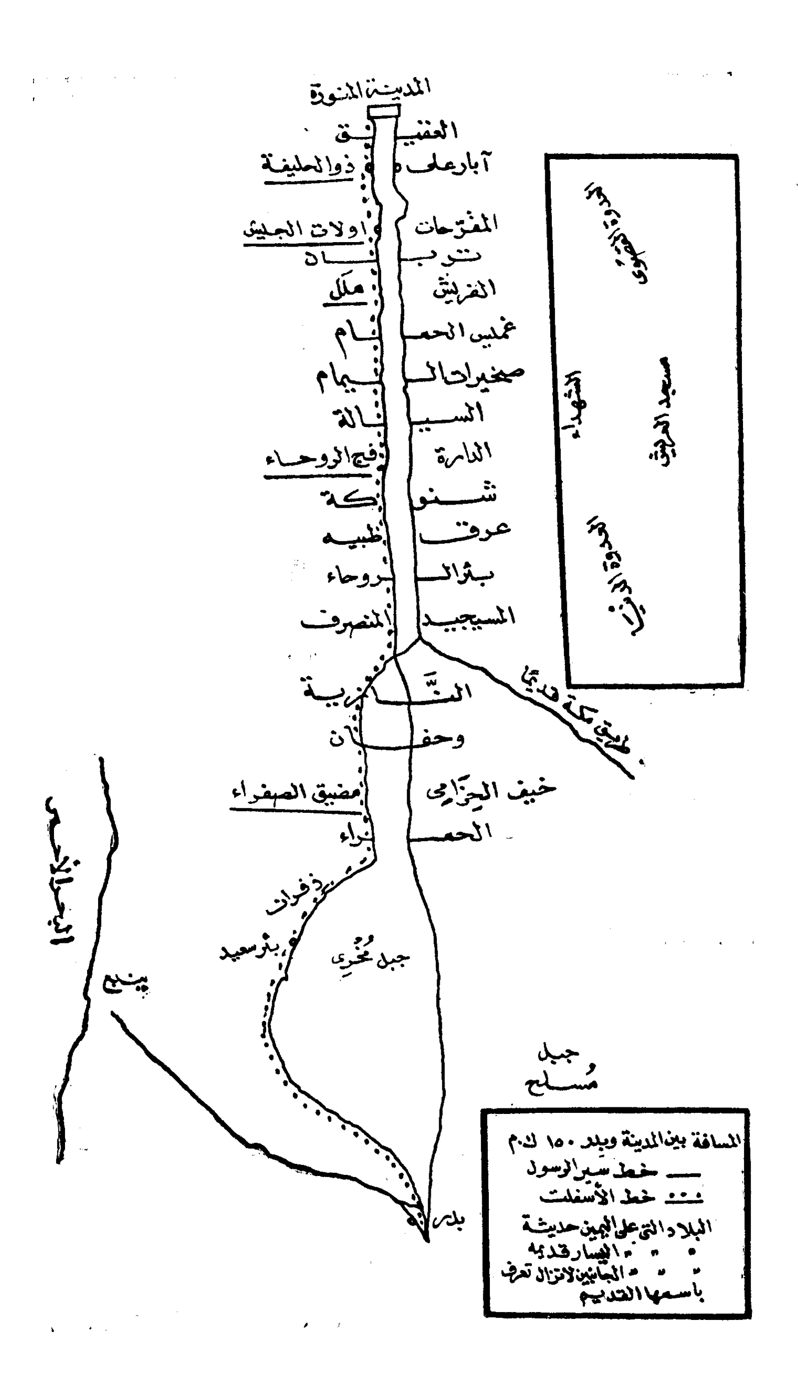
فخرج المسلمون إليها ، منهم من نهض ، ومنهم من تعلل أو اعتذر أو ثقل ، إذ كانوا لا يظنون أن الرسول يلقى حربا .

— ٢ —

وكان أبو سفيان ـ حين دنا من الحجاز ـ يتحسس الأخبار ، ويسأل من لقى من الركبان ، تخوفا على مامعه من أموال .

---

(١) كانت قريش قد نهبت جميع أموال المسلمين المقيمين فى مكة ، فوق مافعلته بهم من قتل و تعذيب و تشريد و نفى طوال ثلاثة عشر عاما ، فلم يكن تعرض المسلمين بأمر الرسول لقوافل تجارة قريشا أمراً عجبا ، بل كان أدنى ما تتطلبه العدالة والقصاص . فوق ما كانت قريش دائبة عليه آنذاك من محاربة الإسلام وبث الدعايات ضد الرسول والمسلمين .



المدينة المنورة
العقيق
آبار علي
ذو الحليفة
المفرحات
اولات الجيش
تربان
الفريش
ملل
عميس الحمام
صخيرات اليمام
السيالة
الدارة
فج الروحاء
شنوكة
عرق الظبية
بئر الروحاء
السيجيد
المنصرف
النازية
وحفان
خيف الحزامي
مضيق الصفراء
الحمراء
ذفران
بئر سعيد
جبل مخري
ينبع
البحر الأحمر
طريق مكة قديما
جبل مسلح
بدر
المسافة بين المدينة وبدر ١٥٠ ك.م
خط سير الرسول
خط الأسفلت
البلاد التي على اليمين حديثة
" " " اليسار قديمة
" " " الجانبين لا تزال تعرف باسمها القديم

فبلغه أن الرسول قد ندب أصحابه للقائه هو ومن معه ، فحذر عند ذلك ، واستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى ، فبعثه إلى مكة ليأتى قريشا ، فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمدا قد عرض لتجارتهم هو وأصحابه .

- ٣ -

ورأت عاتكة بنت عبد المطلب رؤيا ، حدثت بها أخاها العباس ، قالت : رأيت راكباً أقبل على بعير له ، حتى وقف بالأبطح ، ثم صرخ : ألا انفروا ياآل غدر لمصارعكم فى ثلاث ، فاجتمع إليه الناس ، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ، فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة ، ثم صرخ بمثلها : ألا انفروا ياآل غدر لمصارعكم فى ثلاث ، ثم مثل به بعيره على رأس أبى قبيس ، فصرخ بمثلها ، ثم أخذ صخرة فأرسلها ، فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت(١) ، فما بقى بيت من بيوت مكة ولادار إلا دخلتها منها فلقة(٢) .

فقال لها العباس : اكتميها ولا تذكريها لأحد . ولكن العباس أخبر بها الوليد بن عتبة بن ربيعة ، وكان صديقاً له فذكرها له ، وطلب منه كتمانها ، ولكن الوليد أذاع بها ، ففشا الحديث بمكة ، حتى تحدثت به قريش .

قال العباس : فغدوت لأطوف بالبيت ، وأبو جهل فى رهط من قريش قعود ، يتحدثون برؤيا عاتكة ، فلما رآنى قال لى : ياأباالفضل ، إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا .

فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم ، فقال لى أبو جهل : يابنى عبدالمطلب حتى حدثت فيكم هذه النبية ؟

---

(١) أى تفرقت وتفتت .
(٢) أى قطعة .

فقلت : وماذاك ؟

قال : تلك الرؤيا التى رأت عاتكة .

قلت : ومارأت ؟

قال : يابنى عبد المطلب ، أمارضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم؟ فجحدت ذلك ، وأنكرت أن تكون رأت شيئا . . ثم تفرقنا .

فلما أمسيت لم تبق امرأة من بنى عبد المطلب إلا أتتنى تقول : أقررتم لهذا الفاسق أن يقع فى رجالكم ، ثم قد تناول النساء وأنت ، تسمع ثم لم يكن عندك غيرة لشىء مما سمعت .

قلت : وايم الله لأتعرضن له ، فإن عاد لأكفينكنه .

فغدوت فى اليوم الثالث من رؤيا عاتكة ، فدخلت المسجد ، فرأيته ، فأخذت أتعرضه ليعود لبعض ماقال ، فخرج نحو باب المسجد يعدو ، فإذا هو قد سمع صوت ضمضم الغفارى وهو يصرخ ببطن الوادى : يامعشر قريش ، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه ، لاأرى أن تدركوها ، الغوث ، الغوث ، اللطيمة ، اللطيمة .

وتجهز الناس سراعا ، فكانوا بين رجلين : إما خارج ، وإما باعث مكانه رجلا ؛ ولم يتخلف من أشراف قريش أحد إلا أبو لهب . بعث مكانه العاصى بن هشام بن المغيرة .

— ٤ —

وخافت قريش كنانة ، وكانت بينهم وبينها حرب ، فقالوا : إنا نخشى أن يأتونا من خلفنا ، فكاد ذلك يثنيهم . فجاءهم سراقة بن مالك ، وكان من أشراف بنى كنانة ، فقال لهم : أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشىء تكرهونه .

فخرجوا سراعا ، وخرج رسول الله يوم الإثنين لثمان ليالى خلون من رمضان (عام ٢ هـ) .

وأناب رسول الله عنه على المدينة عمرو بن أم مكتوم ، ويقال : أبا لبابة ... ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ، وكان أمام رسول الله رايتان سوداوان : إحداهما مع على بن أبى طالب ، والأخرى مع بعض الأنصار .

وكانت إبل المسلمين سبعين بعيرا ، وكانت راية الأنصار مع سعد ابن معاذ .

— ٥ —

سلك رسول الله من مكة إلى بدر ، فمر بنقب المدينة ، فالعقيق ، ثم ذى الحليفة ، فأولات الجيش ، ثم تربان ، وملل ، ثم غميس الحمام ، فصخيرات اليمام ، والسيالة ، ففج الروحاء ، ثم شنوكة ، فعرق الظبية ثم سجسج وهى بئر الروحاء ، ثم المنصرف وحواليه ترك طريق مكة ، وسار بيسار ، فمر على النارية ، فوحفان ، فمضيق الصفراء ، وبعث صلى الله عليه وسلم العيون تتحس الأخبار عن أبى سفيان ومن معه . فسار بوادى ذفران ، فنزل ، وأتاه الخبر بمسير قريش ليمنعوا غيرهم .

— ٦ —

واستشار رسول الله المسلمين ، وأخبرهم بخروج قريش .

فقام أبو بكر ، فقال وأحسن .

ثم عمر ، فقال وأحسن .

ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يارسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائل لموسى (الآية ٢٤ من سورة

المائدة) . . « فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن أذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فو الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد(١) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه .

فقال له رسول الله خيرا ، ودعا له به .

ثم قال صلى الله عليه وسلم : أشيروا على أيها الناس ، يريد الأنصار ، وكان صلى الله عليه وسلم يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا بمن دهمه بالمدينة من عدوه ، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يارسول الله ، إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا أوصلت إلينا فأنت فى ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا .

فلما قال ذلك رسول الله قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يارسول الله .

قال : أجل .

قال : فقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة . فامض يارسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ماتخلف منا رجل واحد ، ومانكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر فى الحرب ، صدق فى اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله .

فسر رسول الله بقول سعد ، وقال : سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم .

---

(١) موضع فى أقصى اليمن ، أو هو فى أقصى « حجر » .

— ٧ —

ثم ارتحل رسول الله من ذفران ، حتى نزل قريبا من بدر .

وركب رسول الله هو وأبو بكر ، حتى وقف على شيخ من العرب ، فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم .

فقال الشيخ : لا أخبركما حتى تخبرانى ممن أنتما ، فقال له رسول الله : إذا أخبرتنا أخبرناك .

قال الشيخ بلغنى أن محمدا وأصحابه خرجوا ، فإن كان صدق الذى أخبرنى ، فهم القوم بمكان كذا وكذا ، للمكان الذى به قريش . ولما فرغ من خبره قال : ممن أنتما ؟ قال له صلى الله عليه وسلم : نحن من ماء .

ثم رجع رسول الله إلى أصحابه ، فلما أمسى بعث على بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، يلتمسون الخبر له عليه ، فأصابوا راويتين لقريش فأتوا بهما ، وسألوهما ورسول الله قائم يصلى ، فقالا : نحن سقاة قريش ، بعثونا نسقيهم من الماء ، وانتهى رسول الله من صلاته ، فقال : أخبرانى عن قريش ، قالا : هم والله وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى ،فقال لهما رسول الله : كم القوم ؟ قالا : كثير ، قال : ماعدتهم ؟ قالا : لاندرى ، قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالا : يوما تسعا ويوما عشرا ، قال رسول الله : القوم فيما بين التسعمائة والألف .

ثم قال صلى الله عليه وسلم : فمن فيهم من أشراف قريش ؟ . . فسميا له أشرافهم : عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة ، والنضر بن الحارث وأبو جهل ، وأمية بن خلف ، وغيرهم .

فأقبل رسول الله على الناس ، فقال : هـــذه مكة ألقت إليكم أفلاذ(١) كبدها .

- ٨ -

أما أبو سفيان وقافلته ، فقد وصلا إلى قرب بدر ، فأدرك أن رسول الله والمسلمين لهم بالمرصاد ، فغير طريقه إلى مكة ، وأخذ طريق الساحل ، وترك بدرا بيسار ، وانطلق يسرع حتى نجا هو ومن معه .

وأقبلت قريش ، فلما نزلوا الجحفة رأى جهيم بن الصلت — فيما يرى النائم — أن رجلا قد أقبل ، ثم قال : قتل عتبة ، وشيبة ، وأمية بن خلف ، وفلان ، وفلان . ثم ضرب بسيفه فى لبة بعيره وأرسله فى العسكر . فما بقى خباء إلا أصابه نضح من دمه . وبلغ ذلك أبا جهل ، فقال : وهذا أيضا نبى آخر من بنى عبد المطلب ، سيعلم غداً من المقتول إن نحن التقينا .

وأرسل أبو سفيان إلى قريش : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم وأموالكم ورجالكم ، فقد نجاها الله ، فارجعوا ، فقال أبو جهل : والله لانرجع حتى نرد بدرا ، فنقيم عليه ثلاثا ، فننحر الجزور ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان(٢) ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها فامضوا .

وقال الأخنس بن شريق الثقفى حليف بنى زهرة وهم بالجحفة :

---

(١) جمع فلذة كقطعة فى الوزن والمعنى .
(٢) القيان : الجوارى المغنيات .

يابنى زهرة ، قد نجى الله لكم أموالكم ، وخلص لكم صاحبكم مخرمة ابن نوفل(١) ، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله ، فاجعلوا بى جبنها ، وارجعوا ، فرجعوا ، فلم يشهد أحد من زهرة بدرا ، وكان أبو جهل فى أشراف قريش وبطونها إلا بنى عدى بن كعب لم يخرج منهم أحد ، فلم يشهد بدرا أحد من بنى زهرة ولا من بنى عدى بن كعب .

ورجع كذلك طالب بن أبى طالب ، قال له بعض القرشيين : والله لقد عرفنا يابنى هاشم ، وإن خرجتم معنا ، إن هواكم لمع محمد ، فرجع مع من رجع .

ومضت قريش حتى نزلت بالعدوة القصوى .

— ٩ —

ونزل رسول الله أدنى ماء من بدر، فقال له الحباب بن المنذر بن الجموح: يارسول الله ، أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال صلى الله عليه وسلم: بل هو الرأى والحرب والمكيدة . قال : يارسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس ، حتى تأتى أدنى ماء من القوم فتنزله ، ثم نغور(٢) ما وراءه من القلب ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله : لقد أشرت — بالرأى ، ونهض بمن معه من المسلمين ، فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم ، فنزل عليه .

---

(١) كان فى القافلة مع أبى سفيان بمال وتجارة لبنى زهرة

(٢) التغوير : الطمس والدفن . والقلب جمع قليب وهو البئر .

— ١٠ —

وقال سعد بن معاذ :

يا نبي الله ، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ، ثم نلق عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا ، كان ذلك ماأحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يانبي الله مانحن بأشد لك حبا منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ماتخلفوا عنك ؛ يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك ، فأثنى عليه رسول الله خيرا ، ودعا له بخير ، ثم بنى لرسول الله عريش ، فكان فيه .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم ، هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادك(١) وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني .

وأخذ عقلاء قريش يحضون قومهم على الانصراف ، أتى حكيم بن حزام عتبة بن ربيعة ، فقال : ياأبا الوليد ، إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، هل لك إلى أن لاتزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : ترجع بالناس ، قال فأت أباجهل ، ثم قام عتبة خطيبا ، فقال : يامعشر قريش ، إنكم والله ماتصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا ، والله لئن أصبتموه لايزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه ، أو ابن خاله ، أو رجلا من عشيرته ؛ فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب ، فإن أصابوه فذاك ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ماتريدون .

ثم جاء حكيم بن حزام إلى أبى جهل فقال له . ياأباالحكم ، إن عتبة

---

(١) أى تعاديك وتشق عصا الطاعة عليك .

أرسلني إليك بكذا وكذا ، فقال : انتفخ والله سحره(١) حين رأى محمدا وأصحابه ، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد .

وبعث أبو جهل إلى عامر بن الحضرمي ، فقال : هذا حليفك — عتبة — يريد أن يرجع بالناس ، فقم فأنشد خفرتك(٢) ومقتل أخيك ، فقام عامر فصرخ : واعمراه ، واعمراه .

فحميت الحرب ، واشتد أمر الناس .

— ١١ —

وخرج الأسود بن عبد الأسود المخزومي ، فقال : أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه ، فلما خرج برز إليه حمزة فضربه وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره ، فحبا الأسود إلى الحوض ، ليبر يمينه ، فضربه حمزة فقتله في الحوض .

وخرج عتبة بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة فخرج إليهم حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث ، فقتلوا عتبة ومن معه .

ثم تزاحف الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، ورسول الله في العريش ، معه أبو بكر .

وعدل رسول الله صفوف أصحابه يوم بدر ، ورجع إلى العريش ، وأخذ يبتهل إلى الله ويقول فيما يقول : اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد ، وأبو بكر يقول : يانبي الله ، بعض مناشدتك لربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك .

وأصابت رسول الله سنة ثم انتبه ، فقال : أبشر ياأبا بكر ، أتاك نصر الله

---

(١) السحر ، كالنحر ، هو : الرئة .

(٢) انشد : اطلب . الخفرة : مثل الحرمة : العهد .

هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده ، على ثناياه النقع - الغبار -

وكان أول قتيل من المسلمين فى بدر مهجع مولى عمر بن الخطاب ، رمى بسهم فقتل ، وقتل كذلك منهم حارثة بن سراقة الأنصارى .

وخرج رسول الله إلى المسلمين يحرضهم ، وهو يقول : والذى نفس محمد بيده ، لايقاتلهم اليوم رجل ، فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة .

فقال عمير بن الحمام أخو بنى سلمة ، وفى يده تمرات يأكلهن : بخ ، بخ ، أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلاأن يقتلنى هؤلاء ، ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه ، فقاتل المشركين حتى قتل .

وأخذ رسول الله حفنة من الحصباء ، فاستقبل بها قريشا ، ثم قال : شاهت الوجوه ثم نفحهم بها ، وقال لأصحابه : شدوا ، فكانت الهزيمة فقتل الله تعالى من قتل من صناديد قريش ، وأسر من أسر من أشرافهم .

وقال ابن عفراء وهو عوف بن الحارث لرسول الله : مايضحك الرب من عبده ؟ قال : غمسه يده فى العدو حاسرا .

فنزع درعا كانت عليه فقذفها ، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

وأخذ الصحابة يأسرون ، ورسول الله فى العريش ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذى فيه رسول الله ، متوشحا السيف فى نفر من الأنصار ، يحرسون رسول الله ، يخافون عليه كرة العدو ورأى رسول الله الكراهية لما يصنع الناس ، فى وجه سعد بن معاذ ، فقال له صلوات الله عليه ، والله لكأنك ياسعد تكره مايصنع القوم؟ قال أجل والله يارسول الله ، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان فى القتل أحب إلى من استبقاء الرجال .

وكانت معركة بدر صبيحة يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان ،

كما يقول ابن هشام ، والصحيح أن يوم الجمعة يوافق التاسع عشر من رمضان عام ٢ هـ ـ السادس عشر من مارس عام ٦٢٢ م

— ١٢ —

وقال رسول الله لاصحابه : إنى قد عرفت أن رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها ، لاحاجة لهم بقتالنا ، فمن لقى منكم أحدا منهم من بنى هاشم فلا يقتله ، ومن لقى أبا البخترى بن هشام فلا يقتله ، ومن لقى للعباس عم رسول الله فلا يقتله ، فإنه إنما أخرج مستكرها .

فقال أبو حذيفة : أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس ؟ والله لئن لقيته لألحمنه السيف — وروى : لألجمنه .

فبلغ ذلك رسول الله . فقال لعمر : يا أبا حفص .

قال عمر : والله إنه لأول يوم كنانى فيه رسول الله بأبى حفص .

فقال رسول الله له : أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف ؟

قال عمر : دعنى فلأضرب عنقه بالسيف ، فو الله لقد نافق .

وكان أبو حذيفة يقول : ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ ، ولا أزال منها خائفا إلا أن تكفرها عنى الشهادة ، فقتل يوم اليمامة شهيدا .

وأبو البخترى هو الذى قام فى نقض الصحيفة مقاما كريما .

— ١٣ —

وعن عبد الرحمن بن عوف قال : كان أمية بن خلف لى صديقا بمكة ، وكان اسمى عبد عمرو ، فتسميت فى الإسلام ونحن بمكة : عبد الرحمن .

حتى إذا كان يوم بدر مررت به وهو واقف مع ابنه على ، آخذ بيده ، ومعى أدرع لى قد أخذتها غنيمة ، فأنا أحملها ، فلما رآنى قال لى : يا عبد

عمرو ، فلم أجبه ، فقال : يا عبد الإله ، قلت : نعم ، قال : هل لك فى؟ ، فأنا خير لك من هـذه الأدرع التى معك قلت : نعم ها الله إذن ، فطرحت الأدراع من يدى ، وأخذت بيده ويد ابنه ، وهو يقول : مارأيت كاليوم قط ، أما لـكم حاجة فى اللبن ؟ أى إبل الفداء .

ثم خرجت أمشى بهما فأنا بينه وبين ابنه ، أخذ بأيديهما ، فقال لى أمية: ياعبد الإله ، من الرجل منـكم المعلم بريشة نعامة فى صدره ، قلت : إذاك حمزة بن عبد المطلب ، قال : ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل ،

قال عبد الرحمن بن عوف : فو الله إنى لأقودهما إذ رآه بلال معى ، وكان هو الذى يعذب بلالا بمـكة على ترك الإسلام ، فلما رآه قال : رأس الـكفر أمية بن خلف لانجوت إن نجا وأخذ يقول : لانجوت إن نجا ، لايلتفت إلى كلامى ، ثم صرخ بأعلى صوته : يا أنصار الله ، رأس الـكفر أمية بن خلف ، لانجوت إن نجا ، فأحاطوا بنا ، فضرب رجل ابنه ، فوقع فصاح أمية صيحة ماسمعت بمثلها قط ، فقلت : انجه بنفسك فو الله ما أغنى عنك شيئا ، فقطعوهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما .

وكان شعار أصحاب رسول الله يوم بدر : أحد ، أحد ، ونزلت الملائـكة تأييدا ، ولم تقاتل فى يوم سوى بدر من الأيام .

وأمر رسول الله ، بعد أن فرغ من المشركين بأبى جهل أن يلتمس فى القتلى ، فمر عبد الله بن مسعود بأبى جهل ، فوجده بآخر رمق ، فعرفه ، فوضع رجله على عنقه ، قال ابن مسعود : ثم قلت له : هل أخزاك الله يا عدو الله ؟ قال : وبماذا أخزانى ؟ أخبرنى لمن الدائرة اليوم ؟ قلت : لله ، ولرسوله ثم حززت رأسه ، وجئت بها رسول الله ، فقلت : يارسول الله هذا رأس عدو الله أبى جهل ، فقال مقسما : آلله الذى لا إله غيره ، قلت نعم ، ثم ألقيت رأسه بين يدى رسول الله ، فحمد الله .

— ١٤ —

وقاتل عكاشة الأسدى يوم بدر بسيفه حتى انقطع فى يده فأتى رسول الله فأعطاه سيفا ، وقال له : قاتل بهذا يا عكاشة ، فقاتل به حتى فتح الله تعالى للمسلمين ، وشهد به المشاهد مع رسول الله ، وجاء عكاشة إلى مجلس رسول الله يوما فسمع الرسول يقول : يدخل الجنة سبعون من أمتى على صورة القمر ليلة البدر ، فقال عكاشة : يارسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم ، قال: اللهم اجعله منهم ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلنى منهم ، قال : سبقك بها عكاشة ، وقتل عكاشة فى حروب الردة . وهو حليف بنى عبد شمس بن عبد مناف ، وفيه قال رسول الله : منا خير فارس فى العرب .

— ١٥ —

وأمر رسول الله بقتلى المسلمين أن يطرحوا فى القليب ، ووقف عليهم رسول الله فقال :

يا أهل القليب

هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟

فإنى قد وجدت ما عدنى ربى حقا

فقال أصحابه : يا رسول الله ، أتكلم قوما موتى ؟ فقال : لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق ، ويروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم .

وسمع أصحاب رسول الله رسول الله يقول من جوف الليل :

يا أهل القليب

يا عتبة بن ربيعة

ويا شيبة بن ربيعة

ويا أمية بن خلف

ويا أبا جهل بن هشام

— وعدد صلى الله عليه من كان منهم فى القليب —

هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟

فإنى قد وجدت ما عدنى ربى حقا

يا أهل القليب ، بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس .

ولما أخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب ، نظر رسول الله إلى وجه ابنه المسلم أبى حذيفة بن عتبة ، فإذا هو كئيب ، فقال : يا أبا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أبيك شىء ؟ فقال لا والله يا رسول الله ، ما شككت فى أبى ولا فى مصرعه ، ولكننى كنت أعرف من أبى رأيا وحلما وفضلا ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه رذكرت مامات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له أحزننى ذلك .

— ١٦ —

وبعث رسول الله عبد الله بن رواحة بشيرا إلى أهل العالية بما فتح الله عزوجل على رسوله وعلى المسلمين .

وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة وجاء الخبر وقد سوى المسلمون التراب على رقية بنت رسول الله وزوج عثمان بن عفان .

ثم أقبل رسول الله ، ومعه الأسارى من المشركين ، إلى المدينة ، وفيهم النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط ، ولما كان بالروحاء فى طريق

عودته إلى المدينة لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه هو ومن معه من المسلمين .

ولما كان رسول الله فى « الصفراء » قتل على بن أبى طالب النضر بن الحارث ؛ « وفى عرق الظبية » قتل عقبة بن أبى معيط ، ولما أمر رسول بقتله قال : من للصبية يا محمد ؟ قال : النار .

وقدم رسول الله المدينة قبل الأسرى بيوم ، وفرق الأسرى بين أصحابه وقال : استوصوا بالأسارى خيرا .

— ١٧ —

وكان أول من قدم مكة بمصاب قريش الحيسمان الخزاعى .

وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر ، وبعث مكانه العاصى بن هشام بن المغيرة ، فلما سمع مقتل أشراف قريش فى بدر ، مات حزنا وجزعا ، ووجد المسلمون فى مكة فى أنفسهم عزا وقوة .

وناحت قريش على قتلاهم ، ثم قالوا : لا تفعلوا فيشمت بكم محمد وأصحابه .

ثم بعثت قريش فى فداء الأسرى :

وقال عمر بن الخطاب لرسول الله : يا رسول الله ، دعنى أنزع ثنيتى سهيل بن عمر فلا يقوم عليك خطيبا فى موطن أبدا ، فقال رسول الله : لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبيا ، إنه عسى أن يقوم مقاما لاتذمه .

وكان حبس سهيل بن عمرو فى بيت رسول الله فى المدينة عند سودة بنت زمعة أم المؤمنين .

— ١٨ —

وكان فى الأسرى أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى صهر رسول الله وزوج ابنته زينب ، وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين : مالا وأمانة وتجارة ؛ وكانت أمه هالة أخت خديجة ، وخديجة خالته ، تزوج زينب قبل البعثة ، وكانت خديجة سألت رسول الله ذلك ، إذ كانت تعده بمنزلة ولدها ، فزوجه .

فلما أكرم الله رسوله بنبوته آمنت به خديجة وبناته ، وثبت أبو العاص على شركه ،

وكان رسول الله زوج عتيبة بن أبى لهب بنته رقية أو أم كلثوم ، فقالت قريش : إنكم قد فرغتم محمدا من همه ، فردوا عليه بناته ، فاشغلوه بهن ، فمشوا إلى أبى العاص . فقالوا له : فارق صاحبتك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش شئت ، فرد عليهم : لاأفارق صاحبتى ، وماأحب أن لى بامرأتى امرأة من قريش ، وكان رسول الله يثنى عليه فى صهره خيرا .

ثم مشوا إلى عتيبة ، فقالوا له : طلق بنت محمد ونحن ننكحك أى امرأة من قريش شئت ، ففارقها وزوجوه بنت سعيد بن العاص ، ولم يكن دخل بها فأخرجها الله من يده كرامة لها وهوانا له ، وخلف عليها عثمان ابن عفان بعده .

وكان الاسلام قد فرق بين زينب بنت رسول الله وبين أبى العاص ابن الربيع ، إلا أن رسول الله كان لايقدر أن يفرق بينهما ، فأقامت معه على إسلامها وهو على شركه ، حتى كانت بدر ، فلما سارت قريش إلى بدر سار معهم أبو العاص ، فأسر ، فكان بالمدينة عند رسول الله .

ولما بعث أهل مكة فى فداء الأسرى بعثت زينب بنت رسول الله فى فداء

أبى العاص بمال ، كان فيه قلادة لها كانت أمها خديجة قد أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى عليها . فلما رآها رسول الله رق لها رقة شديدة ، وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا ؟ فقالوا : نعم يارسول الله ، فأطلقوه وردوا عليها مالها . وأخذ رسول الله عليه عهدا أن يخلى سبيل زينب إليه . فلما خرج أبو العاص إلى مكة بعث رسول الله زيد ابن حارثة ورجلا من الأنصار ، فقال لهما : كونا ببطن ماجج - قريبا من التنعيم - حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتيانى بها ، وكان ذلك بعد بدر بشهر أو قريب منه ، فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها ، فتجهزت ، وقدم لها أخو زوجها كنانة بعيرا فركبته ، وأخذ قوسه وكنانته ثم خرج بها نهارا يقود بها ، وهى فى هودج لها ، وتحدث بذلك رجال من قريش ، فخرجوا فى طلبها ، حتى أدركوها بذى طوى ، فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود ، فروعها برمحه ، وهى فى هودجها ، وكانت حاملا ، فطرحت جنينها ، فقال أخو زوجها : والله لا يدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهما ، فرجع الناس عنه .

وأتى أبو سفيان فى جلة من أشراف قريش ، فقال : أيها الرجل ، كف عنا نبلك حتى نكلمك ، فكف ، فوقف عليه أبو سفيان ، وقال له : إنك لم تصب خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا ، وما دخل علينا من محمد ، فيظن الناس أن ذلك على ذل أصابنا عن مصيبتنا التى كانت ، وأن ذلك منا ضعف ووهن ، ولعمرى مالنا بحبسها عن أبيها من حاجة ، ولكن ارجع بالمرأة ، حتى إذا هدأت الأصوات ، وتحدث الناس أن قد رددناها فسلها سرا ، وألحقها بأبيها ففعل ، فأقامت ليالى حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلا ، حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه ، فقدما بها على رسول الله .

وأقام أبو العاص بمكة ؛ وأقامت زينب عند رسول الله بالمدينة ، حتى

إذا كان عام ست من الهجرة خرج أبو العاص تاجرا إلى الشام ، بمال له وأموال لرجال من قريش ، وكان رجلا مأمونا ، وفى طريق عودته لقيته سرية لرسول الله ، فأصابوا مامعه ، وهرب قادما المدينة إلى رسول الله تحت جنح من الليل ، حتى دخل على زينب بنت رسول الله فاستجار بها ، فأجارته ، وجاء فى طلب ماله .

فلما خرج رسول الله إلى الصبح فكبر وكبر الناس ، صرخت زينب : أيها الناس إنى قد أجرت أباالعاص بن الربيع ، فلما سلم رسول الله من الصلاة أقبل على الناس ، فقال أيها الناس : هل سمعتم ماسمعت ؟ قالوا . نعم . قال : أما والذى نفس محمد بيده ماعلمت بشىء من ذلك حتى سمعت ماسمعتم إنه يجير على المسلمين أدناهم . ثم انصرف رسول الله ، فقال : أى بنية ، أكرمى مثواه ولايخلص إليك ، فإنك لا تحلين له .

وبعث رسول الله إلى السرية الذين أصابوا مال أبى العاص : إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالا ، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإنا نحب ذلك . وإن أبيتم فهو فىء الله الذى أفاء عليكم فأنتم أحق به ، فقالوا : يارسول الله ، بل نرده عليه ، فردوه جميعه لايفقد من ماله شيئاً .

ثم رحل إلى مكة ، فأدى إلى كل ذى مال ماله ، ثم قال : يامعشر قريش هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه ؛ قالوا : لا ، فجزاك الله خيرا ، فقد وجدناك وفياً كريما ، قال : فانا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وكان ذلك فى رجب من عام ست من الهجرة قبل صلح الحديبية بخمسة شهور .

ثم خرج حتى قدم على رسول الله ، فرد عليه الرسول زينب بعد أربع سنين .

— ١٩ —

ومن رسول الله على بعض الأسرى بغير فداء : من مثل أبي العاص ابن الربيع ، وأبي عزة عمرو بن عبد الله الجمحي ،

وأخذ الفداء من المشركين .

وكان فداء الرجل منهم أربعة آلاف درهم إلى ألف درهم ، إلا من لا شيء له فمن رسول الله عليه ، وكان فداء بعض الأسرى تعليم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة .

— ٢٠ —

وكان عمير بن وهب الجمحي شيطانا من شياطين قريش ، وممن كان يؤذي رسول الله وأصحابه ، ويلقون منه عناء وهم بمكة ؛ وكان ابنه وهب في أسارى بدر .

وجلس عمير في الحجر بعد بدر في يوم من الأيام ، فذكر مصاب أهل بدر من قريش .

فقال له صفوان : والله ما في العيش بعدهم خير .

فقال عمير : صدقت والله ، أما والله لولا دين على ليس له عندى قضاء وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإن لى قبلهم علة ، ابني أسير في أيديهم .

فاغتنمها صفوان ، وقال : على دينك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا .

فقال له عمير : فاكتم عنى شأنى وشأنك .

قال صفوان : أفعل .

ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسم ، وانطلق حتى قدم به المدينة ، فبينا عمر فى جماعة من المسلمين يذكرون ماأكرمهم الله به إذ نظر فرأى عميرا قد أناخ راحلته على باب المسجد متوشحا السيف ، فقال : هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ، ماجاء إلا لشر ، وهو الذى حرش بيننا ، وحزرنا للقوم يوم بدر ، ثم دخل عمر على رسول الله ، فقال : يانبى الله ، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحا سيفه ، قال : فأدخله على ، فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه ، فلببه بها ، وقال لرجال من الأنصار : ادخلوا فاجلسوا عند رسول الله ، واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون ، ثم دخل به على رسول الله ، فلما رآه الرسول وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه ، قال : أرسله ياعمر ، ادن ياعمير فدنا ، فقال : فما جاء بك ياعمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه ، قال : فما بال السيف فى عنقك ؟ قال : قبحها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئا .

قال الرسول : أصدقنى ماالذى جئت له ؟

قال : ماجئت إلا لذلك .

قال : بل قعدت أنت وصفوان فى الحجر ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت : لولا دين على وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمدا ، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى له ، والله حائل بينك وبين ماتريد .

قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يارسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، ومايتزل عليك من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إنى لأعلم ماأتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للاسلام ، وساقنى هذا المساق ، ثم شهد شهادة التوحيد والحق، فقال رسول الله : فقهوا أخاكم فى دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره ، ففعلوا . فقال : يارسول الله ، إنى كنت جاهدا على إطفاء نور الله ، شديد

الأذى لمن كان على دين الله عز وجل ، وأنا أحب أن تأذن لى حتى أقدم مكة ، فأدعوهم إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام ، لعل الله يهديهم ، وإلا آذيتهم فى دينهم ، كما كنت أوذى أصحابك فى دينهم .

فأذن له رسول الله ، فلحق بمكة ، وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير يقول: أبشروا بواقعة تأتيكم الآن فى أيام تنسيكم وقعة بدر ، وكان صفوان يسأل عنه الركبان ، حتى قدم راكب ، فأخبره عن إسلامه ، فحلف أن لا يكلمه أبدا ، ولا ينفعه بنفع أبدا .

فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام ، ويؤذى من خالفه أذى شديدا ، فأسلم على يديه ناس كثير .

— ٢١ —

وفى بدر نزلت سورة الأنفال المكرمة ، وقد شهد المعركة ثلاثمائة وأربعة عشر صحابيا (١) ، ومعهم فرسان وسبعون بعيرا . ومع المشركين مائة فرس وعددهم ثلاثة أمثال عدد المسلمين :

وشهداء بدر هم أربعة عشر شهيدا :

١ — عبيدة بن الحارث المطلبى .

٢ — عمير بن أبى وقاص الزهرى ، أخو سعد .

٣ — صفوان الفهرى .

٤ — عمير بن عبد عمرو الخزاعى .

---

(١) من المهاجرين ثلاثة وثمانون رجلا ، ومن الأوس واحد وستون رجلا ، ومن الخزرج مائة وسبعون رجلا .

٥ — عمير بن الحمام بن الجموح الأنصارى .

٦ — معاذ بن عمرو بن الجموح السلمى .

٧ — معاذ بن عفراء كما فى سير أعلام النبلاء ، وفى ابن هشام : معوذ

٨ — عوف ، أخو معاذ بن عفراء

٩ — حارثة بن سراقة بن الأنصارى .

١٠ — يزيد بن الحارث .

١١ — رافع بن المعلى .

١٢ — سعد بن خيثمة الأوسى .

١٣ — مبشر بن عبد المنذر

١٤ — عاقل بن البكير

أما قتلى المشركين فنهم :

١و٢— عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة

٣ — أبو جهل عمرو بن هشام

٤و٥— أمية بن خلف - وابنه على

٦ — عقبة بن أبى معيط

٧ — أبو البخترى

٨ — العاص ، أخو أبى جهل

٩ — حنظلة بن أبى سفيان ، أخو معاوية

١٠ — عبيد ابن أبى أحيحة

١١ — العاص أخو عبيد

١٢ — الحارث بن عامر النوفلى

١٣ — طعيمة ، عم جبير بن مطعم

١٤و١٥و١٦ — حارث بن زمعة ، وأبوه ، وعمه عقيل

١٧ — نوفل بن خويلد الأسدى أخو خديجة

١٨ — النضر بن الحارث

١٩ — عمير بن عثمان ، عم طلحة بن عبيد الله

٢٠ — مسعود المخزومى أخو أم سلمة

٢١ — أبو قيس ، أخو خالد بن الوليد

٢٢ — قيس المخزومى

٢٣و٢٤ — نبيه ومنبه ابنا الحجاج

٢٥و٢٦ — حارثة والعاص ابنا منبه

وقيل إن قتلى المشركين سبعون رجلا والأسرى من المشركين مثلهم(١)

— ٢٢ —

وقال ضرار بن الخطاب بن مرداس فى بدر ، يخاطب المسلمين :

فإن تظفروا فى يوم بدر فإنما	بأجملا أمسى جدكم وهو ظاهر
وبالنفر الأخيار هم أولياؤه	يحامون فى اللأواء والموت حاضر
بعد أبو بكر وحمزة فيهمو	ويدعى على وسط من أنت ذاكر
ويدعى أبو حفص وعثمان منهمو	وسعد إذا ما كان فى الحرب حاضر

فأجابه كعب بن مالك :

---

(١) وفى يوم بدر أسلم أبو الدرداء عويمر بن زيد ، وقد عاش حتى مات قبل مقتل عثمان (٢ : ٢٤١ - ٢٥٥ سير أعلام النبلاء) .

عجبت لأمر الله والله قادر　　على ما أراد ليس لله قاهر
قضى يوم بدر أن نلاقى معشرا
بغوا وسبيل البغى بالناس جائر
فلما لقيناهم وكل مجاهد　　لأصحابه، مستبسل النفس صابر
شهدنا بأن الله ألا رب غيره　　وأن رسول الله بالحق ظاهر
وكان رسول الله قد قال: أقبلوا　　فولوا، وقالوا: إنما أنت ساحر
لأمر أراد الله أن يهلكوا به　　وليس لأمر حمه الله زاجر

وقال عبد الله بن الزبعرى السهمى يبكى قتلى بدر قصيدته:

ماذا على بدر وماذا حوله　　من فتية بيض الوجوه كرام

فأجابه حسان بقصيدته:

تبلت فؤادك فى المنام خريدة　　تشفى الضجيع ببارد بسام

ومنها:

ابك بكت عيناك ثم تبادرت　　بدم يعل غروبها سجام
ماذا بكيت به الذين تتابعوا　　هلا ذكرت مكارم الأقوام
وذكرت منا ماجدا ذا همة　　سمح الخلائق صادق الإقدام
أعنى النبى أخا المكارم والندى　　وأبر من يولى على الأقسام

وقال أمية بن أبى الصلت يرثى قتلى المشركين فى بدر:

ألا بكيت على الكرا　　م بنى الكرام أولى الممادح
كبكا الحمام على فرو　　ع الأيك فى الغصن الجوانح
من يبكهم يبكى على　　حزن ويصدق كل مادح
ماذا ببدر فالعقنـ　　قل من مرازبة جحاجح

وقد نهى الرسول عن روايتها.

وقال أمية يرثى زمعة بن الأسود :

عين بكى بالمسبلات أبا الحا ... رث لاتذخرى على زمعة

إلى آخر هذه القصيدة .

وقالت هند بنت عتبة بن ربيعة :

لله عينا من رأى ... هلكا كهلك رجاليه

يارب باك لى غدا ... فى النائبات وباكية

قد كنت أحذر ما أرى ... فاليوم حق حذارية

وقالت صفية بنت مسافر :

ألا يامن لعين للتـ ... ـبكى دمعها فان

وما ليث غريف ذو ... أظافير وأسنان

أبو شبلين وثاب ... شديد البطش غرثان

كحبى إذ تولى و ... وجوه القوم ألوان

وقالت هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب ترثى عبيدة بن الحارث ابن المطلب :

لقد ضمن الصفراء مجدا وسؤددا ... وحلما أصيلا وافر اللب والعقل

وقالت قتيلة تبكى أخاها النضر بن الحارث :

هل يسمعنى النضر إن ناديته ... أم كيف يسمع ميت لا ينطق ؟

إلى آخر هذه القصيدة التى قال فيها الرسول : لو بلغنى هذا قبل قتله لمننت عليه .

وكان فراغ رسول الله من بدر فى عقب شهر رمضان أو فى شوال من السنة الثانية للهجرة .

١٠ — غزوة لبنى سليم بالكدر

قدم رسول الله المدينة بعد بدر ، فلم يقم بها غير سبع ليال .

ثم خرج يغزو بنفسه ، يريد بنى سليم ؛ واستعمل على المدينة سباع ابن عرفطة الغفارى ، أو ابن أم مكتوم .

فبلغ ماء من مياههم يقال له الكدر(١) ، فأقام عليه ثلاث ليال .

ثم رجع إلى المدينة ، ولم يلق كيدا .

فأقام رسول الله شهر شوال وذا القعدة ، وقبل فى إقامته هذه فداء جل أسرى قريش .

وفى شوال صلى صلوات الله عليه صلاة الفطر .

١١ — غزوة السويق

— ١ —

فى ذى الحجة من العام الثانى للهجرة وبعد بدر غزا أبو سفيان بن حرب غزوة السويق .

وقد كان أبو سفيان حين رجع إلى مكة ، ورجعت قريش مهزومة من بدر نذر أن لا يمس النساء حتى يغزو محمداً .

فخرج أبو سفيان فى مائتى راكب من قريش ، وفاءا بالعهد الذى قطعه على نفسه .

---

(١) بينه وبين المدينة ثمانية برد

وسار فى النجدية ، حتى نزل بصدر قناة ، إلى جبل يقال له ثيب على مسافة بريد أو نحوه من المدينة .

ثم خرج من الليل حتى أتى بنى النضير فى جنح الليل . . فأتى حيي ابن أخطب فضرب عليه بابه،فأبى أن يفتح له بابه خوفا وفرقا : فانصرف عنه إلى سلام بن مسلم ، وكان سيد بنى النضير فى زمانه ، وفى أيديه مالهم ، فاستأذن عليه فأذن له ، فسقاه وقراه (١) ، وأعلمه بأدق أسرار المسلمين والرسول .

وخرج أبو سفيان فأتى أصحابه ، وبعث رجالا منهم إلى المدينة ، فأتوا ناحية منها يقال لها العريض ، فحرقوا النخيل فيها ، وقتلوا رجلا من الأنصار وحليفا له ، ثم انصرفوا راجعين .

— ٢ —

وعلم المسلمون فى المدينة بالأمر ، فأخذوا عدتهم . .

وخرج رسول الله بهم فى طلب أبى سفيان ومن معه ، وسار حتى بلغ قرقرة الكدر ، ثم عاد راجعا بعد أن هرب أبو سفيان وقومه .

واستعمل الرسول على المدينة أبا لبابة بشير بن عبد المنذر .

وسميت هذه غزوة السويق ، وبلغ فيها الرسول قرقرة الكدر وشاهد أزوادا من أزواد قريش قد طرحوها فى الحرث ، تخففاً وطلباً للنجاة والهرب ، وكان أكثر ماطرحت قريش من الأزواد هو السويق(٢)،فأخذ المسلمون منه الكثير .

---

(١) صنع له القرى ، وهو الطعام الذى يقدم للضيف .

(٢) هو القمح والشعير مطحونا ، وقد يمزج باللبن والعسل والسمن .

ولذلك سميت هذه الغزوة غزوة السويق .

١٢ — غزوة ذى أمر

فى المحرم من السنة الثالثة

رجع الرسول صلوات الله عليه من غزوة السويق ، فأقام فى المدينة قليلا ، ثم خرج فى آخر المحرم ، وقد غزا نجدا ، يريد غطفان ، وهى غزوة ذى أمر ، وهو موضع بنجد من ديار غطفان .

وكان صلى الله عليه وسلم قد استعمل على المدينة عثمان بن عفان .

وأقام الرسول بنجد طيلة شهر صفر ، ولما لم يلق كيدا رجع إلى المدينة فى أوائل ربيع الأول .

١٣ — غزوة الفرع

فى ربيع الآخر وجمادى الأولى

من السنة الثالثة

خرج رسول الله من المدينة غازيا بعد أن استعمل عليها ابن أم مكتوم وهو يريد قريشا .

فبلغ صلى الله عليه وسلم بحران - بين الفرع والمدينة بثمانية برد - معدنا بالحجاز من ناحية الفرع .

فأقام بها شهر ربيع الآخر ، وجمادى الأولى ، ولم يلق كيدا .

ثم رجع إلى المدينة .

وكانت إقامة رسول الله بعد قدومه من بحران هى طيلة جمادى الآخرة ورجب وشعبان وشهر رمضان ، وفى شوال سنة ثلاث وقعت معركة أحد .

١٤ — حصار رسول الله

لبنى قينقاع

فى السنة الثالثة

— ١ —

جمع رسول الله اليهود بسوق بنى قينقاع ، وقال فيهم :

يا معشر يهود . .

احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة ، وأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل . . تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم .

فقالوا : يامحمد ، لايغرنك أنك لقيت قوما لاعلم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس .

وكان بنو قينقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد .

— ٢ —

وكان السبب فى ذلك أن امرأة عربية قدمت بأشياء لها إلى سوق بنى قينقاع ، فباعتها ، وجلست إلى صائغ يهودى فيها ، فأخذ يريدها على كشف وجهها فأبت ، فعمد إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت عورتها ، فضحك هو ومن معه بها ، فصاحت فوثب مسلم على الصائغ فقتله ، فقام شر بين المسلمين واليهود من بنى قينقاع ، وأخذ اليهود يسبون المسلمين ورسول الله ويتناولونهم بالأذى .

فحاصرهم رسول الله خمس عشرة ليلة ، حتى نزلوا على حكمه ، وكانوا

حلفاء الخزرج، فقام عبدالله بن أبي بن سلول فقال: يامحمد ، أحسن فى موالىَّ فسكت رسول الله ، فكرر عبد الله كلامه ، فأعرض عنه رسول الله فأدخل يده فى جيب درع رسول الله ، فغضب الرســـول وقال له : أرسلنى ، ويحك أرسلنى .

قال عبد الله : لاوالله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى ، أربعمائه حاسر - مقاتل لادرع له - وثلاثمائة دارع - لابس الدرع - قد منعونى من الأحمر والأسود ، تحصدهم فى غداة واحدة .

ومشى عبادة بن الصامت ، أحد بنى عوف ، وكان بنو قينقاع حلفاء كذلك لقومه ، فخلعهم إلى رسول الله ، وتبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم ، قائلا : أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ . من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم .

هذا وقد كانت غزوة بنى قينقاع بعد بدر ، كما كانت غزوة بنى النضير بعد أحد ، وغزوة بنى قريظة بعد الخندق (١) .

١٥ — غزوة زيد بن حارثة إلى القردة

من مياه نجد

فى السنة الثالثة

أصبحت قوافل قريش إلى الشام تتجنت طريق الشام بعد غزوة بدر ، وتسلك طريق الشام ، وفى ذلك يقول حسان :

دعوا فلجات الشام قدحال دونها ... جلاد كأفواه المخاض الأوارك
بأيدى رجال هاجروا نحو ربهم ... وأنصاره حقا وأيدى الملائك

---

(١) ٢ : ١٩٢ زاد المعاد .

إذا سلكت للغور من بطن عالج فقولا لها : ليس الطريق هنالك

وخرج أبو سفيان وقومه معه بأموال جليلة إلى الشام سالكين طريق نجد إلى الشام .

فبعث رسول الله زيد بن حارثة للقائهم فى طريق نجد ، فسار حتى لقيهم على ماء القردة .

فأصاب قوافل قريش ومافيها فأخذها ، وقدم بها على رسول الله .

١٦ — مقتل كعب بن الأشرف

فى السنة الثالثة

— ١ —

بعد هزيمة بدر وصل النبأ إلى المدينة على أيدى زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ، بالفتح وبمقتل أشراف قريش .

فملك الحقد قلب كعب بن الأشرف ، وأخذ يهذى ويقول : هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس ، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها .

ثم خرج كعب إلى مكة ، فجعل يحرض على رسول الله ، وينشد القصائد يبكى فيها قتلى قريش فى بدر ، ومن شعره :

قتلت سراة الناس حول حياضهم لا تبعدوا إن الملوك تصرع

وعاد كعب إلى المدينة ليشبب بنساء المسلمين .

فقال رسول الله لأصحابه : من لى بابن الأشرف ؟

فأجاب محمد بن مسلمة : أنا يارسول الله ، أنا أقتله

فقال صلى الله عليه وسلم : فافعل .

فعاد محمد بن مسلمة (١) إلى منزله ، فجلس ثلاثا لا يأكل ولا يشرب إلا القليل الأقل .

وانضم إلى محمد بن مسلمة : سلكان بن سلامة ، وهو أخو كعب من الرضاعة ، ومعهما عباد بن بشر : والحارث بن أوس ، ومشى معهم رسول الله إلى بقيع الغرقد ، ثم وجههم فقال : انطلقوا على اسم الله ، اللهم أعنهم .

أرسلوا جميعا سلكان إلى كعب ، فتحدث معه ساعة ، وتناشدا الشعر ، ثم قال : ويحك يا ابن الأشرف ، جئتك لحاجة أريد ذكرها لك ، فاكتم عنى . . قال : افعل . قال : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاءا ، عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة ، وقطعت عنا السبل ، حتى ضاع العيال ، وجهدت الأنفس ، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا .

فقال كعب : أنا ابن الأشرف ، أما والله لقد كنت أخبرك يا ابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول .

فقال سلكان : قد أردت أن تبيعنا طعاما ونرهنك ونوثق لك ، وتحسن فى ذلك .

فقال كعب : أترهنونى أبناءكم ؟

قال سلكان : لقد أردت أن تفضحنا ، إن معى أصحابا لى على مثل رأيى أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن فى ذلك ونرهنك من الدروع ما فيه وفاء ، وأراد سلكان أن لا ينكر كعب السلاح والدروع إذا جاءوا بها ، فقال : إن فى الدروع لوفاءا .

---

(١) توفى عام ٤٣ هـ عن ٧٧ سنة (٢ : ٢٦٦ — ٢٦٩ سير أعلام النبلاء) .

ورجع سلكان إلى أصحابه ، وأخبرهم ، وأمرهم أن يأخذوا السلاح ثم ينطلقوا فيجتمعوا إلى كعب ، وأقبلوا فى ليلة مقمرة حتى انتهوا إلى حصنه ، فهتف به سلكان ، وكان كعب حديث عهد بعرس ، فنزل ففتح لهم ، وتحدث معهم .

قال لهم كعب : أترهنونى نساءكم ؟ ، قالوا : كيف نرهنك نساءنا وأنت أشب أهل يثرب وأعطرهم ؟

قال : أترهنونى أبناءكم ؟

قالوا : أأردت أن تفضحنا ؟

ثم تحدث معهم ، وتحدثوا معه ، وقالوا له : هل لك ياابن الأشرف أن تسير إلى شعب العجوز ، فنتحدث به بقية ليلتنا هذه ؟ قال لهم : إن شئتم .

فخرجوا يتماشون ، فمشوا ساعة ، ثم أدخل سلكان يده فى شعر رأسه ، ثم شم يده ، وقال : ما رأيت كالليلة ، طيبا أعطر قط ، ثم مشى ساعة ، ثم عاد لمثلها ، حتى اطمأن ، ثم مشى ساعة ، ثم عاد لمثلها ، فأخذ برأسه وقال : اضربوا عدو الله ، فضربوه بسيوفهم فلم تغن شيئا ، وصاح كعب صيحة أيقظت أهل الحصون من حولهم ، فأخذ سلكان سكينا فغرزها فى بطنه فوقع عدو الله .

وخرجنا ، فجئنا رسول الله وهو قائم يصلى آخر الليل ، فسلمنا عليه ، فأخبرناه بقتل عدو الله ، ورجعنا إلى أهلنا . . وذلك لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من السنة الثالثة .

فأصبحنا وقد خافت اليهود ، فليس بالمدينة يهودى إلا وهو يخاف على نفسه .

- ٢ -

وقال رسول الله : من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه ، فقتل بعض

المسلمين عدداً من اليهود الذين أخذوا يتآمرون على الإسلام والمسلمين وعلى رسول الله .

١٧ — غزوة أحد

وهى فى شوال من السنة الثالثة للهجرة

— ١ —

لما أصيب يوم بدر من كفار قريش من أصيب ، ورجع المهزومون منهم إلى مكة ، ورجع أبوسفيان بتجارة قريش سار جماعة من القرشيين ، ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر ، فكلموا أباسفيان وأصحاب التجارة ، وقالوا : يامعشر قريش، إن محمدا قد وتركم ، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه ، فلعلنا ندرك منه ثأرنا .. ففعلوا .

فأجمعت قريش لحرب رسول الله ، وللأخذ بالثأر ، وأخذ أبوعزة عمرو بن عبد الله الجمحى يحرض كنانة وقبائل تهامة على حرب رسول الله ، وكان قد أسر يوم بدر ، فقال : يارسول الله ، إنى فقير ذوعيال وحاجة ، فامنن على ، فمن عليه رسول الله . . فاجتمع إليه فى مكة صفوان بن أمية ، فقال له : ياأباعزة ، إنك امرؤ شاعر ، فأعنا بلسانك ، فاخرج معنا، فقال : إن محمدا قد من على فلاأريد أن أظاهر عليه ، قال : أعنا بنفسك ، ولك والله على إن رجعت أن أغنيك ، وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتى ؛ يصيبهن ماأصابهن من عسر ويسر . . فأجابه أبو عزة ، وجعل يطوف فى تهامة ، ويدعو بنى كنانة وخرج كذلك مسافع الجمحى إلى بنى كنانة يحرضهم على رسول الله

— ٢ —

وجاء يوم المعركة التى أرادتها قريش ، وصنعتها للإنتقام .

فخرجت قريش بحدها وجدها ، ومعها أحابيشها وحلفاؤها ، وأخذوا النساء معهم التماساً للحفيظة ، ومنعاً من الفرار .

وقاد هذه الجموع أبوسفيان ، وخرج بهند بنت عتبة ، وخرج عكرمة ابن أبي جهل بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة ، وخرج الحارث ابن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة ، وخرج صفوان بن أمية ببرزة الثقفية ، وخرج عمرو بن العاص بريطة بنت منبه بن الحجاج ؛ وخرج الكثير ومع كل منهم امرأته .

وسار جيش قريش إلى المدينة حتى نزلوا بعينين بجبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادي مقابل المدينة ، وذلك يوم الخميس السادس من شوال في السنة الثالثة للهجرة .

فجمع رسول الله أصحابه واستشارهم ، قال لهم : « إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن هم دخلوها علينا قاتلناهم فيها » .

وكان رأى عبد الله بن أبي بن سلول مع رأى رسول الله . . ولكن أصحاب رسول الله ، أو الكثير منهم، ممن لم يشهدوا بدرا، قالوا . يارسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا ، لايرون أنا جبنا عنهم وضعفنا .

فقال ابن سلول : يارسول الله ، أقم بالمدينة ، لاتخرج إليهم ، فوالله ماخرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فدعهم يارسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا .

فلم يزل الناس برسول الله حتى دخل ، فلبس لأمته(١) ، ثم خرج عليهم

---

(١) اللأمة الدرع أو السلاح كله

وقد ندم الناس ، وقالوا : استكرهنا رسول الله ، ولم يكن لنا ذلك ، وقالوا لرسول الله : يارسول الله ، استكرهناك ، ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك ، فقال رسول الله : ماينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل .

وخرج رسول الله فى ألف من أصحابه ، والمشركون فى ثلاثة آلاف فيهم مائتا فارس وسبعمائة محارب مسلح ، وذلك بعد عام كامل من غزوة بدر ، وكان خروج رسول الله يوم الجمعة السابع من شوال من السنة الثالثة للهجرة ، وفى جيش رسول الله فارسان اثنان ، ومائة محارب مسلح واستعمل رسول الله على المدينة ابن أم مكتوم ، وفى الطريق بين المدينة وأحد جمع ابن سلول اليهودى أنصاره وعاد بهم إلى المدينة وهو يتعلل ويقول : «أطاع أصحابه وعصانى ، ماندرى علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس ؟» وحاول عبد الله بن عمرو بن حرام أن يرده هو ومن معه إلى أرض المعركة فأبى عبد الله بن أبى بن سلول ، وقال لهم ابن حرام : ياقوم «أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم ، فقالوا ، لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ، ولما استعصوا عليه قال ، أبعدكم الله أعداء الله ، فسيغنى الله عزوجل نبيه عنكم .

وقال الأنصار لرسول الله : ألانستعين بحلفائنا من يهود ؛ قال . لاحاجة لنا فيهم ، وظهر من اليهود الغدر وسوء القصد ، من مثل مربع بن قيظى وغيره .

ومضى رسول الله حتى نزل الشعب من أحد فى عدوة الوادى إلى الجبل فجعل ظهره وعسكره إلى أحد ، وقال . لايقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال .

واستعد رسول الله للقتال ، وهو فى سبعمائة رجل ، وأمر على الرماة عبد الله بن جبير ، وكان عدد الرماة خمسين رجلا ، وقال له : انضح الخيل

عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك ، لا نؤتين من قبلك .

ولبس رسول الله درعين ، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ، ولم يشترك فى المعركة زيد بن ثابت ، ولا عبدالله بن عمر ، ولا البراء بن عازب ، كانوا أبناء خمس عشرة سنة .

وكان على ميمنة المشركين خالد ، وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبى جهل .

وقال رسول الله : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه رجال ، فأبى صلى الله عليه وسلم دفعه إليهم ، وحتى قام أبو دجانة : قال : وما حقه يارسول الله ؟ قال : أن تضرب به العد حتى ينحنى ، فقال أبو دجانة : أنا آخذه يا رسول الله بحقه ، فأعطاه إياه ، فأخذه وعصب رأسه بعصابته ، وجعل يتبختر بين الصفين ، وقال رسول الله حين رآه كذلك : إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن(١) .

— ٣ —

وخيانة ابن سلول فى أحد يقابلها صنيع يهودى آخر ، هو أبو عامر ، عبد عمرو بن صيفى بن مالك بن النعمان من بنى ضبيعة ، كان بعد الهجرة قد أبغض الإقامة فى المدينة ، لمكان الإسلام والمسلمين والرسول فيها ، فخرج إلى مكة مباعد الرسول الله ، ومعه خمسون شابا من الأوس ، وأخذ يحرض على رسول الله ، ويقول لقريش : إن حربا لو قامت ورآه أهل المدينة من الأوس مع قريش ، فسوف يخرجون جميعا من صفوف محمد إلى صفوف قريش ، وان يبقى مع محمد أحد منهم .

(١) قتل أبو دجانة فى موقعة اليمامة عام ١٢هـ ، وموقفه يوم أحد معروف (١٧٥ - ١/١٧٧ سير أعلام النبلاء ، ١ / ٢٧١ تاريخ الإسلام للذهبى ، الطبقات لابن سعد ، ٣ / ٢ : ١٠١ ، ٢ / ٣٥٢ أسد الغابة ، ٧ / ٥٧ الإصابة) .

فلما نشبت معركة أحد كان أبو عامر أول من برز لهم ومعه الأحابيش وعبدان أهل مكة ، فأخذ ينادى : يامعشر الأوس ، أنا أبو عامر ، فردوا عليه : لا أنعم الله بك عينايا فاسق ، وكان فى الجاهلية يسمى الراهب ، فسماه رسول الله الفاسق ، فلما سمع ردهم ، قال : لقد أصاب قومى بعدى شر .. وأخذ يقاتلهم قتالا شديدا ، ويرميهم بالحجارة .

— ٤ —

وكان لأبى سفيان فى التحريض على القتال مواقف مشهورة ، قال لأصحاب لواء المشركين ، من بنى عبد الدار : يابنى عبد الدار إنكم قد وليتم لواءنا فى بدر ، فأصابنا ما قد رأيتم ، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، إذا زالت زالوا ، فإما أن تكفونا لواءنا ، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه فهموا به وقالوا : نحن نسلم إليك لواءنا ، ستعلم غدا إذا التقينا ، كيف نصنع، وذلك هو ماأراده أبو سفيان ، وكان اللواء فى يدى أبى سعد بن أبى طلحة ، ثم فى يدى عثمان بن أبى طلحة .

وقامت الحرب ، وكان القتال شديدا حامى الوطيس ، وكان للقلة من أصحاب رسول الله مواقف مشهودة ، ومن بينهم أبو دجانة سماك بن خرشة يروى الزبير بن العوام فيقول: وجدت فى نفسى ، حين سألت رسول الله السيف فمنعنيه . وأعطاه أبا دجانة ، وقلت : أنا ابن صفية عمته ومن قريش وقد قمت إليه فسألته إياه قبله ، فأعطاه لأبى دجانة وتركنى ، والله لأنظرن ما يصنع ، فاتبعته ، فوجدته قد أخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه ، فقالت الأنصار : أخرج أبو دجانة عصابة الموت ، وهكذا كانت له إذا تعصب بها : فجعل لايلقى أحدا إلا قتله ، وكان فى المشركين رجل لايدع لنا جريحا إلا أجهز عليه ، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه ، فدعوت الله أن يجمع بينهما ، فاختلفا ضربتين ، فضرب المشرك أبا دجانة . .

فحمى نفسه ، وضربه أبو دجانة فقتله ، ثم رأيته قد رفع سيفه على مفرق

رأس هند بنت عتبة وكانت مع المشركين تحرض على رسول الله ، ثم عدل أبو دجانة السيف عنها .. قال الزبير فقلت : الله ورسوله أعلم (١) .

ومن ذوى المواقف المشهورة حمزة ، وكان وحشى قاتل حمزة عبد الجبير ابن مطعم ، وكان عم إجبير ـ وهو طعيمة بن عدى — قد أصيب يوم بدر ، فلما سارت قريش إلى أحد قال له سيده جبير : إن قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت حر ، وكان وحشى كالحبشيين يجيد القذف بالحربة ، وقلما يخطىء بها شيئا .. وجاء حمزة فى أحد يتقدم الصفوف ، ويقتل فى المشركين ، فأخذ وحشى حربته ، وهزها حتى إذا رضى عنها قذفه بها فقتله ، فلما مات تقدم فأخذ حربته ، وخرج إلى صفوف المشركين .

ومنهم أم عمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية ، وقد عاشت إلى عهد عمر (٢) .

ومن ذوى المواقف المشهورة مصعب بن عمير ، قاتل دون رسول الله حتى قتل ، وقاتله هو ابن قميئة وكان يظن أنه رسول الله ، فرجع إلى قريش وهو يقول : قتلت محمدا ، وكان مصعب حامل لواء رسول الله ، فلما قتل أعطى رسول الله اللواء لعلى بن أبى طالب .

ومنهم كذلك على وغيره من الصحابة وقال أبو سفيان بن حرب من قصيدة مشهورة له :

فسلى الذى قد كان فى النفس إننى ... قتلت من النجـــار كل نجيب
ومن هاشم قرما كريما (٣) ومصعبا ... وكان لدى الهيجاء غير هيوب
ولو أننى لم أشف نفسى منهم ... لكانت شجا فى القلب ذات ندوب

ثم أنزل الله نصره على المسلمين ، وصدقهم وعده ، فهزموا المشركين هزيمة منكرة ، وشمرت نساء قريش وفى مقدمتهن هند بنت عتبة ، هاربات .

---

(١) قتل أبو دجانة سماك الساعدى الأنصارى يوم اليمامة عام ١٢ هـ ، وقتل معه زيد بن الخطاب (١ : ٢١٧ سير أعلام النبلاء للذهبى) .

(٢) ٢ : ٢٠٠ - ٢٠٤ سير أعلام النبلاء .

(٣) يريد حمزة .

— ٥ —

وفى لحظة ترك الرماة أماكنهم ، واشتغلوا بالغنائم . وكشفوا ظهور المسلمين للخيل ، فأتى المسلمون من خلفهم ، وصرخ صارخ : ألا إن محمد قد قتل ؛ وتشابك الجيشان ، وقتل صاحب لواء المشركين (١) ، فجاءت عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لقريش ، واجتمعوا حوله . . وكسرت رباعية النبى اليمنى السفلى وجرحت شفته السفلى (٢) يوم أحد ، وشج فى وجهه ، فجعل الدم يسيل على وجهه ، وجعل يمسح الدم ويقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم ، وهو يدعوهم إلى ربهم . ووقع رسول الله فى حفرة من الحفر التى عملها أبو عامر اليهودى ليقع فيها المسلمون وهم لايعلمون ، فأخذ على بيد رسول الله ، ورفعه طلحة حتى استوى قائما ، ومص مالك بن سنان الدم عن وجه رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : « من مس دمه دمى لم تصبه النار » . ونزع أبو عبيدة إحدى الحلقتين من وجه رسول الله فسقطت ثنيته الأخرى ، فكان ساقط الثنيتين .

وقال رسول الله حين غشيه القوم : من رجل يشرى لنا نفسه ؟ فقام خمسة من الأنصار ، منهم زياد بن السكن ، فقاتلوا وقتلوا دون رسول الله رجلا ثم رجلا ، وكان منهم أم عمارة التى قامت تباشر القتال ، وتذب عن رسول الله بالسيف ، وترمى عن القوس ، وجاء ابن قميئة يقول : دلونى على محمد ، فلا نجوت إن نجا ، فاعترضت طريقه أم عمارة ومصعب بن عمير ، ووقف أبو دجانة دون رسول الله ، يقع النبل فى ظهره وهو منحن عليه ، ورمى سعد بن أبى وقاص دون رسول الله ، وكان صلى الله عليه وسلم يناوله النبل وهو يقول : ارم فداك أبى وأمى .

---

(١) هو صؤاب ، غلام أبى طلحة

(٢) شج وجه النبى صلى الله عليه وسلم فى جبهته عبد الله بن شهاب الزهرى ، وجرح وجنته ابن قميئة ، فدخلت حلقتان من حلق المغفر فيها .

وانتهى أنس بن النضر - عم أنس بن مالك - إلى عمر وطلحة بن عبيدالله ، ورجال من المهاجرين والأنصار ، قد ألقوا بأيديهم ، فقال : مايجلسكم؟ قالوا : قتل رسول الله ، قال : فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟ فوتوا على مامات عليه رسول الله ؛ ثم استقبل القوم ، فقاتل حتى قتل وبه سبعون ضربة ، وأصيب عبد الرحمن بن عوف وجرح عشرين جرحا ؛ وكان أول من عرف رسول الله بعد الهزيمة وقول الناس : قتل رسول الله : هو كعب بن مالك ، فنادى بأعلى صوته : يامعشر المسلمين ، أبشروا ، هذا رسول الله ، فأشار إليه رسول الله : أن أنصت .

فلما عرف المسلمون رسول الله نهضوا به ، ونهض معهم نحو الشعب ، معه : أبو بكر ، وعمر ، وطلحة ، والزبير ، ورهط من المسلمين .

وجاء أبي بن خلف ، وهو يقول : أين محمد؟ لانجوت إن نجا ، ولما دنا من رسول الله تناول الرسول حربة ، فطعنه بها فى عنقه طعنة قتلته ، وكان أبيّ ، هذا يلق الرسول بمكة فيقول له : يامحمد ، إن عندى فرسا أعلفه كل يوم فرقا من ذرة (١) أقتلك عليه ، فيقول له رسول الله : بل أنا أقتلك إن شاء الله وغسل على الدم عن وجه رسول الله ، والرسول يقول : اشتد غضب الله على من دمىّ وجه نبيه .

وصلى رسول الله الظهر يوم أحد قاعدا ، وصلى المسلمون خلفه قعودا .

— ٦ —

وجاءت هند بنت عتبة والنسوة اللاتى معها يمثلن بالقتلى من المسلمين ، واتخذت هند من آذان المسلمين وأنوفهم خلاخيل وقلائد ، وأعطت حليها لوحشى ، وبقرت بطن حمزة ، فأخرجت كبده ، وجعلت تمضغها ، فلم

(١) الفرق مثل الفرح : مكيال يسع ستة عشر مدا .

تستطع أن تستسيغها ، فلفظتها ، وأخذت ترتجز الشعر ، وترد عليها هند بنت أثاثة بن عباد بن عبد المطلب .

ومر سيد الأحابيش الحليس بن زبان بأبى سفيان ، وهو يضرب فى شدق حمزة ، برمحه ، ويقول : ذق ياعقق ، أى ياعاق ، فقال الحليس : يابنى كنانة هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ماترون ، فقال : اكتمها عنى فإنها كانت زلة .

— ٧ —

وخرجت قريش من أرض المعركة ، تريد العودة ، فأشرف أبو سفيان على الجبل ، ثم صرخ بأعلى صوته : اعل هبل ، يوم بيوم بدر ، فقال رسول الله : قم ياعمر ، فأجبه ، فقل : الله أعلى وأجل ، لا سواه ، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار ، فقال أبو سفيان : هلم إلى ياعمر ، فقال رسول الله لعمر : ائته فانظر ماشأنه ، فجاءه ، فقال له أبو سفيان : أنشدك الله ياعمر ، أقتلنا محمدا ؟ قال عمر : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن قال أبو سفيان : أنت أصدق عندى من ابن قميئة وأبر .

ثم نادى أبو سفيان : قد كان فى قتلاكم مثل ، والله مارضيت وما سخطت ، وما أمرت وما نهيت .

وانصرف أبو سفيان ، ومن معه ، وهو يقول : إن موعدكم بدر للعام القابل ، فقال رسول الله لرجل من أصحابه : « قل له نعم ، هو بيننا وبينك موعد » .

وفرغ المسلمون لقتلاهم ، وقال رسول الله : من رجل ينظر لى مافعل سعد بن الربيع ، أفى الأحياء هو أم فى الأموات ؟ فقام رجل من الأنصار ، فقال : أنا أنظر لك يارسول الله مافعل سعد ، فنظر ، فوجده جريحا

وبه رمق ، فقال : أبلغ رسول الله عنى السلام ، وقل له : إن سعد بن الربيع يقول لك جزاك عنا خير ماجزى نبيا عن أمته ، وأبلغ قومك عنى السلام ، وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : لاعذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم ومنكم عين تطرف ، ثم لم أبرح حتى مات .

— ٨ —

وخرج رسول الله يلتمس حمزة ، فوجده ببطن الوادى قد بقر بطنه عن كبده ، ومثل به ، فجدع أنفه وأذناه ، فقال : لولا أن تحزن صفية وتكون سنة من بعدى لتركته حتى يكون فى بطون السباع وحواصل الطير ، ولئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم ، وقال المسلمون : لئن أظفرنا الله بهم يوما من الدهر لنمثلن بهم ، وقال رسول الله حين وقف على حمزة : لن أصاب بمثلك أبدا ، ثم قال : جاءنى جبريل فأخبرنى أن حمزة مكتوب فى أهل السموات السبع حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله ؛ وكان رسول الله وحمزة وأبو سلمة إخوة من الرضاعة ، أرضعتهم مولاة لأبى لهب - اسمها ثويبة - ونزل قوله تعالى : وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به (١٢٦ الحج) .

وأمر رسول الله بحمزة فسجى ببرده ، ثم صلى عليه ، فكبر سبع تكبيرات ، ثم أتى بالقتلى يوضعون إلى حمزة ، فصلى عليهم وعليه معهم ، حتى صلى عليه ثنتين وسبعين صلاة .

وأقبلت صفية لتنظر إلى أخيها حمزة ، فقال رسول الله لابنها الزبير : القها فأرجعها لاترى مابأخيها ، فقال لها : ياأم ، إن رسول الله يأمرك أن ترجعى ، قالت : ولم وقد بلغنى أنه قد مثل بأخى ، وذلك فى الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله ، فجاء الزبير ، فأخبر رسول الله بذلك ، فقال : خل سبيلها ، فأتته ، فنظرت إليه . فصلت عليه ، واسترجعت ، واستغفرت له ؛ ثم أمر به رسول الله فدفن .

— ٩ —

وانصرف رسول الله راجعا إلى المدينة ، فلقيته حمنة بنت جحش ، فلما لقيت الناس نعى لها أخوها عبد الله فاسترجعت فاستغفرت له ، ثم نعى لها خالها حمزة فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعى لها زوجها مصعب فصاحت وولولت ، فقال رسول الله : إن زوج المرأة منها لبمكان .

وسمعت امرأة من بنى دينار أن زوجها وأخاها وأباها قد أصيبوا فى أحد : فقالت : فما فعل رسول الله ؟ قالوا : خيرا هو بحمد الله كما تحبين ، قالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فأشير لها إليه ، حتى إذا رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل يارسول الله ، أى صغيرة .

وانتهى رسول الله إلى أهله ، فناول سيفه ابنته ، فاطمة ، فقال : اغسلى عن هذا دمه يابنية فو الله لقد صدقنى اليوم ، وناولها على سيفه ، وقال : وهذا أيضا فاغسلى عنه دمه ، فو الله لقد صدقنى اليوم : فقال رسول الله : لئن كنت صدقت القتال لقد صدق معك سهل بن حنيف وأبو دجانة . وروى ابن إسحاق أن يوم أحد يوم السبت للنصف من شوال .

— ١٠ —

غزوة حمراء الأسد:

وفى يوم الأحد لست عشرة من شوال من السنة الثالثة للهجرة ، أذن مؤذن رسول الله فى الناس بطلب العدو ، وأن لايخرج لطلبه إلا من كان قد لقيه فى أحد ، وإنما خرج رسول الله مرهبا للعدو ، وليعلمهم أن الذى أصابه هو وأصحابه لم يوهنهم عن عدوهم .

فخرج رسول الله إلى حمراء الأسد ، على ثمانية أميال من المدينة ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم .

وأقام رسول الله بحمراء الأسد يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء ، ثم رجع إلى المدينة يوم الخميس لعشرين من شوال من السنة الثالثة للهجرة .

ومر برسول الله فى حمراء الأسد معبد الخزاعى ، وهو يومئذ مشرك ، وخزاعة مسلمهم وكافرهم مع رسول الله بتهامة لا يخفون عنه شيئا كان بها ، فقال : يا محمد ، أما والله لقد عز علينا ما أصابك فى أصحابك ، ولوددنا أن الله عافاك فيهم ، ثم خرج وسار إلى مكة ، فلقى أبا سفيان بالروحاء وقد عزم أبو سفيان وأصحابه على الرجعة إلى رسول الله وأصحابه ، ليستأصلوهم فلما رأى أبو سفيان معبدا قال : ما وراءك يامعبد ؟ قال: محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط ، قد اجتمع من كان تخلف عنكم فى يومكم وندموا على ما ضيعوا ، فيهم من الحنق عليكم شىء لم أر مثله قط ، قال : ويحك ما تقول ! : قال : والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصى الخيل ، قال : فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم ، قال : فإنى أنهاك على ذلك ، فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه .

ومر بأبى سفيان ركب من القيس ، فقال :

— أين تريدون

— قالوا : نريد المدينة

— ولم ؟

— نريد الميرة

— فهل أنتم مبلغون عنى محمدا رسالة أرسلكم بها إليه ؟

— نعم

— قال : فإذا وافيتم محمدا فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصلهم .

فمر الركب برسول الله ، فأخبروه بالذى قال أبو سفيان .. فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل .

وتشاور أبو سفيان وأصحابه فى الرجوع إلى محمد ، فقال لهم صفوان ابن أمية بن خلف : لاتفعلوا فإن القوم قد غضبوا ، وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذى كان ، فارجعوا ، فرجعوا .

وأسر رسول الله وهو فى حمراء الأسد معاوية بن المغيرة بن أبى العاص، وأبا عزة الجمحى ، الذى كان رسول الله أسره ببدر ثم من عليه . فقال أبو عزة : يارسول الله أقلنى ، قال . لا ، والله لاتمسح عارضيك بمكة ، وتقول : خدعت محمدا مرتين ، فقتله الزبير أو عاصم بن ثابت . وقتل عمار ابن ياسر أو زيد بن حارثة: معاوية بن المغيرة بعد حمراء الأسد .

— ١١ —

وكان يوم أحد يوم بلاء ومصيبة وتمحيص ، اختبر الله به المؤمنين ، ومحق به المنافقين ، وأكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة . ونزل فيه ما نزل من القرآن الكريم من سورة آل عمران .

ولما قدم رسول الله المدينة أخذ عبد الله بن أبى بن سلول كعادته فى النفاق ، وكان له مقام يقومه كل جمعة ، لاينكر ، شرفا له فى نفسه وفى قومه، وكان فيهم شريفا . فإذا جلس رسول الله يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام ابن سلول فقال : أيها الناس ، هذا رسول الله بين أظهركم ، أكرمكم الله به ، وأعزكم به ، فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا ، ثم يجلس . . فلما كان يوم أحد وعاد الرسول إلى المدينة ، قام ابن سلول يفعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه ، وقالوا : اجلس أى عدو الله است لذلك بأهل ، وقد صنعت ما صنعت فخرج وهو يقول . والله لكأنما قلت بجرا (١) فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد ، فقال له : ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله ، قال : والله ما أبتغى أن يستغفر لى .

---

(١) هو الشر والأمر العظيم .

شهداء يوم أحد(١)

(ا) منهم من المهاجرين :

١ - حمزة .

٢ — عبد الله بن جحش الأسدى ابن أخت حمزة ، وقد دفنا فى قبر.

٣ — عثمان بن عثمان المخزومى ، وفى ابن هشام : شماس بن عثمان .

٤ — ومصعب بن عمير شهيد أحد (٢ هـ) .

(ب) ومن الأنصار من الأوس :

٥ — حنظلة بن أبى عامر بن صيفى ، غسيل الملائكة .

٦ - وعمرو بن معاذ الأوسى .

٧ — وابن أخيه الحارث بن أوس .

٨ — والحارث بن أنيس .

٩ - وعمارة بن زياد بن السكن .

١٠ — ورفاعة بن وقش .

١١ و١٢ — وابنا أخيه : عمرو وسلمة ابنا ثابت بن وقش .

١٣ - صيفى بن قيظى .

١٤ — جناب بن « .

١٥ — عباد بن سهل .

١٦ — عبيد بن التيهان .

---

(١) ٧٥ : ٣ سيرة ابن هشام ، ١٠٤ — ١/١٠٧ سير أعلام النبلاء — وقد عد ابن اسحاق الشهداء خمسة وستين ، وأوصلهم ابن هشام إلى السبعين .

١٧ — حبيب بن زيد .

١٨ — إياس بن أوس .

١٩ — اليمان ، والد حذيفة .

٢٠ — زيد بن خاطب الظفرى .

٢١ — أبو سفيان بن حارث بن قيس .

٢٢ — مالك بن أمية .

٢٣ — عوف بن عمرو .

٢٤ — أبو حية بن عمرو .

٢٥ — عبد الله بن جبير بن النعمان .

٢٦ — خيثمة والد سعد .

٢٧ — حليفه ، عبد الله بن سلمة .

٢٨ — سبيع بن حاطب .

٢٩ — حليفه ، مالك :

٣٠ — عمير بن عدى .

(ح) ومنهم من الخزرج :

٣١ — عمرو بن قيس .

٣٢ — ابنه ، قيس بن عمرو .

٣٣ — أخوه ، ثابت بن عمرو .

٣٤ — عامر بن مخلد .

٣٥ — أبو هبيرة بن الحارث .

٣٦ — عمرو بن مطرف .

٣٧ — إياس بن عدى .

٣٨ - أوس بن ثابت .

٣٩ - أنس بن النضر .

٤٠ — قيس بن مخلد ، النجاريون

٤١ — كيسان مولى بنى النجار .

٤٢ — سليم بن الحارث .

٤٣ — نعمان بن عبد عمرو .

(د) ومن بنى الحارث بن الخزرج :

٤٤ — خارجة بن زيد بن أبى زهير .

٤٥ — أوس بن أرقم .

٤٦ - مالك بن سنان ، والد أبى سعيد الخدرى .

٤٧ — سعيد بن سويد .

٤٨ — عتبة بن ربيع .

٤٩ — ثعلبة بن سعد .

٥٠ — ثقف بن فروة .

٥١ — عبد الله بن عمرو .

٥٢ ضمرة الجهنى .

٥٣ — عمرو بن إياس .

٥٤ — نوفل بن عبد الله .

٥٥ — عبادة بن الحسحاس .

٥٦ — عباس بن عبادة .

٥٧ — نعمان بن مالك .

٥٨ — المجذر بن زياد البلوى .

٥٩ — رفاعة بن عمرو .

٦٠ — مالك بن إياس .

٦١ — عبد الله ، والد جابر .

٦٢ — عمرو بن الجموح .

٦٣ — خالد ، ابنه .

٦٤ — أسير ، مولاه .

٦٥ — سليم بن عمرو بن حديدة .

٦٦ — عنترة ، مولاه .

٦٧ — سهيل بن قيس .

٦٨ — ذكوان بن عبد قيس .

٦٩ — عبيد بن المعلى بن لوذان .

٧٠ — سعد بن الربيع خزرجي قتل في أحد ، كما في سير أعلام النبلاء للذهبي (١ : ٢٣٠) .

قتلى المشركين يوم أحد

١ — طلحة بن أبي طلحة من بني عبد الدار من أصحاب اللواء

٢ — أخوه ، أبو سعد .

٣ — « ، عثمان .

٤ — ابنه ، مسافع بن طلحة .

٥ — « (الجلاس « «

٦ -- ابنه ، كلاب بن طلحة .

٧ -- أرطاة بن عبد شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف .

٨ -- ابن عمير بن هاشم ، أبوزيد :

٩ -- صؤاب ، غلام له حبشى .

١٠ -- القاسط بن شريح بن هاشم .

١١ -- عبد الله بن حميد بن زهير بن الحارث .

١٢ -- أبو الحكم بن الأخنس بن شريق .

١٣ -- سباع بن عبدالعزى ، حليف لهم من خزاعة .

١٤ -- هشام بن أبى أمية بن المغيرة .

١٥ -- الوليد بن العاص بن هشام بن المغيرة .

١٦ -- أبو أمية بن أبى حذيفة بن المغيرة .

١٧ -- خالد بن الأعلم ، حليف لهم .

١٨ -- عمرو بن عبد الله بن عمير ، وهو أبو عزة .

١٩ -- أبى بن خلف الجمحى .

٢٠ -- عبيدة بن جابر .

٢١ -- شيبة بن مالك .

١٢ -- الحارث بن طلحة .

الشعر فى معركة أحـــد

وهو كثير لاينتهى .

١ -- قال هبيرة بن أبى وهب المخزومى قصيدته :

مابال هم عميد بات يطرقنى بالود من هند إذ تعدو عواديها

فرد عليه حسان بقصيدته :

سقتم كنانة جهلا من سفاهتكم إلى الرسول ، فجند الله مخزيها

ورد عليه كعب بن مالك بقصيدته :

وفينا رسول الله نتبع أمره إذا قال فينا القول لانتظلع

٢ — وقال ابن الزبعرى فى يوم أحد قصيدته :

ياغراب البين أسمعت فقل إنما تنطق شيئا قد فعل

فأجابه حسان بقصيدته :

ذهبت بابن الزبعرى وقعة كان منا الفضل فيها لو عدل

٣ — وقال كعب بن مالك يرثى حمزة قصيدته :

نشجت وهل لك من منشج وكنت متى تذكر تلجج

فأجابه ضرار بن الخطاب الفهرى بقصيدته :

أيجزع كعب لأشياعه ويبكى من الزمن الأعوج

٤ — وقال ابن الزبعرى فى يوم أحد قصيدته :

ألا ذرفت من مقلتيك دموع وقد بان من حبل الشباب قطوع

فأجابه حسان بقصيدته :

عفاهن صيفى الرياح وواكف من الدلو رجاف السحاب هموع

٥ — وقال عمرو بن العاص فى يوم أحد قصيدته :

خرجنا من الفيفا عليهم كأننا

مع الصبح من رضوى الحبيك المنطق

فأجابه كعب بن مالك بقصيدته :

ألا أبلغا فهراً على نأى دارها وعندهم من علمنا اليوم مصدق

٦ — وقال ضرار بن الخطاب قصيدته :

إنى وجدك لا أنفك منتطقاً بصارم مثل لون الملح قطاع

وقال أيضاً قصيدته :

لاتجزعوا يابنى مخزوم إن لكم مثل المغيرة فيكم مابه رهق

٧ — وقال عمرو بن العاص قصيدته :

لما رأيت الحرب ينزو شرها بالرضف نزوا
أيقنت أن الموت حق والحياة تكون لغوا

فأجابه كعب بن مالك بقصيدته :

أبلغ قريشا وخير القول أصدقه والصدق عند ذوى الألباب مقبول

٨ — وقال حسان قصيدته :

منع النوم بالعشاء الهموم وخيال إذا تغور النجوم

وهى من أروع قصائد حسان

٩ — وقال الحجاج بن علاط السلمى قصيدته فى مدح على :

لله أى مذبب عن حرمة أعنى ابن فاطمة المعم المخولا

١٠ — وقال حسان يرثى حمزة والشهداء قصيدته :

يامى قومى فاندبن بسحرة شجو النوائح

وقال أيضاً قصيدته :

أتعرف الدار عفا رسمها بعدك صوب المسبل الهاطل

التى بكى فيها حمزة .

١١ — وقال كعب يرثى حمزة أيضاً :

طرقت همومك فالرقاد مسهد وجزعت أن سلخ الشباب الأغيد

وقال أيضاً قصيدته :

صفية قومى ولا تعجزى وبكى النساء على حمزة

وقال أيضا فى يوم أحد :

إنك عمر أبيك الكريـ ـم إن تسألى عنك من يجتدينا

وقال أيضاً قصيدته :

أبلغ قريشاً على نأيها أنفخر منا بما لم تلى

وقال أيضاً فى يوم أحد قصيدته :

سائل قريشاً غداة السفح من أحد ماذا لقينا ومالاقوا من الهرب

١٢ — وقال عبد الله بن رواحة يرثى حمزة قصيدته :

بكت عينى وحق لها بكاها وما يغنى البكاء ولا العويل ؟

١٣ — وقال ضرار بن الخطاب فى يوم أحد :

مابال عينك قد أزرى بها السهد كأنما جال فى أجفانها الرمد

١٤ — وقال أبوزعنة الخزرجى فى يوم أحد رجزاً ، وقال غيره شعرا كثيرا .

١٥ — وقالت صفية بنت عبد المطلب ترثى حمزة أخاها قصيدتها :

فو الله لاأنساك ماهبت الصبا بكاءاوحزناً ،محضرىومسيرى(١)

وأقام رسول الله فى المدينة بقية شهر شوال وذا القعدة وذا الحجة والمحرم .

(١) وراجع مجلة الأزهر عددالمحرم وصفر وربيع الأول عام ١٣٨٤ م فى بحث « غزوة أحد بين القرآن والشعر » لبعض الكتاب .

١٨ — يوم الرجيع

سنة ثلاث من الهجرة

آخر شوال من العام الثالث للهجرة

— ١ —

قدم على رسول الله بعد « أحد » رهط من عضل والقارة .

فقالوا : يارسول الله . إن فينا إسلاما ، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا فى الدين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلموننا شرائع الإسلام .

فبعث الرسول معهم ستة من أصحابه :

١ — مرثد بن أبى مرثد الغنوى ، وهو رئيسهم .

٢ — خالد بن البكير الليثى .

٣ — عاصم بن ثابت ، وهو الذى حمته مقتولا الدبر (النحل) .

٤ — خبيب بن عدى .

٥ — زيد بن الدثنة .

٦ — عبد الله بن طارق .

وخرجوا مع الرهط ، فلما وصلوا الرجيع - ماء لهذيل بناحية الحجاز غدر الرهط بهم ، وغشوا المسلمين بالسيوف ، فقتلوا عاصما ومرثدا وخالدا وأما الثلاثة الباقون فأسروهم ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها ، حتى إذا كانوا بالظهران نزع عبد الله بن طارق يده من الحبل ، ثم أخذ سيفه ليقاتل الرهط فرموه بالحجارة فقتلوه ، وأما خبيب وزيد فقدموا بهما مكة ، فباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة .

أما زيد فاشتراه صفوان بن أمية ليقتله بابيه أمية بن خلف الذى قتل فى بدر ، وخرجوا به من الحرم ليقتل ، واجتمع رهط من قريش منهم أبو سفيان ، فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل : أنشدك الله يازيد ، أتحب أن محمدا عندنا الآن فى مكانك تضرب عنقه ، وأنك فى أهلك ؟ قال : والله ما أحب أن محمدا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنى جالس فى أهلى ، فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا ، وقتلوا زيدا .

وأما خبيب فحبسوه عند بنى الحارث لأنه كان قد قتل بعضهم فى بدر ، وقدموه ليقتل بأبى إهاب التميمى ، فقال لهم : إن رأيتم أن تدعونى حتى أركع ركعتين ، فافعلوا ؛ قالوا : دونك فاركع ، فركع ركعتين ، ثم أقبل على القوم فقال : أما والله لولا أن تظنوا أنى إنما طولت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة ، فلما رفعوه على خشبة ، قال : اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك ، فبلغه الغداة ما يصنع بنا ، ثم قال : اللهم أحصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم أحدا ، ثم قتلوه رحمه الله .

— ٢ —

وقال حسان يرثى خبيبا قصيدته :

ما بال عينك لا ترقا مدامعها سحا على الصدر مثل اللؤلؤ الفلق

وقصيدته الأخرى :

ياعين جودى بدمع منك منسكب وابكى خبيبا مع الفتيان لم يؤب

وقصيدة ثالثة أخرى (١) ، ولحسان قصيدة يهجو فيها هذيلا فيما صنعوا بخبيب ، ومنها :

---

(١) راجع ترجمة خبيب فى ١/١٧٧ سير أعلاء النبلاء ، ٢ / ١١١ أسد الغابة ٢ / ١٠٣ الاصابة .

أجرتم فلما أن أجرتم غدرتم وكنتم بأكناف الرجيع لهاذما

وله قصيدة أخرى يهجوهم بها :

سألت هذيل رسول الله فاحشة ضلت هذيل بما سالت ولم تصب

وقصيدة أخرى يهجوهم بها ، ومنها :

همو غدروا يوم الرجيع وأسلمت أمانتهم ذا عفة ومكارم

وقصيدة أخرى يقول فيها :

همو قتلوا يوم الرجيع ابن حرة أخا ثقة في وده وصفاء

وقصائد أخرى له في هذا الباب ..

لكن الرسول العظيم صلوات الله عليه الذى أبلغه الله أنباء وفده استجابة لدعوة عاصم ، بعث عمرو بن أمية الضمرى فدائيا يأتيه بالأخبار يقول عمرو : « وصلت مكة ، فجئت الى خشبة خبيب ، وأنا أتخوف العيون فرقيت إليها فحللت خبيبا فوقع على الأرض ، فانتبذت غير بعيد ، ثم التفت ، فلم أر لخبيب أرمة (أى جثة) فكأنما الأرض ابتلعته ، فلم تذكر لخبيب أرمة حتى الساعة » (١) .

وظل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوا شهرا فى صلاته على الغادرين « عضل والقارة » وكان رجزه يوم الخندق « اللهم العن عضلا والقارة » ! !

١٩ — أبو سلمة إلى أبى قطن

وبعث رسول الله أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى الرجل الصالح إلى

---

(١) بعث رسول الله عمرو بن أمية الضمرى إلى مكة وبعث معه رجلا من الأنصار إثر هذه الحادثة لقتل أبى سفيان ، فلم يستطيعا شيئا لأن أهل مكة عرفوهما وعادا إلى المدينة (٢ : ٢١٦ — ٢١٨ الطبرى — مطبعة الاستقامة عام ١٩٣٩) .

أبى قطن فى المحرم سنة أربع من الهجرة ، فغاب تسعا وعشرين ليلة ، ثم رجع فى صفر . وجرحه الذى أصابه يوم أحد يزداد شدة ، فمات منه لثمان خلون من جمادى الآخرة ، وتزوج رسول الله زوجته بعده فى شوال عام ٤ هـ .

٢٠ — غزوة بئر معونة

فى صفر من السنة الرابعـــة

فى صفر على رأس أربعة أشهر من غزوة أحد ، وقعت غزوة بئر معونة .

وسببها أن أبا براء عامر بن مالك بن جعفر ، ملاعب الأسنة : ، قدم على رسول الله المدينة ، فعرض عليه الرسول الإسلام ودعاه إليه ، فلم يسلم ولم يبعد من الإسـلام ، وقال : يا محمد ، لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد ، فدعوهم إلى أمرك ، رجوت أن يستجيبوا لك ، فقال رسول الله: إنى أخشى عليهم أهل نجد ، قال أبو براء : أنا لهم جار ، فابعثهم ، فليدعوا الناس إلى أمرك .

فبعث رسول الله المنذر بن عمرو فى أربعين رجلا من أصحابه من خيار المسلمين ، منهم : الحارث بن الصمة ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر ، ونافع بن بديل بن ورقاء الخزاعى ، وغيرهم .

فساروا حتى نزلوا بئر معونة — وهى بين أرض بنى عامر وحرة بن سليم — فلما نزلوها بعثوا بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطفيل ، فلما أتاه قتل الرسول ، واستصرخ على وفد الرسول بنى عامر ، فأبوا أن يجيبوه ، فاستصرخ قبائل من بنى سليم وذكوان ، فأجابوه إلى ذلك ، وخرجوا فأحاطوا بالمسلمين وقتلوهم عن آخرهم إلا كعب بن زيد ، فإنهم تركوه وبه رمق ، وكان فى سرح القوم عمرو بن أمية الضمرى ورجل من الأنصار

من بنى عمرو بن عوف وهو المنذر بن محمد ، فقاتل الأنصارى القوم حتى قتل ، وأخذوا عمرو بن أمية أسيرا ، فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر ابن الطفيل ، وجز ناصيته ، فقدم على رسول الله ، فأخبره الخبر ، فقال رسول الله : هذا عمل أبى براء ، قد كنت لهذا كارها متخوفا .

وممن قتل فى بئر معونة : عامر بن فهيرة رحمه الله ، ولحسان وعبد الله ابن رواحة وأنس بن عباس السلمى وكعب بن مالك قصائد فى يوم بئر معونة.

٢١ — إجلاء بنى النضير

فى شهر ربيع الأول من العام الرابع من الهجرة

— ١ —

خرج رسول الله إلى بنى النضير ، يستعينهم فى دية قتيلين من بنى عامر قتلهما عمرو بن أمية الضمرى ، أثناء خروجه من أرض بنى عامر بعد يوم بئر معونة ، وكان القتيلان معهما عهد من رسول الله ، وكان بين بنى عامر وبنى النضير عقد وحلف .

فلما كلمهم رسول الله ، قالوا: نعم ، يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، ثم خلا بعضهم ببعض ، فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ، ورسول الله إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد ، فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ، وصعد عمرو بن جحاش الى البيت . .

فأتى رسول الله الخبر من السماء ، ومعه أبو بكر وعمر وعلى ، فقام وخرج راجعا الى المدينة ، وأخبر أصحابه الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به ، وأمر رسول الله بالتهيؤ لحربهم ، والسير إليهم ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم .

ثم سار بالناس حتى نزل بهم ، وذلك فى شهر ربيع الأول .

وحاصر رسول الله بنى النضير ست ليال (١)، ونزل فيها تحريم الخمر .

— ٢ —

تحصن اليهود من رسول الله فى الحصون ، فأمر رسول الله بقطع النخيل والتحريق فيها ، وكان رهط من يهود الخزرج ، منهم عبد الله بن أبى بن سلول ، قد بعثوا إلى بنى النضير : أن اثبتوا فإنا ان نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ؛ فانتظر بنو النضير العون منهم فلم يفعلوا ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، وسألوا رسول الله أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الدروع ، فقبل صلى الله عليه وسلم منهم ذلك ، وخرج بعضهم الى خيبر ، والبعض إلى الشام ، وخلوا الأموال لرسول الله ، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة ، فقد ذكرا حاجة ، فأعطاهما رسول الله .

وأسلم رجلان من بنى النضير على أموالها فأحرزاها .

ونزلت فى ذلك سورة الحشر بأسرها ، ولابن لقيم العبسى وعلى بن أبى طالب وكعب بن مالك وعباس بن مرداس السلمى ؛ قصائد فى ذلك :

وقال سماك اليهودى الكذاب يرد على المسلمين :

إن تفخروا فهو فخر لكم بمقتل كعب أبى الأشرف
غداة غدوتم على حتفه ولم يأت غدرا ولم يخلف

وكذلك قال خوان بن جبير اليهودى يرد على المسلمين قصيدة أخرى .

ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة بعد غزوة بنى النضير شهر ربيع الآخر وبعض جمادى .

---

(١) فى الطبرى (٢ : ٢٢٥) : خمسة عشر يوما .

٢٢ — غزوة ذات الرقاع
فى العام الرابع من الهجرة
فى جمادى الأولى من العام

— ١ —

وزعم الواقدى أن هــذه الغزوة كانت فى المحرم من السنة الخامسة للهجرة .

غزا رسول الله نجدا يريد بنى محارب وبنى ثعلبة من غطفان ، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفارى، ويقال : عثمان بن عفان، وسار حتى نزل (نخلا) . . وهذه الغزوة هى غزوة ذات الرقاع ، وسميت بذلك لأن المسلمين رفعوا فيها راياتهم ، أو أن ذات الرقاع اسم شجرة بذلك الموضع (١) .

ولقى رسول الله بها جمعا عظيما من غطفان فاقترب الجيشان بعضهما من بعض ولم يكن بينهم حرب ، وخاف الناس بعضهم بعضا ، حتى صلى رسول الله بالمسلمين صلاة الخوف . . ثم انصرف بالناس .

— ٢ —

وفى هذه الغزوة ، حاول رجل من بنى محارب وغطفان قتل رسول الله ،

---

(١) وروى البخارى عن أبى موسى الأشعرى قال : خرجنا مع رسول الله ، ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه،فنقبت أقدامنا ، ونقبت قدماى ، وسقطت أظفارى ، فكنا نلف على أرجلنا الخرقة،فسميت ذات الرقاع ، لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا .

وقيل : سميت هذه الغزوة ذات الرقاع ، لأن الجبل الذى كانت به هذه المعركة جبل به سواد وبياض وحمرة (٢ : ٢٢٧ الطبرى) .

واسمه . . غورث ، ، قال لقومه ألا أقتل لكم محمدا ؟ قالوا بلى ، وكيف تقتله ؟ قال أفتك به . . فأقبل إلى رسول الله وهو جالس وسيف الرسول فى حجره ، فقال : يا محمد ، انظر إلى سيفك هذا ؟ قال : نعم ؛ وكان السيف محلى بالفضة ، فأخذه ، فاستله ، ثم جعل يهزه ، ويهم بقتل رسول الله فما يستطيع ، ثم قال : يا محمد ، أما تخافنى وفى يدى السيف ؟ قال : لا ، يمنعنى الله منك : ثم عمد إلى سيف رسول الله فرده عليه (١) ، فأنزل الله تعالى قوله الكريم : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم ، فكف أيديهم عنكم » (١١ سورة المائدة) . . وقيل نزل فى عمرو بن جحاش من بنى النضير وما هم به من قتل رسول الله .

— ٣ —

وعاد رسول الله إلى المدينة ، فلما وصل ، صراراً وهى على ثلاثة أميال نزل رسول الله بأصحابه ، فاستراحوا وأمر بجزور فنحرت فطعموا .

ولما قدم رسول الله المدينة من غزوة ذات الرقاع أقام بها بقية جمادى الأولى وجمادى الآخرة ، ورجبا .

---

(١) وفى رواية : نزل رسول الله تحت شجرة ، فعلق بها سيفه ، فجاء رجل من المشركين فاخترط سيف رسول الله ، فقال : أتخافنى ؟ قال : لا ، قال : فمن يمنعك منى ؟ قال : الله . فسقط السيف من يده ، فأخذه رسول الله ، فقال : من يمنعك منى ؟ قال : كن خير آخذ ، قال . تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، قال الأعرابى : أعاهدك ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك . فخلى رسول الله سبيله .

٢٣ – غزوة بدر الثانية

فى شعبان من السنة الرابعة من الهجرة

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر ، لميعاد أبى سفيان ، واستعمل على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول الأنصارى ، أو عبد الله بن رواحة .

وسار بأصحابه حتى نزل بدرا ، فأقام ثمانى ليال ينتظر أبا سفيان .

وخرج أبو سفيان فى أهل مكة حتى نزل مجنة من ناحية الظهران ؛ وقيل بلغ عسفان ثم بدا له فى الرجوع ،فقال : يا معشر قريش ، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ، ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن ؛ وإن عامكم هذا عام جدب ، وإنى راجع فارجعوا . . فرجع الناس ، فسماهم أهل مكة جيش السويق يقولون : إنما خرجتم تشربون السويق (١) .

وطال انتظار رسول الله على بدر لأبى سفيان لميعاده . . فأتاه مخشى بن عمرو الضمرى ، وهو الذى كان وادعه على بنى ضمرة فى غزوة ودان ، فقال: يا محمد ، أجئت للقاء قريش على هذا الماء ؟ قال : نعم ، يا أخا بنى ضمرة ، وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك ، ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك . . قال : لا ، والله يا محمد ما لنا بذلك منك من حاجة .

وقال كعب بن مالك (١) فى ذلك :

وعدنا أبا سفيان بدرا فلم نجد ... لميعاده صدقا وما كان وافيا
فأقسم لو وافيتنا فلقيتنا ... لأبت ذميما وافتقدت المواليا

قد مضت غزوة السويق

(٢) شاعر من شعراء الإسلام ، ومن المجاهدين الذائدين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى عام ٥٠ هـ .

وقال حسان من قصيدة له :

أقمنا على الرس النزوع ثمانيا ... بأرعن جرار عريض المبارك
فأبلغ أبا سفيان عنى رسالة ... فإنك من شر الرجال الصعالك

ورد أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب على حسان بقصيدة منها :

أقمت على الرس النزوع تريدنا ... وتتركنا فى النخل عند المدارك (١)
فإنك لا فى هجرة إن ذكرتها ... ولاحرمات الدين أنت بناسك

٢٤ — غزوة دومة الجندل

فى شهر ربيع الأول سنة خمس من الهجرة

انصرف رسول الله عائداً إلى المدينة بعد بدر الآخرة .

فأقام بها عدة أشهر ، حتى مضى صفر ، وفى شهر ربيع الأول من عام خمسة من الهجرة غزا رسول الله دومة الجندل ، واستعمل على المدينة سباعاً الغفارى .

ثم رجع رسول الله قبل أن يصل إلى دومة الجندل ، ولم يلق حربا ، فأقام فى المدينة بقية العام الخامس من الهجرة .

٢٥ — غزوة الخندق — الأحزاب

فى شوال من السنة الخامسة من الهجرة

— ١ —

كان اليهود هم الإصبع التى حاكت مؤامرة غزوة الأحزاب ؛ يقول ابن هشام :

(١) الرس : البئر ، النزوع : القريبة القعر . المدارك : المواضع القريبة .

إن نفرا من اليهود منهم: سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب ، وأبو عمار الوائلي ، وهوذة بن قيس الوائلي ، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، في نفر من بني النضير ، ونفر من بني وائل وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله خرجوا حتى قدموا على قريش مكة ، فدعوهم إلى حرب رسول الله ، وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله .

فقالت قريش : يامعشر يهود . إنكم أهل الكتاب الأول ، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟

قالت اليهود : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه ، فأنزل الله فيهم : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا » .

وسر قريشا مادعاهم اليهود إليه من حرب رسول الله ، فاجتمعوا لذلك وتواعدوا له .

ثم خرج أولئك النفر من اليهود ، حتى جاءوا قبيلة غطفان من قيس عيلان . فدعوهم إلى حرب رسول الله ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك ، فاجتمعوا معهم فيه .

وخرجت قريش يقودها أبو سفيان بن حرب .

وخرجت غطفان يقودها عيينة بن حصن الفزاري ، والحارث ابن عوف المري ومسعر الأشجعي .

والجميع يسيرون ووجهتهم المدينة .

— ٢ —

سمع بنبأ الأحزاب رسول الله ، وبما أجمعوا له من الأمر .

فحفر الرسول الخندق على المدينة ، وعمل فيه رسول الله والمسلمون معه ، ولكن المنافقين جعلوا يتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ولا إذن .

وعمل المسلمون فيه حتى أحكموه ، وكان فى ذلك معجزات وآيات باهرات ، حدث سلمان الفارسى ، قال : ضربت فى ناحية من الخندق ، فغلظت على صخرة ، ورسول الله قريب منى ، فلما رآنى أضرب ، ورأى شدة المكان على ، نزل فأخذ المعول من يدى ، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة ، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى . فقلت : بأبى أنت وأمى يارسول الله ، ماهذا الذى رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟ قال : أوقد رأيت ذلك ياسلمان ؟ قلت : نعم ، قال : أما الأولى فإن الله فتح على بها اليمن ، وأما الثانية . فإن الله فتح على بها الشام والمغرب ، وأما الثالثة فإن الله فتح على بها المشرق .

— ٢ —

وفرغ رسول الله والمسلمون من الخندق وأقبلت قريش(١) ، فنزلت بمجتمع الأسيال من دومة ، فى عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بنى كنانة وأهل تهامة ، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد ، فنزلوا إلى جانب أحد .

وخرج رسول الله والمسلمون ، وجعلوا ظهورهم إلى سلع ، فى ثلاثة

---

(١) كان معهم ثلاثمائة فرس وألف وخمسمائة بعير ، وحامل لوائهم عثمان ابن طلحة ووافتهم بنو سليم وهم سبعمائة وخرجت معهم بنو أسد ، وخرجت فزارة فاوعبت وهم ألفا بعير ، وخرجت أشجع وهم أربعمائة ، وخرجت بنو مرة

آلاف من المسلمين فضرب الرسول هنالك عسكره ، والخندق بينه وبين القوم . واستعمل رسول الله ابن أم مكتوم .

— ٤ —

وخرج حيي بن أخطب ، فأتى كعب بن أسد القرظى صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم . وكان قد وادع رسول الله على قومه ، فقال له كعب : ويحك ياحيي إنك امرؤ مشئوم ، وإنى قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بيني وبينه ، ولم أر منه إلا وفاءاً وصدقاً ، فقال له حيي : ويحك يا كعب ، جئتك بعز الدهر وببحر طام — أي من الأحزاب — جئتك بقريش على قادتها وسادتها ، وبغطفان على قادتها وسادتها ، قد عاهدونى على أن لايبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه ، فقال له كعب : جئتنى — والله — بذل الدهر ؛ فلم يزل يفتل لكعب فى الذروة والغارب(١) ، حتى سمح له على أن أعطاه عهداً وميثاقا ، لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً ، أن أدخل معك فى حصنك حتى يصيبنى ما أصابك ، وبذلك نقض كعب عهده ، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله .

وأرسل رسول الله — حين انتهى إليه وإلى المسلمين الخبر — وفدا إلى اليهود ، فيه سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عباد سيد الخزرج وعبد الله بن رواحة من بنى الحارث بن الخزرج ، وخوات بن جبير من بنى عمرو بن عوف فقال للوفد : انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؛ فإن كان حقاقا لحنوا لى لحنا أعرفه ، ولا تفتوا فى أعضاد الناس ؛ وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس : فخرج الوفد ، حتى أتوا اليهود ، فوجدوهم على أخبث مابلغهم عنهم ، نالوا من رسول الله ، وقالوا : من رسول الله ؟ لاعهد بيننا وبين محمد ولا عقد،

---

(١) هماأعلى ظهر البعير .

فشاتمهم سعد وشاتموه ، فقال له سعد بن عبادة : دع عنك مشاتمتهم ، فما بيننا وبينهم أربى - أكثر - من المشاتمة .

وأقبل الوفد عائدا إلى رسول الله ، فسلموا عليه ، فقالوا له لحن القول، فقال صلوات الله عليه : الله أكبر ، أبشروا يامعشر المسلمين .

— ٥ —

وعظم عند ذلك البلاء ، واشتد الخوف حتى ظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق حتى قال أحدهم : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لايأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط : وقال أوس بن قيظى يارسول الله ، إن بيوتنا عورة من العدو ، وذلك على ملأ من قومه ، فأذن لنا أن نخرج ، فنرجع إلى دارنا ، فإنها خارج من المدينة .

وأقام رسول الله وأقام عليه المشركون بضعا وعشرين ليلة قريبا من شهر ، لم يكن بينهم حرب إلا الرمى بالسهام والنبل والحصار (١) .

---

(١) كان الخندق عملا ناجحا ، وهو لون من ألوان الدفاع كان يعرفه الفرس ، وأشار به سلمان الفارسي .

وكان الخندق يشمل الجهة الشمالية من المدينة مما يلي الشرق لأنها الناحية التى يسهل منها الهجوم ، فالمدينة من الشرق والغرب والجنوب حرات مرتفعة ، يصعب على المهاجم أن يهاجم من ناحيتها ، على حين يسهل الدفاع عنها . . ولذلك وكل رسول الله بكل جانب من الخندق قوما وجعل أربعين ذراعا بين كل عشيرة .

أما اتساعه وعمقه فيصوره أقرب تصوير ماحدث عندماخرجت طائفة من فرسان قريش أمثال عمرو بن عبد ود وعكرمة ابن أبى جهل وأضرابهما ليبدأوا بمبارزة المسلمين ، ففاجأهم الخندق ، ولم يستطيعوا العبور منه « حتى =

. . . .

= تيمموا مكاناضيقا ، وضربوا خيولهم فاقتحمت منه ، ومع قصدهم الى هذا المكان الضيق من الخندق ، فإن أحدفرسانهم تردى فيه ولم يستطع الخروج منه .. فبين — إذن — أن أضيق مكان فى الخندق كان أعرض من مجال قفزة الجواد الأصيل يقود عنانه فارس مدرب ثم هو أعمق من أن يستطيع رجل الخروج منه وحده ..

ثم إن الظروف التى تم فيها حفر الخندق كانت قاسية من كل جانب : فالأرض التى يحفرون فيها لم تكن سهلة كلها بل كان منها صخرية تكسر الفؤوس ويعيي بحطمها أشداء الرجال من أمثال سلمان الفارسى .. والجو الذى كان حفر الخندق فيه باردغاية البرودة . يبين ذلك من حديث أنس ابن مالك الذى رواه البخارى « .. فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون فى غداة باردة فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم » ، ويبين كذلك من هذا الحديث أن عمل الحفر لم يكن مما يمارسه المحاربون أصلا ، فإذا أضيف أن المسلمين آنذاك كانوا يعيشون فى فاقة ومسغبة حتى ليقول جابر بن عبد الله :

« ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا .. وأنهم يؤتون بملء كفى من الشعير ، فيصنع لهم بإهالة سنخة - دسم زنخ — توضع بين يدى القوم ، والقوم جياع ، وهى بشعة فى الحلق ، ولها ريح منتن » .

فأتم المسلمون — فى هذه الظروف القاسية — هذا العمل الشاق فى ستة أيام ، وذلك لتعلم أى أمة كانت ، وأى معين من الإيمان والصبر تستنبط منه هذه الأمة قوى تأتى بالمعجزات .

ومع العمل الشاق دائما تكون الأهازيج والأرجاز ، فهى بما فيها من التسلية عون على التحمل ، لأنها تنقل مراكز التنبه فى الإنسان إلى شيء غير التفكير فى التعب والألم .

. . . .

روى البيهقى فى الدلائل أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان أول الضاربين فى الخندق بيده ، وقال :

بسم الله وبه هدينا

ولو عبدنا غيره شقينا

ياحبذا ربا وحب دينا

وروى البخارى عن البراء بن عازب قال : « رأيته صلى الله عليه وسلم ـ ينقل من تراب الخندق ، حتى وارى عنى التراب جلدة بطنه ـ وكان كثير الشعر ـ فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل من التراب يقول :

والله لولا أنت ماااهتدينا

ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا

وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الألى قد بغوا علينا

إذا أرادوا فتنة أبينا

قال : ثم يمد صوته بآخرها

ومد الصوت بآخرها تفسره الرواية الأخرى « ورفع بها صوته : أبينا أبينا » وكان هذا هو شعار المسلمين .

وهذا التكرار بصوت مرتفع لإباء الفتنة هو الكلمة التى يبثها رسول الله أصحابه يسعر بها حماستهم ، ويستثير لها حميتهم ، فيأتيه جوابهم فى هتاف جماعى موقع :

نحن الذين بايعوا محمدا

على الإسلام ما بقينا أبدا

وأراد رسول الله أن يكسر حدة الأحزاب فأخذ يفاوض عيينة بن حصن الفزارى ، والحارث المرى ، وهما قائدا غطفان ، على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، على أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة .

فلما أراد رسول الله أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، يستشيرهما فى ذلك ، فقالا له :

يارسول الله ، أمرا تحبه فنصنعه ، أم شيئاً أمرك الله به لابد من العمل به ، أم شيئا تصنعه لنا ؟

قال : بل شىء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما .

فقال سعد بن معاذ : يارسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لانعبد الله ولا نعرفه ، وهم لايطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو بيعاً ؛ أفحين أكرمنا الله بالإسلام ، وأعزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ؟ والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لانعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، قال رسول الله : فأنت وذاك .

— ٦ —

وأقام رسول الله والمسلمون ؛ وعدوهم محاصرلهم ، ولم يكن بينهم قتال، إلا أن فوارس قريش ، منهم عمرو بن عبد ود بن أبى قيس ، تلبسوا للقتال، ثم أقبلوا حتى وقفوا على الخندق ، فلما رأوه قالوا : والله إن هذه لمكيدة

= ثم يرددونها مرة ثانية :

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد مابقينا أبدا

وتم حفر الخندق ، وتمت نعمة الله على رسوله وعلى المؤمنين .

ما كانت العرب تكيدها . ثم تيمموا مكانا ضيقا من الخندق ، فضربوا خيولهم ، فاقتحمت منه فلقيهم على بن أبى طالب ، فقتل «عمرو بن عبد ود» ، وخرجت خيلهم منهزمة حيث اقتحموا الخندق مرة ثانية منهزمين هاربين .

ورمى سعد بن معاذ بسهم ، فقال : اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقنى لها ، فإنه لاقوم أحب إلى أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك ، وكذبوه وأخرجوه(١)

وأتى نعيم بن مسعود الغطفانى رسول الله ، فقال . يارسول الله ، إنى قد أسلمت ، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى ، فمرنى بما شئت ، فقال رسول الله : « إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة» فخرج نعيم حتى أتى بنى قريظة ، وكان لهم نديما فى الجاهلية ، فقال : يابنى قريظة ، قد عرفتم ودى إياكم ، وخاصة مابينى وبينكم ؛ قالوا : صدقت ، لست عندنا بمتهم ، فقال لهم : إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم . لاتقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم ونساؤهم بغيره ، فليسوا كأنتم ، فإن رأوا نهزة أصابوها . وإن كانوا غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة

---

(١) وقد مات بعد الأحزاب بشهر من هذا السهم الذى رمى به ، وبكته أمه رجزا ، فقالت :

ويل أمه سعدا

حزامة وجدا

فقيل لها : أتقولين الشعر على سعد ؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : دعوها فغيرها من الشعراء أكذب (١ : ٢٠٨ سير أعلام النبلاء للذهبى) .

لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم ، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه ، فقالوا له : لقد أشرت بالرأى . ثم خرج حتى أتى قريشا ، فقال لأبى سفيان ومن معه : قد عرفتم ودى لكم وفراقى محمدا ؛ وإنه قد بلغنى أمر قد رأيت على حقا أن أبلغكموه نصيحا لكم ، فاكتموا عنى ؛ قالوا : نفعل . قال : تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين ـ قريش وغطفان ـ رجالا من أشرافهم فنعطيكم فتضرب أعناقهم؟ ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ، فأرسل إليهم : أن نعم ، فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا . ثم خرج حتى أتى غطفان ، فقال : يامعشر غطفان ، إنكم أصلى وعشيرتى وأحب الناس إلى ، ولاأراكم تتهمونى قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم ، قال فاكتموا عنى ، قالوا : نفعل ، فما أمرك ؟ فقال لهم مثل ماقال لقريش ، وحذرهم .

وفى ليلة سبت من شوال سنة خمس أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان ، فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام .

وقد هلك الخف ـ الإبل ـ والحافر ـ الخيل ـ فاغدوا القتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه ، فأرسلوا إليهم : إن اليوم يوم سبت وهو يوم لانعمل فيه شيئا ؛ ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا ، فإنا نخشى أن تنشمروا إلى بلادكم ، وتتركونا والرجل . ولاطاقة لنا بذلك منه . فلما رجعت الرسل إليهم بما قالت بنو قريظة قالوا : والله إن الذى حدثكم نعيم لحق ، فأرسلوا إلى بنى قريظة : إنا والله لاندفع إليكم رجلا واحدا من

رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا ، فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا : إن الذى ذكر لكم نعيم لحق ، مايريد القوم إلا أن تقاتلوا ، فإن رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل فى بلدكم ، فأرسلوا إلى قريش وغطفان إنا والله ولا نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنـــا ، فأبوا عليهم وخذل الله بينهم .

— ٧ —

وبعث الله عليهم الريح فى ليال شاتية باردة شديدة البرد ، فجعلت تكفأ قدورهم ، وتطرح أبنيتهم .

فلما انتهى إلى رسول الله ما اختلف من أمرهم ، وما فرق الله من جماعتهم ، دعا حذيفة بن اليمان ، فبعثه إليهم لينظر ما فعل القوم ليلا ، قال رسول الله : ياحذيفة اذهب فادخل فى القوم فانظر ماذا يصنعون ، ولاتحدثن شيئا حتى تأتينا ، قال حذيفة : فذهبت ، فدخلت فى القوم ، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل فدخلت فى القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ماتفعل لاتقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناءا ، فقام أبو سفيان ، فقال : يامعشر قريش لينظر امرؤ من جليسه ،قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذى كان إلى جنبي ، فقلت : من أنت ؟ قال : فلان بن فلان ، ثم قال أبو سفيان : يامعشر قريش إنكم ، والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع ـ الخيل ـ والخف ـ الإبل ـ وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من شدة الريح ماترون ماتطمئن لنا قدر ، ولاتقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإنى مرتحل ، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به ، ولولا عهد رسول الله إلى أن لاتحدث شيئا حتى تأتينى ثم شئت لقتلته بسهم . فرجعت إلى رسول الله ، وأخبرته الخبر .

وسمعت غطفان مافعلت قريش ، فانشمروا راجعين إلى بلادهم .

ورجع الرسول صلوات الله عليه إلى المدينة ، وهو يقول :

« لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم » .

٢٧ — غزوة بنى قريظة
فى سنة خمس من الهجرة
فى ذى القعدة وصدر ذى الحجة

— ١ —

أصبح رسول الله ، وقد انصرفت قريش وغطفان والأحزاب ، فانصرف عن الخندق راجعا إلى المدينة ، والمسلمون معه ؛ ووضعوا السلاح.

فلما كانت الظهر نزل جبريل عليه السلام ، فقال : أوقد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم، فقال جبريل ، فما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم ، إن الله عزوجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بنى قريظة ، فإنى عامد إليهم فمزلزل « بهم ؛ فأمر رسول الله مؤذنا فأذن فى الناس : من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم .

وقدم رسول الله على بن أبى طالب برايته إلى بنى قريظة ، وابتدرها الناس ، فسار على حتى إذا دنا من الحصون ، ودنا رسول الله ، فقال : يا إخوان القردة ، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ؟ قال : يا أبا القاسم ، ما كنت جهولا .

ولما أتى رسول الله إلى بنى قريظة نزل على بئر من آبارها ، وتلاحق به الناس .

— ٢ —

وحاصر رسول الله بنى قريظة خمسا وعشرين ليلة ، حتى جهدهم الحصار ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب .

وبعثوا إلى رسول الله : أن ابعث إلينا أبا لبابة لنستشيره فى أمرنا ، فأرسله رسول الله إليهم ؛ فلما رأوه قام إليه الرجال ، وجهش إليه النساء ، والصبيان ؛ يبكون فى وجهه ، فرق لهم ، وقالوا له : يا أبا لبابة ، أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ قال : نعم ، وأشار بيده إلى حلقه ، إنه الذبح .

ونزلت قريظة على حكم رسول الله فقالت الأوس : يا رسول الله ، إنهم كانوا موالينا دون الخزرج ، فقال لهم رسول الله ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : فذلك إلى سعد بن معاذ ، فأتاه قومه فحملوه معهم إلى رسول الله ، وهم يقولون : يا أبا عمرو ، أحسن فى مواليك ، فإن رسول الله إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم ، فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم .

فلما انتهى سعد إلى رسول الله والمسلمين قال الرسول : قوموا إلى سيدكم فقاموا إليه ، فقالوا يا أبا عمرو إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم ، فقال سعد بن معاذ : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه ، إن الحكم فيهم لما حكمت ، قالوا : نعم ، قال سعد : فإنى أرى أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرارى والنساء .

— ٣ —

وقتل رسول الله الرجال ، وهم ستمائة أو سبعمائة ، وفيهم حيى بن أخطب ولم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة .

وكان رسول الله قد أمر بقتل كل من أنبت من بنى قريظة ، وسألت سلمى بنت قيس ، أم المنذر ، إحدى خالات رسول الله ، الرسول صلى الله عليه وسلم أن يهب لها رفاعة بن سموأل القرظى ، فوهبه لها ، فاستحيته .

وقسم رسول الله أموال بنى قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين ، واصطفى رسول الله لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو فأسلمت ، وكانت عند رسول الله ، حتى توفى عنها وهى فى ملكه .

فلما انقضى أمر بنى قريظة انفجر بسعد بن معاذ جرحه ، فمات منه شهيدا (١) .

شهداء المسلمين يوم الخندق

هم ستة نفر :

١ — سعد بن معاذ

٢ — أنس بن أوس

٣ — عبد الله بن سهل

وهم جميعا من بنى عبد الأشهل

٤ — الطفيل بن النعمان

٥ — ثعلبة بن غنمة ، وهما من جشم

٦ — كعب بن زيد من بنى النجار .

قتلى المشركين يوم الخندق هم ثلاثة :

١ — منبه بن عثمان من بنى عبد الدار بن قصى .

---

(١) وفيه يقول شاعر من الأنصار :

وما اهتز عرش الله من فقد هالك سمعنا به إلا لموت أبى عمرو

٢ — نوفل بن عبد الله من بنى مخزوم .

٣ — عمرو بن عبدود ، وابنه حسل معه على الأرجح .

شهداء المسلمين يوم بنى قريظة هم :

١ — خلاد بن سويد .

٢ — أبو سنان بن محصن .

الشعر فى غزوة الخندق وغزوة بنى قريظة

ضرار بن الخطاب فى الخندق من قصيدة طويلة له :

فلولا خندق كانوا عليه ... لدمرنا عليهم أجمعينا
ولكن حال دونهم وكانوا ... به من خوفنا متعوذينا
فأحجرنا هموا شهرا كريتا (١) ... وكنا فوقهم كالقاهرينا
وسوف نزوركم عما قريب ... كما زرناكم متوازرينا
بجمع من كنانة غير عزل ... كأسد الغاب قد حمت العرينا

فرد عليه كعب بن مالك :

وسائلة تسائل ما لقينا ... ولو شهدت رأتنا صابرينا
صبرنا لانرى لله عدلا (٢) ... على ما نابنا متوكلينا
وكان لنا النبى وزير صدق ... به نعلو البرية أجمعينا
لننصر أحمدا والله حتى ... نكون عباد صدق مخلصينا
ويعلم أهل مكة حين ساروا ... وأحزاب أتوا متحزبينا
بأن الله ليس له شريك ... وأن الله مولى المؤمنينا

---

(١) أى كاملا (٢) أى نظيرا

عبد الله بن الزبعرى فى الخندق من قصيدة له :

لولا الخنادق غادروا من جمعهم ... قتلى لطير شغب وذئاب

فأجابه حسان :

فدع الديار وذكر كل خريدة ... بيضاء آنسة الحديث كعاب
واشك الهموم إلى الإله وما ترى ... من معشر ظلموا الرسول غضاب
ساروا بأجمعهم إليه وألبوا ... أهل القرى وبوادى الأعراب
حتى إذا وردوا المدينة وارتجوا ... قتل الرسول ومغنم الأسلاب
وغدوا علينا قادرين بأيدهم ... ردوا بغيظهم على الأعقاب

وأجابه كعب بن مالك أيضا بقصيدة منها :

جاءت سخينة كى تغالب ربها ... فليغلبن مغالب الغلاب

وقال كعب بن مالك أيضا من قصيدة طويلة :

ويعيننا الله العزيز بقوة ... منه وصدق الصبر ساعة نلتقى
ونطيع أمر نبينا ونجيبه ... وإذا دعا لكريهة لم نسبق
إن الذين يكذبون محمدا ... كفروا وضلوا عن سبيل المتقى

وقال كعب بن مالك أيضا من قصيدة طويلة :

لقد علم الأحزاب حين تألبوا ... علينا وراموا ديننا ، ما نوادع

ولكعب أيضا من قصيدة طويلة :

لنظهر دينك اللهم إنا ... بكفك فاهدنا سبل الرشاد

ولمسافع الجمحى قصائد طويله فى ذلك وكان مسافع مشركا ، وكذلك لهبيرة بن أبى وهب ، وكان كذلك هو مشركا .

ولحسان يفتخر :

ونحن قتلناكم بكل مهند ونحن ولاة الحرب حين تصول
ونحن قتلناكم ببدر فأصبحت معاشركم فى الهالكين تجول

ولحسان قصائد أخرى طويلة ومنها قصائد فى رثاء سعد بن معاذ .

وقال حسان فى يوم بنى قريظة :

لقد لقيت قريظة ماسآها وحل بحصنها ذال ذليل
وسعد كان أنذرهم بنصح بأن إلهكم رب جليل

فأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب من قصيدة طويلة :

أدام الله ذلك من صنيع وحرق فى طوائفها السعير

٧ — مقتل سلام بن أبى الحقيق

انقضى شأن غزوة الخندق وأمر بنى قريظة ، على الصورة التى عرفناها .

وكان أبو رافع سلام بن أبى الحقيق ، فيمن حزب الأحزاب على رسول الله ، وهو يقيم فى خيبر .

وكانت الأوس بعد بدر قد قتلت كعب بن الأشرف لعداوته لرسول الله ، وتحريضه عليه ، وتشبيبه بنساء المسلمين .

فجاءت الخزرج بعد غزوة الخندق تستأذن رسول الله فى قتل أبى رافع فأذن لهم .

وكان الأوس والخزرج يتنافسان فى الدفاع عن رسول الله ؛ لا تصنع الأوس من ذلك شيئا ، إلا قالت الخزرج : والله لاتذهبون بهذه فضلا علينا عند رسول الله فى الإسلام ، وإذا فعلت الخزرج شيئا قالت الأوس مثل ذلك .

ولما قتلت الأوس كعب بن الأشرف لعداوته للرسول ، قالت الخزرج : والله لاتذهبون بها فضلا علينا أبدا ، فتذاكروا : من رجل لرسول الله فى العداوة كابن الأشرف ؟ فذكروا أبا رافع وهو بخيبر ، فاستأذنوا رسول الله فى قتله ، فأذن لهم ، فخرج إليه الخزرج من بنى سلمة فى خمسة نفر ، وأمر عليهم رسول الله عبد الله بن عتيك ، ونهاهم أن يقتلوا وليدا أو امرأة .

فخرجوا ، حتى إذا قدموا خيبر أتوا دار أبى رافع ليلا ، فلم يدعوا بيتا فى الدار إلا أغلقوه على أهله ، وقاموا على بابه ، فاستأذنوا عليه ، فأذن لهم ، فدخلوا ، فابتدروه وهو على فراشه بسيوفهم ، وجعلت امرأته تصيح ، فنهرها القوم ، وخرجوا ودخلوا فى قبو فى الحصن من أقبيه الماء . وأخذ قوم أبى رافع يطلبونهم فى كل وجه دون جدوى ، وخرج النفر حتى قدموا على رسول الله ، فأخبروه بقتل عدو الله .

ولحسان فى ذلك شعر جيد . .

إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد

لما انصرفت قريش مع الأحزاب عن الخندق ، قال عمرو بن العاص لقوم من قريش : والله إنى أرى أمر محمد يعلو الأمور علوا منكراً ؛ وإنى لقد رأيت أمرا فما ترون فيه ؟ قالوا له : وماذا رأيت ؟ قال لهم : رأيت أن نلحق بالنجاشى فنكون عنده ، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشى فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدى محمد ؛ وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا ، فلن يأتينا منهم إلا خير ، قالوا : إن هذا لرأى ، فقال عمرو بن العاص لهم : فاجمعوا لنا مانهديه له ، وكان أحب مايهدى إليه الجلد ، فجمعوا له منه الكثير .

وخرجوا حتى قدموا على النجاشى ، فبينما هم عنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمرى وافداً عليه برسالة من رسول الله فى شأن جعفر وأصحابه .

فكلم عمرو بن العاص النجاشى فى شأن عمرو بن أمية الضمرى ، ليسلمه له ، فغضب النجاشى غضبا شديدا ، وقال ويحك يا عمرو بن العاص ، أطعنى واتبعه ، فإنه والله لعلى الحق ، وليظهرن على من خالفه ، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده ، فأسلم عندئذ عمرو بن العاص ، وكتم إسلامه عن أصحابه .
ثم عاد إلى بلاده قاصدا رسول الله ليسلم ، وذلك قبيل الفتح ، فلقيه خالد بن الوليد ، وهو مقبل من مكة . فقال عمرو له : إلى أين ؟ فقال خالد : والله إن الرجل لنبى ، اذهب والله فأسلم ، فحتى متى، فقال له عمرو والله ما جئت إلا لأسلم .

وقدما المدينة على رسول الله ، فتقدم خالد فأسلم(١) ، ثم دنا عمرو بن العاص فأعلن إسلامه .

وأسلم معهما عثمان بن طلحة بن أبى طلحة .

٢٨ — غزوة بنى لحيان

فى جمادى الأولى من السنة السادسة من الهجرة

خرج رسول الله يطلب الثأر بأصحاب الرجيع : خبيب وأصحابه .

---

(١) والده الوليد بن المغيرة ، مات بعد الهجرة النبوية بعام وقد كان خالد قائد خيل المشركين فى الحديبية ، ومعنى ذلك أن إسلامه تأخر عن صلح الحديبية وفى « سير أعلام النبلاء » للذهبى (١ : ٢٦٤) أنه هاجر مسلما فى صفر سنة ثمان وتوفى خالد بحمص سنة إحدى وعشرين عن ستين سنة ، فميلاده قبل الهجرة بتسع وثلاثين سنة وبعد مولد رسول الله، ١٤ عاما .

فأظهر أنه يريد الشام ، ليصيب من القوم غرة ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم (١) ، وخرج منها ، فسلك على غراب - جبل بناحية المدينة على طريق المسافر إلى الشام - ثم على مخيض ، فالبتراء ، ثم يمين ، فصخيرات اليمام ، يسير على الطريق إلى مكة حتى نزل على غران - واد بين أمج وعسفان وفيه منازل بنى لحيان - وسار إلى بلد يقال له ساية ، فوجد القوم قد تمنعوا فى رؤوس الجبال ، وفاته من غرته ما أراد .

ثم خرج رسول الله فى مائتى راكب ، حيث نزلوا عسفان وبعد قليل كر رسول الله قافلا إلى المدينة ، وهو يقول :

« آيبون تائبون إن شاء الله ، لربنا حامدون » .

« أعوذ بالله من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر فى الأهل والمال .

٢٩ غزوة ذى قرد أو الغابة
فى جمادى الآخرة عام ستة من الهجرة

قدم رسول الله المدينة من غزوة بنى لحيان ، فلم يقم بها إلا ليال قلائل ، حتى أغار عيينة بن حصن الفزارى فى خيل من غطفان على إبل لرسول الله بالغابة ، وفيها رجل من بنى غفار وامرأته ، فقتلوا الرجل ، ونهبوا الإبل ، واحتملوا المرأة معهم .

وذهب سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمى إلى الغابة متوشحا قوسه ونبله ، حتى إذا علا ثنية الوداع نظر إلى المغيرين وقد انصرفوا ، فأشرف

---

(١) قرشى عامرى ، وأمه مخزومية ، مات بالمدينة بعد القادسية عام ١٥ هـ (١ : ٢٦٠ - ٢٦٤ سير أعلام النبلاء للذهبى) .

فى ناحية سلع ، وصرخ : واصباحاه ، وخرج يرمى المغيرين بالنبل .

وبلغ رسول الله صياح ابن الأكوع فصرخ بالمدينة : الفزع ، الفزع فأقبلت الفرسان إلى رسول الله ، وكان أولهم المقداد بن عمرو ، ثم عباد ابن بشر .

فلما اجتمعوا إلى رسول الله أمر عليهم سعد بن زيد ، وقال له : اخرج فى طلب القوم حتى ألحقك فى الناس .

وخرج الفرسان فى طلب القوم حتى تلاحقوا ، فكان أول فارس لحق بالقوم هو محرز بن نضلة .

وتقاتل القوم ، فقتل من المسلمين محرز بن نضلة ، ولم يقتل غيره من المسلمين .

وأقبل رسول الله فى المسلمين ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم .

وسار رسول الله حتى نزل بالجبل من ذى قرد ، ولحق به الناس ، ونزل رسول الله بهذا المكان ، وأقام عليه يوما وليلة .

ثم رجع رسول الله قافلا حتى قدم المدينة .

ونجت امرأة الغفارى ، وبعض الإبل ، وبعث رسول الله بالمرأة إلى أهلها .

وقال حسان فى يوم ذى قرد من قصيدة :

أمير علينا رسول المليـ ـك أحبب بذاك إلينا أميرا
رسول تصدق ما جاءه ويتلو كتابا مضيئا منيرا

وأقام رسول الله بالمدينة بعض جمادى الآخرة ورجبا .

٣٠ — غزوة بنى المصطلق بالمريسيع
فى شعبان سنة ست من الهجرة

— ١ —

بنو المصطلق من خزاعة ، غزاهم رسول الله ، واستعمل على المدينة أباذر الغفارى .

وسبب ذلك أن رسول الله بلغه أنهم يجمعون لحرب رسول الله ، وقائدهم هو الحارث بن أبى ضرار ، وهو أبو جويرية زوج رسول الله .

فخرج رسول الله إليهم ، حتى لقيهم على ماء لهم يقال له « المريسيع » من ناحية قديد إلى الساحل .

فتزاحف الناس واقتتلوا ، فهزم الله بنى المصطلق ، وقتل من قتل منهم ، وكان شعار المسلمين فى هذه المعركة : يامنصور ، أمت أمت . وأصيب من بنى المصطلق يومئذ أناس وأصاب رسول الله منهم سبياً كثيراً . وفى نهاية الغزوة حدث بين الأنصار والمهاجرين شىء ، فغضب عبد الله بن أبى ابن سلول ، وعنده رهط من قومه فقال: قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ماأعدنا « وجلا بيب قريش »(١) هذه إلا كما قال الأول : «سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم قال لمن معه: هذا مافعلتم بأيديكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم مابأيديكم لتحولوا إلى غير داركم .

وبلغ ذلك رسول الله ، فأذن فى الناس بالرحيل وهو مغضب ، فقال أسيد بن حضير : يارسول الله ، ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا .

---

(١) كانت قريش تلقب أصحاب رسول الله من أهل مكة بهذا اللقب .

فنزلت سورة المنافقين ، تفضح صنيع عبدالله بن أبى وحزبه فى الضلال ؛ وجاء ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبى إلى رسول الله فقال له :

يارسول الله ، بلغنى أنك تريد قتل أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت لابد فاعلا فمرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى ، وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتله يمشى فى الناس ، فأقتله ، فأدخل النار .

فقال رسول الله : « بل نترفق به ونحسن صحبته مابقى معنا » .

— ٢ —

ومن سبايا بنى المصطلق فى هذه الغزوة جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار زوج رسول الله ، كانت فى السبى فوقعت فى يدى ثابت بن قيس بن الشماس ، فكاتبته على نفسها ، وجاءت إلى رسول الله تستعينه فى كتابتها ، فقال صلى الله عليه وسلم لها : فهل لك فى خير من ذلك ؟ قالت : وما هو يارسول الله ؟ قال : أقضى عنك كتابك وأتزوجك ؛ قالت : نعم يارسول الله قد فعلت ، فقال المسلمون : أصهار رسول الله ، وأرسلوا ما بأيديهم ، نحو مائة أهل بيت من بنى المصطلق ، أعتقوا جميعا ، فما من امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها .

وأسلم أبوها وابنان له وأناس من قومه .

وبعث رسول الله إلى قومها الوليد بن عقبة مصدقا ، فلما سمعوا به ركبوا إليه ، فلما سمع بهم هابهم ، فرجع إلى رسول الله فأخبره أن القوم قد هموا بقتله ، ومنعوه ماقبلهم من صدقتهم ؛ فهم رسول الله بأن يغزوهم ، فبينما هم على ذلك قدم وفدهم على رسول الله ، فقالوا : يارسول الله سمعنا برسولك ، حين بعثته إلينا ، فخرجنا إليه لنكرمه ، ونؤدى إليه ماقبلنا من الصدقة ، فقفل راجعا ، فبلغنا أنه زعم لرسول الله أنا خرجنا إليه لنقتله ، والله ماجئنا لذلك

فنزل قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا (الحجرات آية ٥)

— ٣ —

وفى رجوع رسول الله من غزوة بنى المصطلق شاع حديث الإفك ، وقد برأ الله عائشة تبريئاً .

حديث الإفك فى غزوة بنى المصطلق

سنة ست من الهجرة

— ١ —

كان رسول الله إذا أراد سفرا صنع قرعة بين نسائه ، فأية واحدة منهن خرج سهمها خرج بها معه .

فكانت عائشة هى التى خرجت فى غزوة بنى المصطلق .

فلما فرغ رسول الله منها ، عاد إلى المدينة وتوجه قافلا ، فلما كان قريبا من المدينة نزل منزلا فبات به بعض الليل وبات الناس معه . ثم أذن فى الناس بالرحيل فارتحل الناس، ورفعوا هودج عائشة على الجمل ، وهم لا يدرون أنها ليست فيه ، وساروا عائدين إلى المدينة .

وكانت عائشة حينئذ قد خرجت من بين القوم تقضى حاجة ، وفى عنقها عقد ، فلما عادت إلى رحلها لم تجد العقد فى عنقها وقد أخذ الناس فى الرحيل ، فرجعت إلى المكان الذى قضت فيه حاجتها ، تلتمسه حتى وجدته ، فرجعت إلى العسكر ، فلم تجد أحدا ، قد انطلق الناس ، فتلففت بجلبابها ، واضطجعت فى مكانها انتظارا لطلب القوم لها .

ومر بها صفوان بن المعطل السلمى ، وكان قد تخلف عن العسكر لبعض حاجاته ، فوقف عليها ، وقال: « إنا لله وإنا إليه راجعون ، ظعينة رسول الله ماخلفك يرحمك الله ؟

فلم ترد عائشة عليه جواباً ، وقرب البعير ، وقال لعائشة : اركبي ، وتأخر عنها ، فركبت ، وأخذ هو برأس البعير ، وسار سريعا يطلب الناس فلم يلحق بهم ودخل الناس المدينة ، ونزلوا واطمأنوا ، ودخل صفوان المدينة فى الصباح يقود جمل عائشة ، فأشاع أهل الإفك ماأشاعوا ، وقالوا ماقالوا ، وارتج الناس، وعائشة لاتعلم عنه شيئاً ، وانتهى الحديث إلى رسول الله وإلى أبى بكر وامرأته(١) ولم يذكر أحد لعائشة شيئا ، وكان أثر السفر باديا عليها فرضت ، ورأت من رسول الله شيئا من الإنكار والجفاء ، فوجدت فى نفسها ، واستأذنت لتذهب إلى بيت أبيها تمرض فيه ، فأذن لها رسول الله ؛ وبعد مايقارب الشهر برئت عائشة من مرضها ، وفى ليلة من رمضان سنة ست من الهجرة خرجت عائشة لبعض حاجتها ، ومعها أم مسطح(٢) بنت أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف فعثرت أم مسطح فى ثوبها ، فقالت: تعس مسطح فردت عائشة : بئس لعمر الله ماقلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدرا ، فردت على عائشة: أوما بلغك الخبر يابنت أبى بكر؟ فأجابتها عائشة : وماالخبر؟ فأخبرتها بالذى كان من قول أهل الإفك ، فقالت عائشة : أوقد كان هذا؟ قالت لها : نعم والله لقد كان .

فأصاب عائشة من الغم ماأصابها ورجعت ، ومازالت تبكى حتى كأن البكاء سيصدع كبدها وقالت لأمها : يغفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئا ، قالت لها : هونى عليك الشأن أى بنية ، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها .

---

(١) هى أم رومان زينب بنت عبد دهمان من كنانة. هذا وصفوان بن المعطل توفى عام ١٩ﻫ (٢ : ٣٩٥ سير أعلام النبلاء) :

(٢) كانت أمها بنت صخر خالة ابى بكر ، ومسطح لقب ، واسمه عوف .

— ٢ —

وقام رسول الله فى الناس يخطبهم ويقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أيها الناس ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ، ويقولون عليهم غير الحق ، والله ماعلمت منهم إلا خيرا ، ويقولون ذلك لرجل والله ماعلمت منه إلا خيرا ، وما يدخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى » .

وكان الذين أشاعوا حديث الإفك :

١ — عبد الله بن أبى بن سلول فى رجال من الخزرج .

٢ — مسطح (١) :

٣ — حمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش أم المؤمنين ، حسدا منها لعائشة على مكانتها من رسول الله ، وكانت أختها زينب من الأثيرات على قلب رسول الله ، وكانت حمنة زوجة عبد الرحمن بن عوف ، وقيل : كانت زوجة المصعب بن عمير فلما قتل تزوجها طلحة ، وأمها عمة الرسول .

٤ — حسان بن ثابت .

واستشار رسول الله على بن أبى طالب وأسامة بن زيد ، فقال أسامة : « يارسول الله ، أهلك ، ولا نعلم إلا خيرا ، وهذا الكذب والباطل » . . وقال على : يارسول الله إن النساء لكثير ، وسل الجارية فإنها ستصدقك .

فدعا رسول الله بريرة مولاة أم المؤمنين عائشة ليسألها ، فقام إليها على فضربها ضربا شديدا ، وهو يقول لها : اصدقى رسول الله ، فقالت : والله ماأعلم إلا خيرا ، وماكنت أعيب على عائشة شيئا إلا أنى كنت أعجن

---

(١) توفى عام ٣٤ هـ (راجع ١ / ١٢٧ سير أعلام النبلاء الذهبى) .

عجينى فآمرها أن تحفظه ، فتنام عنه ، فتأتى الشاة ، فتأكله .

ودخل رسول الله على عائشة ، وعندها أبواها ، وامرأة من الأنصار ، وعائشة تبكى ، فجلس الرسول ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ياعائشة ، إنه قد كان ما بلغك من قول الناس ، فاتقى الله ، فإن كنت قارفت سوءا مما يقول الناس فتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده .

وظلت عائشة ساكنة ، ثم قالت لأبويها : ألا تجيبان رسول الله ؟

فقالا لها : والله ماندرى بماذا نجيبه ، وهما آنذاك فى حزن عميق ، وألم دفين .

وبكت عائشة واستعبرت ، وقالت : صبر جميـــل ، والله المستعان على ماتصفون .

وسكتت عائشة وكانت بعد ذلك تقول : وايم الله لأنا كنت أحقر فى نفسى وأصغر من أن ينزل الله فى قرآنا يقرأ به فى المساجد ويصلى به ، ولكنى قد كنت أرجو أن يرى رسول الله فى نومه شيئا يكذب به الله عنى، لما يعلم من براءتى ، أو يخبر خبرا ، فأما قرآن : ينزل فى ، فوالله لنفسى كانت أحقر عندى من ذلك .

— ٣ —

ولم يبرح رسول الله مجلسه هذا ، حتى نزل عليه الوحى ، وتغشاه من الله ما كان يتغشاه ، فسجى بثوبه ، ووضع له وسادة تحت رأسه ، ثم صعد الوحى وسرى عن رسول الله ، فجلس ، والعرق يتحدر منه واليوم يوم شات ، فجعل يمسح العرق عن جبينه ، وحبات العرق مثل الجمان ؛ وهو يقول :

أبشرى ياعائشة ، قد أنزل الله براءتك .

وعائشة يرقص الفرح فى فؤادها وتقول : بحمد الله

وخرج رسول الله إلى الناس يخطبهم ، وتلا عليهم مانزل من القرآن .

وأمر الرسول بمسطح وبحسان (١) ، وحمنة بنت جحش ، وبابن سلول وكانوا ممن قالوا وأذاعوا ماقالوا وأذاعوا ، فضربوا حد القذف .

وقال حسان يمدح عائشة ويعتذر إليها :

حصان رزان ماتزن (٢) بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
فإن كنت قد قلت الذى قد زعمتو ... فلا رفعت سوطى إلى أناملى
وكيف وودى ماحييت ونصرتى ... لآل رسول الله زين المحافل

وفى حد حسان يقول بعض شعراء المدينة :

لقد ذاق حسان الذى كان أهله ... وحمنة إذ قالوا هجيرا ومسطح

صلح الحديبية

ذو القعدة سنة ست من الهجرة

— ١ —

إلى العمرة :

أقام رسول الله بالمدينة رمضان وشوالا ، وفى ذى القعدة خرج معتمرا

---

(١) كان صفوان قد هجا حسانا وقال فيما قال فيه :

أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا ... وابن الفريعة أمسى بيضة البلد

والجلابيب هو لقب كان المشركون فى مكة يلقبون به أصحاب رسول الله من المهاجرين .

(٢) أى ماتتهم ، والحصان العفيفة ، رزان : الوقور . غرثى : جائعة . الغوافل : النساء الغافلات .

لايريد حربا ، واستعمل على المدينة نميلة الليثى .

وخرج معه المسلمون خشية أن تعرض له قريش بحرب ، أو أن تصده عن البيت ، وساق الهدى وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه ، وليعلموا أنه إنما خرج زائرا لهذا البيت ومعظما له .

وكان عدد من خرج مع رسول الله ألفا وأربعمائة .

وفى عسفان لقيه بشر الكعبى ، فقال : « يارسول الله ، هذه قريش ، قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا (لحربك) وقد نزلوا بذى طوى يعاهدون الله لاتدخلها عليهم أبدا » .

« وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموها إلى « كراع الغميم » .

فقال رسول الله : ياويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة (١) .

وسلك رسول الله طريقا غير طريق قريش . وكان طريقا وعرا قاد المسلمين فيه رجل من أسلم .

وسار الرسول ومن معه ، ورأت خيل قريش المتقدمة المسلمين قد حادوا عن الطريق المألوف فرجع الفرسان رابضين إلى قريش فأخبروهم ، وبلغ الرسول ثنية المرار ، مهبط الحديبية من أسفل مكة ، فتوقف فيها ، وهو يقول :

« لاتدعونى قريش اليوم إلى خطة » :

---

(١) صفحة العنق .

« يسألوننى فيها صلة الرحم ، إلا أعطيتهم إياها » .

— ٢ —

وفود قريش :

وأرسلت قريش وفدا إلى رسول الله ، على رأسه بديل بن ورقاء الخزاعى من رجال من خزاعة ، فكلموا رسول الله ، وسألوه : ماالذى جاء به ؟

فأخبرهم رسول الله أنه لم يأت يريد حربا ، وإنما جاء زائرا البيت ، ومعظما لحرمته .

فرجعوا إلى قريش ، فقالوا : « يامعشر قريش ، إنكم تعجلون على محمد ، إن محمدا لم يأت لقتال ، وإنما جاء زائرا لهذا البيت » .

فردت قريش على بديل ردا أليما ، وقالوا : « وإن كان جاء ولا يريد قتالا ، فوالله لايدخلها علينا عنوة أبدا ، ولا تحدث بذلك عنا العرب ؛ وكانت خزاعة مسلمها ومشركها مــع رسول الله لايخفون عنه شيئا كان بمكة .

وبعثت قريش وفدا ثانيا فيه مكرز بن حفص ؛ فلما انتهى إلى رسول الله ، وكلمه ، قال له الرسول نحوا مما قال لبديل وأصحابه . فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله .

وبعثت وفدا ثالثا ، فيه الحليس بن علقمة سيد الأحابيش ، فلما رأى الهدى رجع إلى قريش دون أن يصل إلى رسول الله ، إعظاما لما رأى ، وقال لقريش : « يامعشر قريش ، والله ماعلى هذا حالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، أيصدعن بيت الله من جاء معظما له » .

وعادت قريش فبعثت وفدا رابعا إلى رسول الله ، فيه عروة بن مسعود الثقفى .

فقال عروة لرسول الله : « يا محمد ، أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم (١) ؟ إنها قريش قد لبسوا جلود النمور ، يعاهدون الله لاتدخلها عليهم عنوة ، أبدا ، وايم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا . . »

فرد عليه أبو بكر وهو جالس خلف رسول الله : أنحن ننكشف عنه ؟

قال عروة : من هذا يا محمد ؟

قال : هذا ابن أبى قحافة .

قال : أما والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بها ، ولكن هذه بهذه . . ثم جعل يتناول لحية رسول الله وهو يكلمه ، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله فى الحديد ، فجعل يقرع يده إذا تناول بها لحية رسول الله ، ويقول له : اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل إليك .

فيقول عروة : ويحك ، ما أفظك وأغلظك .

فتبسم رسول الله .

وقال عروة : من هذا يا محمد :

قال : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة .

فقال عروة : أى غدر ، وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس .

وكلم رسول الله عروة بمثل ما كلم به أصحابه ، وأخبره أنه لم يأت يريد

---

(١) بيضة الرجل : قبيله وأهله ، يريد مكة . تفضها : تكسرها .

حربا ، فانصرف من عند رسول الله ، وقد رأى ما يصنع به أصحابه ، لايتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه .

ورجع عروة إلى قريش ، فقال : يامعشر قريش ، إنى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وإنى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه ، ولقد رأيت قوما لايسلمونه لشيء أبدا ، فروا رأيكم .

- ٣ -

وفود رسول الله :

وبعث رسول الله إلى قريش وفدا فيه خراش بن أمية الخزاعى ، وحمله الرسول على بعير له ، ليبلغ أشرافهم عنه ماجاء له ، فعقروا به جمل رسول الله ، وأرادوا قتله ، فمنعته الأحابيش ، فخلوا سبيله ، حتى أتى رسول الله .

وبعثت قريش نحو أربعين أو خمسين رجلا - فرقة استطلاع - فرموا فى عسكر رسول الله بالحجارة والنبل ، فأخذهم المسلمون فأتى بهم رسول الله فعفا عنهم ، وخلى سبيلهم .

فبعث رسول الله وفدا ثانيا فيه عثمان بن عفان ، ليخبر قريشا أن رسول الله لم يأت لحرب ، وأنه إنما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته .

ودخل عثمان مكة فى جوار أبان بن سعيد بن العاص ، فبلغ رسالة رسول الله إلى أبى سفيان وعظماء قريش ، واحتبست قريش عثمان عندها ، فبلغ رسول الله والمسلمين أن عثمان قد قتل .

بيعة الرضوان :

فقال رسول الله عندئذ ؟ لانبرح حتى نناجز القوم ، ودعا الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله على الموت ، وقيل : بل بايعهم على أن لايفروا ، ولم يتخلف أحد من المسلمين عن البيعة .

— ٤ —

هدنة وصلح :

وبعثت قريش سهيل بن عمرو إلى رسول الله ، ليصالحه على أن يرجع عنهم عامه هذا .

فأتاه سهيل ، فلما رآه رسول الله مقبلا قال : قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل .

وانتهى سهيل إلى رسول الله فتكلم وأطال الكلام ، ثم جرى بينهما الصلح .

وأتى عمر أبا بكر فقال :

— يا أبا بكر أليس برسول الله ؟

— بلى

— أو لسنا بالمسلمين ؟

— بلى

— أو ليسوا بالمشركين ؟

— بلى

— فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟

— إنى أشهد أنه رسول الله

وأنا أشهد أنه رسول الله .

ثم جاء عمر رسول الله فقال له مثل ما قال لأبى بكر ، رد عليه الرسول بمثل مارد به أبو بكر على عمر ، وقال لعمر « أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى » .

ودعا رسول الله على بن أبى طالب فقال له :

اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم .

سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب : باسمك اللهم .

رسول الله : اكتب باسمك اللهم .

على يكتبها :

رسول الله : اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيلا .

سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك .

رسول الله : « اكتب هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه ؛ وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه ؛ وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا معك سلاح الراكب ، السيوف فى القرب ، لا تدخلها بغيرها » . . وشهد على الصلح رؤوس المسلمين .

— ٥ —

أبو جندل بن سهيل بن عمرو :

وبينما رسول الله يكتب الكتاب هو وسهيل إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف فى الحديد ، قد انفلت إلى رسول الله .

وقد كان أصحاب رسول الله قد خرجوا إلى مكة ، وهم لا يشكون فى الفتح لرؤيا رسول الله ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع ، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم ، حتى كادوا يهلكون .

فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه ، وأخذ يجره ليرده إلى قريش ، وأبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يامعشر المسلمين ، أأرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى ؟ فقال رسول الله : يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم .

فقام عمر إلى أبى جندل يمشى إلى جنبه ، ويقول له : اصبر يا أبا جندل ، فإنماهم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب ، ويدنى عمر سيفه من أبى جندل ، ليأخذه فيضرب به أباه ، ولكن أبا جندل لم يفعل(١) .

وانصرف رسول الله عائدا إلى المدينة ، وفى الطريق نزلت سورة الفتح، وهى السورة الثامنة والأربعون من سور القرآن الكريم .

---

(١) مات عام ١٨ هـ (١ : ٢٤٠ سير أعلام النبلاء) ووالده سهيل بن عمرو خطيب قريش وفصيحها ومن أشرافها ، وقد أسر فى بدر ، وحرض على الأخذ بالثأر ، أسلم يوم فتح مكة ، ومات يوم اليرموك (١ : ٢٤١ المرجع السابق)

ولما رجع رسول الله إلى المدينة بعد الحديبية بعث برسائله إلى ملوك الأرض(١) .

ما بعد صلح الحديبية

— ١ —

قدم رسول الله المدينة بعد صلح الحديبية ، فقدم عليه أبو بصير عتبة ابن أسد بن جارية ، وكان ممن حبس فى مكة ، وكتب من مكة فى أمره إلى رسول الله أزهر بن عوف والأخنس بن شريق ، وبعثا رجلا من بنى عامر ابن لؤى ومعه مولى لهم . فقدما على رسول الله بكتاب الأزهر والأخنس .

فقال رسول الله : يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصح لنا فى ديننا الغدر ؛ وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، فانطلق إلى قومك .

قال : يارسول الله ، أتردنى إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟

قال : يا أبا بصير، انطلق فإن الله سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا .

فانطلق معهما ، وفى الطريق أخذ سيف العامرى ، فقتله به ، وهرب المولى، ونزل أبو بصير العيص من ناحية ذى المروة على ساحل البحر الأحمر بطريق إلى الشام ، واجتمع إليه منهم قريب من سبعين رجلا ، يضيقون على قريش ، لا تمر بهم قوافل تجارة لقريش إلا أخذوها ؛ حتى كتبت

---

(١) ١ : ٦٠ زاد المعاد لابن القيم

قريش إلى رسول الله تسأله بأرحامها إلا آواهم فلا حاجة لهم بهم ، فأعلن رسول الله ذلك إليهم ، فقدموا عليه المدينة وعاشوا امع المسلمين فيها .

— ٢ —

وهاجرت إلى رسول الله أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، فخرج أخواها : عمارة والوليد ، حتى قدما على رسول الله يسألانه أن يردها عليهما بالعهد الذى بينه وبين قريش فى الحديبية (١) ، فلم يفعل ، أبى الله ذلك ،قال تعالى : يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ، فامتحنوهن ، الله أعلم بإيمانهم فإن علمتموهوهن مؤمنات فلاترجعوهن إلى الكفار (الممتحنة الآية العاشرة) ، وأمر رسول الله برد مهورهن إلى أزواجهن فى مكة ، فأمسك رسول الله النساء ، ورد الرجال ، وتوفيت أم كلثوم فى خلافة على (٢) .

٣١ — غزوة خيبر
صفر سنة سبع من الهجرة

— ٧ —

إلى خيبر :

أقام رسول الله بالمدينة ، بعد أن رجع من الحديبية ، ذا الحجة وبعض

---

(١) بتخفيف الياء وتشديدها ، وهى بئر يسمى المكان بها ـ وقبل الحديبية كان رسول الله قد رأى أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام وأخذ مفتاح الكعبة وطافوا واعتمروا وحلق بعضهم وقصر البعض ، فأخبر بذلك أصحابه ، ففرحوا وحسبوا أنهم داخلون مكة عامهم هذا فأخبر أصحابه أنه معتمر .

(٢) ٢ : ١٩٩ و ٢٠٠ سير أعلام النبلاء .

المحرم ، ثم خرج فى بقية المحرم إلى خيبر، واستعمل على المدينة نميلة الليثى : ودفع الراية البيضاء إلى على، وكان عامر بن الأكوع - عم سلمة بن الأكوع - يرتجز برسول الله ، ويقول (١) :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولاصلينا
إنا إذا قوم بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

وقتل عامر يوم خيبر شهيدا

ولما أشرف رسول الله على خيبر ، دعا ، فقال :

« اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياض وما أذرين فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير مافيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها . أقدموا بسم الله .. »

وكان شعار أصحاب رسول الله يوم خيبر : يامنصور ، أمت ، أمت :

فنزل رسول الله خيبر ليلا ، فبات حتى إذا أصبح ، فركب وركب معه المسلمون والرسول يقول :

« الله أكبر ، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين . . »

الطريق إلى خيبر :

وكان طريق رسول الله إلى خيبر : عصر ، فالصهباء ، فالرجيع ، فنزل

---

(١) ينسب هذا الشعر لابن رواحة .

بينهم وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر ، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله .

الفتح :

وفتح رسول الله خيبر حصنا حصنا ، وأخذ الأموال مالا مالا ، وسقط حصن ناعم ، لحصن القموص ، وحصن الصعب بن معاذ ، ماعدا حصن الوطيح ، وحصن السلالم .

وقاتل أبو بكر وعمر وعلى والزبير والمسلمون يومئذ قتالا شديدا .

فسألوا اليهود رسول الله أن يرحلوا عن خيبر ، وأن يحقن لهم دماءهم ، وعاملهم فى الأموال على النصف على أنه إذا شاء أن يخرجهم أخرجهم .

وصالحه أهل فدك على مثل ذلك ، فكانت خيبر فيئا للمسلمين ، وكانت فدك خالصة لرسول الله . . وكان فتح خيبر فى صفر سنة سبع .

صفية بنت حيي :

وكان من السبايا فى هذه الغزوة صفية بنت حيي ، وكانت من بنى النضير وقتل زوجها فى خيبر كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ، فأخذها دحية الكلبي وجيء بها إلى رسول الله ، فعرض عليها أن يعتقها ويتزوج بها فتكون زوجا له ، أو أن يطلق سراحها فتلحق بأهلها ؛ فاختارت الأولى بعد أن أسلمت وحسن إسلامها .

يهودية تضع السم لرسول الله :

ولما اطمأن رسول الله أهدت إليه زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم شاة مشوية ، ووضعت السم الكثير فى ذراعها ، لما تعلم من أن رسول

الله بحب الذراع ، ثم سمت سائر الشاة ، وجاءت بها فوضعتها بين يدى رسول الله ، فتناول الذراع ، فمضغ مضغة ثم لفظها ، وأكل معه بشر بن البراء بن معرور ، فمات بشر . وقال رسول الله : إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم .

وجيء بالمرأة ، فاعترفت ، وعفا عنها رسول الله ؛ وفى رواية : أنه قتلها لما مات بشر .

ودخلت أم بشر على رسول الله فى مرضه الذى توفى فيه ، تعوده ، فقال صلوات الله عليه :

يا أم بشر ، إن هذا الأوان وجدت انقطاع أبهرى (١) من الأكلة التى أكلت بخيبر . وكان المسلمون يرون أن رسول الله مات شهيدا ، مع ما أكرمه الله من النبوة .

بعد خيبر :

ولما فرغ رسول الله من خيبر انصرف الى وادى القرى فحاصر أهله عدة ليال ، ثم انصرف راجعا إلى المدينة .

وأعرس رسول الله بصفية بنت حيى فى الطريق ، وكانت التى تولت تجميلها وتزيينها لرسول الله أم سليم ابنة ملحان ، وهى أم أنس ابن مالك

النساء مع جيش رسول الله فى غزوة خيبر :

وفى مسير رسول الله إلى خيبر جاءت نسوة من بنى غفار فقلن : يارسول الله ، قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا - أى إلى خيبر - فنداوى الجرحى ، ونعين المسلمين بما استطعنا .

فقال رسول الله لهن : على بركة الله .

---

(١) عرق متصل بالقلب .

— ٣ —

شهداء المسلمين فى غزوة خيبر :

١ — ربيع بن أكثم — وثقف بن عمرو ، ورفاعة بن مسروح : وهم من بنى أمية بن عبد شمس .

٢ — عبد الله بن الهبيب : من بنى أسد بن عبد العزى .

٣ — بشر بن البراء معرور — فضل بن النعمان : وهما من بنى سلمة الأنصاريين .

٤ — مسعود بن سعد بن قيس : من بنى زريق .

٥ - محمود بن مسلمة من بنى عبد الأشهل من الأوس .

٦ — أبو ضياح بن ثابت — الحارث بن حاطب — عروة بن مرة — أوس بن القائد — أنيف بن حبيب — ثابت بن أثلة — طلحة ابن يحيى ، أوس بن قتادة : من بنى عمرو بن عوف .

٧ — عمارة بن عقبة : من بنى غفار .

٨ — عامر بن الأكوع — الأسود الراعى : وهما من أسلم .

٩ — مسعود بن ربيعة : من بنى زهرة .

الحجاج السلمى :

وكان الحجاج بن علاط السلمى قد أسلم وماله فى مكة وأمرأته وولده بها .

فخرج حتى إذا قدم مكة وجد بثنية البيضاء رجالا من قريش يتسمعون

الأخبار ويسألون عن أمر رسول الله وقد بلغهم أنه سار إلى خيبر ، وهي قرية الحجاز ريفا ومنعة ورجالا .

فلما رأو الحجاج ولم يكونوا قد علموا بإسلامه ، قالوا : عنده والله الخبر أخبرنا ياأبامحمد ، قد بلغنا أن القاطع قد سار إلى خيبر ، وهي بلد يهود ، وريف الحجاز .

قال لهم الحجاج : قد بلغني ذلك ، وعندي من الخبر مايسركم .

قالوا : إيه ياحجاج .

قال لهم : هزم محمد هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط ، وقتل أصحابه قتلا لم تسمعوا بمثله قط ، وأسر محمد أسرا ، وقالوا : لانقتله حتى نبعث به إلى أهل مكة ، فيقتلوه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم .

فأذاعوا الخبر ، وقالوا : هذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم ، فيقتل بين أظهركم .

فقال لهم الحجاج : أعينوني على جمع مالي بمكة وعلى غرمائي ، حتى أقدم خيبر ، قبل أن يسبقني التجار إلى ماهنالك حتى أصيب من مال محمد وأصحابه من فرص البيع ، فجمعوا له ماله كله ، ثم أخذ ماله الذي له عند زوجته . . وخرج إلى المدينة .

ماقيل من الشعر في خيبر :

١ — قال ناجية بن جندب الأسلمي :

ياالعباد الله فيم يرغب .

ماهو إلا مأكل ومشرب .

وجنة فيها نعيم معجب

٢ — كعب بن مالك في خيبر في المسلم المجاهد في خيبر .

يرى القتل مدحا إن أصاب شهادة — من الله يرجوها وفوزا بأحمد
يذود ويحمى عن ذمار محمد — ويدفع عنه باللسان وباليد
وينصره من كل أمر يريبه — يجود بنفس دون نفس محمد
يصدق بالأنباء بالغيب مخلصا — يريد بذاك الفوز والعز فى غد

فـــدك :

لما تم الفتح يوم خيبر قذف الله الرعب فى قلوب أهل فدك ، فبعثوا إلى رسول الله يصالحونه على النصف من فدك ، وقدمت رسلهم على رسول الله بخيبر ، أو بالطريق ، أو بعد ماقدم المدينة ، فقبل رسول الله ذلك منهم . فكانت فدك لرسول الله خالصة .

معاملة الرسول ليهود خيبر :

١ — بعد الفتح فتح خيبر ، دعا رسول الله اليهود ، فقال لهم : إن شئتم دفعت إليكم هذه الأموال على أن تعملوها ، وتكون ثمارها بيننا وبينكم ، وأقركم ماأقركم الله .

فقبلوا ، فكانوا على ذلك يعملونها .

٢ — ولما توفى رسول الله أقرهم أبو بكر على المعاملة التى عاملهم عليها رسول الله حتى توفى .

٣ — وفى عهد عمر ، بلغه أن رسول الله قال فى مرض موته : لايجتمعن بجزيرة العرب دينان ، فأجلى اليهود عن خيبر إلا من كان منهم معه عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان اليهود قبل إجلائهم عن خيبر قد قتلوا رجلا من الأنصار ، واعتدوا على عبد الله بن عمر ، فكسروا يديه وهو نائم فى ماله .

قدوم جعفر بن أبي طالب من الحبشة

صفر سنة سبعة من الهجرة

— ١ —

قدم يوم فتح خيبر - على رسول الله صلى الله عليه وسلم جعفر بن أبي طالب من الحبشة ، فقبله رسول الله بين عينيه ، والتزمه ، وقال : «ماأدري بأيهما أنا أسر : بفتح خيبر ، أم بقدوم جعفر» .

وكان رسول الله قد بعث إلى الحبشة بقدوم المسلمين المهاجرين فيها عمرو بن أمية الضمري ، فحملهم في سفينتين ، فقدم بهم عليه صلى الله عليه وسلم بعد الحديبية وهو بخيبر .

— ٢ —

عائدون :

ومن القادمين من أرض الحبشة :

١ – جعفر بن أبي طالب - ابنه عبدالله الذي ولد بالحبشة .

– زوج جعفر أسماء بنت عميس الخثعمية .

– وقتل جعفر في مؤتة بأرض الشام .

٢ – خالد بن سعيد بن العاص - امرأته أمينة بنت خلف - ابناه سعيد وأمة ولدا في أرض الحبشة ، وقتل خالد في الشام في خلافة أبي بكر -

عمرو بن سعيد بن العاص - امرأته فاطمة بنت صفوان ماتت في الحبشة ، وقتل عمرو في الشام في خلافة أبي بكر .

– أبو موسى الأشعري .

٣ — الأسود بن نوفل بن خويلد .

٤ — جهم بن قيس ، وابناه : عمرو وخزيمة وماتت امرأته هناك .

٥ — عامر بن أبي وقاص ، وعتبة بن مسعود .

٦ — الحارث بن خالد بن صخر - ماتت امرأته ريطة بالحبشة .

وجميع من قدم من المسلمين ستة عشر رجلا قدموا فى السفينتين ، معهم نساؤهم وأولادهم .

أم حبيبة :

تنصر فى أرض الحبشة عبيد الله بن جحش الأسدى ، فخلف رسول على أم حبيبة من بعده ، واسم أم حبيبة رملة ، باسم ابنتها حبيبة (١) .

يزيد بن زمعة :

عاد بعد خيبر ، وقتل يوم حنين .

قادمون بعد خيبر :

ومن قدم بعد ذلك ومن لم يقدم على رسول الله أربعة وثلاثون .

ومن مات بالحبشة منهم سبعة ، ومن مات من أبنائهم رجل .

وجميع من هاجر إلى الحبشة من النساء من قدم منهن على رسول الله ومن هلك هنالك ست عشرة امرأة ، سوى بناتهن اللاتى ولدن هنالك .

---

(١) من بنات عم الرسول ، تزوجها رسول وعقد له عليها بأرض الحبشة سنة ست ماتت عام ٤٤ هـ ، وقيل : عام ٥٩ هـ (١٥٥ - ١٥٨ / ١ سير أعلام النبلاء) .

أم سلمة :

وقدمت أم سلمة بنت أبى أمية ، ومعها بنتها زينب ابنتها من أبى سلمة ولدتها هنالك

ماتوا فى الطريق :

وفى الطريق ماتت ريطة بنت الحارث ، وبنتان لها ؛ وأختها عائشة بنت الحارث ، وأختها كذلك زينب بنت الحارث ، وأخوهن موسى بن الحارث ، هلكوا جميعا فى الطريق ، ولم يبق لهن إلا بنت اسمها فاطمة ، هى بنت ريطة .

عمرة القضاء (أو القصاص)

ذو القعدة سنة سبع من الهجرة

١ — خرج رسول الله فى ذى القعدة ، فى الشهر الذى صده فيه المشركون ، معتمرا عمرة القضاء مكان عمرته التى صدوه عنها .

واستعمل الرسول على المدينة عويف بن الأضبط ، وخرج مع رسول الله المسلمون الذين كانوا معه ، ممن صد معه فى عمرته .

وخرج أهل مكة منها حين دخلها الرسول وأصحابه

وكان عبد الله بن رواحة آخذا بخطام ناقة رسول الله حين دخل مكة ، وهو يقول :

خلوا بنى الكفار عن سبيله

خلوا فكل الخير فى رسوله

يارب إنى مؤمن بقيله

أعرف حق الله فى قبوله
نحن قتلناكم على تأويله
كما قتلناكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله

وتزوج رسول الله ميمونة بنت الحارث فى سفره لعمرة القضاء وهو حرام ، زوجه إياها العباس بن عبد المطلب ، وهو زوج أخت ميمونة ، فزوجها العباس رسول الله بمكة ، وأصدقها الرسول أربعمائة درهم .

وطاف رسول الله وسعى وأدى عمرته ، وأقام بمكة ثلاثا .

٢ — وفى اليوم الثالث أتاه حويطب بن عبد العزى . وكانت قريش قد وكلته بإخراج رسول الله من مكة ، فقال له : إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه ؟

قال حويطب : لاحاجة لنا فى طعامك فاخرج عنا .

فخرج رسول الله ، وخلف مولاه أبا رافع على ميمونة ، حتى أتاه بها ، وهو بسرف ، فبنى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم هنالك (١) ثم انصرف رسول الله إلى المدينة فى ذى الحجة سنة سبع من الهجرة .

---

(١) هى آخر أزواجه صلى الله عليه وسلم راجع فى ترجمتها ١٦٩ - ١٧٤ / ١ سير أعلام النبلاء ـ وهى خالة خالد بن الوليد ، وأخت أم الفضل زوج العباس ، وخالة عبد الله بن عباس ، زوجها مسعود بن عمرو الثقفى قبيل الإسلام ففارقها ، ثم أبو رهم بن عبد العزى ، فمات ، فتزوجها رسول الله سنة سبع . وقد بعث رسول الله أبا رافع وأوس بن خولى إلى العباس قبل أن يخرج من المدينة ، فزوجاه ميمونة . . توفيت عام ٦١ هـ عن ثمانين سنة ولدت عام ١٩ ق هـ

٣٢ — غزوة مؤتة
فى جمادى الأولى سنة ثمان

— ١ —

الجيش العظيم :

فى جمادى الأولى من سنة ثمان من الهجرة (سبتمبر ٦٢٩ م) جهز رسول الله صلوات الله عليه جيشا بعثه إلى مؤتة بأرض الشام فى جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة ، وولى عليهم زيد بن حارثة ، وقال : « إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس .

فتجهز الجيش ، وعددهم ثلاثة آلاف .

وخرج المسلمون فودعوا الجيش وأمراءه ، وسلموا عليهم ، وقالوا لهم : صحبكم الله ، ودفع عنكم ، وردكم إلينا صالحين ، وودع عبد الله بن رواحة رسول الله بقصيدة منها :

أنت الرسول فمن يحرم نوافله   والوجه منه فقد أزرى به القدر
فثبت الله ما آتاك من حسن   فى المرسلين ، ونصرا كالذى نصروا

وخرج الجيش ، وخرج الرسول يودعه ، فقال ابن رواحة :

منى السلام على امرىء ودعته   فى النخل خير مشيع وخليل

— ٢ —

المعركة وأبطالها :

ومضى المسلمون ، حتى نزلوا معان من أرض الشام ، فبلغهم أن هرقل

قد نزل مآب من أرض البلقاء ، فى مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم من قبائل العرب مائة ألف .

فأقام المسلمون فى معان ليلتين ، يفكرون فى أمرهم ، وقالوا : نكتب إلى رسول الله فنخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له ، فخطب عبد الله بن رواحة الناس يحثهم على الجهاد .

فتقدم جيش المسلمين ، حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من عرب وروم بقرية من قرى البلقاء ويقال لها مشارف ، ودنا العدو ، وتجمع المسلمون فى قرية يقال لها مؤتة ، وفيها معركة شديدة قتل فيها زيد ابن حارثة ، ثم خلفه جعفر فقتل وهو يقول :

حبذا الجنة واقترابها

طيبة وبارد شرابها

والروم روم قددنا عذابها

كافرة بعيدة أنسابها

وكان جعفر قد أخذ اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل عن ثلاث وثلاثين سنة ، وقد ولد قبل الهجرة بثمان وعشرين سنة ، والرسول فى الخامسة والعشرين من عمره ، وقد جعل الله له جناحين فى الجنة ، ويسمى ذا الجناحين(١) .

وقد حمل بعده اللواء عبد الله بن رواحة ، وهو يقول :

يا نفسى إلا تقتلى تموتى

هذا حمام الموت قد صليت

وما تمنيت فقد أعطيت

---

(١) استشهد فى غزوة مؤتة سنة (٨ هـ) (١ / ١٥٠ سير أعلام النبلاء) .

إن تفعلى فعلهما هديت

يريد صاحبيه : زيدا وجعفرا ، وجاهد ابن رواحة حتى قتل ، فأخذ الراية بعده ثابت بن أرقم ، حتى اختار الناس خالد بن الوليد ، فأخذ الراية وقاتل حتى انصرف بالمسلمين ، أى أنه قد استطاع أن يقوم بحركة ارتداد إنقاذا لجيشه .

وأخبر رسول الله المسلمين بموت جعفر وزيد وابن رواحة ، وذهب إلى بيت جعفر يقبل أولاده ، ثم أمر المسلمين بتعهد آل جعفر ، وحزن رسول الله .

وانصرف خالد بجيش المسلمين قافلا ، فلما دنوا من المدينة تلقاهم رسول الله والمسلمون بالاكبار والتقدير .

— ٣ —

الشعراء يرثون الأبطال :

وقال حسان قصيدة منها :

فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا   بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر
فصار مع المستشهدين ثوابه   جنان وملتف الحدائق أخضر
وكنا نرى فى جعفر من محمد   وفاءا وأمرا حازما حين يأمر
وما زال فى الإسلام من آل هاشم
دعائم عز لا يزلن ، ومفخر
وحمزة والعباس منهم ومنهم   عقيل ، وماء العود من حيث يعصر
همو أولياء الله أنزل حكمه   عليهم وفيهم ذا الكتاب المطهر

وقال كعب بن مالك :

صلى الاله عليهم من فتية ... وسقى عظامهم الغمام المسبل
صبروا بمؤتة للإله نفوسهم ... حذر الردى ومخافة أن ينكلوا
إذ يهتدون بجعفر ولوائه ... قدام أولهم فنعم الأول
قرم(١) علا بنيانه من هاشم ... وعليهم نزل الكتاب المنزل

وبكى حسان جعفرا ، وبكى زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ، بشعره .

- ٤ -

شهداء مؤتة :

١ - جعفر (٢)

٢ - زيد بن حارثة(٣)

٣ - عبد الله بن رواحة (٤)

٤ - مسعود بن الأسود

---

(١) السيد الكريم . . وكعب بن مالك شاعر رسول الله توفى عام ٥٠ هـ .

(٢) توفى سنة (٨ هـ) ، قتل فى مؤتة وهو الذى ورد اسمه فى سورة الأحزاب (سير أعلام النبلاء ١ : ١٦٠) .

(٣) قتل عام ٨ هـ فى مؤتة (١٦٦ - ١٧٢ : ١ سير أعلام النبلاء) .

(٤) كانت أسماء بنت عميس زوجة لجعفر ، هاجرت معه إلى الحبشة ، ثم هاجرت معه إلى المدينة عام ٧ هـ ، وتزوج بها بعد جعفر : أبو بكر ، ثم على ، وعاشت بعد على (٢ : ٢٠٤ - ٢٠٧ سير أعلام النبلاء) .

٥ — وهب بن سعد بن أبي سرح

٦ — عباد بن قيس

٧ — الحارث بن النعمان

٨ — سراقة بن عمرو

٩و١٠ — أبو كليب ، وأخوه جابر ، ابنا عمرو بن زيد .

١١ — عمرو وعامر : ابنا سعد بن الحارث

دعوة رسول الله الملوك والأمراء إلى الإسلام (١)

منذ ذى الحجة من عام ستة من الهجرة

— ١ —

١ — بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذى الحجة عام ستة من الهجرة رسله إلى الملوك والأمراء يحملونه رسائله إليهم ، يدعوهم فيها إلى الإسلام وذلك بعد الحديبية .

وقيل : كانت بعثة الرسول لرسـله فيما بين الحديبية ووفاته صلى الله عليه وسلم .

٢ — فبعث حاطب بن أبي بلتعة فى وفد إلى المقوقس صاحب الاسكندرية ، وقد رد المقوقس على رسالة رسول الله ردا جميلا ، وبعث معه جارية اسمها مارية تزوجها رسول الله ، وجارية أخرى اسمها سيرين أهداها الرسول إلى حسان فتزوجها وولدت ابنه عبد الرحمن بن حسان (٢) .

---

(١) لم يتحدث ابن هشام عن رسائل رسول الله إلى الملوك والأمراء . وذكر الطبرى رسل رسول الله إلى الملوك والأمراء (٢٨٨ - ٢:٢٩٧ طبرى) .

(٢) وقيل : بعث المقوقس بأربع جوار إلى رسول الله .

وبعث دحية الكلبى إلى قيصر وهو هرقل ملك الروم ، فأجاز قيصر دحية بمال وكساه كسى جميلة ، فأقبل حتى إذا كان بحسمى لقيه ناس من جذام فقطعوا الطريق عليه (١) فلم يتركوا معه شيئا .

وبعث رسول الله عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى برسالة فمزقها كسرى ، وقال : يكتب إلى هذا وهو عبدى ، فدعا عليه رسول الله أن يمزق الله ملكه ، وكتب كسرى إلى باذان واليه على اليمن بأن يبعث إلى الحجاز رجلين يأتيانه بمحمد ، فبعث باذان رجلين إلى المدينة فأخبرهما رسول الله بأن الله سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله (٢) .

وبعث رسول الله عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ، فصدق رسالة رسول الله ، وبعث ابنه فى وفـــد من الحبشة فى سفينة غرقت بهم فى البحر (٣) .

وبعث شجاع بن وهب الأسدى إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ملك دمشق ، وقيل بل إلى : جبلة بن الأيهم الغسانى ، وقيل : إنه توجه لهرقل مع دحية .

وبعث سليط بن عمرو العامرى من عامر بن لؤى إلى هوذة الحنفى

---

(١) ٢ : ٢٨٦ الطبرى - وكان دحية من أجمل الصحابة الموجودين فى المدينة فلذا كان جبريل ربما نزل فى صورته (٢ : ٣٩٨ سير أعلام النبلاء) ، وكان كذلك جرير بن عبد الله أجمل الناس ، وتوفى عام ٥٤ ه (٢ : ٣٨١ - ٣٨٤ سير أعلام النبلاء) .

(٢) كان ذلك فى ١٠ جمادى الأولى سنة سبع = ٦٢٩ م - وراجع ٢٩٧ : ٢ الطبرى ، ٥ ج ٢ سير أعلام النبلاء .

(٣) ٢٩٥ : ٢ الطبرى ، وراجع ١ : ٦٢ زاد المعاد .

صاحب اليمامة ، وإلى ثمامة بن أثال الحنفى ، وهو صاحب جانب من اليمامة .

وبعث العلاء بن الحضرمى(١) إلى المنذر بن ساوى أخى بنى القيس وصاحب البحرين .

وبعث عمرو بن العاص إلى صاحبى عمان ، وهما جيفر وعياذ الأزديين ابنا الجلندى ، فأسلما .

وبعث الحارث بن عمير إلى عامل هرقل على بصرى شرحبيل بن عمر ، فقتل الحارث رسول رسول الله ، ما كان سببا فى غزوة مؤتة . .

هذا وعبد الله بن حذافة السهمى رسول نبى الله إلى كسرى هو الذى أسره الروم فى معارك الشام فى عهد عمر ، وبالغوا فى تعذيبه وامتحنه قيصر امتحانا شديدا ، فلما بعث عمر إلى قيصر يهدده طالبا إطلاق سراحه أطلقه وأطلق معه ثلاثمائة أسير وأجازه بثلاثين ألف دينار وثلاثين وصيفة وثلاثين وصيفا(٢) .

وبعث رسول الله عياش بن أبى ربيعة المخزومى بكتاب إلى الحارث ومسروح ونعيم بنى عبد كلال(٣) .

وقيل إنه بعث المهاجر بن أبى أمية المخزومى إلى الحارث بن عبد كلال الحميرى ملك اليمن .

وبعث مسعود بن سعد إلى فروة الجذامى عامل قيصر على معان ، فأسلم

---

(١) من حضر موت ولاه رسول الله البحرين ، وظل عليها لأبى بكر وعمر ، وتوفى عام ٢١ هـ (١ : ١٩ سير أعلام النبلاء) .

(٢) راجع ٢ : ٨ سير أعلام النبلاء – وراجع ١ : ٦٢ زاد المعاد فى شأن رسائل رسول الله .

(٣) ١ : ٦٣ زاد المعاد

وكتب إلى رسول الله بإسلامه ؛ وبعث إليه بهدية وهى بغلة شهباء وفرس وحمار وقباء سندس مخوص بالذهب ، وأثواب .

وقيل : إنه صلى الله عليه وسلم بعث عمرو بن أمية الضمرى إلى مسيلمة الكذاب .

— ٢ —

رسالة رسول الله إلى النجاشى (١) :

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى الأصحم ملك الحبشة فى شأن جعفر بن أبى طالب وأصحابه وكتب معه كتابا هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشى ملك الحبشة :

سلم (٢) أنت ، فإنى أحمد الله إليك الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى ، فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه . وإنى أدعوك إلى الله وحده لاشريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى ، فإنى رسول الله وقد بعثت إليك ابن عمى جعفرا ، ونفراً معه من المسلمين فإذا جاءوك فأقرهم ، ودع التجبر ، فإنى أدعوك وجنودك إلى الله ، فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحى ، والسلام على من اتبع الهدى . . . » .

وبلاغة رسول الله صلى الله عليه وسلم مضرب الأمثال فى روعتها

(١) ٢ : ٢٩٤ الطبرى .
(٢) المعنى : سلام .

وعظمتها وسمو منزعها وصدق حكمتها ، وهى تلى بلاغة القرآن الكريم فى سمو المنزلة ورفعة الشأن وقد كان صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى ومن ثم جاءت بلاغته دعوة إلى الخير والحق ، وتقريراً لشريعة القرآن وآدابه ومثله .

وفى هذه الرسالة النبوية البليغة المعجزة التى بعث بها صلوات الله عليه إلى ملك الحبشة تتجلى الحكمة الرائعة ، والمعانى السامية ، والأسلوب المشرق ، والإيجاز المحكم .

بدأ رسول الله صلوات الله عليه الرسالة بهذا التعبير الرائع « سلم » أى سلام ثم حمد الله وأثنى عليه ونوه بعيسى ووصفه بما وصفه به القرآن الكريم ، وقد كانت الحبشة تدين بدين عيسى عليه السلام .

ثم دعا ملك الحبشة ، وقومه إلى الإسلام ، وإلى إكرام ضيوفه ونصحهم ثم ختم الرسالة بقوله صلوات الله عليه : والسلام على من اتبع الهدى .

— ٣ —

وكتب صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ملك الروم :

من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى أما بعد : فانى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين (١) . ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون (٢) .

---

(١) الأريسيون : الفلاحون والعمال لأنهم تبع لساداتهم وكبرائهم .
(٢) ٢٩١ : ٢ الطبرى .

وقال أبو سفيان(١) بن حرب :

كنا قوما تجاراً ، وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله ﷺ قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا ، فلما كانت الهدنة ، هدنة الحديبية ، بيننا وبين رسول الله ﷺ ، خرجت فى نفر من قريش إلى الشام ، وكان وجه متجرنا منه غزة فقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من الفرس فأخرجهم منها ، وانتزع منهم صليبه الأعظم ، وكانوا قد استلبوه إياه .

فلما بلغه ذلك منهم وبلغه أن صليبه قد استنقذ منهم ، وكانت حمص منزله خرج منها يمشى على قدميه شكراً لله حين رد عليه مارد ، ليصلى فى بيت المقدس ، تبسط له البسط وتلقى عليها الرياحين .

فلما انتهى إلى إيلياء فقضى فيها صلاته ، وكان معه بطارقته وأشراف الروم أصبح ذات غدوة مهموما يقلب طرفه إلى السماء ، فقال له بطارقته : والله لكأنك أصبحت الغداة مهموما .

فقال : أجل ! رأيت البارحة أن ملك الختان ظاهر ، فقالوا : أيها الملك ما نعلم أمة تختتن إلا اليهود ، وهم فى سلطانك وتحت يدك ، فابعث إلى كل من لك عليه سلطان فى بلادك فمره فليضرب أعناق من تحت يدك منهم من يهود ، واسترح من هذا الهم .

فو الله إنهم لفى ذلك من رأيهم يدبرونه إذ أتاه رسول صاحب بصرى(٢) برجل من العرب يقوده ، وكانت الملوك تتهادى الأخبار بينهم فقال : أيها الملك إن هذا رجل من العرب من أهل الشاة والإبل يحدث عن أمر حدث فاسأله .

---

(١) هو صخر بن حرب من سادات قريش فى الجاهلية ، كان من رؤساء المشركين يوم الأحزاب ويوم أحد ، وأسلم يوم فتح مكة سنة ٨هـ، وتوفى سنة ٣١هـ

(٢) بلد من أعمال دمشق .

فلما انتهى به إلى هرقل رسول صاحب بصرى ، قال هرقل لمن جاء به : سله عن هذا الحديث الذى كان ببلده فسأله ، فقال : خرج بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبى ، وقد اتبعه ناس فصدقوه وخالفه آخرون ، وقد كانت بينهم ملاحم فى مواطن كثيرة ، وتركتهم على ذلك .

فلما أخبره الخبر قال : جردوه فإذا هو مختون ، فقال : هذا والله النبى الذى رأيت لا ما تقولون ، أعطوه ثيابه وينطلق . ثم دعا صاحب شرطته فقال له : اقلب الشام ظهراً لبطن حتى تأتينى برجل من قوم هذا الرجل .

فإنا لبغزة إذ هجم علينا صاحب شرطته فقال أنتم من قوم الحجاز قلنا نعم ! قال انطلقوا إلى الملك ، فانطلقوا بنا . فلما انتهينا إليه قال أنتم من رهط هذا الرجل الذى بالحجاز قلنا نعم . قال فأيكم أمس به رحما . قال أبو سفيان : قلت أنا ، قال ادن ، ثم أقعدنى بين يديه وأقعد أصحابى خلفى . وقال لهم إنى سأسأله . فإن كذب فردوا عليه .

قال : فوالله لقد علمت أن لو كذبت ماردوا على ، ولكنى كنت امرءاً سيداً أتبرم عن الكذب . وعرفت أن أيسر مافى ذلك إن أنا كذبته أن يحفظوه على ، ثم يحدثوا به عنى ، فلم أكذبه .

قال أخبرنى عن هذا الرجل الذى خرج بين أظهركم ما يدعى ، فجعلت أزهد له شأنه وأصغر له أموره . وأقول له أيها الملك : ما يهمك من شأنه ! إن أمره دون مابلغك ، فجعل لا يلتفت إلى ذلك منى . ثم قال : أنبئنى فيما أسألك عنه من شأنه . قال . قلت : سل عما بدا لك .

قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : محض . هو أوسطنا (١) نسباً . قال : أخبرنى هل كان أحد من أهل بيته يقول ما يقول فهو يتشبه به ، قلت : لا .

---

(١) أى أخيرنا وأفضلنا نسبا .

قال هل كان له فيكم ملك فسلبتموه إياه . فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه ؟ قلت : لا . قال : أخبرنى عن أتباعه منكم من هم : قلت : الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء . فأما ذوو الأسنان من الأشراف من قومه فلم يتبعه منهم أحد . قال : فأخبرنى عمن يتبعه أيحبه ويلزمه ، أم يقليه ويفارقه . قلت : قلما يتبعه أحد فيفارقه . قال : أخبرنى كيف الحرب بينكم وبينه . قلت : سجال يدال علينا وندال عليه .

قال : فأخبرنى هل يغدر . فلم أجد شيئا أغتمز فيه غيرها وقلت : لا . ونحن منه فى مدة(١) ولا نأمن من غدره . قال : فوالله ماالتفت إليها منى .

ثم كرر على الحديث فقال : سألتك عن نسبه فيكم . فزعمت أنه محض من أوسطكم نسبا . فكذلك يأخذ الله النبى لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسبا . وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل قوله فهو يتشبه به فزعمت أن لا . وسألتك هل كان له ملك فيكم فسلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب ملكه . فزعمت أن لا . وسألتك عن أتباعه ، فزعمت أنهم الضعفاء والأحداث والمساكين والنساء ، وكذلك أتباع الأنبياء فى كل زمان . وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه ، فزعمت أنه لا يتبعه أحد فيفارقه فكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلب رجل فتخرج منه .

وسألتك عن الحرب بينكم وبينه فزعمت أنها سجال تدالون عليه ويدال عليكم ، وكذلك حرب الأنبياء ، لهم تكون العاقبة ، وسألتك هل يغدر ، فزعمت أن لا ، فلئن كنت صدقتنى عنه فليغلبن على ماتحت قدمى هاتين ، ولوددت أنى عنده فأغسل قدميه ، انطلق لشأنك .

---

(١) فى مدة : يعنى بها مدة صلح الحديبية .

فقمت من عنده وأنا أضرب بإحدى يدى على الأخرى وأقول : ياالعباد الله ، لقد أمر(١) أمر ابن أبى كبشة(٢) أصبحت ملوك بنى الأصفر(٣) يهابونه فى ملكهم وسلطانهم .

— ٤ —

رسالة الرسول إلى المقوقس(٤) :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط ..

سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد :

فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم كل القبط ، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون . . ؟ محمد رسول الله .

---

(١) أمر : عظم .

(٢) أبو كبشة : رجل من خزاعة خالف قريشا فى عبادة الأوثان وعبد الشعرى العبور . فسمى المشركون النبى صلى الله عليه وسلم ابن أبى كبشة لخلافه إياهم إلى عبادة الله تعالى ، تشبيها له بأبى كبشة الذى خالفهم إلى عبادة الشعرى. وقيل هو كنية الحارث بن عبد العزى أبو الرسول رضاعا ، كانوا ينسبونه إليه استهزاء بالرسول .

(٣) بنو الأصفر : لقب ملوك الروم .

(٤) أورد الطبرى والقلقشندى نصا آخر لهذا الكتاب بمخالفة يسيرة فى بعض الألفاظ كقوله : « فإن توليت فإنما عليك إثم الاريسيين » .

— ٥ —

وكتب فى صلح الحديبية بينه وبين قريش (١) :

باسمك اللهم ، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض ، على أن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمــــد لم يردوه عليه ، وأن بيننا عيبة مكفوفة (٢) ، وأنه لا إسلال ولا إغلال (٣) ، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهده دخل فيه ، وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، فإذا كان عام قابل خرجنا عنها فدخلتها بأصحابك ، فأقمت بها ثلاثاً ، وإن معك سلاح الراكب والسيوف فى الركب ، فلا تدخلها بغير هذا .

— ٦ —

كتاب الرسول إلى المنذر بن ساوى :

من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى : سلام عليك ، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . أما بعد : فإنى أذكرك الله عز وجل فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه وإنه

---

(١) الحديبية : قرية صغيرة بينها وبين مكة مرحلة . نزل بها النبى عليه السلام سنة ست للهجرة قاصدا مكة لزيارة الكعبة معتمرا فأرادت قريش منعه من الدخول مخافة العار . وبعد تراسل بينهما تصالحا على ما فى هذه الصحيفة .

(٢) العيبة : موضع السر أو الخريطة للملابس والمراد الأمن .

(٣) الاسلال . السرقة الخفية والرشوة والإغلال : الخيانة .

من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني،ومن نصحهم فقد نصح لى ، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً ، وإني قد شفعتك فى قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك ومن أقام على يهوديته أو نصرانيته فعليه الجزية .

— ٧ —

كتابه صلى الله عليه وسلم إلى كسرى أبرويز .

بسم الله الرحمن الرحيم :

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وأدعوك بدعاية الله عز وجل ، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . وأسلم تسلم ، فإن توليت فإنما إثم المجوس عليك .

— ٨ —

كتابه صلى الله عليه وسلم لبنى ضمرة بالموادعة :

هذا كتاب من محمد ﷺ لبنى ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم وأن لهم النصر على من ناوأهم ، وأن لايحاربوا فى دين الله ، مابل بحر صوفة ، وأن النبي ﷺ إذا دعاهم لنصره أجابوه ، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله ، ولهم النصر على من بر منهم واتقى .

الفصل الثالث

٣٣ — فتح مكة

فى رمضان عام ٨ هـ

— ١ —

بعد صلح الحديبية - الذى كان من نصوصه أن من أحب أن يدخل فى عقد رسول الله وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه - دخل بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة فى عقد قريش وعهدهم ، ودخلت خزاعة فى عقد الرسول وعهده .

وكانت بين القبيلتين دماء فى الجاهلية .

فلما كانت الهدنة التى تلت صلح الحديبية ، عادت الحرب بين القبيلتين، حرب الثار والانتقام ، وناصرت قريش بنى بكر على خزاعة ، فرفدتهم بالسلاح ، وقاتلت معهم حتى حازوا خزاعة إلى الحرام. فلما دخلت خزاعة مكة لجأوا إلى دار بديل بن ورقاء ودار مولى لهم اسمه رافع .

وقال فى ذلك شاعر من بنى بكر :

حبسناهم فى دارة العبد « رافع »
وعند بديل محبسا غير طائل

وهكذا تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة ، وأصابوا منهم ما أصابوا ، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة ، وكانت خزاعة فى عقده وعهده ..

وخرج عمرو بن سالم الخزاعى ، حتى قدم على رسول الله المدينة ، فأنشد رسول الله فى المسجد والناس حول رسول الله :

يارب إنى ناشد محمدا
حلف أبينا وأبيه الأتلدا (١)
قد كنتم ولدا وكنا والدا
ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرا أعتدا (٢)
وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا (٣)
إن سيم خسفا وجهه تربدا
فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا
إن قريشا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أن لست أدعوا أحدا
وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هجدا
وقتلونا ركعا وسجدا

فأجابه رسول الله : نصرت يا عمرو بن سالم .

وخرج بديل بن ورقاء فى وفد من خزاعة إلى المدينة ، فأخبروا رسول الله بما كان ، وبمظاهرة قريش لبنى بكر عليهم .

ثم انصرفوا راجعين إلى مكة ، وفى عسفان لقيه أبو سفيان ، بعثته قريش إلى رسول الله ليؤكد العقد والهدنة ، وليزيد فى المدة ، وقدم أبو سفيان

---

(١) القديم . (٢) حاضرا . (٣) تشمر للحرب .

على رسول الله ، فدخل على ابنته أم حبيبة ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله طوته عنه ، فقال : يا بنية ، ما أدرى ، أرغبت لى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ، وأنت رجل مشرك نجس ، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ، قال : لقد أصابك يابنية بعدى شر .

ثم خرج أبو سفيان فكلم رسول الله ، فلم يرد عليه شيئا . . فذهب إلى أبى بكر ليكلم له رسول الله ، فرد عليه : ما أنا بفاعل ؛ فأتى عمر فكلمه أن يكلم رسول الله ، فقال : أنا أشفع لكم إلى رسول الله ؟ فوالله لولم أجد إلا الذر لجاهدتكم به فأتى عليا فكلمه فقال له : ويحك يا أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله على أمر مانستطيع أن نكلمه فيه ، فقال : يا أبا الحسن . إنى أرى الأمور قد اشتدت على فانصحنى ، قال : والله ما أعلم لك شيئا يغنى عنك شيئا .

وعاد أبو سفيان إلى مكة بخفى حنين . .

— ٢ —

وأمر رسول الله الناس بالاستعداد ، وأعلم الناس أنه سائر إلى مكة ، واحتاط فى الأمر حتى لا تعلم قريشا شيئا .

ولكن حاطب بن بلتعة كتب كتابا إلى قريش يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله من السير إليهم ، وأعطى الكتاب لمولاة لبعض بنى عبد المطلب اسمها سارة ، وجعل لها جائزة على أن تبلغ كتابه قريشا ، فجعلته فى رأسها وفتلت عليه ضفائرها ، وخرجت به . ونزل الوحى من السماء ليخبر الرسول بذلك ، فبعث عليا والزبير ، وقال لهما : « أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بكتاب إلى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا له فى أمرهم » ؛ فخرجا حتى أدركاها ، فاستنزلاها ، وسألاها عن الكتاب فأنكرت ، وفتشا فى رحلها

فلم يجدا شيئا ، فهددها على وقال لها : إنى أحلف بالله ما كذب رسول ولا كذبنا ، فأخرجت الكتاب ، فأخذاه وأتيا به رسول الله ، فسأل حاطب : ما حملك على هذا ؟ فاعتذروعفا وعفا رسول الله عن جريمته .

واستخلف رسول الله على المدينة : أبا رهم كلثوم بن حصين الغفارى .

وخرج صلوات الله عليه يقود الجيش فى عشر من رمضان عام ثمانية من الهجرة ، فى عشرة آلاف من المسلمين .

وفى ذلك الحين كان العباس عم الرسول يخرج من مكة مهاجراً إلى المدينة .

وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب الشاعر ، ابن عم رسول الله ومعه عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة قد خرجا إلى رسول الله ليسلما ، فلقياه فى نيق العقاب بين مكة والمدينة ، فالتمسا الدخول عليه ، فكلمته أم سلمة فيهما ، فقالت : يارسول الله ، ابن عمك وابن عمتك وصهرك ، قال : لاحاجة لى بهما ، أما ابن عمى فهتك عرضى ، وأما ابن عمتى وصهرى فهو الذى قال بمكة ما قال .

فقال أبو سفيان : ومعه بنى له : والله ليأذن لى أو لآخذن بيدى بنى هذا ، ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشا وجوعا . فعطف رسول الله عليهما ، وأذن لهما ، فدخلا عليه ، وأسلما ، وأنشد أبو سفيان رسول الله قصيدة له فى مدحه .

وأدرك أبو سفيان العباس عم رسول الله فى الجحفة ، وسار معه إلى مر الظهران ، وشاهد جيشه العتيد القوى يسير والنصر فوق ألويته ، فلم يملك إلا أن يقول :

واصباح قريش ، والله لئن دخل محمد مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر .

وجلس العباس على بغلة رسول الله البيضاء ، وسارت به إلى « الأراك » ، لعله يجد أحدا يخبر قريشا فى مكة بمكان رسول الله ، ليخرجوا إليه فيستأمنوه ، قبل أن يدخلها عليهم عنوة .

وفى تلك الأيام كانت قريش فى حيرة شديدة ، وقد عميت عليهم الأخبار ، فلا يأتيهم خبر عن رسول الله ، ولا يدرون ماهو فاعل . وخرج فى إحدى الليالى ثلاثة منهم يتحسسون الأخبار ، وينظرون هل يجدون خبرا ، أو يسمعون به ، وهم :

١ — أبو سفيان بن حرب .

٢ — حكيم بن حزام .

٣ — بديل بن ورقاء .

يقول العباس عم الرسول : فوالله إنى لأسير ، وألتمس ما أخرجت له ، إذ سمعت كلام أبى سفيان وبديل وهما يتحدثان ، وأبو سفيان يقول لصاحبه : « ما رأيت كالليلة نيرانا قط ، ولا عسكرا » ، وبديل يقول له : هذه والله خزاعة ، حمستها الحرب(١) ، وأبو سفيان يرد عليه : خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

فنادى العباس(٢) على أبى سفيان ، فرد عليه : مالك فداك أبى وأمى ،

---

(١) اشتدت عليها من الحماسة وهى الشجاعة والشدة

(٢) ولد العباس قبل عام الفيل بثلاث سنوات ومات سنة ٣٢ هـ (٢ : ٥٧ — ٧٦ سير أعلام النبلاء)

فقال له العباس : ويحك يا أبا سفيان ، هذا رسول الله فى الناس ، واصباح قريش والله ، قال أبو سفيان : فما الحيلة ؟ فداك أبى وأمى .

العباس : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب ورائى حتى آتى بك رسول الله فأستأمنه لك .

أبو سفيان : يركب خلف العباس ويرجع صاحباه ، فكلما مر بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله والعباس عليها قالوا : عم رسول الله على بغلته ! ! حتى مر بنار عمر قال : من هذا وقام إلى العباس ، فلما رأى أبا سفيان قال : أبو سفيان عدو الله ، الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، وعدا إلى رسول الله ، وسار العباس فسبقه إلى رسول الله وقال عمر : يارسول الله ، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد ، فقال العباس : يارسول الله إنى قد أجرته ، وتحاور عمر والعباس فى مجلس رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : اذهب به ياعباس إلى رحلك فإذا أصبحت فائتنى به ؛ فلما أصبح غدا به إلى رسول الله فلما رآه قال : ويحك يا أبا سفيان : ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ قال : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئاً قال : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ قال : بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك !! أما هذه والله فإن فى النفس منها حتى الآن شيئاً ؛ ويحك أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك .

فشهد أبو سفيان شهادة الإسلام قال العباس : يارسول الله، إن أباسفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئا ، قال صلوات الله عليه : نعم من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

فلما ذهب العباس لينصرف قال له رسول الله : ياعباس ، احبسه بمضيق الوادى عند خطم الخيل حتى تمر به جنود الله فيراها .

ففعل العباس ، ومرت القبائل على راياتها ، كلما مرت قبيلة قال : ياعباس من هذه ؟ فأقول : سليم ، فيقول: ما لى ولسليم ، وأقول : مزينة ، فيقول : ما لى ولمزينة ، حتى نفذت القبائل ، حتى مر رسول الله فى كتيبته الخضراء(١) ، فيها المهاجرون والأنصار ، لايرى منهم إلا الحدق من الحديد ، فقال : سبحان الله ياعباس ، من هؤلاء ؟ فرد عليه العباس : هذا رسول الله فى المهاجرين والأنصار ، قال أبو سفيان(٢) : مالأحد بهؤلاء قبل ولاطاقة والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما ، قال العباس : يا أبا سفيان إنها النبوة ، قال : فنعم إذن ، قال العباس : النجاء إلى قومك .

وعاد أبو سفيان إلى مكة ، وصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لاقبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، فقامت هند بنت عتبة فاخذت بشاربه ، وهى تقول : قبح من طليعة قوم ، قال أبو سفيان : ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم مالا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، قالوا : قاتلك الله ، وماتغنى عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

— ٣ —

ودخل رسول الله مكة ، وتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد . .

دخل الزبير ببعض الجيش من كدى ، وسعد بن عبادة من كداء ، ثم خلفه على على الراية ، فكان هو الذى دخل بها .

---

(١) قيل لها ذلك لكثرة الحديد وظهوره فيها .

(٢) عاش أبو سفيان طويلا ، وتوفى عام ٣١ هـ عن تسعين عاما (٢ : ٧٨ سير أعلام النبلاء) .

ودخل خالد بن الوليد من الليط أسفل مكة . وجاء أبو عبيدة فدخل مكة بين يدى رسول الله ، ودخل رسول الله من أذاخر حتى نزل بأعلى مكة ، وضربت له هنالك قبته .

وأراد صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو أن يقاتلوا .

وأعد حماس بن خالد سلاحا ، فقالت له امرأته : والله ما أرى أنه يقوم لمحمد وأصحابه شيء ، فقال لها : والله إنى لأرجو أن أخدمك بعضهم ، وانضم إلى صفوان وعكرمة ، فلم يغن عنهم من الله شيئاً ، وأصيب من المشركين نحو اثنى عشر أو ثلاثة عشر رجلا ، ثم انهزموا ، وكان شعار المهاجرين فى فتح مكة والطائف حسين ؛ وشعار الخزرج يابنى عبد الله ، وشعار الأوس يابنى عبيد الله .

وأمر رسول الله أمراءه من المسلمين أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم .

وأمر رسول الله بقتل أناس بعينهم منهم :

الحويرث بن نقيد بن وهب ، وكان ممن يؤذى رسول الله بمكة ؛ ولما حمل رسول رسول الله فاطمة وأم كلثوم ابنتى رسول الله من مكة يريد بهما المدينة كان الحويرث نخس بهما فرمى بهما إلى الأرض ، وقد قتله على ابن أبي طالب . . وأمر رسول الله بقتل ابن خطل وجاريتيه ، اللتين كانتا تغنيان بالشعر الذى قيل فى هجاء رسول الله(١) .

— ٤ —

ولما نزل رسول الله مكة ، واطمأن الناس ، خرج حتى جاء البيت ،

(١) سيرة ابن هشام ، ٢٠٣ الشفا للقاضى عياض . . وممن أمر رسول الله صلوات الله عليه بقتلهم : نفيس بن صبابة ، وجملتهم ستة نفر .

فطاف به سبعاً على راحلته ، يستلم الركن بعصا فى يده ، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، ففتحت له ، فدخلها ، ثم وقف على بابها ، وقد اجتمع له الناس فى المسجد ، فقال :

لا إله إلا الله ، وحده ، لا شريك له

صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين ؛ إلا سدانة البيت ، وسقاية الحاج .

ألا وقتل الخطأ شبه العمد ، بالسوط والعصا ، ففيه الدية مغلظة ، مائة من الإبل ، أربعون منها فى بطونها أولادها .

يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء . الناس من آدم ، وآدم من تراب ، « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » (السورة ٤٩ — الآية ١٣) .

ثم قال :

يا معشر قريش ، ماترون أنى فاعل بكم ؛ قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ثم جلس رسول الله فى المسجد ، فقال : أين عثمان بن طلحة ؛ فدعى له ، فقال (ص) : « هاك مفتاحك ياعثمان . اليوم يوم بر ووفاء .. »

ويروى أن رسول الله دخل الكعبة ، ومعه بلال ، فأمره أن يؤذن وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد ، والحارث بن هشام ، جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب بن أسيد: لقد أكرم الله أسيدا أن لايكون سمع هذا ، فيسمع منه ما يغيظه ، فقال الحارث : أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته ، فقال أبو سفيان : لا أقول شيئا لو تكلمت لأخبرت عنى هذه

الحصا ، فخرج عليهم النبي ، فقال : لقد علمت الذي قلتم ، وذكر لهم ماقالوه ، فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله ، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا ، فنقول : أخبرك .

— ٥ —

فلما كان الغد من يوم الفتح عدت خزاعة ، على رجل من هذيل فقتلته وهو مشرك ، فقام رسول الله خطيبا ، فقال :

« . . يا أيها الناس ، إن الله حرم مكة ، يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام من حرام إلى يوم القيامة . فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما ، ولا يعضد فيها(١) شجرا ، لم تحلل لأحد كان قبلي ، ولا تحل لأحد يكون بعدي ، ولم تحلل لي إلا هذه الساعة غضبا على أهلها ، ألا ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب . . »

— ٦ —

وحين فتح النبي مكة ودخلها ، قام على الصفا يدعو الله ، وقد أحدقت به الأبصار ، فقالوا فيما بينهم : أترون رسول الله إذ فتح عليه أرضه وبلده يقيم بها .

فلما فرغ من دعائه قال : ماذا قلتم ؟ قالوا : لاشيء يارسول الله ، فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : معاذ الله ، المحيا محياكم ، والممات مماتكم .

ودخل رسول الله مكة يوم الفتح على راحلته ، فطاف عليها ، وحول

---

(١) أي يقطع .

البيت أصنام مشدودة بالرصاص ، فجعل النبي يشير بقضيب في يده إلى الأصنام ويقول « جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا » . (الإسراء آية ٨١) ؛ فما أشار لوجه صنم إلا وقع لقفاه ، ولا لقفاه إلا وقع لوجهه ، حتى ما بقي منها صنم ، وفي حديث ابن مسعود : فجعل يطعنها ويقول: جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد(١) .

وأراد فضالة بن عمير بن الملوح الليثي قتل رسول الله وهو يطوف بالبيت عام الفتح فلما دنا منه قال رسول الله : أفضالة ؟ قال: نعم فضالة يارسول الله، قال: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء ، أذكر الله عز وجل ، فضحك النبي ، وقال : استغفر الله .

وقال فضالة :

قالت: هلم إلى الحديث ، فقلت: لا ... يأبى عليك الله والإسلام
لو ما رأيت محمــدا وقبيله ... بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيننا ... والشرك يغشى وجهه الإظلام

— ٧ —

وإثر فتح مكة خرج صفوان بن أمية يريد جدة ليركب منها إلى اليمن فرارا من رسول الله وأمانا على نفسه .

فقال عمير بن وهب(٢) : يا نبي الله ، إن صفوان بن أمية سيد قومه ، وقد خرج هارباً منك ، ليقذف نفسه في البحر فهلا أمنته ..

---

(١) ٢٠٣ الشفاء .

(٢) كان زوج عمة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي أروى بنت عبدالمطلب ، ووالدة مصعب ، وطليب (بدري قتل يوم اليرموك) (٢٢٨: ١ سير أعلام النبلاء للذهبي) ومصعب بن عمير قتل يوم أحد (١٠٢ : ١ سير أعلام النبلاء) .

فقال صلى الله عليه وسلم : هو آمن .

قال : يارسول الله ، فأعطنى آية يعرف بها أمانك ، فأعطاه رسول الله عمامته التى دخل فيها مكة .

فخرج بها عمير حتى أدركه ، وهو يريد أن يركب البحر ، فقال له : ياصفوان ، فداك أبى وأمى ، الله . الله فى نفسك أن تهلكها ،فهذا أمان « من رسول الله » قد جئتك به .

قال له صفوان : ويحك ، اغرب عنى ، فلاتكلمنى .

قال : أى صفوان ، فداك أبى وأمى ، أفضل الناس ، وأبر الناس ، وأحلم الناس ، وخير الناس « ابن عمك ،عزه عزك وشرفه شرفك ، وملكه ملكك ،

قال صفوان : إنى أخافه على نفسى .

قال ابن وهب له : هو أحلم من ذاك وأكرم ... فرجع معه ، حتى وقف به على رسول الله .

فقال صفوان : إن هذا يزعم أنك أمنتنى .

قال رسول الله : صدق

قال صفوان : فاجعلنى بالخيار فيه شهرين

قال رسول الله : أنت بالخيار فيه أربعة أشهر وأسلم صفوان ، وكانت فاختة بنت الوليد زوجة له وأسلمت قبله وبعد إسلام صفوان أقرهما رسول الله على النكاح الأول ... وكانت أم حكيم زوجاً لعكرمة بن أبى جهل ولما أسلمت استأمنت رسول الله لعكرمة فأمنه ، فلحقت به باليمن فجاءت به، فأسلم عكرمة وأقرهما رسول الله على الزواج الأول .

وخرج ابن الزبعرى إلى نجران ، فقال فيه حسان :

لا تعد من رجلا أحلك بغضه نجران فى عيش أحذ لئيم

فلما بلغ ذلك ابن الزبعرى خرج إلى رسول الله فأسلم وقال قصيدته :

منع الرقاد بلابل وهموم   والليل معتلج الرواق بهيم
مما أتانى أن أحمــد لامنى   فيه فبت كأننى محموم
إنى لمعتذر إليك من الذى   أسديت إذا أنا فى الضلال أهيم
أيام تأمرنى بأغوى خطة   سهم ، وتأمرنى بها مخزوم
فاليوم آمن بالنبى محمد   قلبى ، ومخطىء هـذه محروم
مضت العداوة وانقضت أسبابها   ودعت أواصر بيننا وحلوم
فاغفر فدى لك والداى كلاهما   زللى ، فإنك راحم مرحوم
وعليك من علـم المليك علامة   نور أغر ، وخاتم مختوم
أعطاك بعد محبـة برهانه   شرفاً ، وبرهان الإله عظيم
ولقد شهدت بأن دينك صادق   حق ، وأنك فى العباد جسيم
والله يشهد أن أحمد مصطفى   مستقبل فى الصالحين كريم

وخرج كذلك هبيرة بن أبى وهب المخزومى بعد الفتح إلى نجران فأقام بها ، حتى مات كافراً ، وكانت عنده أمهانىء ابنة أبى طالب ، واسمها هند .

— ٨ —

وكان جيش المسلمين فى فتح مكة عشرة آلاف..وفى الفتح يقول حسان قصيدته :

عفت ذات الأصابع فالجواء   إلى عذراء منزلها خلاء

ومنها :

عدمنا خيلنا إن لم تروها   تثير النقع موعدها كداء

وكان فتح مكة لعشر ليال بقين من رمضان سنة ثمان من الهجرة :

ويؤثر لعمر بن الخطاب فى فتح مكة قوله :

ألم تر أن الله أظهر دينه   على كل دين قبل ذلك حائد

وأسلبه من أهل مكة بعدما　　تداعوا إلى أمر من الغى فاسد
غداة أجال الخيل فى عرصاتها　　مسومة بين الزبير وخالد
فأمسى رسول الله قد عز نصره　　وأمسى عداه من قتيل وشارد

٢٣ — مسيرة خالد بن الوليد بعد الفتح إلى بنى جذيمة سنة ثمان من الهجرة

— ١ —

بعد الفتح بعث رسول الله السرايا فيما حول مكة ، تدعو إلى الله عز وجل، ولم يأمرهم بقتال .

ومن هذه السرايا كانت سرية خالد ، بعثه رسول الله وأمره أن يسير بأسفل تهامة داعيا إلى الله ، فسار إلى بنى جذيمة ، فوطئهم وأصاب منهم وقتل.

فهرب رجل منهم فأتى رسول الله ، فأخبره الخبر ، فدعا رسول الله على ابن أبى طالب ، وقال له : ياعلى ، اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك: فخرج على حتى جاءهم ، ومعه مال قد بعث به رسول الله ، فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال ، فلما فرغ على من ذلك قال لهم: هل بقى لكم بقية من دم أومال لم يؤد لكم؟ قالوا: لا، قال: فإنى أعطيكم هذه البقية من هذا المال احتياطا لرسول الله ، مما لا يعلم ولا تعلمون ففعل ، ثم رجع إلى رسول الله فأخبره الخبر ، فقال أصبت وأحسنت ، ثم قام رسول الله فاستقبل القبلة قائما شاهرا يديه ، حتى إنه ليرى ماتحت منكبيه، يقول : اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد .

وقيل : إن خالد بن الوليد قد قال : ماقاتلت حتى أمرنى بذلك عبد الله ابن حذافة السهمى ، وقال : إن رسول الله قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم من الإسلام .

٣٤ — مسيرة خالد لهدم العزى

سنة ثمان من الهجرة

— ١ —

وبعث رسول الله خالدا إلى العزى ، وهي بيت بنخلة ، يعظمه هذا الحي من قريش وكنانة ومضر كلها .

وكان سدنتها وحجابها من بني شيبان ، من بني سليم ، حلفاء بني هاشم .

فلما انتهى إليها خالد هدمها ، ثم رجع إلى رسول الله .

وبعد أن هدم خالد العزى قال : ذهبت العزى فلا عزى اليوم .

وقال أيضا :

كفرانك كفرانك لاسبحانك

إني رأيت الله قد أهانك(١)

٣٥ — غزوة حنين

سنة ثمان من الهجرة بعد فتح مكة

في شوال من هذا العام

— ١ —

سمعت هوازن بفتح مكة وانتصار الإسلام في معركتها على المشركين ،

---

(١) ويرى صاحب كتاب « ديوان الهذليين » شعرا لأبي خراش الهذلي يبكي فيه سادن العزى الذي قتله خالد ، وأبو خراش ظل على شركه وضلاله القديم (٢ / ١٤٨ ديوان الهذليين طبعة دار الكتب ، وانظر ص ٢٤ وما بعدها من كتاب الأصنام لابن الكلبي) .

فجمعها مالك بن عوف النصرى ، فاجتمعت إليه مع هوازن ثقيف كلها ، ونصر وجشم كلها ، وسعد بن بكر ، وناس قليل من هلال ، ولم يشهدها من قيس عيلان إلا هؤلاء .

فلم يشهدها من هوازن : كعب ولا كلاب .

وفى بنى جشم دريد بن الصمة شيخ كبير ليس فيه شىء إلا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب ، وكان شيخا مجربا .

وفى ثقيف سيدان لهـــم : قارب بن الأسود ، وسبيع بن الحارث وأخوه أحمر .

وجماع أمر الناس إلى مالك بن عوف النصرى .

وتجمع كل هؤلاء لحرب رسول الله ، وأخرج مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، كما فعلت قريش شبيه ذلك فى أحد .

وسار مالك بن عوف حتى نزل فى أوطاس (١) ، وجاء دريد فى هودج له يقاد به ، فلما نزل حيث نزل الناس ، قال لمن معه : فى أى واد أنتم ؟ قالوا : بأوطاس ، قال : نعم مجال الخيل ، مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ؟ قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ؛ قال : أين مالك ؟ قيل : هذا مالك .

قال : يامالك ، إنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم كائن له مابعده من الأيام ، مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ؟

قال : سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم .

قال : ولم ذاك ؟

قال : أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم .

---

(١) واد فى ديار هوازن ، كانت فيه وقعة حنين ، وفيها قال الرسول : «حمى الوطيس» كناية عن استعار نار الحرب .

فزجره دريد ، وقال : راعى ضأن والله ، وهل يرد المنهزم شيء ، إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك ؛ ارفعهم إلى متمنع بلادهم وعليا قومهم ، ثم الق الصباء(١) على متون الخيل ، فإن كانت لك لحق بك من وراءك ، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك .

قال : لا ، والله لا أفعل ذلك ، إنك قد كبرت وكبر عقلك .

— ٢ —

وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمرهم ، فبعث إليهم عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى ، وأمره أن يدخل فى الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ، ثم يأتيه بخبرهم ، ففعل ذلك وسمع وعلم ماقد أجمعوا له من حرب رسول الله ، وسمع من مالك ومن أمر هوازن ماهم عليه ؛ ثم أقبل حتى أتى رسول الله فأخبره الخبر .

فأجمع رسول الله السير إلى هوازن ، ليلقاهم ؛ وذكر له أن عندصفوان ابن أمية أدرعا وسلاحا فأرسل إليه ، وهو يومئذ على شركه ، وقال له : يا أبا أمية ، أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غدا ؛ فقال صفوان :أغصبا يا محمد ؛ قال : بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك ، قال : ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح .

وخرج رسول الله ، ومعه ألفان من أهل مكة ، مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه وفتح الله بهم مكة ؛ فكانوا اثنى عشر ألفا ، واستعمل رسول الله عتاب بن أسيد على مكة أميرا على من تخلف عنه من

---

(١) جمع صابىء ، يريد المسلمين .

الناس ؛ ومضى رسول الله يريد هوازن ، فقال عباس بن مرداس السلمى من قصيدة له :

أبلغ هوازن أعلاها وأسفلها	منى رسالة نصح فيه تبيان
أنى أظن رسول الله صابحكم	جيشا له فى فضاء الأرض أركان
فيهم سليم أخوكم غير تارككم	والمسلمون عباد الله غسان
وفى عضادته اليمنى بنو أسد	والأجربان : بنو عبس وذبيان
تكاد ترجف منه الأرض رهبته	وفى مقدمه أوس وعثمان (١)

وسار المسلمون مع رسول الله ، وفيهم من هو حديث عهد بالجاهلية ، حتى بلغوا وادى حنين ، وهو من أودية تهامة ، وذلك فى عماية الصبح(٢) ، وكانت هوازن قد سبقت إلى الوادى ، فكمنوا للمسلمين فى شعابه ومضايقه وقد أجمعوا وتهيأوا وأعدوا العدة ؛ فشدوا على المسلمين شدة رجل واحد ، وتفرق المسلمون لايلوى أحد على أحد .

وانحاز رسول الله ذات اليمين ، ونادى .

أيها الناس ، هلموا إلى ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله .

فلم يغن النداء شيئا .

وبقى مع رسول الله نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته ؛ ومنهم أبو بكر ، وعمر وعلى ، والعباس ، والفضل بن العباس ؛ وأبو سفيان بن الحارث ، وأسامة بن زيد ، وسواهم .

فلما انهزم الناس ، ورأى من كان مع رسول الله من جفاة أهل مكة

(١) من مزينة .
(٢) أى فى ظلامه قبل تبلج نوره .

الهزيمة ، أظهر رجال منهم ما فى نفوسهم من الحقد والعداوة ، فقال أبو سفيان : لاتنتهى هزيمة أصحاب محمد دون البحر ؛ وصرخ كلدة بن الحنبل : ألا بطل السحر اليوم ؛ فقال له صفوان بن أمية ، وهو يومئذ لايزال على شركه فى المدة التى جعل له رسول الله : اسكت فض الله فاك ، فو الله لأن يربنى رجل من قريش أحب إلى من أن يربنى رجل من هوازن . وكان صفوان أخا كلدة لأمه .

وقال شيبة بن عثمان : اليوم أدرك ثأرى — وكان أبوه قتل يوم بدر — اليوم أقتل محمدا . يقول شيبة : فأدرت برسول الله لأقتله ، فأقبل شيء حتى تغشى فؤادى ، فلم أطق ذلك ، فعلمت أنه ممنوع منى .

ويقول العباس بن عبد المطلب : إنى لمع رسول الله آخذ بمقادة بغلته البيضاء ، وكنت امرأ جسيما شديد الصوت ، ورسول الله يقول ، وقد رأى ما رأى ، : أين أيها الناس ؟ فلم أر الناس يلوون على شيء ، فقال رسول الله: ياعباس ، اصرخ : يامعشر الأنصار ، يامعشر أصحاب السمرة . . فأجابوا لبيك ، لبيك ، وأخذ الرجل يؤم الصوت ، حتى ينتهى إلى رسول الله ، والرسول يقول :

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

— ٤ —

واجتمع إلى رسول الله منهم مائة فاستقبلوا هوازن ، فاقتتلوا ، وكانت الدعوى أول ما كانت : يا للأنصار ، ثم يا للخزرج ، وكانوا صبرا عند الحرب ، فنظر رسول الله إلى تجالد الناس ، فقال : الآن حمى الوطيس(١)

---

(١) هو التنور ، والمراد به الحرب ـ هذا وقد شهد أبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب وابنه جعفر وأخوه ربيعة بن الحارث مع رسول الله يوم حنين.

ثم أخذ رسول الله قبضة من تراب الأرض ورمى بها فى وجوههم وقال : شاهت الوجوه ، ثم قال : انهزموا ورب محمد .

والتفت رسول الله إلى أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان ممن صبر يومئذ مع رسول الله ، وكان حسن الإسلام منذ أسلم ، فقال : من هذا ؟ قال : أنا ابن أمك يارسول الله .

والتفت رسول الله فرأى أم سليم بنت ملحان ، وكانت مع زوجها أبى طلحة ، وهى حازمة وسطها . ببرد لها ، فقال لها رسول الله : أم سليم ، قالت : نعم يارسول الله ، بأبى أنت وأمى اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك فإنهم لذلك أهل ، فقال رسول الله : أو يكفى الله يا أم سليم .

ونزلت الملائكة من السماء تقاتل مع رسول الله ، فلم يكن إلا هزيمة القوم . .

كان مالك بن عوف النصرى قد بعث عيونا من رجاله ، فأتوه وقد تفرقت أوصالهم ، فقال : ويلكم !! ماشأنكم ؟ قالوا : رأينا رجالا بيضا على خيل بلق ، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ماترى . .

— ٥ —

وانهزمت هوازن ، واستحر القتل من ثقيف فى بنى مالك ، فقتل منهم سبعون رجلا تحت رايتهم . وفر قارب بن الأسود هو وبنو عمه وقومه .

وأتى المشركون المنهزمون الطائف ، ومعهم مالك بن عوف ، فعسكر بعضهم فى أوطاس . ونزل بعضهم فى نخلة ، وتبعت خيل رسول الله من سلك فى نخلة من الناس .

وأدرك ربيعة بن رفيع ، وهو ابن الدغنة ، دريد بن الصمة ، فقتله .

وبعث رسول الله فى آثار من توجه قبل أوطاس أبا عامر الأشعرى فقتلوه ، فأخذ الراية أبو موسى الأشعرى ، وهو ابن عمه ، فقاتلهم وفتح الله على يديه ، وهزمهم .

وقال رسول الله يومئذ : « إن قدرتم على بجاد(١) فلا يفلتنكم » ، وكان قد أحدث حدثا ، فلما ظفر به المسلمون ساقوه وأهله ، وساقوا معه الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى ، وهى أخت رسول الله رضاعا ، فعنف المسلمون عليها فى سيرها ، فقالت : تعلموا والله إنى لأخت صاحبكم من الرضاعة ، فلم يصدقوها ، حتى أتوا بها رسول الله ، فلما انتهى بها السير إلى رسول الله ، قالت : يارسول الله ، إنى أختك من الرضاعة ، قال: وما علامة ذلك ؟ فأخبرته ، فعرف رسول الله العلامة فبسط لها رداءه فاجلسها عليه ، وخيرها ، وقال: إن أحببت فعندى محببة مكرمة ، وإن أحببت أن ترجعى إلى قومك فعلت ، فقالت بل تردنى إلى قومى ، فردها رسول الله إلى قومها .

— ٦ —

ونزل فى حنين قوله تعالى : لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين ، إذ أعجبتكم كثرتكم (راجع سورة براءة الآية ٢٥—٢٧) .

وفى هذه المعركة استشهد من المسلمين :

١ — أيمن بن عبيد .

٢ — يزيد بن زمعة بن الأسود .

٣ — سراقة بن الحارث بن عدى .

٤ — أبو عامر الأشعرى .

---

(١) رجل من بن سعد بن بكر .

وقتل من المشركين أكثر من سبعين قتيلا .

وجمعت إلى رسول الله سبايا حنين وأموالها ، وكان على المغانم مسعود ابن عمرو الغفارى ، وأمر رسول الله بالسبايا والأموال إلى الجعرانة ، فحبست بها .. وهى ستة آلاف رأس من الأسرى ، وأربعة وعشرون ألفا من الإبل ، وأربعون ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة .

فلما رجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى الجعرانة قدمت عليه وفود هوازن مسلمين فأعتق أبناءهم ونساءهم كلهم ستة آلاف ، وأهل بعمرة من الجعرانة وذلك فى ذى القعدة سنة ثمان ، ثم إن رسول الله رجع إلى المدينة واستخلف أبا بكر على أهل مكة ، وقيل : بل عتاب بن أسيد ، وأمره أن يقيم للناس الحج ويعلم الناس الإسلام ، ورجع الى المدينة فقدمت عليه وفود ثقيف فبايعوه (٢/٣٥٣ الطبرى) .

الشعر فى يـــوم حنين
ويسمى يوم أوطاس

قال بجير بن زهير فى هذا اليوم من قصيدة :

الله أكرمنا وأظهر ديننا — وأعزنا بعبادة الرحمن
والله أهلكهم وفرق جمعهم — وأذلهم بعبادة الشيطان

وقال عباس بن مرداس :

ياخاتم النبآء إنك مرسل — بالحق ، كل هدى السبيل هداكا
إن الإله بنى عليك محبة — فى خلقه ، ومحمدا سماكا

وله من قصيدة طويلة :

ولكن دين الله دين محمد — رضينا به فيه الهدى والشرائع

أقام به بعد الضلالة أمرنا   وليس لأمر حمه الله(١) دافع

وقال أيضا :

وأنا مع الهادى النبى محمد   وفينا ، ولم يستوفها معشر ألفا
بفتيان صدق من سليم أعزة   أطاعوا فما يعصون من أمره حرفا
عداة وطئنا المشركين ولم نجد   لأمر رسول الله عدلا ولا صرفا
رضا الله ننوى لا رضا الناس نبتغى   ولله ما يبدو جميعا وما يخفى

وله أيضا من قصيدة طويلة :

ونحن يوم حنين كان مشهدنا   للدين عزا وعند الله مدخر
وقد صبرنا بأوطاس أسنتنا   لله ننصر من شئنا وننتصر
فما ترى معشرا قلوا ولا كثروا   إلا وقد أوصار منا فيهمو أثر

وله أيضا :

إما أتيت النبى فقل له   حقا عليك إذا اطمأن المجلس
يا خير من ركب المطى ومن مشى   فوق التراب إذا تعد الأنفس
إنا وفينا بالذى عاهدتنا   والخيل تفزع بالكماة وتضرس
وعلى حنين قد وفى من جمعنا   ألف أمد به الرسول عرندس(٢)
كانوا أمام المؤمنين دريئة   والشمس يومئذ عليهم أشمس
نمضى ويحرسنا الإله بحفظه   والله ليس بضائع من يحرس

---

(١) أى قدره الله .
(٢) أى شديد القوى .

وله أيضا :

وكنا على الإسلام ميمنة له   وكان لنا عقد اللواء وشاهره
وكنا له دون الجنود بطانة   يشاورنا فى أمره ونشاوره
جزى الله خيراً من نبى محمداً   وأيده بالنصر والله ناصره

وله أيضا :

وقال نبى المؤمنين تقدموا   وحب إلينا أن نكون المقدما
وجند من الأنصار لا يخذلونه   أطاعوا فما يعصونه ما تكلما

وقال مالك بن عوف يعتذر عن فراره :

كلفتمونى ذنب آل محمـــد   والله أعلم من أعق وأظلم
وخذلتمونى إذ أقاتل واحدا   وخذلتمونى إذ تقاتل خثعم
وإذا بنيت المجد يهدم بعضكم   لايستوى بأن وآخر يهدم

وقال قائل من هوازن من قصيدة يذكر فيها مسيرهم إلى رسول الله مع مالك بن عوف بعد إسلامه :

أذكر مسيرهم للناس إذ جمعوا   ومالك فوقه الرايات تختفق
ومالك مالك ما فوقه أحد   يوم حنين عليه التاج يأتلق
ثمت نزل جبريل بنصرهمو   من السماء فمهزوم ومعتنق

وقالت امرأة من بنى جشم ترثى أخوين لها :

أعينى جودا على مالك   معا والعلاء ولا تجمدا

وفى يوم حنين جاءت رسول الله أمه من الرضاعة حليمة (السعدية) بنت أبى ذئب من هوازن ، فالتفت إليها ، وبسط لها رداءه ، فجلست عليه ، واختلف فى إسلامها وإسلام زوجها ، وإسلام ثويبة .

٣٦ — غزوة الطائف بعد حنين

في سنة ثمان

— ١ —

وقدم الجيش المهزوم من ثقيف إلى مدينتهم الطائف ، فأغلقوا عليهم أبواب هذه المدينة وصنعوا الصنائع للقتال ، وذلك بعد حنين .

فسار رسول الله إليهم ، حين فرغ من حنين .

فقال كعب بن مالك حين أجمع رسول الله السير إلى الطائف :

وإنا قد أتيناهم بزحف ... يحيط بسور حصنهم صفوفا
نطيع نبينا ، ونطيع ربا ... هو الرحمن كان بنا رؤوفا
نجاهد لا نبالى من لقينا ... أأهلكنا التلاد أم الطريفا

فرد عليه كنانة بن عبد ياليل :

من كان يبغينا يريد قتالنا ... فإنا بدار معلم لا نريمها
وجدنا بها الآباء من قبل مازى ... وكانت لنا أطواؤها وكرومها

وقال شداد بن عارض الجشمي في مسير رسول الله :

لا تنصروا اللات إن الله مهلكها ... وكيف ينصر الله من ليس ينتصر
إن الرسول متى ينزل بلادكمو ... يظعن وليس بها من أهلها بشر

وسار الرسول بجيشه ، فسلك على « نخلة اليمانية » ، ثم على قرن ، ثم المليح ، ثم « بحرة الرغاء » من « لية » فبنى بها مسجد وصلى فيه ، وأمر رسول الله — وهو مارد بلية — بحصن مالك بن عوف قائد جموع يوم حنين ، فهدم .

ثم سلك فى طريق يقال لها «الضيقة» «فسماها اليسرى» ، فمر على نخب ، حتى نزل تحت سدرة يقال لها « الصادرة » ، وهى قريب من مال لرجل من ثقيف ، فأرسل إليه رسول الله : « إما أن تخرج ، وإما أن نخرب عليك حائطك » ، فأبى أن يخرج ، فأمر رسول الله بإخرابه .

ثم مضى رسول الله ، حتى نزل قريبا من الطائف وعسكره .

ورمى الطائفيون رسول الله بالنبل فقتل بعض من المسلمين ، وذلك أن العسكر اقترب من حائط الطائف ، فكانت النبل تنهال عليهم ولم يقدر المسلمون على أن يدخلوا حائطهم ، لأنهم أغلقوه عليهم .

فوضع رسول الله عسكره عند مسجده ، الذى بالطائف ، فحاصرهم بضعا وعشرين ليلة ، وقيل : سبع عشرة ليلة ، وكان مع رسول الله من أمهات المؤمنين : أم سلمة ، وامرأة أخرى .

وحاصرهم رسول الله ، وقاتلهم قتالا شديدا وتراموا بالنبل ، ورماهم رسول الله بالمنجنيق ، وكان رسول الله أول من رمى به فى الإسلام ، رمى أهل الطائف .

ولم يشهد حنينا ، ولا حصار ، الطائف اثنان من أشراف ثقيف : عمرو ابن مسعود ، ولا غيلان بن سلمة ، كانا فى جرش (١) ، يتعلمان صنعة الدبابات والمجانيق .

---

(١) هى فى أعلى وادى بيشة وهى قاعدة الأزد وقصة قدوم وفد الأزد يتقدمهم صرد بن عبد الله الأزدى فى بضعة عشر رجلا من قومه (٤ / ٢٣٢ سيرة ابن هشام) معروفة ، وجرش : من مخاليف اليمن ، وبجوارها جبل شكر ، وهى اليوم أطلال وبها آثار وجبل شكر منيع جدا ، ويبلغ ارتفاعه عن سطح أرضه نحو ألف قدم وطوله نحو خمسة آلاف متر ، وموقعه فى متوسط بلاد رفيدة ، ويبعد نحو ثلاثين كيلو مترا عن « خميس مشيط » وهى فى جنوب الجبل =

واقترب الحصار من نهايته ، فدخل نفر من المسلمين تحت دبابة ، فزحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه ، فأرسلت عليهم ثقيف قطع الحديد المحماة بالنار ، فخرجوا من تحتها ، فرمتهم ثقيف بالنبل ، فقتلوا منهم رجالا ، فأمر رسول الله بقطع أعناب ثقيف .. فتقدم إلى الطائف اثنان من المسلمين هما : أبو سفيان بن حرب ، والمغيرة بن شعبة ، فناديا ثقيفا : أن أمنونا حتى نكلمكم ، فأمنوهما ، فدعوا نساءا من نساء قريش وبنى كنانة ليخرجن إليهما ، خوفا عليهن من السبى ، فأبين ، ومنهن : آمنة بنت أبى سفيان ، وكانت زوجا لعروة بن مسعود ؛ ومنهن : الفراسية بنت سويد بن عمرو ، والفقيمية أميمة ، وظل عروة الثقفى على شركه حتى أسلم بعد حصار الطائف .

وقال ابن الأسود بن مسعود : يا أبا سفيان ويا مغيرة ، ألا أدلكما على خير مما جئتما له : إن مال بنى الأسود بن مسعود حيث قد علمتما ، وإن محمدا إن قطعه لم يعمر أبدا ، فكلماه ، فليأخذه لنفسه أوليدعه لله والرحم ، فإن بيننا من القرابة مالا يجهل ؛ فتركه رسول الله لهم ، وجاء إلى رسول الله من الطائف عبيد فأسلموا ، فأعتقهم رسول الله .

وأذن عمر بالرحيل ، بأمر رسول الله ، دون أن يدخل المسلمون عليهم حصنهم . .

— ٢ —

وممن استشهد من المسلمين فى حصار الطائف : عبد الله بن أبى بكر بن الصديق ، وسعيد بن سعيد بن العاص بن أمية ، والسائب بن الحارث بن قيس ، وأخوه عبد الله بن الحارث ، والمنذر بن عبد الله ؛ وكان جميع من

= (مجلة العرب السعودية لصاحبها حمد الجاسر ، عدد مارس ١٩٧١ - مقال للأستاذ حمد الجاسر عنوانه « جرش قاعدة الأزد » .

استشهد بالطائف من أصحاب رسول الله اثنا عشر رجلا ، سبعة من قريش وأربعة من الأنصار ، ورجل من بنى ليث .

وأقام أهل الطائف على شركهم وامتناعهم فى طائفهم ما بين ذى القعدة منصرف رسول الله إلى شهر رمضان من سنة تسع .

وخرج رسول الله حين انصرف عن الطائف ، حتى نزل بالجعرانة هو وجيشه .

فقال له رجل من المسلمين : يا رسول الله ، ادع على ثقيف ، فقال رسول الله : اللهم أهد ثقيفا ، وائت بهم .

— ٣ —

وفى الجعرانة أتى رسول الله وفد هوازن ، وقد أسلموا ، فقالوا : يا رسول الله أمنن علينا منَّ الله عليك ، وكان مع رسول الله من أسراهم ستة آلاف ، ومن الإبل والشاة ما لا يحصى ، فقال لهم رسول الله : أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ فآثروا إطلاق سراح أسراهم من الأبناء والنساء فقال لهم رسول الله : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا ، فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا ، فسأعطيكم عند ذلك ، وأسأل لكم . . فردوا إلى هوازن أبناءهم ونساءهم جميعا .

وسأل رسول الله وفد هوازن عن مالك بن عوف ، فقالوا : هو بالطائف مع ثقيف ، فقال رسول الله : أخبروا مالكا أنه إن أتانى مسلما رددت إليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل ، فأخبروه بذلك ، فخرج من الطائف إلى رسول الله ، فأدركه بالجعرانة ، أو بمكة ، فأسلم فرد عليه أهله وماله ، وأعطاه مائة من الإبل ، وحسن إسلامه ، وقال فى رسول الله :

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله فى الناس كلهمو بمثل محمد

أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى ومتى تشأ يخبرك عما فى غد

فاستعمله رسول الله على من أسلم من قومه .

ولما فرغ رسول الله من رد سبايا حنين إلى أهلها ركب ، واتبعه الناس يقولون : يارسول الله ، أقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم .

فقام رسول الله فحذرهم من الغلول فى الغنيمة ، فرد المسلمون ما كانوا أخذوه منها .

فقسم رسول الله الفىء ، بين المسلمين ، وأعطى المؤلفة قلوبهم ، وكانوا أشرافا من أشراف الناس يتألفهم ويتألف بهم قومهم ؛ فأعطى مائة من البعير ، لبعض شرفاء الناس ، وأعطى مادون ذلك لمن هم دونهم ، وأعطى عباس بن مرداس السلمى أباعر فسخطها ، فعاتب فيها رسول الله فقال :

فأصبح نهبى ونهب العبيـ يد بين عيينة والأقرع
وقد كنت فى الحرب ذا تدرأ فلم أعط شيئا ولم أمنع
وما كان حصن ولا حابس يفوقان عباس فى مجمع
وما كنت دون امرىء منهما ومن تضع اليوم لايرفع

يريد : الأقرع بن حابس التميمى ، وعيينة بن حصن الفزارى ، وهما ممن أعطى كل منهما مائة بعير — والعبيد فى شعر ابن مرداس : هو اسم فرسه .

فقال رسول الله : اذهبوا به فاقطعوا عنى لسانه ، فأعطوه حتى رضى ، فكان ذلك قطع لسانه الذى أمر به رسول الله .

وجاء عباس بن مرداس إلى رسول الله ، فقال له : أنت القائل : فأصبح نهبى ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة ، فقال أبو بكر الصديق : بين عيينة

والأقرع ، فقال رسول الله : هما واحد ، فقال أبو بكر : أشهد أنك كما قال الله « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » الشعراء آية ٦٩ .

وقال قائل لرسول الله : أعطيت عيينة والأقرع مائة ، مائة ؛ وتركت جعيل بن سراقة ، فقال رسول الله : أما والذى نفس محمد بيده لجعيل خير من طلاع الأرض كلهم مثل عيينة والأقرع ، ولكنى تألفتهما ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه .

ولم يعط رسول الله الأنصار شيئا فقال حسان بن ثابت يعاتب رسول الله :

علام تدعى سليم وهى نازحة — قدام قوم همو آووا وهم نصروا
نجالد الناس لانبقى على أحد — ولا نضيع ما توحى به السور

ثم قال الأنصار ماقالوا ، فرد عليهم رسول الله ردا جليلا .

خطبة لرسول الله

ولما أعطى رسول الله ما أعطى — من مغانم حنين — فى قريش وقبائل العرب ، ولم يكن فى الأنصار منها شىء ، وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم ، حتى كثرت منهم المقالة ، حتى قال قائلهم :

لقى والله رسول الله قومه . .

فدخل عليه سعد بن عبادة ، فقال : يارسول الله ، إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفىء الذى أصبت ، قسمت فى قومك ، وأعطيت عطايا عظاما فى قبائل العرب ، ولم يكن فى هذا الحى من الأنصار شىء .

قال رسول الله : فأين أنت من ذلك ياسعد ؟

قال : يارسول الله ما أنا إلا من قومى،قال صلى الله عليه وسلم : فاجمع لى قومك فى الحظيرة .

فخرج سعد ، فجمع الأنصار فى تلك الحظيرة ، فلما اجتمعوا إليه أتاه سعد فقال :

قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار .

فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فحمد الله وأثنى عليه بالذى هو له أهل ثم قال :

يا معشر الأنصار .

ما قالة قد بلغتنى عنكم ، وموجدة وجدتموها فى أنفسكم ؟

ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ؟

وعالة فأغناكم الله ؟

وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

قالوا : بلى لله ولرسوله المن والفضل .

فقال : ألا تجيبونى يامعشر الأنصار ؟

قالوا : وبماذا نجيبك يارسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل .

قال : أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم .

أتيتنا مكذبا فصدقناك .

ومخذولا فنصرناك .

وطريداً فآويناك .

وعائلا فآسيناك .

وجدتم فى أنفسكم يا معشر الأنصار فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟

أفلا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم .

فو الذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا و سلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار .

اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار .

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم .

وقالوا :

رضينا برسول الله قسما وحظا .

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقوا (١) .

عمرة رسول الله من الجعرانة
فى ذى القعدة من سنة ثمان من الهجرة

وخرج رسول الله من الجعرانة معتمرا ، ولما فرغ من عمرته انصرف راجعا إلى المدينة ، واستخلف عتاب بن أسيد على مكة ، وترك معه معاذ ابن جبل يفقه الناس فى الدين ، ويعلمهم القرآن .

وقدم رسول الله المدينة فى بقية ذى القعدة لست ليال بقين منها ، أو فى أول ذى الحجة ، وحج بالمسلمين تلك السنة عتاب بن أسيد، وحجت العرب على ما كانوا يحجون عليه .

وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عروة بن مسعود الثقفى فأعلن إسلامه ، وعاد إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام فرموه بالنبل ومات شهيداً عام ٩ هـ .

وكان عروة أحد المتفاوضين فى صلح الحديبية ، ولما عاد من عند الرسول إلى قومه قال لهم :

«إنى جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه، والله ما رأيت ملكا فى قومه قط مثل محمد فى أصحابه ، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشىء أبدا ، فروا رأيكم فإنه عرض عليكم رشداً ، فاقبلوا ما عرض عليكم ، فإنى لكم ناصح مع أنى أخاف أن لا تنصروا عليه» .

---

(١) هذه رواية الطبرى ٣٦٠/٢ و ٣٦١ ، وهى فى سيرة ابن هشام وتاريخ ابن الأثير بألفاظ مقاربة .

ولما رفضوا نصيحته قال لهم مغاضبا : «ما أراكم إلا ستصيبكم قارعة» . وانصرف هو ومن معه إلى الطائف .

كعب بن زهير يمدح رسول الله

— ١ —

لما قدم رسول الله المدينة بعد منصرفه عن الطائف كتب بجير بن زهير بن أبى سلمى إلى أخيه كعب بن زهير يخبره أن رسول الله قتل رجالا بمكة ، ممن كانوا يهجونه ويؤذونه ، وأن من بقى من شعراء قريش من مثل ابن الزبعرى وهبيرة بن أبى وهب قد هربوا فى كل وجه ، فإن كانت لك فى نفسك حاجة فطر إلى رسول الله ، فإنه لا يقتل أحدا جاءه تائبا ، وإن أنت لم تفعل فانج بجانك من الأرض .

— ٢ —

وكان كعب قد قال حين أسلم أخوه بجير قصيدة منها :

وخالفت أسباب الهدى واتبعته　　على أى شىء ويب غيرك دلكا
على خلق لم تلف أما ولا أبا　　عليه ، ولم تدرك عليه أخا لكا

ورد عليه بجير بقصيدة منها :

إلى الله ، لا العزى ولا اللات ، وحده
فتنجو إذا كان النجاء وتسلم
فدين زهير ، لا شىء دينه　　ودين أبى سلمى على محرم

— ٣ —

ولما بلغ كعبا كتاب أخيه بجير . ضاقت به الأرض ، وأشفق على نفسه ، وأرجف به من كان فى حاضره من عدوه ، فقالوا : هو مقتول ،

فلما لم يجد من شيء بدا قال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله ، ثم خرج حتى قدم المدينة ، فنزل على صديق له من جهينة ، فغدا به إلى رسول الله حين صلى الصبح ، فصلى مع رسول الله ، ثم أشار له إلى رسول الله فقال : هذا رسول الله فقم إليه فاستأمنه ، فقام إلى الرسول حتى جلس إليه ، فوضع يده في يده ، والرسول لايعرفه ، فقال : يارسول الله ، إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبا مسلما ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ فقال رسول الله : نعم قال : أنا يارســول الله ، فأنشده قصيدته « بانت سعاد » .

— ٤ —

وهذا هو بعض أبيات القصيدة التي طارت شهرتها في كل مكان .

قال كعب بن زهير يستعطف رســول الله صلى الله عليه وسلم مبتدئا بالغزل :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا ... إلا أغن غضيض الطرف مكحول
تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت ... كأنه منهل بالراح معلول
شجت بذي شبم من ماء محنية ... صاف بأبطح أضحى وهو مشمول
تنفي الرياح القذى عنه وأفرطه ... من صوب غادية بيض يعاليل
ويل امها خلة لو أنها صدقت ... بوعدها ولو ان النصح مقبول
لكنها خلة قد سيط من دمها ... فجع وولع وإخلاف وتبديل
فما تقوم على حال تكون بها ... كما تلون في أثوابها الغول
ولا تمسك بالوعد الذي وعدت ... إلا كما يمسك الماء الغرابيل
أرجو وآمل أن تدنو مودتها ... وما إخال لدينا منك تنويل
فلا يغرنك ما منت وما وعدت ... إن الأماني والأحلام تضليل

أمست سعاد بأرض لايبلغها ... إلا العتاق النجيات المراسيل
وقال كل خليل كنت آمله ... لا ألهينك إنى عنك مشغول
فقلت : خلوا سبيلى لا أبالكم ... فكل ماقدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوما على آلة حدباء محمول
نبئت أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عند رسول الله مأمول
فقد أتيت رسول الله معتذرا ... والعذر عند رسول الله مقبول
مهلا هداك الذى أعطاك نافلة الـ ... قرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لاتأخذنى بأقوال الوشاة ولم ... أذنب ولو كثرت فى الأقاويل
لقد أقوم مقاما لو يقوم به ... يرى ويسمع ماقد أسمع الفيل
لظل ترعد من وجد بوادره ... إن لم يكن من رسول الله تنويل
مازلت أقتطع البيداء مدرعا ... جنح الظلام وثوب الليل مسدول
حتى وضعت يمينى ماأنازعها ... فى كف ذى نقمات قوله القيل
فلهو أخوف عندى إذ أكلمه ... وقيل : إنك منسوب ومسئول
من ضيغم بضراء الأرض مخدره ... فى بطن عثر غيل دونه غيل
يغدو فيلحم ضرغامين عيشهما ... لحم من الناس معفور خراديل
إذا يساور قرنا لايحل له ... أن يترك القرن إلا وهو مغلول
منه تظل سباع الجو نافرة ... ولا تمشى بواديه الأراجيل
ولا يزال بواديه أخو ثقة ... مضرج البز والدرسان(١) مأكول
إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول
فى عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا ، فمازال أنكاس ولا كشف ... عند اللقاء ولا ميل معازيل
يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم ... ضرب إذا عرد السود التنابيل
شم العرانين أبطال لبوسهم ... من نسج داود فى الهيجا سرابيل

---

(١) جمع دارس وهو الثوب الخلق .

بيض سوابغ قد شكت لها حلق كأنها حلق القفعاء (١) مجدول
ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم قوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا
لايقع الطعن إلا فى نحورهم وماالهم عن حياض الموت تهليل (٢)

وقال كعب بن زهير يمدح الأنصار وقد طلب إليه ذلك لقصره مدحه فى « بانت سعاد » على المهاجرين :

من سره كرم الحياة فلا يزل فى مقنب من صالحى الأخيار
ورثوا المكارم كابرا عن كابر إن الخيار هم بنو الأنصار
المكرهين السمهرى بأذرع كسوالف الهندى غير قصار
والناظرين بأعين محمرة كالجمر غير كليلة الإبصار
والباذلين نفوسهم لنبيهم يوم الهياج وسطوة الجبار
يتطهرون يرونه نسكا لهم بدماء من علقوا من الكفار
صدموا (٣) عليا يوم بدر صدمة ذات لوقعتها رقاب نزار
وإذا حللت ليمنعوك إليهم أصبحت عند معاقل الاغفار
قوم إذا خوت النجوم فانهم للطارقين النازلين مقارى

وقال ضرار بن الخطاب يستعطف النبي صلى الله عليه وسلم عقب فتح مكة حين نظر سعد بن عبادة الأنصارى إلى أبى سفيان يوم الفتح وقال له : اليوم يوم الملحمة ، قال :

يانبى الهدى إليك لجا ء قريش ولات حين لجاء
حين ضاقت عليهم سعة الأر ض وعاداهم إله السماء
والتقت حلقتا البطان على القو م ونودوا بالصيلم الصلعاء

---

(١) شجر يشبه حلقه حلق الدروع .
(٢) أى فرار .
(٣) هو على بن مسعود بن مازن الغسانى

إن سعدا يريد قاصمة الظهـ ـر بأهل الحجون والبطحاء
وغر الصدر لايهم بشيء غير سفك الدما وسبي النساء
فانهينه فإنه أسد الأسـ ـد لدى الغاب والغ فى الدماء
إنه مطرق يريد لنا الأمـ ـر سكوتا كالحية الصماء

٣٧ — غزة تبوك

في رجب سنة تسع من الهجرة

— ١ —

أقام رسول الله فى المدينة ما بين ذى الحجة إلى رجب ؛ ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم ، وذلك فى زمن عسرة من الناس ، وشدة من الحر ، وجدب من البلاد . وحين طابت الثمار ، والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم .

وكان رسول الله قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها ، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يقصد إليه ، إلا ما كان من غزوة تبوك ، فإنه بينها للناس لبعد الشقة ، وشدة الزمان ، وكثرة العدو الذى يقصد إليه ، ليتأهب الناس لذلك أهبته ، فأمر الناس بالجهاد ، وأخبرهم أنه يريد الروم .

فقال بعض المسلمين. إنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله .

وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض : لا تنفروا فى الحر زهادة فى الجهاد وشكا فى الحق ، وإرجافا برسول الله .

وبلغ رسول الله أن ناسا من المنافقين يجتمعون فى بيت سويلم اليهودى يثبطون الناس عن رسول الله فى غزوة تبوك ، فبعث إليهم النبى طلحة بن

عبيد الله فى نفر من أصحابه ، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ، ففعل طلحة ، فكان ممن كان فيه الضحاك بن خليفة ، الذى صعد ظهر البيت ، فقز منه ، فانكسرت رجله ، أما الباقون من أصحابه فأفلتوا .

— ٢ —

وجد رسول الله فى سفره ، وأمر الناس بالجهاز ، وحض أهل الغنى على النفقة ، وأنفق عثمان بن عفان فى ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها ، قيل إنه أنفق فى جيش العسرة فى غزوة تبوك ألف دينار ، فقال رسول الله : اللهم أرض عن عثمان فإنى عنه راض .

وجاء رجال من المسلمين ، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم ، وكانوا أهل حاجة ، يطلبون من رسول الله ما يحملهم ؛ فقال . لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون ،

وجاء المعتذرون من الأعراب ، يعتذرون إلى رسول الله ليأذن لهم ، فلم يعذرهم الله عز وجل .

ثم أجمع رسول الله على السير ، وكان جماعة من المسلمين قد تخلفوا عن رسول الله ، من غير شك ولا ارتياب ، منهم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن ربيع ، وكانوا نفر صدق لا يتهمون فى إسلامهم .

فلما خرج رسول الله ضرب عسكره على ثنية الوداع ، واستعمل رسول الله على المدينة سباع بن عرفطة .

فلما سار رسول الله تخلف عنه عبد الله بن أبى(١) فيمن تخلف من

---

(١) ومات عبدالله بن أبى بن سلول عام ٩ هـ وابنه عبد الله بن عبد الله قتل يوم اليمامة عام ١٢ هـ (١ : ٢٣٣ سير أعلام النبلاء) ، وممن قتل يوم اليمامة عكرمة بن أبى جهل (١ : ٢٣٤ المرجع نفسه) .

المنافقين وأهل الريب ، وخلف رسول الله على بن أبى طالب على أهله ، وأمره بالإقامة فيهم ، وقال له : اخلفنى فى أهلى وأهلك .

وممن تخلف عن رسول الله أبو خيثمة ، ثم ابنه ضميرة ، فقال : رسول الله فى الضح -- الشمس — والريح والحر ، وأبو خيثمة فى ظل بارد ، وطعام مهيأ ، وامرأة حسناء ، فى ماله مقيم ! ! ما هذا بالنصف ، وخرج فى طلب رسول الله ، فأدرك فى الطريق عمير بن وهب الجمحى يطلب رسول الله ، فترافقا ، ولم يدركا رسول الله إلا حين نزل تبوك .

ومر رسول الله فى طريق إلى تبوك بالحجر — مدائن صالح — فنزلها ، واستقى الناس من بئرها ، فقال لهم : لا تشربوا من مائها شيئاً ، وقال لأصحابه : لاتدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون خوفا أن يصيبكم مثل ما أصابهم : وبنى بها مسجداً .

ومضى رسول الله سائراً ، فجعل الناس يتخلفون عنه ، فيقولون : يارسول الله ، تخلف فلان ، فيقول : دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه .

ولحق أبو ذر برسول الله ماشيا ، فقال فيه صلوات الله عليه : رحم الله أبا ذر يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده(١) .

وقال رهط من المنافقين بعضهم لبعض : أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا ، والله لكأنا بكم غداً مقرنين فى الحبال .

ولحق عمير بن وهب برسول الله فأدركه حين نزل بتبوك .

---

(١) مات بالربذة عام ٣٢ هـ فى عهد عثمان (٢ : ٣١ — ٥٧ سير أعلام النبلاء) .

— ٣ —

ولما انتهى رسول الله إلى تبوك بنى بها مسجداً وأتاه يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة ، فصالح رسول الله ، وأعطاه الجزية ، وكذلك فعل أهل جرباء وأذرح ، فأعطوه الجزية ، فكتب لهم رسول الله كتابا .

وهذا كتاب رسول الله لأهل أيلة :

«هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنة بن رؤبة وأهل أيلة ، سفنهم وسيادتهم فى البر والبحر .

لهم ذمة الله ، وذمة محمد النبي .

ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن ، وأهل البحر .

فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماءا يردونه من بر أو بحر» .

— ٤ —

خالد يسير إلى دومة الجندل (١) :

وبعث رسول الله خالد بن الوليد فى ٤٢٠ فارسا إلى صاحب دومة ، وهو أكيدر بن عبد الملك ، وكان ملكا عليها ، وهو من كندة ، وأخوه اسمه حسان بن عبد الملك ، فلقيه خالد فى الطريق فأسره ، وقتل أخاه حسانا ، وبعث خالد بقباء أكيدر إلى رسول الله ، ثم قدم خالد بأكيدر على رسول الله ، فصالحه على الجزية ، وخلى سبيله .

---

(١) هو حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبل طيء .

— ٥ —

وأقام رسول الله بتبوك بضع عشرة ليلة ، وقيل كتب رسول الله إلى قيصر كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام ، فقارب الإجابة ولم يجب .

ثم انصرف إلى المدينة ، وأقبل رسول الله حتى نزل بذى أوان ، بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار .

ثم قدم رسول الله المدينة ، وكان قد تخلف عنه رهط من المنافقين ، وتخلف أولئك الرهط الثلاثة من المسلمين ، من غير نفاق ولا ريب : كعب ابن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية .

فنهى الرسول أصحابه عن أن يكلموا هؤلاء الثلاثة . وأتاه المنافقون يحلفون له معتذرين وهم بضعة وثمانون رجلا ، فيصفح رسول الله عنهم ، ويحدث عبد الله بن كعب بن مالك حديث تخلف أبيه عن تبوك ، وهو حديث طويل(١) .

ودخل رسول الله المدينة ، فبدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس فجاءه المخلفون يحلفون له ويعتذرون ، ويقبل منهم رسول الله علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله ، وجاءه كعب بن مالك ، فجلس بين يدى رسول الله ، وقال : والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك ، فقال له رسول الله : قم حتى يقضى الله فيك ، وكذلك كان أمر مرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، ، ونهى رسول الله عن كلام الثلاثة ، فاعتكف صاحباه فى بيوتهما . وأما كعب فكان يخرج ويشهد الصلوات مع المسلمين ويطوف بالأسواق ولا يكلمه أحد ، وكذلك امتنع عن حديثه أبو قتادة ابن عمه ، قال كعب : ففاضت عيناى من الدمع ، ثم غدوت إلى السوق ، فإذا نبطى

(١) راجعه فى ٤ : ١٨٧ سيرة ابن هشام ، وكان عبد الله من أعلم الأنصار ٢ : ٤٢٢ سيرة ابن هشام — وتوفى كعب بن مالك عام ٥٠ هـ، كما ذكر ذلك الذهبى فى سير أعلام النبلاء (راجع ٣٧٥-٣٨٠ جـ ٢ سير أعلام النبلاء) .

يسأل عنى من نبط الشام ، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة ، فجاءنى فدفع إلى كتاباً من ملك غسان ، فيه : الحق بنا نواسك .

ومضت أربعون ليلة فأمره رسول الله أن يعتزل امرأته هو وصاحباه

فلما مضت خمسون ليلة ، جاءه صائح يصيح بأعلى ثوبه : يا كعب بن مالك ، أبشر ، وآذن رسول الله بتوبة الله عليه وصاحبيه حين صلى الفجر ، فتلقاهم الناس يبشرونهم بالتوبة ، وقال رسول الله لكعب : « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » .

وأنزل الله فيهم آيات كريمات من سورة التوبة : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا » ـ التوبة الآية ١١٨

— ٦ —

وكان قدوم رسول الله من تبوك إلى المدينة ، فى شهر رمضان من السنة التاسعة .

وكانت تبوك آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت تسمى فى زمان النبي وبعده المبعثرة ، لما كشفت من أسرار الناس وسرائرهم(١) .

---

(١) وكانت غزوات الرسول تسع عشرة غزوة غزاها بنفسه ـ ٢ : ٨٥ مختصر مسلم للحافظ المنذرى ـ وقال ابن هشام : سبعا وعشرين غزوة غزاها الرسول بنفسه (٤ : ٢٨٠ سيرة ابن هشام) .

وفى طريق عودة الرسول من تبوك هم بعض المنافقين بالفتك برسول الله فعصمه الله منهم ، كان حذيفة يأخذ بخطام ناقة رسول الله وعمار يسوق الناقة ، وربما تناوبا ذلك ، حتى إذا بلغ الركب العقبة جاء خمسة عشر راكبا ملثمين فاعترضوا ناقة رسول الله يريدون أن ينفروا برسول الله ويطرحوه ، فأنبه حذيفة رسول الله فصرخ فيهم فولوا مدبرين ، ويروى أنهم عقبوا عماراً فأخذ =

وكانت أحوال الشام فى غاية السوء إبان ذاك ، وكان الناس هناك على أشد مايكونون الحرمان .

وقد حكم اليونان الشام ٣٦٩ سنة كانت كلها حروباً وخلافات ، ثم حكمها الروم سبعمائة سنة سادها الفوضى والاستعباد والاضطهاد والفقر والحرمان والجوع .

يقول (جيبون) : « وفى آخر القرن السادس وصلت الدولة فى ترديها وهبوطها إلى آخر نقطة ، وكان مثلها كمثل دوحة عظيمة كانت أمم العالم فى حين من الأحيان تستظل بظلها الوارف ، ولم يبق منها إلا الجذع لايزداد كل يوم إلا ذبولا » . . ويقول مؤلفو تاريخ العالم :

« إن المدن العظيمة التى أسرع إليها الخراب ولم تسترد مجدها وزهرتها ابدا ، تشهد بما أصيبت به الدولة البيزنطية من انحطاط كانت نتيجته المغالاة فى المكوس والضرائب والانحطاط فى التجارة ، وإهمال الزراعة ، وتناقص العمران فى البلدان (١) .

وكذلك فإن المقاطعات العربية التى وقعت فريسة تحت حكم الرومان لم

= يضرب فى وجوه رواحلهم ، فقال النبى قد ، قد؛ حتى هبط رسول الله ، فلما هبط ونزل رجع عمار ، وعرفهم رسول الله ، واعتذر له منهم ثلاثة .

ولما كان رسول الله فى ذى أوان جاء المنافقون من أهل مسجد الضرار ، وكانوا قد بنوه واجتمعوا فيه يدسرن لرسول الله والمسلمين ، وقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجدكم واستعدوا فإنى ذاهب إلى قيصر فآتى بجند من الروم فأخرج محمدا وأصحابه ، فقالوا لرسول الله . إنا بنينا مسجدنا ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه، فقال لهم الرسول : إنا على جناح سفر ، فلما قدم رسول الله من تبوك آتوه ، ولعلهم كانوا يريدون الفتك برسول الله فآذنه الله ، فأمر بهدمه وإحراقه .

(١) الندوى ، ماذا خسر العالم ، ص ٢٣ وما بعدها .

تسلم هى الأخرى من هذه الفوضى وذلك الاضطراب ، فمصر (ذات النيل السعيد ، والخصب المزيد) كانت فى القرن السابع من أشقى بلاد الله بالنصرانية ، وبالدولة الرومية معا ، أما الأولى فلم تستفد منها إلا خلافات ومناظرات فى طبيعة المسيح ، وفى فلسفة ما وراء الطبيعة والفلسفة الالهية ، وقد ظهرت فى القرن السابع فى شر مظاهرها ، وأنهكت قوى الأمة العقلية وأضعفت قواها العملية ، وأما الأخرى فلم تلق منها إلا اضطهادا دينيا فظيعا واستبدادا سياسيا شنيعا ، تجرعت فى سبيلهما من المرائر عشر سنين ما ذاقته أوربا فى عهد التفتيش الدينى فى عقود من السنين ، فألهاها ذلك عن كل وطر من أوطار الحياة ، وعن كل مهمه شريفة من مهمات الدين والروح : فلاهى تتمتع بالحرية السياسية رغم كونها مستعمرة رومية ، ولاهى تتمتع بالحرية الدينية والعقلية ، رغم كونها نصرانية (١) .

إن حكومة مصر الرومية لم يكن لها إلا غرض واحد ، وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين ، ولم يساورها أن تجعل قصد الحكام توفير الرفاهية للرعية أو ترقية حال الناس والعلو بهم فى الحياة أو تهذيب نفوسهم أو إصلاح أمور أرزاقهم ، فكان الحكم على ذلك حكم الغرباء لا يعتمد إلا على القوة ولا يحس بشىء من العطف على الشعب المحكوم (٢) .

أما بلاد الشام فلم تكن أسعد حظا من مصر فقد كانت معاملة الرومان للساميين بادىء ذى بدء عادلة حسنة مع ما كانت عليه مملكتهم فى داخليتها من المشاغب والمتاعب .

ولما شاخت دولتهم انقلبت إلى أتعس ما كانت عليه من الرق والعبودية

---

(١) المرجع السابق ٣٢ .

(٢) السابق ص ٦٧ وما بعدها .

ولم تضف رومية بلاد الشام مباشرة إليها ولم يصبح سكانها وطنيين رومانيين ، ولا أرضهم أرضا رومية ، بل ظلوا عربا ورعايا ، وكثيرا ما كانوا يبيعون أبناءهم ليوفوا ما عليهم من الأموال ، وقد كثرت المظالم والسخرات والرقيق (١) .. وبهذه الأيدى عمر الرومان ما عمروا من المعاهد والمصانع فى الشام (٢) .

جملة غزوات رسول الله بنفسه

هى سبع وعشرون غزوة :

غزوة ودان .

« الأبواء

« بواط من ناحية رضوى .

غزوة العشيرة من بطن ينبع .

« بدر الأولى يطلب كرز بن جابر .

« بدر الكبرى

« بنى سليم حتى بلغ الكدر .

« السويق لطلب أبا سفيان بن حرب

« غطفان وهى غزوة ذى أمر

« بحران معدن بالحجاز

« أحد

---

(١) الندوى ص ٦٨ .

(٢) عن مجلة المنهل عدد ذى الحجة ١٣٩٠ هـ

غزوة حمراء الأسد

« بنى النضير

« ذات الرقاعى من نخل .

« بدر الآخرة

« دومة الجندل

« الخندق

« بنى قريظة

« بنى لحيان من هذيل

« ذى قرد

« بنى المصطلق من خزاعة

« الحديبية لايريد قتالا فصده المشركون

« خيبر

« الفتح

« حنين

« الطائف

« تبوك

وجملة السرايا والبعوث ثمانية وثلاثين بين بعث وسرية .

جملة السرايا والبعوث

وهى ثمان وثلاثون بين بعث وسرية

— ١ —

أما الغزوات فهى كما نذكرها :

غزوة عبيدة بن الحارث إلى أسفل من ثنية المرة

غزوة حمزة إلى ساحل البحر من ناحية العيص .

« سعد بن أبى وقاص إلى الخرار .

« عبد الله بن جحش إلى نخلة .

« زيد بن حارثة إلى القردة .

« محمد بن مسلمة لكعب بن الأشرف .

« مرثد الغنوى للرجيع .

« المنذر بن عمرو لبئر معونة .

« أبى عبيدة بن الجراح لذى القصة من طريق العراق .

« عمر بن الخطاب لتربة من أرض بنى عامر .

« على إلى اليمن.

« غالب الكلبى الليثى لبنى الملوح بالكديد .

« على لبنى عبد الله بن سعد من أهل فدك .

« أبى العوجاء السلمى أرض بنى سليم ، أصيب بها هو وأصحابه جميعا .

« عكاشة بن محصن للغمرة .

« أبى سلمة بن عبد الأسد لقطن ماء من مياه بنى أسد بنجد .

« محمد بن مسلمة للقرطاء من هوازن .

« بشير بن مرة بفدك .

« بشير بن مرة ناحية خيبر .

« زيد بن حارثة للجموم من أرض بنى سليم .

« زيد بن حارثة لجذام من أرض خشين ، أو أرض . حسمى

غزوة زيد بن حارثة للطرف من ناحية نخل من طريق العراق .
» عبد الله بن رواحة لقتل ابن رزام .
» عبد الله بن عتيك خيبر لقتل أبى رافع .
» عبد الله بن أنيس لقتل خالد الهذلى وكان يجمع الجموع لحرب الرسول .

— ٢ —

وأما البعوث فهى :

غزوة زيد بن حارثة وجعفر بن طالب وابن رواحة لمؤتة .
» كعب الغفارى لذات أطلاح من أرض الشام .
» عيينة بن حصن لبنى العنبر من تميم .
» غالب بن عبد الله الكلبى لبنى مرة .
» عمرو بن العاص ذات السلاسل .
» ابن أبى حدرد بطن إضم قبل الفتح .
» ابن أبى حدرد لقتل رفاعة الجشمى .
» ابن أبى حدرد الغابة .
» عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل .
» أبى عبيدة بن الجراح إلى سيف البحر .
بعث عمرو بن أمية الضمرى لقتل أبى سفيان بعد مقتل خبيب .

سرية زيد بن حارثة إلى مدين

سرية سالم بن عمير لقتل أبى عفك الذى هجا رسول الله

غزوة عمير بن عدى لقتل عصماء بنت مروان وكانت هجت رسول الله، وكان عمير يدعى القارى .

أسر ثمامة بن أثال الحنفى وإسلامه .

سرية علقمة بن مجزز .

سرية كرز بن جابر لقتل البجليين

غزوة على بن أبى طالب إلى اليمن

بعث أسامة بن زيد إلى أرض فلسطين

غزوة غالب بن عبد الله الليثى لبنى الملوح

بعث رسول الله غالب بن عبد الله الكلبى الليثى فى سرية ، وأمره أن يشن الغارة على بنى الملوح ، وهم بالكديد ، وفى الطريق لقوا الحارث بن مالك الليثى فأسروه ؛ ثم ساروا إلى الكديد ، فبلغوه عند غروب الشمس ، فكمنوا فى ناحية الوادى ، وأمهلوهم حتى إذا اطمأنوا وناموا ودخلوا فى السحر شنوا الغارة على بنى الملوح ، فقتلوا منهم ، واستاقوا النعم ، وخرجوا ، فخرج القوم وراءهم ، فكان وادى قديد بينهم ، فأرسل الله الوادى بالسيل ، فما قدروا أن يعبروه ، ووقفوا ينظرون إلى المسلمين وهم يسوقون النعم ،لايقدرون على أن يعبروا الوادى ، فقدموا بما معهم على رسول الله ، وكان شعار رسول الله تلك الليلة : أمت ، أمت .

غزوة زيد بن حارثة إلى جذام

قدم رفاعة بن زيد الجذامى على قومه عند رسول الله بكتابه يدعوهم إلى الإسلام فاستجابوا له .

ثم لم يلبث أن قدم دحية الكلبى من عند قيصر ملك الروم وكان رسول الله إليه ، وقدم دحية بتجارة له ؛ فلما كان بواد من أوديتهم يقال له شنار أغار على دحية بعض بنى جذام ، فأخذوا كل شىء كان معه .

فقام قوم ممن أسلم من رهط رفاعة بن زيد فقاتلوا الذين سلبوا دحية

ماله ، وأخذوا ماكان فى أيديهم فردوه على دحية ، فخرج دحية حتى أتى رسول الله ، فأخبره خبرهم ، فبعث رسول الله إليهم زيد بن حارثة بجيش من المسلمين .

فجمعوا ما وجدوا من مال أو أناس ، وقتلوا من قتلوا منهم ، فسمعت بنو الضبيب بذلك والجيش بفيفاء مدان ، وتقاتلوا ، فأسر منهم وقتل ، فقدموا إلى رسول الله ، وجاءوا معهم برفاعة بن زيد يشكون إلى الرسول ، فأمر رسول الله أن يطلق من كان حيا منهم . وبعث عليا إلى زيد بن حارثة بذلك ، فلقوا الجيش بفيفاء الفحلتين ، فأخذوا ما فى أيديهم .

غزوة زيد بن حارثة لبنى فزارة فى وادى القرى

وفيها أصيب ناس من أصحابه ، وأصيب زيد أيضا ، فلما شفى من جراحه بعثه رسول الله فى جيش إلى بنى فزارة ، فقتلهم بوادى القرى ، وأصاب فيهم ، وأسرت أم قرفة زوجة مالك بن حذيفة بن بدر وبنت لها ، فقتلت أم قرفة ، وجىء بابنتها إلى رسول الله ، وكان الذى أسرها هو سلمة بن عمرو بن الأكوع ، وكانت فى بيت شرف من قومها ، كانت العرب تقول : « لو كنت أعز من أم قرفة مازدت » ، فسألها رسول الله سلمة فوهبها له ، فأهداها لخاله حزن بن أبى وهب ، فكانت أم ابنه عبد الرحمن بن حزن .

بعث أسامة بن زيد إلى أرض فلسطين

وكان هذا البعث آخر البعوث ، حيث بعثه رسول الله إلى الشام ، وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء ، والداروم من أرض فلسطين ، فتجهز الناس ، وسار مع أسامة المهاجرون الأولون .

خاتمة الجزء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم :

ما أروع مواقف محمــــد رسول الله فى الدفاع عن السلام والشرف والكرامة والعزة ، وما أبقى على وجه الزمن دعوته إلى الأمن والوئام والشمم والإباء .

ومع أنه ولد فى أرض خضبتها الدماء ، فقد كان بطل السلام ، وداعيته الكريم ، حتى رأيناه يشترك صغيراً فى حلف الفضول ، الذى قام لنصرة المظلوم ، ورد الحقوق إلى أصحابها . . ورأيناه يقف حكما بين قبائل قريش، حاسما للنزاع الذى نشب حول بناء الكعبة ، وأيها يكون له شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه ، فيسود السلام مكة برأيه وحكمته .

كانت سياسته صلوات الله عليه اللين والشفقة والتواضع ، وتحيته : « السلام عليكم ورحمة الله » . . ولقد عاش مؤمنا بالرحمة والمحبة والتعاون والإخاء ، فآخى بين المسلمين فى المدينة ، وقرر أن المؤمنين إخوة فى الدين ، وأن البشر جميعاً إخوان فى الإنسانية ، وألغى الحواجز والفواصل بين الأمم ونزل القرآن يؤكد أن هدفه تعارف الشعوب « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » . وكان السلام النفسى شعاره فى أحرج الأوقات ، أرأيته حين طارده المشركون فى « الطائف » ، كيف يلجأ إلى ظل يستظل به ويتوجه إلى ربه : اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ : إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى .

لم يمش محمد إلى الحرب إلا دفعا للعدوان ودفاعا عن المظلومين ، وتأكيداً

للسلام والحرية، حتى وقف وهو حدث السن يذود عن حرية قومه فى حرب الفجار . . وحرم شن الحرب للسيطرة وبسط السلطان . أو للفساد والاستغلال والطغيان ، ولم يجعلها وسيلة لنشر الدين ، بل اتخذ سبيله الاقناع والبرهان « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » .

وشريعة محمد التى نزلت عليه . وهى الاسلام ، اشتق اسمها من السلام ، وغايتها اليسر والسهولة والتخفيف على الناس ، ويلخصها لقومه فى كلمة واحدة، حين مشى أشراف قريش إلى عمه أبى طالب ، يشكون ويضجون ، فقال له : « ياعم ، كلمة واحدة يعطونيها ، تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم » فقال أبو جهل : نعم وأبيك وعشر كلمات ، فقال : « تقولون لا إله إلا الله » وتخلعون ما تعبدون من دونه » فسخروا منه وقالوا : أتريد أن تجعل الآلهة إلها واحداً ، إن هذا لشىء عجاب .

هذا هو محمد المبشر بالسلام ، والمشرع لمبادئه : فى الأسرة والمجتمع والأمة والإنسانية وبين الإنسان ونفسه . . أما محمد المدافع عن الحريات فإن أمره لعجب ، أحب الحرية منذ طفولته ، ورثها عن قومه وبيئته ، ورباه الله عليها ونماها فى نفسه طبيعة الحياة فى وطنه ، فولد ونشأ كريما أبيا ، وفتى حراً عربياً ، ويتجلى تقديسه لها فى إبائه للضيم ، وغضبه للحق وإسراعه لنصفة الضعيف ، وفرضه الدفاع عن الوطن ، ومقاومة المعتدين والغاصبين ، وزياده عن شخصية الإنسان ، وحقوق المستضعفين الذين كان الناس فى عصره ينكرون أن يكون لهم حق فى الحياة ، كان إذا جلس فى المسجد لجلس إليه خباب وعمار وبلال وصهيب وأشباههم هزأت بهم قريش ، وقالوا : هؤلاء أصحابه كما ترون ، أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ؟ لو كان ما جاء به خيرا ماسبقونا إليه ، ولو طردهم عنه لجلسنا إليه ، فأنزل الله تعالى ، « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، يريدون وجهه» .

وقرر محمد ، وحمى الحرية الشخصية ، وحرية الملك والمسكن والعمل والقول والاجتماع والفكر والعقيدة ، ووصاياه فى رعاية حريات الناس والجماعات والأمم ، وتهذيبه للضمير الإنسانى ليراقب سلوك صاحبه حتى لايظلم أو يعتدى على أحد مضرب الأمثال . وجاءت معاهدته الأولى مع يهود يثرب المخالفين له خير تقرير لحرية العقيدة والرأى وحرمةالمدينة والمال ، كما يقرر الباحثون .

هذا هو محمد الداعى إلى السلم والحرية ، والذى لم يلبس مسوح السلام ليخدع الناس،أو ليغرر بالشعوب ، والذى حطم الشرك والوثنية ، وهدم عرش الطغيان والجبروت ، والذى دعا إلى عالم واحد ، وحكومة واحدة، تؤمن بأكرم الأهداف ، وتخضع لأسمى المبادىء وتطبقها ، والذى نفخ فى أرواح المستعبدين : أن هبوا ، فهذا عصر جديد من الحرية والكرامة، ليس هناك سيد ومسود ، وإنما السيادة لله ولرسوله ولمبادىء الحق والعدالة والمساواة .

— ٢ —

وبعد فهذه هى نهاية الجزء الثالث من كتابنا « سيرة رسول الله » ، ويليه الجزء الرابع بإذن الله وتوفيقه .

وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

المؤلف

فهرست الجزء الثالث

استدراك

١ — فى الصفحة الرابعة عشرة — خريطة غزوة بدر الكبرى ، وفيها خط سير الرسول معلم بعلامة (—) ، وخط الأسفلت مشار إليه بعلامة (...) .

وهذا خطأ من عامل (الزنكوغراف) ، والصواب العكس .

٢ — فى صفحة ٣٥٤ رقم ٨ والصواب : ٩

سيرة رسول الله

صلى الله عليه وسلم

كتابات جديدة للسيرة النبوية ، مع مراجعات واقتباسات من أمهات كتب السيرة ، وبخاصة سيرة ابن هشام .

بقلم

محمد عبد المنعم خفاجي

الجزء الرابع

دار الطباعة المحمدية
بالأزهر بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة الجزء الرابع

— ١ —

بسم الله الرحمن الرحيم ، عليه أتوكل ، وإليه أنيب ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي العربي وعلى آله وصحبه وسلم ، وبعد :

فإن الاسلام الذى أحدث أعظم انقلاب عالمى ، وأكبر ثورة بشرية، والذى بلغت دعوته من الحيوية والسمو والطهر ، ومن المواءمة لروح الانسانية ، ونظريات الاجتماع ، ومذاهب التفكير الحديث ، ماشهد به الفلاسفة والمفكرون والمشرعون فى كل جيل ومكان . هذا الدين السماوى الخالد ، لم يكن فى يوم من الأيام إلا دين التقدم والمدنية والتحرير الانسانى والعزة والكرامة والمجد . ولم تنهض أوربا نهضتها الحديثة الا بعد أن فهمت أصول الاسلام: واقتبست من شريعته فى الاصلاح؛ بل لقد وقف فلاسفة الغرب حياله مذهولين حائرين ، يتأملون نوره كما يتأمل الأعشى نور الشمس المشرقة ، يقول اللورد استانلى: « أنا مسلم رأيت عظم أثر الاسلام وقدرته فى نفسى حق قدره ، نعم أنا مسلم ، أهزأ بكل مايحيط بى من مظاهر المدنية، فصحيحها الحق من كتاب الله وقرآنه ، وباطلها المذاع لايلبث أن تبرهن الأيام على بطلانه » ، وقال اللورد هدلى : شرحت لكثير من الأفراد فى انجلترا ماهية الاسلام . فكانوا يجيبونني اذا كان هذا هو دينك فنحن اذن مسلمون . لأن هذا هو ما نعتقده وما نفكر فيه » ، وقال برناردشو : « لابد أن تعتنق الامبراطورية البريطانية النظم الإسلامية قبل نهاية هذا القرن ، ولو أن محمداً بعث فى هذا العصر لنجح تماما فى حل جميع المشكلات العالمية ، ولقاد العالم إلى السلام والسعادة المنشوده » .

وما بالكم بدين وضع أصول السياسة والتشريع والأخلاق وأصول

البحث والتفكير ، وسبق « الديكارتيين » إلى تقديم الشك أمام كل بحث ، وترك التقليد ، وإلى الايمان بما يؤدى اليه الدليل . كما سبق « بيكون » إلى المذهب العلمى ، وسبق فلاسفة الاجتماع إلى وضع أصوله ، ولم يجعل للمعرفة الإنسانية حداً ، من حيث وضع بعض المفكرين الغربيين حداً لما يمكن أن يصل اليه الانسان من معارف ، وأقام مبادئه على سمو الغاية الأدبية والإنسانية فحسب دون النظر إلى التعليلات الاقتصادية والمادية للأشياء ، التى هى الآن أساس المدنية الغربية ،

شريعة الإسلام ، يرارف مدلولها العلم والعدل والاخاء والمساواة والحرية وبسط سلطان العقل ومحاربة الأوهام والأساطير والخرافات والوثنية ، وإزالة الفوارق الطائفية والعنصرية ، إلى غير ذلك من جلائل المبادىء التى دعا اليها الإسلام ، والتى تعلم منها الغرب كيف يرفع بصره إلى السماء .

يبنى « أمانول كانت » مذهبه الخلقى على أن حسن النية هو الأساس الأول فى الأخلاق ، ونحن لم ننس بعد قول الرسول صلوات الله عليه : « إنما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء مانوى » .

ويفاخرنا بنظامه الشورى ، مع أن الغرب يعلم أن الإسلام هو أول من وضع نظام الحكومة الشورية التى كان دستورها القرآن ، والتى اختفت فيها الفروق والامتيازات ، ووضعت الحقوق والواجبات على الأفراد على السواء ، وصار الحكم والمحكوم جميعاً على قدم المساواة فى المسئوليات والالتزامات ، بعد أن كان الناس يؤمنون بأن الحاكم فوق القانون والمسئوليات ، ولعلنا على ذكر من قول محمد صلوات الله عليه : « الإمام راع ومسئول عن رعيته » ، وقوله : « أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقد منه ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضى فليستقد منه ، ومن أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ، ولا يخش الشحناء

فهى ليست من شأنى ، « ولعلكم قرأتم بإمعان قول عمر : « إن رأيتمونى على حق فأطيعونى ، وإن رأيتمونى على باطل فقومونى » ، وقوله لعمرو ابن العاص : « متى تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ » ، وقوله : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » . وغير ذلك مما يعد دستوراً خالداً فى تقرير مسئولية الحاكم .

ولقد بدأ المفكرون فى القرن العشرين يدعون إلى حكومة عالمية ، فأين هم من الإسلام ورسوله الكريم الذى دعا إلى أخوة المسلمين فى الدين ، وأخوة الناس جميعاً فى الإنسانية ، ولم يجعل لعربى على أعجمى فضلا إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وألغى الفروق بين الأفراد والطبقات والعناصر والأجناس والألوان والشعوب ، وجعل أساس الحكم الإسلامى المحافظة على الكرامة الإنسانية ونشر كلمة الله والهدى والنور الحق والخير والمعرفة ، الدين واحد ، والناس جميعاً إخوة ، يحكمهم حاكم واحد بما أنزل الله ؟

ولا يزال الغرب يدعى أنه أول من أعلن حق الإنسان فى الحرية والإخاء والمساواة « وأنه واضع حقوق الإنسان ، وما أشد جرأة هؤلاء وهؤلاء على الحقائق ، فلقد سبقهم الإسلام بأجيال قرون إلى إعلان حقوق الإنسان وتأييدها وحمايتها . وما بالكم بدين حرر المرأة من جور الرجل ، وحرر العامل من ظلم صاحب العمل ، وحرر الرقيق والخدم من العبودية والهوان ، وحافظ على حق الإنسان فى الحياة والأمن ، وحقه فى الملكية ، وفى الكرامة الإنسانية . وفى تكوين الأسرة ، وفى الاشتراك فى إدارة شئون الدولة ، ودعا إلى العدالة بأجلى معانيها ، وإلى الإخاء بأصدق مدلولاته وإلى الحرية الكاملة ، والمساواة الشاملة ، وحمى أتباع الأديان الأخرى وجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم من واجبات وحقوق ، شعاره فى ذلك الآية الكريمة : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

لقد كان أفلاطون وأرسطو من فلاسفة اليونان يقرران حرمان العمال والصناع والموالى من الحقوق المدنية، لانحطاط ما يمارسونه من المهن، وكان غيرهما يضع الرقيق والحيوانات فى منزلة سواء. فأين هذا من سماحة الإسلام وسمو مبادئه، التى سوت بين الناس جميعاً؟

والشعوب التى تتزعم مدنية اليوم لاترى أيضاً ضيرا فى تدمير المدن وقتل النساء والأطفال والكهول والمرضى؟ وإزهاق أرواح المدنيين بلا حساب، فى حروب منظمة، يعجز العقل عن تصورهـا وفظاعتها. فأين هذا من شريعة الإسلام التى فرضت على المسلمين احترام حقوق الإنسان حتى فى الحروب، وأوصت بالمدنيين المسالمين خيرا، ونهت عن الاعتداء والسفك والنهب والحرق والتمثيل والتدمير والتخريب؟ حتى لقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم جنده فقال لهم: «أوصيكم بتقوى الله، وبمن معكم من المسلمين خيرا، اغزوا باسم الله فى سبيل الله من كفر بالله، لاتغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانيا ولا منعزلا بصومعته، ولا تحرقوا نخـلا، ولا تقطعوا شجراً؛ ولا تهدموا بناء.»

وبعد فلقد بلغت المساواة فى الإسلام المدى الذى يصوره الرسول الكريم بقوله: «أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم. ليس لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر، فضل، إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد؟

ولقد ولى رسول الله بلالا على المدينة، وفيها سادة العرب والمسلمين من الأنصار والمهاجرين، وأسند إلى «مهران» الفارسى ولاية اليمن وهو من صميم الفرس، وأذن عمر ـ وهو خليفة ـ لصهيب وبلال وسواهما من عامة الموالى بالدخول عليه قبل أشراف قريش وسادة العرب.

وبلغت العدالة فيه المدى الذى يصوره قول محمد بن عبد الله : « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ، وأن يغضب « على » لأن الخليفة عمر كناه بأبى الحسن فى خصومة بينه وبين يهودى ، وأن يقول عمر فى وصيته للخليفة من بعده : « اجعل الناس عندك سواء ، لاتبال على من وجب الحق ؛ ثم لاتأخذك فى الله لومة لائم . . وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله » . . وانظروا إلى مافعله عمر حين ضربه مجوسى أثيم ضربه غادرة قاتلة ، أوصى به خيراً ، فقال : « أطيبوا طعامه وأحسنوا معاملته ، فإن أنا أفقت كان لى حق القصاص ؛ فإما قصصت وإما عفوت . وإن أنامت فاضربوه ضربة بضربة ، ولا تمثلوا به ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن المثلة ، ولو فى الكلب العقور » .

بل لقد أمر المسلمون أن يعدلوا حتى مع خصومهم « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون » .

إن مفاخر الإسلام فى احترامه لحقوق الإنسان وتأييده وحمايته لها ، وفى وضعه لأصول التقدم الأدبى والروحى والاجتماعى ، وفى إيقاظه الروح الإنسانى العام ، لهى مفاخر جديرة بالإشادة والتقدير ؛ حرية بأن نفهمها ونتدبر معانيها ، ونقتبس من أصولها مايحيي الروح ، ويوقظ العزيمة وينبه راقد الفكر فى شتى أرجاء العالم الإسلامى ، وإن الخير كل الخير فى أن ينتبه الشرق الراقد إلى أصول دعوة الإسلام التى جهلها وتناساها وتركها . وإنه لحرى بالمسلمين جميعاً أن يأخذوا بتعاليم محمد بغير تنقيح أو تعديل ، وأن تطبق تطبيقاً صحيحا ، ليسعد الناس ، وتستقر الجماعات وتهدأ الفتن ، وتصحح الأوضاع ؛ فالعالم لن يحيا من موته الروحى إلا إذا أخذ بتعاليم الإسلام ، التى لابد أن ينتهى إليها فى يوم من الأيام : « سنريهم آيتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟ » .

وصدق الله العظيم حين يقول : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور » .

— ٢ —

وبعد : فهذه هى فاتحة الجزء الرابع من كتابنا « سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، الذى أقدمه للقارىء المسلم فى كل مكان ، وأبتهل إلى الله أن يمنحنا التوفيق والسداد ، وأن يمن علينا بفضله وكرمه وإحسانه ، وأن يجعل لنا فى الدنيا نصيبا من العمل الصالح ، وفى الحياة الآخرة مكان العزة والكرامة والقبول والرضاء ،

وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ؟

المؤلف

القسم الثالث

من الكتاب

الفصل الأول

وفد ثقيف إلى رسول الله

فى ٢١ رمضان من العام

بعد حصار الطائف قدم عروة بن مسعود الثقفى إلى رسول الله ، فلقى الرسول فى الطريق قبل أن يصل رسول الله إلى المدينة ، فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام ، فأذن له الرسول، وخرج يدعو قومه إلى الإسلام فرموه بالنبل ، فقتلوه .

وأقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهرا ، ثم رأوا أنه لاطاقة لهم بحرب محمد وأصحابه ، فأسلمت وبايعت .

بعثت ثقيف إلى رسول الله وفدا ، من ستة ، رئيسه عبد ياليل بن عمرو ابن عمير ، فقدموا المدينة ، وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذى يمشى بينهم وبين رسول الله ، وكانوا لايطعمون طعاما يأتيهم من عند رسول الله حتى يأكل منه خالد .

وسألوا رسول الله أن يدع لهم اللات ، لايهدمها ، ثلاث سنين ، فأبى رسول الله ذلك عليهم ، وبعث بأبى سفيان والمغيرة بن شعبة ليهدماها .

وسألوا رسول الله فيما سألوه أن يعفيهم من الصلاة ، ومن كسر أوثانهم بأيديهم ، فقال لهم رسول الله : أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه ، وأما الصلاة فإنه لاخير فى دين لاصلاة فيه .

فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله كتابا أمر عليهم عثمان بن أبى العاص وبعث معهم أباسفيان والمغيرة لهدم الطاغية .

فخرجا مع القوم ، وقام المغيرة بضربها بمعول ، وخرجت نساء ثقيف يبكين عليها . ويندبنها ، وأبو سفيان يقول والمغيرة يهدمها : « واهالك ، آهالك » .

وأخذ المغيرة مال اللات وحليها ، فبعث به إلى رسول الله .

وكان كتاب رسول الله الذى أعطاه وفد ثقيف هو :

بسم الله الرحمن الرحيم .

من محمد النبي رسول الله إلى المؤمنين ، إن عضاه « وج » وصيده لا يعضد — لا يقطع ، من وجد يفعل شيئاً من ذلك فإنه يجلد وتنزع ثيابه ، فإن تعدى ذلك فإنه يؤخذ فيبلغ به النبي محمدا ، وإن هذا أمر النبي محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وكتب خالد بن سعيد بأمر الرسول محمد بن عبد الله ؛ فلا يتعده أحد ، فيظلم نفسه فيما أمره به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويروى أن الوفد لما قدموا على رسول الله قالوا : يا محمد إنا أخوالك وأصهارك وجيرانك ، إن حاربناك حاربك من بعدنا ، وإن سالمناك سالمك من بعدنا ، ثم قالوا : فاجعل لنا ألا نعشر ولا نحشر الخ — ص ٨٣ الأوائل لأبى هلال .

حج أبى بكر بالناس

سنة تسع

أقام رسول الله فى المدينة بقية شهر رمضان وشوالا وذا القعدة .

ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج من سنة تسع ، ليقيم للمسلمين حجهم ، والمشركون من العرب على منازلهم من حجهم .

فخرج أبو بكر ومن معه من المسلمين نحو ثلثمائة ، ونزلت براءة فى نقض مابين رسول الله وبين المشركين من العهد الذى كانوا عليه فيما بينه وبينهم : أن لايصد عن البيت أحد جاءه ، ولايخاف أحد فى الشهر الحرام ، وكان ذلك عهدا عاما بينه وبين الناس من أهل الشرك ، وكانت بين ذلك عهود بين رسول الله وبين قبائل من العرب مخصوصين ، إلى آجال مسماة ، فنزلت السورة فى ذلك وفيمن تخلف من المنافقين عنه فى تبوك ، وكانت براءة تسمى فى عهد النبى وبعده : المبعثرة لما كشفت من سرائر الناس .

ولما نزلت براءة ، وقد بعث أبا بكر يقيم للناس الحج ، قيل له يارسول الله ، لو بعثت بها إلى أبى بكر ؟ فقال لايؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى . ثم دعا على بن أبى طالب فقال له : اخرج بهذه القصة من صدر براءة وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى ، أنه لايدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته .

فخرج على على ناقة رسول الله العضباء ، حتى أدرك أبا بكر بالطريق ، فلما رآه أبو بكر قال : أمير أو مأمور ، قال : بل مأمور . ثم مضيا .

فأقام أبو بكر للناس الحج ، والعرب إذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية ، حتى إذا كان يوم النحر قام على فأذن فى الناس بالذى أمره به رسول الله ، فقال : أيها الناس ، إنه لايدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته ، وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ، ليرجع كل قوم إلى مأمنهم أو بلادهم ، ثم لاعهد لمشرك ولا ذمة ، إلا أحدا كان له عند رسول الله عهد إلى مدة فهو إلى مدته .

فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان .

ثم قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الموسم .

الأنصار وجهادهم فى سبيل الله

وكم للأنصار من مواقف صادقات فى الجهاد فى سبيل الله ، كما كان للمهاجرين ، رضوان الله عليهم أجمعين ، وجزاهم خير الجزاء عن الإسلام والمسلمين .

ولحسان بن ثابت ، وقيل : بل لابنه عبد الرحمن ، قصيدة يعدد فيها أيام الأنصار مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ويذكر مواطنهم معه فى أيام غزوه ، منها :

ألست خير معد كلها نفرا ... ومعشرا إن همو عموا وإن حصلوا
قوم همو شهدوا بدرا بأجمعهم ... مع الرسول فما ألوا وما خذلوا
وبايعوه فلم ينكث به أحد ... منهم ولم يك فى إيمانهم دخل

ثم يقول منها :

ويوم بويع كانوا أهل بيعته ... على الجلاد فآسوه وما عدلوا
وغزوة الفتح كانوا فى سريته ... مرابطين فما طاشوا وما عجلوا
ويوم سار رسول الله محتسبا ... إلى تبوك ، وهم راياته الأول
أولئك القوم أنصار النبي وهم ... قومى أصير إليهم حين أتصل
ماتوا كراما ولم تنكث عهودهم ... وقتلهم فى سبيل الله إذ قتلوا

وقال حسان من قصيدة أخرى :

كنا ملوك الناس قبل محمد ... فلما أتى الإسلام كان لنا الفضل
أولئك قومى خير قوم بأسرهم ... فما عد من خير فقومى له أهل
وقائلهم بالحق إن قال قائل ... وحلمهمو عود وحكمهمو عدل

وقال أيضا من قصيدة أخرى :

قومى أولئك إن تسألى ... كرام إذا الضيف يوما ألم

فلما أتانا الرسول الرشيد ... بالحق والنور بعد الظلم
فقلنا صدقت رسول المليك ... هلم إلينا وفينا أقم
فنشهد أنك عبد الإله ... به أرسلت نورا بدين قيم
فإنا وأولادنا جنة ... نقيك ، وفى مالنا فاحتكم
فنحن أولئك إن كذبوك ... فناد نداءا ، ولا تحتشم
وناد بما كنت أخفيته ... نداءاً جهارا ولا تكتتم

الفصل الثانى

سنة الوفود

وهى السنة التاسعة من الهجرة
واستمر قدوم الوفود طوال السنة العاشرة

— ١ —

العرب يدخلون فى الدين أفواجا :

لما فتح الرسول مكة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه .

وإنما كانت العرب تنتظر بالإسلام ماذا يكون من أمر هذا الحى من من قريش ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم ، وماذا تؤول إليه الأمور لأن قريشاً كانوا أئمة العرب وقادتهم ، وكانت قريش هى التى نصبت لحرب رسول الله وخلافه .

فلما فتحت مكة ، ودانت قريش لكلمة الله ، ودوخها الإسلام ، عرف العرب أنه لاطاقة لهم بحرب رسول الله وعداوته .

فدخلوا فى دين الله أفواجا ، يضربون إليه من كل وجه ، وفى ذلك نزلت سورة الفتح ، وهى السورة العاشرة بعد المائة من سور القرآن الكريم ، وآياتها ثلاث : « إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » .

فقدمت على رسول الله وفود العرب من كل مكان .

— ٢ —

وفد تميم :

ورئيسه : عطارد بن حاجب ، ومعه أشراف تميم ، منهم : الأقرع بن حابس ، والزبرقان بن بدر ، وعمرو بن الأهتم ، والحبحاب بن يزيد الذى آخى رسول الله بينه وبين معاوية(١) ، ونعيم بن يزيد ، وقيس بن الحارث ، وقيس بن عاصم .. فى وفد عظيم من تميم .

ومع الوفد عيينة بن حصن الفزارى ، وهو والأقرع قد شهدا مع رسول الله فتح مكة ، وحنينا ، والطائف ، فلما قدم وفد تميم كانا معهم .

ودخل الوفد مسجد رسول الله فى المدينة ، فنادوا من وراء حجراته : أن اخرج إلينا يامحمد ، فآذى ذلك رسول الله من صياحهم فخرج إليهم .

فقالوا : يامحمد ، جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا .

قال : قد أذنت لخطيبكم فليقل .

فقام عطارد فقال :

الحمد لله الذى له علينا الفضل وهو أهله الذى جعلنا ملوكا ووهب لنا أموالا عظاما ، نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعزة أهل المشرق ، وأكثره عددا ، وأيسره عدة ، فمن مثلنا فى الناس؛ ألسنا برؤوس الناس وأولى فضلهم فمن فاخرنا فليعدد مثل ماعددنا ؛ وإنا لونشاء لأكثرنا الكلام ، ولكننا نحيا من الإكثار فيما أعطانا ، وإنا نعرف بذلك .. أقول هذه لأن تأتوا بمثل قولنا ، وأمر أفضل من أمرنا .

---

(١) كان رسول الله قد آخى بين نفر من أصحابه من المهاجرين : بين أبى بكر وعمر ، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف ، وبين أبى ذر والمقداد بن عمرو

فقال رسول لثابت بن قيس الأنصارى الخزرجى : قم فأجب الرجل فى خطبته ، فقام ثابت ، فقال :

الحمد لله الذى السموات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، ووسع كرسيه علمه ، ولم يك شيء قط إلا من فضله ؛ ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا ، واصطفى من خير خلقه رسولا ، أكرمه نسباً ، وأصدقه حديثاً ، وأفضله حسباً ؛ فأنزل عليه كتابه ، وائتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان به ، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه ، وذوى رحمه ، أكرم الناس حسبا وأحسن الناس وجوها ، وخير الناس فعالا ، ثم كان أول الخلق إجابة ، واستجاب لله حين دعاه رسول الله .. فنحن أنصار الله ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله ، منع منا ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه فى الله أبدا ، وكان قتله علينا يسيرا . . أقول قولى هذا ، واستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات ، والسلام عليكم(١)

ثم أذن رسول الله لشاعرهم ، فقام الزبرقان بن بدر ؛ فقال قصيدته :

نحن الكرام فلاحى يعادلنا　　　منا الملوك وفينا تنصب البيع

ويروى : منا الملوك وفينا يقسم الربع .

وكان حسان غائبا ، فبعث إليه رسول الله ، فآتاه واستمع فى مجلسه إلى شاعر تميم الزبرقان ، فقال صلى الله عليه وسلم : قم ياحسان فأجب الرجل فيما قال : فقام حسان ، فأنشد قصيدته :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم　　　قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بهم كل من كانت سريرته　　　تقوى الإله وكل الخير يصطنع(٢)

---

(١) قتل ثابت عام ١٢هـ فى موقعة اليمامة (٢٢٤ - ٢٢٧ :١سير أعلام النبلاء)
(٢) يروى : تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا .

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أوحاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع
إن كان فى الناس سباقون بعدهم فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم إذا تفرقت الأهواء والشيع

فلما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس : وأبى، إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا .

وأسلم الوفد ، وأجازهم رسول الله فأحسن جوائزهم .

— ٣ —

وفد العامريين :

وقدم على رسول الله فى المدينة وفد بنى عامر : عامر بن الطفيل ، أربد ابن قيس ، جبار بن سلمى ، وهم رؤساء القوم وشياطينهم ، وأربد أخو لبيد لأمه .

وكان عامر يريد الغدر برسول الله ، وكان قومه قالوا له : يا عامر ، إن الناس قد أسلموا فأسلم ، قال : والله لقد كنت آليت أن لا أنتهى حتى تتبع العرب عقبى ، أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش . وقال لأربد : إذا قدمنا على الرجل ، فإنى - أشغل عنك وجهه ، فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف .

فلما قدموا على رسول الله قال عامر : يا محمد ، خالنى - اتخذنى خليلا - قال : لا والله حتى تؤمن بالله وحده ، وجعل عامر يكلمه ليتمكن أربد مما يريد ، وجعل أربد لايحير شيئا ، فلما رأى عامر ذلك قال لرسول الله أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا ، فلما ولى قال رسول الله : اللهم اكفنى عامر .

وخرجوا من عند رسول الله ، فقال عامر لأربد : ويلك يا أربد ، أين ما كنت أمرتك به قال : والله ما هممت بالذى أمرتنى به من أمره إلا دخلت بينى وبين الرجل حتى ما أرى غيرك ، أفأضربك بالسيف ؟

وخرجوا راجعين إلى بلادهم ، فمات عامر فى الطريق ، وأصابت أربد صاعقة فأحرقته ، ولقد رثى لبيد أخاه أربد بقصائد كثيرة .

— ٤ —

وفد سعد بن بكر :

وهم الذين كان رسول الله مسترضعا فيهم ، وقد بعثوا إلى رسول الله رجلا منهم يقال له ضمام بن ثعلبة ، وافدا إلى رسول الله .

فقدم عليه ، وأناخ بعيره عند باب المسجد ، ثم عقله ، ودخل المسجد والرسول جالس فى أصحابه .

فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ .

قال رسول الله : أنا ابن عبد المطلب .

قال : أمحمد ؟ .

قال : نعم .

فسأله ضمام عن الإسلام والصلاة والزكاة والصيام والحج . وشرائع الإسلام كلها ، والرسول يجيبه .

حتى إذا فرغ قال : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

وجاء قومه فدعاهم إلى الإسلام وسب لهم : اللات والعزى ، فأسلموا جميعا .

— ٥ —

وفد عبد القيس :

١ — لعبد القيس(١)وفادة على رسول الله سنة سبع فى ستة عشر رجلا منهم وقيل : فى عشرين ، وقيل : فى خمس وعشرين ، وقالوا له : مرنا بأمر فصل نأخذ به ونأمر به من وراءنا . فقال : آمركم بأربع : بالإيمان بالله وحده وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأنهاكم عن الانتباذ فى الدباء والحنتم والمزفت والنقير(٢) .

وقال لهم : احفظوها وادعوا إليهن من وراءكم ، ودعا لهم : اللهم اغفر لعبد القيس ، وقال صلوات الله عليه : يامعشر الأنصار ، أكرموا إخوانكم فإنهم أشبه الناس بكم فى الإسلام ، أسلموا طائعين ، غير مكرهين ، ولا موتورين .

٢ — وفى السنة التاسعة قدم وفد عبد القيس إلى رسول الله وعليهم الجارود بن بشر بن المعلى ، وكان نصرانيا ، فلما انتهى إلى رسول الله كلمه ، فعرض عليه رسول الله الإسلام ، ودعاه إليه ورغبه فيه ، فقال : يا محمد ، إنى قد كنت على دين ، وإنى تارك دينى لدينك ، أفتضمن لى دينى ؟ فقال رسول الله : نعم ، أنا ضامن لك أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه .

فأسلم وأسلم أصحابه(٣) وكان عددهم أربعين رجلا(٤) .

(١) ١ / ٥٥٧ الطبقات الكبرى لابن سعد ، ٦ — ٢٥ / ٢ تحفة المستفيد لعبد القادر .

(٢) الدباء : قشر القرع . الحنتم : الجرار المطلية بالدهان الأخضر — والمزفت : المطلية بالزفت ، والنقير : إناء يتخذ من جذع النخل .

(٣) مات الجارود عام ٢١هـ فى فارس ، وقيل : إن اسم الجارود : الجارود ابن حنش بن المعلى العبدى — وحديث هذا الوفد مع رسول الله طويل (تحفة المستفيد لعبد القادر ج ١ ص ٤ .

(٤) ص ٧ ج ١ تحفة المستفيد — طبع دمشق ١٩٦٣ .

وعاد الوفد ، فدعا الجارود عبد القيس إلى الإسلام ، فأسلموا .

ولما تبعت عبد القيس الغرور بن المنذر بعد موت رسول الله ، وارتدت عن الإسلام قام الجارود يدعوهم إلى الله .

٣ — وكان رسول الله بعث العلاء بن الحضرمى قبل فتح مكة إلى المنذر ابن ساوى العبدى ، فأسلم المنذر ، ومات المنذر بعد وفاة رسول الله ، وقبل أن يرتد أهل البحرين ، والعلاء عندهم أمير لرسول الله على البحرين . .

— ٦ —

وفد بنى حنيفة :

وفد على رسول الله وفد بنى حنيفة ، وفيهم مسيلمة الكذاب ، ونزلوا فى دار كيشة بنت الحارث الأنصارية .

وأسلم الوفد ، فلما انصرفوا عن رسول الله ، وانتهوا إلى اليمامة ، ارتد مسيلمة وتنبأ ، وتكذب لهم ، وقال : إنى قد أشركت فى الأمر معه ، وجعل يسجع لهم الأساجيع ، ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن الكريم : لقد أنعم الله الحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى . . »

ووضع مسيلمة عنهم الصلاة ، وأحل لهم الخمر ؛ وهو مع ذلك يشهد لرسول الله بأنه نبي .

— ٧ —

وفد طىء :

١ — وقدم على رسول الله وفد طىء ، فيهم زيد الخيل ، وهو سيدهم .

فعرض عليهم رسول الله الإسلام ، فأسلموا ، وقال رسول الله :

« ما ذكر لى رجل من العرب بفضل ، ثم جاءنى ، إلا رأيته دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل ، فإنه لم يبلغ كل ما فيه » وسماه رسول الله : زيد الخير .

وفى طريق عودة الوفد إلى بلادهم ، مات زيد فى أرض نجد .

٢ — وكان عدى بن حاتم الطائى شريفا فى طىء ، وكان نصرانيا ، وكان ملكا فى قومه ، ويسير فى نفسه على دين ، وله المرباع فى قومه ، أى ربع الغنيمة ، ولا يأخذه إلا رئيس القوم .

فهرب من الإسلام إلى بلاد الشام ، حين قدمت خيل لرسول الله بلاده وأخذ المسلمون ابنة لحاتم ، مع سبايا من طىء ، فمر بها رسول الله فقالت : يارسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامنن على من الله عليك ، قال : ومن وافدك ؟ قالت عدى بن حاتم قال : الفار من الله ورسوله ، ثم مضى رسول الله ، وتركها ، وفى الغد مر بها رسول الله ، فقالت له مثل ذلك ، وقال لها مثل ما قال بالأمس ، وبعد الغد مر بها فكلمته ، فقال صلى الله عليه وسلم : « قد فعلت ، فلاتعجلى بخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ، ثم آذنينى » .

فقدم ركب من بلى أو قضاعة ، فرأت أن تخرج معهم لأخيها بالشام ، فجاءت رسول الله فقالت : يا رسول الله قدم رهط من قومى ، لى فيهم ثقة وبلاغ ، فكساها رسول الله وحملها ، وأعطاها نفقة ، فخرجت معهم حتى قدمت الشام ، إلى أخيها ، فقالت له : القاطع ، الظالم ، احتملت بأهلك وولدك ، وتركت بقية والدك عورتك ، ثم نزلت وأقامت عنده ، فقال لها: ماذا ترين فى أمر هذا الرجل ؟ قالت : أرى والله أن تلحق به سريعا ، فإن يكن الرجل نبيا فللسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكا فلن تذل فى عز اليمن وأنت أنت ، قال لها : والله إن هذا للرأى .

فخرج حاتم ، حتى قدم على رسول الله المدينة ، فدخل عليه وهو فى مسجده ، فسلم ، فقال : من الرجل ؟ قال : عدى بن حاتم ، فقام رسول الله وانطلق بى إلى بيته ، فتناول وسادة من أدم محشوة ليفا ، فقذفها إليه ، وقال: اجلس عليها ، قال عدى : بل أنت ، فقال صلى الله عليه وسلم : بل أنت ، فجلس عدى عليها وجلس رسول الله بالأرض . ثم قال رسول الله له : لعلك يا عدى إنما يمنعك من دخول فى هذا الدين ماترى من حاجتهم(١) ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم ، حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ماترى من كثرة عدوهم ، وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى الملك والسلطان فى غيرهم ، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم .

فأسلم عدى ، وعاد إلى بلاده داعية إلى الله ورسوله(٢) . .

---

(١) أى من فقر المسلمين وجدب بلادهم .

(٢) توفى عدى عام ٦٨ هـ ، وميلاده عام الفيل ٥٧١ م فى السنة التى ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم – ٢ : ٤ / ٣ الإصابة ، أو عام ٥٦٧ (٢ / ٤٦١ الاستيعاب على هامش الإصابة) – وراجع فيه : سيرة بن هشام ، والطبرى الجزء الثانى .

— ٨ —

وفد مراد :

١ — وقدم فروة بن مسيك المرادى على رسول الله ، مفارقا لملوك كندة ، ومباعدا لهم ، وكان بين مراد وهمدان قبيل الإسلام حرب نالت فيها همدان ـ بقيادة الأجدع بن مالك (١) ـ من مراد مانالت ، فى يوم يقال له « يوم الردم » ، وفيه قال فروة بن مسيك من قبل :

فان نغلب فغلابون قدما ... وإن نغلب فغير مغلبينا
فلو خلد الملوك إذن خلدنا ... ولو بقى الكرام إذا بقينا

وانتهى فروة إلى رسول الله ، فأكرمه الرسول ، واستعمله على مراد ومذحج وزبيد ، وبعث معه خالد بن سعيد على الصدقة ، فكان معه فى بلاده حتى توفى رسول الله (٢) .

٢ — وفد زبيد :

وقدم على رسول الله عمرو بن معد يكرب الزبيدى فى وفد من قومه .

فأسلم عمرو والوفد :

---

(١) وقيل : بل بقيادة مالك بن خريم الهمدانى .

(٢) كان عمرو بن معد يكرب الزبيدى قد قال لقيس بن مكشوح المرادى ، حين انتهى إليهم أمر رسول الله : ياقيس ، إنك سيد قومك ، وقد ذكر لنا أن رجلا من قريش يقال له محمد قد خرج بالحجاز ، يقول : إنه نبى ، فانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه ، فإن كان نبيا كما يقول فإنه لن يخفى عليك ، إذا لقيناه اتبعناه ، وإن كان غير ذلك علمنا علمه . . فأبى عليه قيس ذلك ، وسفه رأيه ، فذهب عمرو وحده إلى رسول الله .

وأقام عمرو فى قومه من بنى زبيد، وعليهم فروة بن مسيك، فلما توفى رسول الله ارتد عمرو عن الإسلام.

— ٩ —

وفد كندة :

وقدم على رسول الله الأشعث بن قيس فى وفد كندة، فى ثمانين راكبا منهم، فلما دخلوا على رسول الله قال : ألم تسلموا ؟ قالوا : بلى . قال : فما بال هذا الحرير فى أعناقكم ؟، فشقوه منها، فألقوه، ثم قال له الأشعث يارسول الله، نحن آكلوا المرار، وأنت ابن آكل المرار، فتبسم رسول الله، وقال: ناسبوا بهذا النسب العباس (١) بن عبد المطلب وربيعة بن الحارث، ثم قال لهم : لا، بل نحن بنو النضر بن كنانة لا ننتفى من أبينا.

وأسلم الوفد . وعاش الأشعث مجاهدا حتى توفى عام ٤٠ هـ عن ٦٣ عاما (٢).

— ١٠ —

وفد الأزد :

وقدم على رسول الله، وفد الأزد، وعليه صرد بن عبد الله الأزدى،

---

(١) كانت كندة ملوكا، وكان العباس وربيعة، إذا أبعدا فى السير فى أرض العرب فى تجاراتهم فى الجاهلية، فسئلا : من هما ؟ قالا : نحن بنو آكل المرار، يتعززان بذلك.

ـ وفى رواية أن وفد كندة كان سبعين رجلا ـ ٢٥ / ٢ سير أعلام النبلاء، والأشعث بن قيس زوجه أبو بكر أخته ـ ٢٦ / ٢ المرجع السابق ـ وتوفى الأشعث عام ٤٠ هـ بالكوفة ٢٨ / ٢ سير أعلام النبلاء.

(٢) ٢ : ٢٨ سير أعلام النبلاء.

فأسلموا ، وأمر رسول الله صرد الأزدى على من أسلم من قومه ، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن ، فسار صرد إلى جرش ، وهى يومئذ مدينة مغلقة ، بها قبائل من قبائل اليمن ، وانضوت إليهم خثعم ، فدخلوها معهم حين سمعوا بمسير المسلمين إليهم . . فحاصرها صرد والمسلمون قريبا من شهر ، ثم فك الحصار عنهم ،فخرج إليه من فيها يقاتلونه فقاتلهم وقتل منهم ، وخرج وفد من جرش حتى قدموا على رسول الله ، فأسلموا .

— ١١ —

رسول ملوك حمير فى رمضان من السنة التاسعة :

وكتب ملوك حمير كتابا إلى رسول الله ، بعثوا به مع رسول منهم ، وفيه إسلامهم ، فوصل الكتاب فى مقدم رسول الله من تبوك ، وهؤلاء هم ملوك حمير : الحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، ونعيم قيل ذى رعين ومعافر وهمدان .

فكتب إليهم رسول الله :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله النبى

إلى الحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، والنعمان قيل ذى رعين ومعافر وهمدان .

أما بعد ذلكم . .

فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو

أما بعد . .

فإنه قد وقع بنا رسولكم منقلبنا من أرض الروم ، فلقينا بالمدينة ، فبلغ ما أرسلتم به ، وخـبر ماقبلكم ، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين .

وإن الله قد هداكم بهداه إن أصلحتم ، وأطعتم الله ورسوله ، وأقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وأعطيتم من المغانم خمس الله وسهم النبي ، وصفيه ، وما كتب على المؤمنين من الصدقة ..

أما بعد ، فإن رسول الله محمدا النبي أرسل إلى زرعة ذى يزن . أن إذا آتاكم رسلى فأوصيكم بهم خيرا ، معاذ بن جبل(١) ، وعبد الله بن زيد ، ومالك بن عبادة . وعقبة بن نمر ، ومالك بن مرة ، وأصحابهم ، وأن أجمعوا ماعندكم من الصدقة والجزية من مخاليفكم وأبلغوها رسلى . وإن أميرهم معاذ بن جبل ، فلا ينقلبن إلا راضيا .

أما بعد فإن محمداً يشهد أن لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله . ثم إن مالك بن مرة الرهاوى قد حدثنى أنك أسلمت من أول حمـير ، وقتلت المشركين ، فابشر بخير ، وآمرك بحمير خيرا ، ولا تخونوا ولا تخاذلوا ، فإن رسول الله هو مولى غنيكم وفقيركم ، وإن الصـدقة لاتحل لمحمد ولا لأهل بيته ، إنما هى زكاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل ، وإن مالكا قد بلغ الخبر ، وحفظ الغيب ، وآمركم به خيرا .

وإنى قد أرسلت إليكم من صالحى أهلى وأولى دينهم وأولى علمهم .

---

(١) لما بعث الرسول معاذا إلى اليمن خرج الرسول يوصيه ، ومعاذ راكب ورسول الله يمشى تحت راحلته ، فلما فرغ قال : يامعاذ إنك عسى أن لاتلقانى بعد عامى هذا ولعلك أن تمر بمسجدى ومقامى فبكى معاذ لفراق رسول الله ، فقال الرسول : لاتبك يامعاذ (٣٢١ - ١ سير أعلام النبلاء للذهبى) .

وأمركم بهم خيرا ، فإنهم منظور إليهم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته(١) .

— ١٢ —

رسول فروة الجذامى :

وبعث فروة الجذامى إلى رسول الله رسولا بإسلامه ، وكان عاملا للروم على من يليهم من العرب ، وكان منزله معان وما حولها من أرض الشام ، وأهدى له بغلة بيضاء ، فلما علم الروم بإسلامه أخذوه فحبسوه عندهم ، ثم صلبوه على ماء بالشام يقال له عفرى .

— ١٣ —

إسلام بنى الحارث بن كعب على يدى خالد :

بعث رسول الله خالد بن الوليد فى شهر ربيع الآخر سنة عشر إلى بنى الحارث بن كعب بنجران ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ، ثلاثا ، فإن استجابوا فاقبل منهم ، وإن لم يفعلوا فقاتلهم .

فقدم خالد عليهم ، وبعث الركبان يقولون : أيها الناس ، أسلموا تسلموا فأسلم الناس ، فأقام فيهم ، يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه .

---

(١) عبد كلال أمير حميرى (٤٥٥ - ٤٦٠م) ، وكان أحد قادة الملك حسان تبع ، والفترة الماضية الخمس سنوات كان وصيافيها على العرش ، وقد اعتنق المسيحية ، وتولى تبع حسان بعد عبد كلال وبعد تبع جاء إلى الحكم مرثد بن عبد كلال أخو تبع لأمه ، وأولاد عبد كلال كانوا قاده فى الجيش الحميرى وهم كثيرون ، وقد تسلم الرسول بعد عودته من تبوك (٨ هـ) رسالة من أولاد عبد كلال يعلنون فيها قبولهم للإسلام ، ووفد على رسول الله منهم : الحارث ونعيم ابنا عبد كلال (مجله العرب ص ٦٢٨ - ٦٣٤ - عدد مارس ١٩٧١ - مقال لخالد العسلى) .

وأقام بين أظهرهم ، يأمرهم بما أمر الله به ، وينهاهم عما نهاهم الله عنه . ، وكتب إلى رسول الله بذلك وكتب إليه الرسول :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد النبي رسول الله إلى خالد بن الوليد سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد ، فإن كتابك جاء بي مع رسولك تخبر أن بنى الحارث بن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلهم ، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام ، وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبد الله ورسوله ، وأن قد هداهم الله بهداه ، فبشرهم وأنذرهم ، وأقبل وليقبل معك وفدهم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فجاء خالد برؤوسهم ، فأعلنوا إسلامهم بين يدى رسول الله ، فأمر عليهم رسول الله قيس بن الحصين . ثم رجعوا إلى قومهم ، قبل وفاة رسول الله بأشهر ، وكان رجوعهم فى صدر ذى القعدة من السنة العاشرة .

وبعث رسول الله إليهم بعد أن انصرف وفدهم عمرو بن حزم ليفقههم فى الدين ، ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام ، ويأخذ منهم صدقاتهم ، وكتب له كتابا عهد إليه فيه عهده ، وأمره فيه بأمره ، فيه :

« وينهى ـ إذا كان بين الناس هيج ـ عن الدعاء إلى القبائل والعشائر ، وليكن دعواهم إلى الله عزوجل وحده لاشريك له » .

— ١٤ —

رفاعة بن زيد الجذامى :

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هدنة الحديبية قبل خيبر

رفاعة بن زيد الجذامى ، فأهدى لرسول الله غلاما ، وأسلم ، وكتب له رسول الله كتابا إلى قومه ، فيه : إنى بعثته إلى قومه عامة ، ومن دخل فيهم ، يدعوهم إلى الله وإلى رسوله .

فأجابه قومه ، وأسلموا .

— ١٥ —

وفد همدان :

وقدم وفد همدان إلى رسول الله ، فلقوا رسول الله فى عودته من تبوك فخطب مالك بن نمط بين يديه ، وأعلن إسلام قومه .

فكتب لهم رسول الله كتابا بعهد الله وذمام رسوله .

ولمالك بن نمط قصيدة فى مدح الرسول ، منها :

ذكرت رسول الله فى فحمة الدجى	ونحن بأعلى رحرحان وصلدد
حلفت برب الراقصات إلى منى	صوادر بالركبان من هضب قردد
بأن رسول الله فينا مصدق	رسول أتى من عند ذى العرش مهتد
فما حملت من ناقة فوق رحلها	أشد على أعدائه من محمد
وأعطى إذا ما طالب العرف جاءه	وأمضى بحد المشرفى المهند

— ١٦ —

وفد مزينة :

وقدم على رسول الله وفد مزينة .

وفد نجران :

وفى السنة العاشرة قدم على رسول الله وفد نجران ، ستون راكبا ،

منهم أربعة وعشرون من أشرافهم ، فيهم : العاقب أمير القوم ، والسيد صاحب رحلهم ، وأبو حارثة أسقفهم وإمامهم وصاحب مدراسهم ، وكان قد شرف فيهم ودرس كتبهم ، كانت ملوك الروم قد شرفوه ومولوه . وخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات ، لما بلغهم من علمه واجتهاده ، وهو أبو حارثة بن علمة أخو بكر بن وائل .

وفد دوس :

وقد قدم على رسول الله من قبل ذلك ، بخيبر .

قدم عليه وفود كثيرة أخرى ، منها :

وفد طارق بن عبد الله .

وفد تجيب سنة تسع من الهجرة ، وهم من السكون .

وفد بنى سعد بن هذيم بن قضاعة وهم من أهل اليمن فى سنة تسع .

ووفد بنى فزارة .

ووفد بنى أسد .

ووفد بهراء من اليمن سنة تسع .

ووفد عذرة .

ووفد بلى فى ربيع الأول من سنة تسع .

ووفد ذى مرة .

ووفد خولان .

ووفد محارب فى العام العاشر .

ووفد صداء فى سنة ثمان .

ووفد غسان فى شهر رمضان سنة عشر .

ووفد سلامان .

« عبس

« عامر

« الأزد

« بنى المنتفق

« النخع

وفاة إبراهيم ابن رسول الله

فى السنة التاسعة وفى يوم الثلاثاء ٢٧ كانون الثانى عام ١٦٣٣ م . لعشر خلون من ربيع الأول ، توفى إبراهيم بن رسول الله ، وهو ابن ثمانية عشر شهراً ، ودفن بالبقيع . وانكسفت الشمس يوم موته ، فقال الناس : إنما كسفت لموت إبراهيم ، فقال رسول الله : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لاينكسفا لموت أحد ولا لحياته . . وفى هـــذه السنة أيضا ماتت أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعبان .

عمال الصدقات لرسول الله

وفى هذه السنة بعث رسول الله أمراءه وعماله على الصدقات إلى كل ماوطىء الاسلام :

فبعث المهاجرين أبى أمية إلى صنعاء فخرج عليه الأسود العنسى الكذاب وهو بها .

وبعث زياد بن لبيد الأنصارى إلى حضر موت .

وبعث عدى بن حاتم على كل طىء وصدقاتها وعلى بنى أسد .

وبعث الزبرقان على ناحية من بنى سعد .

وقيس بن عاصم على ناحية من بنى سعد .

والعلاء بن الحضرمى على البحرين .

وعلى بن أبى طالب إلى نجران .

وعيينة بن حصن إلى بنى تميم .

ويزيد بن الحصين إلى أسلم وغفار .

ورافع بن مكيث إلى جهينة .

وعمرو بن العاص إلى فزارة .

والضحاك بن سفيان إلى بنى كلاب .

وبشير بن سفيان إلى بنى كعب .

وابن اللتبية الأزدى إلى بنى ذبيان .

ومالك بن نويرة على صدقات بنى حنظلة .

وممن وجههم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن معاذ بن جبل .

وقد جمع القرآن على عهد رسول الله أربعة كلهم من الأنصار : معاذ ابن جبل ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد(١) .

ومات معاذ عام ١٨ هـ عن ٣٨ عام فميلاده قبل الهجرة بعشرين عاما ، وقبل البعثة النبوية بسبعة أعوام ، أى عام ٣٣ من ميلاد الرسول الكريم .

وقد سأله الرسول حين وجهه إلى اليمن . « بم تقضى يا معاذ ؟ » .

فأجاب قائلا : بكتاب الله .

---

(١) ١ : ٢٨١ سير أعلام النبلاء للذهبى .

قال الرسول : « فإن لم تجد فى كتاب الله » .

قال معاذ : « أقضى بسنة الرسول » .

قال الرسول : « فإذا لم تجد فى سنة رسوله ؟ » .

قال معاذ « أجتهد رأيى ، لا آلو » .

فتهلل وجه الرسول وقال : « الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى رسول الله » .

ويقول « عائذ الله بن عبد الله » : « دخلت المسجد يوما مع أصحاب الرسول فى أول خلافة عمر ، فجلست مجلسا فيه بضع وثلاثون كلهم يذكرون حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وفى الحلقة شاب شديد الأدمة حلو المنطق ، وضىء ، وهو أشب القوم سنا ، فإذا اشتبه عليهم من الحديث شىء ردوه إليه فأفتاهم ، ولا يحدثهم إلا حين يسألونه ، ولما قضى مجلسهم دنوت منه وسألته من أنت يا عبد الله ؟ قال : أنا معاذ ابن جبل » .

ويقول فيه عمر وهو أمير المؤمنين: « لولا معاذ بن جبل لهلك عمر » .

وحينما مات الرسول . كان معاذ باليمن منذ بعثه النبى إليها ، يعلم المسلمين ويفقههم فى الدين . . ولكنه عاد إلى المدينة فى خلافة أبى بكر . وكان عمر قد علم أن معاذا أثرى . . فاقترح على الخليفة أن يشاطره ماله . . ولم ينتظر عمر . . بل أسرع إلى دار معاذ وألقى عليه مقالته . .

ولكن معاذ كان طاهر الكف ، طاهر الذمة ، لم يكتسب إثما ، ولم يقترف شبهة ، لذلك رفض عرض عمر وناقشه رأيه .

وتمر ليلة ، وإذ بمعاذ يطوى الأرض مسرعا إلى دار عمر ، ولا يكاد يلقاه حتى يقول ودموعه تسح على خديه : « لقد رأيت فى منامى أنى

أخوض حومة ماء وأخشى على نفسي الغرق ، حتى جئت فخلصتني يا عمر » .

وذهبا معا إلى أبي بكر . . وسأله معاذ أن يشاطره ماله . ولكن أبا بكر الذي ما كان ليترك لمعاذ درهما لو علم أنه أخذه بغير حق يقول له : « لا آخذ منك شيئا » .

وهاجر معاذ إلى الشام ، حيث يعيش معلما وفقيها . . فإذا مات أميرها أبو عبيدة عام ١٨ هـ استخلفه أمير المؤمنين عمر مكانه . . ولا يمضي عليه في الإمارة سوى أشهر معدودات حتى يلقى ربه عام ١٨ هـ .

وحينما طعن عمر ، طلب إليه أصحابه أن يوصي بالخلافة فأجاب : « لو كان معاذ بن جبل حيا ، لوليته ، ثم قدمت على ربي عز وجل ، فسألني من وليت على أمة محمد لقلت :

وليت عليهم معاذ بن جبل بعد أن سمعت النبي يقول : معاذ بن جبل إمام العلماء يوم القيامة » . .

ووصفه ابن مسعود فقال : إن معاذا كان أمة قانتا لله حنيفا ، ولقد كنا نشبه معاذا بإبراهيم عليه السلام .

وكما كان دائب الدعاء إلى الله بقوله : « اللهم أعني على ذكرك وشكرك ، وحسن عبادتك » كان دائب الإلحاح على الناس أن يلتمسوا العلم الصحيح النافع ويقول : « احذروا زيغ الحكيم . واعرفوا الحق بالحق ، فإن للحق نورا » . .

وكان يرى العبادة قصدا وعدلا .. قال له يوما أحد المسلمين .. علمني .. فسأله معاذ : « وهل أنت مطيعي إذا علمتك ؟ » . . قال الرجل : إني على طاعتك لحريص .. فقال له معاذ : « صم ، وأفطر .. وصل ، ونم واكتسب ولا تأثم .. ولا تموتن إلا مسلما . . وإياك ودعوة المظلوم » . .

كتاب مسيلمة الكذاب إلى رسول الله

من مسيلمة إلى محمد رسول الله .

سلام عليك . أما بعد :

فإنى قد أشركت فى الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ، ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشا قوم يعتدون .

كتاب رسول الله إلى مسيلمة

فى آخر سنة عشر

بسم الله الرحمن الرحيم .

من محمد رسول الله .

إلى مسيلمة الكذاب .

السلام على من اتبع الهدى .

أما بعد : فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين .

الفصل الثالث

حجة الوداع

فى ذى الحجة من السنة العاشرة

— ١ —

لما دخل على رسول الله ذو القعدة ، تجهز للحج ، وأمر الناس بالجهاز له ، وخرج من المدينة لخمس ليال بقين من ذى القعدة ، واستعمل عليها أبادجانة الساعدى(١) ، ويقال : بل ، سباع بن عرفطة الغفارى . .

ودخل رسول الله مكة .

وجاء على من نجران ، فلقى رسول الله بمكة وقد أحرم ، وكان قد خلف على جنده الذين معه رجلا من أصحابه ، وتعجل هو إلى رسول الله .

ومضى رسول الله على حجه ، فأرى الناس مناسكهم ، وأعلمهم سنن حجهم ، وخطب الناس خطبته التى بين فيها ما بين .

ولقد كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك العام ، ما يزيد على عشرة آلاف صحابى ، كلهم خرجوا لينالوا الخير والبركة ، بالاقتداء والتأسى برسول الله عليه السلام فى حجه ونسكه ، فكان ذلك الحج الكبير الذى شهدته — عرفة — لأول مرة فى تاريخها من حين البعثة النبوية إلى أن كان ذلك العام . . وقد جمع لنا تلك المشاهد والصور الرائعة . الصحابى الجليل — جابر بن عبد الله — رضى الله عنه وأرضاه ، فى حديثه الطويل الذى هو الأصل فى بيان — مناسك الحج — لأنه أجمع حديث ورد فى بيان صفة الحج وشروطه ، وأركانه ، وطريقة أدائه ، وفى المناسك التى ينبغى أن يحرص عليها الإنسان ليكون حجه موافقا لهدى الرسول الكريم وسنته العطرة .

---

(١) ثبت يوم أحد وشارك فى قتل مسيلمة وتوفى يومئذ سنة ١٢ فى موقعة اليمامة.

أخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن جعفر بن محمد، عن أبيه — محمد بن على بن حسين — قال : — دخلنا على جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، وأنا يومئذ غلام شاب ، فسأل عن القوم حتى انتهى إلى ، فقلت : أنا محمد بن على ابن حسين ، فأهوى بيده إلى رأسى فنزع زرعى الأعلى ، ثم نزع زرعى الأسفل ، ثم وضع كفه بين ثديي فقال مرحبا بك يا ابن أخى ، سل عما شئت ؟ فسألته — وهو أعمى — وحضر وقت الصلاة فقام فى نساجة ملتحفا بها ، كلما وضعها على منكبه رجع طرفاها إليه من صغرها ، ورداؤه إلى جنبه على المشجب ، فصلى بنا ، فقلت:أخبرنى عن حجة رسول الله — ص — فقال بيده ، فعقد تسعا فقال : إن رسول الله — ص — مكث تسع سنين لم يحج ، ثم أذن فى الناس بالعاشرة أن رسول الله - ص- حاج ، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله — ص — ويعمل مثل عمله .

فخرجنا معه حتى إذا أتينا — ذا الحليفة — ولدت أسماء بنت عميس — زوج أبى بكر محمد بن أبى بكر ، فأرسلت إلى رسول الله — ص — كيف أصنع ، قال : اغتسلى واستثفرى بثوب وأحرمى .

فصلى رسول الله — ص فى المسجد ، ثم ركب — القصواء(١) حتى إذا استوت به ناقته على البيداء ، نظرت مد بصرى بين يديه من راكب وماش ، وعن يمينه مثل ذلك ، وعن يساره مثل ذلك،ومن خلفه مثل ذلك ، ورسول الله — ص — بين أظهرنا ، وعليه ينزل القرآن ، وهو يعرف تأويله ، وما عمل به من شىء عملنا به . فأهل(٢) بالتوحيد — لبيك

---

(١) القصواء : اسم لناقة النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) فاهل : الإهلال رفع الصوت بالتلبية .

اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمـــد والنعمة لك والملك لاشريك لك — .

وأهل الناس بهذا الذى يهلون به ، فلم يرد رسول الله — ص — عليهم شيئا منه ، ولزم رسول الله — ص — تلبيته .

قال جابر رضى الله عنه : لسنا ننوى إلا الحج ،لسنا نعرف العمرة ، حتى إذا أتينا البيت معه ، استلم الركن ، فرحل ثلاثا ، ومشى أربعا ، ثم نفد إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ : — واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى — .

فجعل المقام بينه وبين البيت ، فكان يقرأ فى الركعتين — قل هو الله أحد — و — قل يا أيها الكافرون — ثم رجع إلى الركن فاستلمه ، ثم خرج من الباب إلى الصفا والمروة من شعائر الله ..— أبدأ بما بدأ الله به ، فبدأ بالصفا ، فرقى عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال :

— لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، لا إله إلا الله وحـــده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده — .

ثم دعا بين ذلك ، قال مثل هذا ثلاث مرات ، ثم نزل إلى المروة ، حتى إذا انصبت قدماه فى بطن الوادى سعى ، حتى إذا صعدنا مشى ، حتى إذا أتى المروة ففعل على المروة كما فعل على الصفا .

حتى إذا كان آخر طوافه على المروة قال ـ لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسق الهدى وجعلتها عمرة ، فمن كان منكم ليس معه هدى فليحل ، وليجعلها عمرة ـ . فقام سراقة بن مالك فقال يا رسول الله ألعامنا هذا أم لأبد ؟ فشبك رسول الله ـ ص ـ أصابعه واحدة فى الأخرى وقال دخلت العمرة فى الحج مرتين ، لا بل لأبد ، أبد .

وقدم علي من اليمن ببدن للنبي — ص — فوجدنا فاطمة رضي الله عنها ممن حل . ولبست ثوبا صبيغا واكتحلت ، فأنكر ذلك عليها ، فقالت : أن أبي أمر بهذا .

قال : فكان علي يقول بالعراق : فذهبت إلى رسول الله — ص — محرشا(١) على فاطمة الذي صنعت ، مستفتيا لرسول الله — ص — فيما ذكرت عنه ، فأخبرته أني أنكرت ذلك عليها : فقال صدقت . . ماذا قلت حين فرضت الحج ؟ .

قال قلت : اللهم إني أهل بما أهل به رسولك . . قال : فإن معي الهدي فلا تحل قال : فكان جماعة الهدي الذي قدم به علي من اليمن ، والذي أتى به النبي — ص — مائة .

قال : فحل الناس كلهم وقصروا إلا النبي — ص — ومن كان معه هدي .

فلما كان يوم — التروية — توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج ، وركب رسول الله — ص — فصلى بها الظهر والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، والفجر .

ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس ، وأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة .

فسار رسول الله — ص — ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام ، كما كانت قريش تصنع في الجاهلية(٢) .

---

(١) محرشا : أي مغريا الرسول — ص — على عتابها ومؤاخذتها .

(٢) كانت قريش في الجاهلية لا تقف بعرفة وإنما تقف بالمزدلفة ، لأن مزدلفة من الحرم وكانوا يقولون : نحن أهل حرم الله فلا نخرج منه ، وقد ظنت قريش أن النبي سيقف بالمشعر الحرام في مزدلفة على عادتهم ، فتجاوزه النبي — ص — إلى عرفات ولم يقف فيه ، لأن الله تعالى أمره بذلك .

فأجاز(١) رسول الله - ص - حتى أتى عرفة ، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة ، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس ، أمر بالقصواء فرحلت(٢) له ، فأتى بطن الوادى فخطب الناس :

ثم أذن ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ولم يصل بينهما شيئا ؛ ثم ركب رسول الله — ص — حتى أتى الموقف فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات ، وجعل جبل المشاة(٣) بين يديه ، واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلا ، حتى غاب القرص ، وأردف أسامة خلفه .

ودفع رسول الله — ص — وقد شنق للقصواء الزمام حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله ، ويقول(٤) بيده اليمنى — أيها الناس : السكينة السكينة كلما أتى جبلا من الجبال أرخى لها قليلا حتى تصعد ، حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ، ولم يسبح(٥) بينهما شيئا .

ثم اضطجع رسول الله — ص — حتى طلع الفجر ، حين تبين له الصبح بأذان وإقامة . ثم ركب القصواء ، حتى أتى المشعر الحرام ،فاستقبل القبلة فدعا الله وكبره وهلله ووحده ، فلم يزل واقفا حتى أسفر جدا ، فدفع قبل أن تطلع الشمس ، وأردف — الفضل بن عباس — وكان رجلا حسن الشعر ، أبيض وسيما ، فلما دفع رسول الله — ص — مرت به

---

(١) فاجاز : أى جاوز المزدلفة .
(٢) فرحلت : أى جعل عليها الرحل .
(٣) جبل المشاة : المراد به مجتمعهم .
(٤) أى يشير بها قائلا : الزموا السكينة .
(٥) ولم يسبح : أى لم يتنفل بين الصلاتين .

ظعن(١) يجرين ، فطفق الفضل ينظر إليهن فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على وجه الفضل ، فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر فحول رسول الله صلى الله عليه وسلم يده من الشق الآخر على وجه الفضل ، يصرف وجهه من الشق الآخر ، حتى أتى بطن محسر ، فحرك قليلا ، ثم سلك الطريق الوسطى التى تخرج على الجمرة الكبرى ، حتى أتى الجمرة التى عند الشجرة فرماها بسبع حصيات ، يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخذف رمى من بطن الوادى ، ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثا وستين بيده ، ثم أعطى عليا فنحر ماغبر(٢) وأشركه فى هديه ، ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت فى قدر فطبخت ، فأكلا من لحمها وشربا من مرقها .

ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأفاض إلى البيت : فصلى بمكة الظهر .

فأتى بنى عبد المطلب يسقون على زمزم فقال : انزعوا بنى عبد المطلب ، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم ، فناولوه دلوا فشرب منه .

وكذلك رواه مسلم .

— ٢ —

لماذا سميت خطبة الوداع

١ — هى آخر خطب الرسول ودع فيها المسلمين وأومأ إلى ذلك فيها وتسمى خطبة أيام التشريق وهى الأيام التى ينحر فيها الهدى فى موسم الحج وقد خطب الرسول فى عرفة من أيام التشريق وكان مبلغ رسول الله إلى الناس بعرفة ربيعة بن أمية بن خلف .

٢ — موضوعها : التحذير من البغى والعدوان وسنن الجاهلية الأولى وبيان أصول الإسلام .

---

(١) ظعن : جمع ظعينة : وهى المرأة التى تركب البعير وأصل الظعينة فى اللغة البعير نفسه ثم أطلق على المرأة مجازا

(٢) غبر : أى بقى

٣ — معانيها : قوية سامية متسقة وواضحة مع الدقة والعمق فى تناولها فهى مسوقة سياق الفكر المرتب والمنطق السليم .

٤ — أسلوبها : تمتاز بسلاسة أسلوبها وسهولته مع الوضوح والخلو من الصنعة والتعقيد والغموض إلى الإيجاز فى بلاغة وجزالة وإلى تأثر الأسلوب ببلاغة القرآن الكريم بالاقتباس من أساليبه والاحتذاء بطريقة تصويره وجمال تعبيره وفيها من روائع التشبيه والكناية والاستعارة ماهو نابع من البلاغة النبوية هذا مع حلاوة الألفاظ وعذوبتها وسلاستها وتجاوب الفقرات فيها تجاوباً يجمع بين بلاغة اللفظ وسمو المعنى .

— ٣ —

مضمون الخطبة النبوية فى حجة الوداع :

١ — الدعوة إلى التوحيد الخالص والإيمان الكامل .

٢ — الدعوة إلى وجوب التمسك بكتاب الله وسنة رسوله لأنهما الهدى الذى لايضل من تمسك به .

٣ — الدعوة إلى تبليغ الرسالة للناس كافة لأنها رسالة عامة .

٤ — الدعوة إلى وجوب احترام حقوق الإنسان وبخاصة فى النفس والعرض والمال .

٥ — إلغاء التعامل بالربا لما فيه من استغلال للضعيف والفقير .

٦ — تأكيد حقوق المرأة ورعايتها ورعاية العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة ،

٧ — إعلان المساواة التامة بين الإنسان فى الحقوق والواجبات مساواة تامة بغض النظر عن اللون والجنس .

٨ — صيانة الروابط الدينية والأخوية بين المسلمين .

٩ — التحذير من فتن الشيطان والتنبيه إلى وجوب التزام اليقظة والحذر من إفساده للأخوة بين المسلمين وتفريق صفوفهم .

وهكذا رأينا الخطبة إعلاناً دستورياً للرسالة المحمدية وللأمة الإسلامية، كما كانت أعظم وأول إعلان إنسانى عرفته البشرية لحقوق الإنسان .

— ٤ —

الأفكار الرئيسية فى الخطبة :

١ — حقوق الإنسان والتزام رعايتها .

٢ — وحدة المسلمين ووجوب الحرص عليها .

٣ — المرأة فى المجتمع الإسلامى حقوقها وواجباتها .

٤ — أداء الأمانة والوفاء بها .

٥ — الدعوة إلى تبليغ شريعة الإسلام للناس كافة .

— ٥ —

وهذه هى الخطبة الشريفة :

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أيها الناس: اسمعوا قولى ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً ..

أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت .

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها .

وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أنه لا ربا ، وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله .

وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضع : دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب(١) ، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية .

أما بعد - أيها الناس : فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم .

أيها الناس : إن النسىء زيادة فى الكفر ، يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاما ويحرمونه عاما ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله ؛ وإن الزمان قد استدار يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم : ثلاثة متوالية ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان .

أما بعد أيها الناس : فإن لكم على نسائكم حقا ، ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح . . فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

واستوصوا بالنساء خيرا ، فإنهن عندكم عوان ، لا يملكن لأنفسهم شيئا ، وإنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله .

فاعقلوا أيها الناس قولى ، فإنى قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا ، أمرا بينا : كتاب الله ، وسنة نبيه .

أيها الناس : اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن

---

(١) كان مسترضعا فى بنى ليث فقتلته هذيل ٤ / ٢٧٥ سيرة ابن هشام .
وكان اسم هذا الابن آدم ، كان صغيرا يحبو أمام البيوت ، فأصابه حجر فقتله ١٨٦ جـ ١ سير أعلام النبلاء للذهبى .

المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ، ألا هل بلغت ؟

قالوا : نعم

قال : اللهم اشهد

وكان الرجل الذى يصرخ فى الناس بقول رسول الله وهو بعرفة ربيعة ابن أمية بن خلف .

ويروى من هذه الخطبة النبوية الشريفة فى رواية عمرو بن خارجة .

أيها الناس : إن الله قد أدى إلى كل ذى حق حقه ، وإنه لاتجوز وصية لوارث ، والولد للفراش ، وللعاهر الحجر ، ومن ادعى إلى غير أبيه ، أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لايقبل الله منه صرفا ولا عدلا .

— ٦ —

وقضى رسول الله الحج ، وقد أراهم مناسكهم ، وأعلمهم مافرض الله عليهم من حجهم من الموقف ورمى الجمار وطواف البيت ، وما أحل لهم من حجهم وما حرم عليهم .

فكانت حجة البلاغ ، وحجة التمام كما كانت هى حجة الوداع ، وذلك أن رسول الله لم يحج بعدها . ولقد نعيت إلى رسول الله نفسه فى سورة الفتح الجليلة : « إذا جاء نصر الله والفتح » .

هذا وفى خطبة حجة الوداع قال النبى صلى الله عليه وسلم بعد تحريم النسىء إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض » .

وفى تفسير هذه العبارة يقول الدكتور إبراهيم فرج رئيس قسم الجيولوجيا بكلية العلوم بجامعة الرياض :

يمكننا أن نثبت بالحساب أن أول المحرم سنة ١١ﻫ يوافق أول نيسان (أبريل) سنة ٤٣٩٢ عبرية والمحرم هو أول السنة العربية القمرية ونيسان أول السنة العبرية الدينية .

فاستدارة الزمان إشارة إلى أنه بعد انقضاء ذى الحجة سنة ١٠ﻫ يعود الاتفاق بين مبدأ السنة القمرية العربية ومبدأ السنة الدينية العبرية كأن الأخيرة لم تتأثر بالكبس وعادت كما كانت عليه فى القدم .

لقد حرم النسىء فى السنة العاشرة للهجرة وأصبحت الشهور العربية قمرية بحتة ، وعلى هذا الأساس يمكننا أن نحسب التاريخ العبرى الموافق لأول المحرم سنة ١١ ﻫ :

وذلك بأن نأخذ تاريخين متفقين فى وقتنا الحاضر أحدهما هجرى والآخر عبرى ، ونرجع بالأخير المدة بين التاريخ الهجرى وأول المحرم سنة ١١ فالتاريخ العبرى الذى نصل إليه هو الذى يوافق أول المحرم سنة ١١

وبالرجوع إلى نتيجة الحكومة المصرية سنة ١٣٧٤ ﻫ نجد أن أول المحرم فى هذه السنة يوافق أول طبت سنة ٥٧٠٤ عبرية والمدة من أول المحرم سنة ١١ إلى أول المحرم سنة ١٣٦٣ تساوى ٣٥٢ عاما .

وبالرجوع ٩ أشهر من هذا التاريخ نصل إلى أول نيسان سنة ٤٣٩٢ عبرية

وينتج أن أول المحرم سنة ١١ ﻫ يوافق أول نيسان سنة ٤٣٩٣ د

هذا ويعتقد اليهود أن مبدأ تاريخهم راجع إلى بدء خلق العالم (١) .

وهذا الرأى عندى قابل للمناقشة والنقد .

---

(١) راجع كتاب التقاويم لمحمد محمد فياض سنة ١٩٥٨ الألف كتاب (١٦٣) مكتبة نهضة مصر ومطبعتها بالفجالة القاهرة صفحة ١٧٧ — ١٧٨ ، ص ١٠١

العائد العظيم

وعاد رسول الله صلوات الله عليه من حجة الوداع إلى منزله فى المدينة المنورة ، بعد منصرفه من مكة المكرمة ، فقضى صلوات الله عليه فى المدينة بقية ذى الحجة ، والمحرم ، وصفر من السنة الحادية عشرة من الهجرة النبوية العاطرة الشريفة .

الفصل الرابع

مرض رسول الله

— ١ —

كان بدء مرض رسول الله فى ليال بقين من صفر ، أو فى أول شهر ربيع الأول من العام الحادى عشر للهجرة الشريفة .

وذلك أنه خرج إلى بقيع الغرقد من جوف الليل يستغفر للموتى ، ثم رجع إلى أهله ، فلما أصبح ابتدىء بوجعه من يومه ذلك .

واصطحب رسول الله معه وهو ذاهب إلى بقيع الغرقد مولاه أبا مويهبة ، فقال رسول الله :

السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهنىء لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى .

ثم قال لأبى مويهبة : إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ، ثم الجنة ، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة .

فقال ابو مويهبة : بأبى أنت وأمى ، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة .

قال رسول الله : لا ، والله يا أبا مويهبة ، لقد اخترت لقاء ربى والجنة .

ثم استغفر رسول الله لأهل البقيع ، ثم انصرف .

فبدأ برسول الله وجعه الذى مات فيه .

ولما اشتد به مرضه دعا نساءه ، وكان عند ميمونة ، فاستأذنهن فى أن يمرض فى بيت عائشة ، فأذن له .

— ٢ —

وحدث عبد الله بن مسعود قال : نعى إلينا نبينا وحبيبنا نفسه قبل موته بشهر ، فلما دنا الفراق جمعنا فى بيت أمنا عائشة ، فنظر إلينا وشدد ، فدمعت عينه ، وقال :

مرحبا بكم ، رحمكم الله ، آواكم الله ، حفظكم الله ، رفعكم الله ، نفعكم الله ، وفقكم الله ، نصركم الله ، سلمكم الله ، رحمكم الله ، قبلكم الله . أوصيكم بتقوى الله ، وأوصى الله بكم ، وأستخلفه عليكم ، وأؤديكم إليه ؛ إنى لكم نذير وبشير .

لا تعلوا على الله فى عباده وبلاده ، فإنه قال لى ولكم : تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين - ٨٣ القصص ، وقال : أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين - ٦٠ الزمر .

فقلنا : متى أجلك ؟ قال : قد دنا الفراق ، والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى (٤٢٥ : ٢ الطبرى) .

زيادة المرض على رسول الله

— ١ —

لما أذنت أمهات المؤمنين لرسول الله أن يمرض فى بيت عائشة ؛ خرج يمشى بين رجلين من أهله : الفضل بن عباس ، وآخر هو على ؛ عاصبا رأسه ، تخط قدماه ، حتى دخل بيت عائشة .

ثم غمر رسول الله ، واشتد به المرض ، فصبوا عليه الماء ، حتى قال : حسبكم ، حسبكم .

وعن ابن عباس قال : يوم الخميس ، وما يوم الخميس ، اشتد برسول الله وجعه الخ (١) .

— ٢ —

وحدث أيوب بن بشير أن رسول الله خرج عاصبا رأسه ، حتى جلس على المنبر . . ثم قال بعد حمـــد الله ، والصلاة على أصحاب أحد ، والاستغفار لهم .

إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا ، وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله (٢) .

---

(١) ٢ : ٤٣٦ الطبرى .

(٢) ويروى أن رسول الله قال فى هـــذه الخطبة : يامعشر المهاجرين : استوصوا بالأنصار خيرا ، فإن الناس يزيدون ، وإن الأنصار على هيئتها لاتزيد ، وإنهم كانوا عيبتى التى أويت إليها ، فأحسنوا إلى محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم — .

ويروى الطبرى (٢ / ٤٣٣) أن رسول الله جاء الفضل بن عباس ، فخرج إليه الفضل فوجده موعوكا قد عصب رأسه ، فقال : خذ بيدى يافضل ، فأخذ بيده حتى جلس على المنبر ، ثم قال : ناد فى الناس ، فاجتمعوا إليه ، فقال :

أما بعد ، أيها الناس : فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وإنه قد دنا منى حقوق من بين أظهركم ، فمن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى ، فليستقده منه ، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضى فليستقد منه ألا وإن الشحناء ليست من طبعى ولا من شأنى ، ألا وإن أحبكم إلى من أخذ منى حقا إن كان له ، أو حللنى فلقيت الله وأنا أطيب النفس ، وقد أرى أن هذا غير مغن حتى أقوم فيكم مرارا .

فعرف أبو بكر أن رسول الله يريد نفسه ، فبكى ، وقال : بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا .

ويروى أن رسول الله استبطأ الناس فى بعث أسامة ، وهو فى مرضه ، فخرج عاصبا رأسه حتى جلس على المنبر ، وقد كان الناس قالوا فى إمرة أسامة : أمر غلاما حدثا على جلة المهاجرين والأنصار (١) :

فحمد رسول الله الله تعالى ، وأثنى عليه بما هو له أهل ؛ ثم قال : ـ

أيها الناس : أنفذوا بعث أسامة ، فلعمرى لئن قلتم فى إمارته لقد قلتم فى إمارة أبيه من قبله ، وإنه لخليق للإمارة ، وإن كان أبوه لخليقا لها .

ثم نزل رسول الله .

واشتغل الناس فى جهاز بعث أسامة .

وغلب المرض رسول الله .

وخرج أسامة بجيشه ، حتى نزلوا الجرف على فرسخ من المدينة ، فضرب به أسامة عسكره ، وأخذ المسلمون يفدون على الجيش .

وثقل رسول الله فأقام أسامة والناس لينظروا ما الله قاض فى رسول الله .

— ٣ —

وعن عائشة : كانت آخر كلمة سمعتها من رسول الله :

---

(١) يقول الطبرى (٢ : ٤٢٩ ـ طبعة الاستقامة بالقاهرة) : إن رسول الله ضرب فى المحرم من سنة إحدى عشرة على الناس بعثا إلى الشام ، وأمر عليهم مولاه وابن مولاه أسامة بن زيد بن حارثة ولقد أبلى أسامة بلاء حسنا فى سبيل الإسلام ومات عام ٥٩ هـ (٢ : ٣٥٥ ـ ٣٦٢ سير أعلام النبلاء) .

بل الرفيق الأعلى من الجنة .

— ٤ —

صلاة أبي بكر بالناس :

ولما غلب المرض رسول الله قال :

مروا أبا بكر فليصل بالناس .

فقالت عائشة : يا نبي الله ، إن أبا بكر رجل رقيق ، ضعيف الصوت ، كثير البكاء إذا قرأ القرآن .

قال : مروه فليصل بالناس .

فعادت عائشة بمثل قولها .

فقال صلوات الله عليه : إنكن صواحب يوسف ، فروه فليصل بالناس .

وكانت عائشة تحب أن تصرف خلافة رسول الله عن أبي بكر لأن الناس لا يحبون رجلا قام مقامه أبدا ، وأنهم سيتشاءمون به في كل حدث كان .

— ٥ —

ولما كان يوم الإثنين الذي قبض الله فيه رسوله صلى الله عليه وسلم ، خرج إلى الناس وهم يصلون الصبح ، فرفع الستر ، وفتح الباب ، فخرج رسول الله ، فقام على باب عائشة ، فضج المسلمون بالفرح فرحا برسول الله ، فأشار صلوات الله عليه إليهم : أن اثبتوا على صلاتكم ، وتبسم رسول الله سرورا لما رأى من هيئتهم في صلاتهم ، ثم رجع وانصرف الناس ، وهم يرون أن رسول الله قد أبل من مرضه ، فرجع أبو بكر إلى أهله بالسنح .

ويروى أن رسول الله لما خرج تفرج الناس ، فعرف أبو بكر أن الناس لم يصنعوا ذلك إلا لرسول الله ، فنكص عن مصلاه فدفع رسول الله فى ظهره ، وقال : صل بالناس . وجلس رسول الله إلى جنبه ، فصلى قاعدا عن يمين أبى بكر .

فلما فرغ من الصلاة ، أقبل على الناس ، فكلمهم رافعا صوته فيقول : أيها الناس : سعرت النار ، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، وإنى والله ما تمسكون على بشىء ، إنى لم أحل إلا ما أحل القرآن ، ولم أحرم إلا ما حرم القرآن .

فلما فرغ من كلامه قال له أبو بكر : يانبى الله ، إنى أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما تحب ، واليوم يوم بنت خارجة أفآتيها ؟ قال : نعم .

ثم دخل رسول الله ، وخرج أبو بكر إلى أهله بالسنح .

فتوفى رسول الله حين اشتد الضحاء من ذلك اليوم ، صلى الله عليه وسلم ،وهو يوم الإثنين قرب نصف النهار لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة النبوية ، صلى الله عليه وسلم ..وذلك يوافق السابع من يونيو ٦٣٢ هـ – والصحيح ما يقول صاحب كتاب « التوفيقات الإلهامية » أن ذلك يوافق يوم الأحد لايوم الإثنين .

قالت عائشة : رجع رسول الله من صلاته يومئذ ، فاضطجع فى حجرى فدخل على رجل من آل أبى بكر ، وفى يده سواك أخضر ، فنظر رسول الله إليه فى يده نظرا عرفت أنه يريده ، فقلت : يا رسول الله ، أتحب أن أعطيك هذا السواك ؟ قال : نعم ، فأخذته ، ثم أعطيته إياه ، فاستاك به ثم وضع .

ووجدت رسول الله يثقل فى حجرى ، فذهبت أنظر فى وجهه ، فإذا بصره قد شخص ، وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة .

فقلت : خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق .

ومات رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان آخر ماعهد رسول الله أن قال : لايترك بجزيرة العرب دينان . وقال : أجيزوا الوفد بنحو مما كنت أجيزهم (١) .

وما ترك رسول الله دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة إلا بغلته البيضاء التى كان يركبها ، وسلاحه ، وأرضا جعلها لابن السبيل صدقة . وعن عائشة توفى رسول الله ودرعه مرهونة عند يهودى بثلاثين صاعا من شعير .

وما مات رسول الله وفى بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام (٢). وروى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : دخلت على عائشة فقلت : ألا تحدثينى عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت بلى ، ثقل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أصلى الناس ؟ قلنا : لاهم ينتظرونك ، قال : ضعوا لى ماء فى المخضب ، قالت : ففعلنا فاغتسل فذهب لينوء فأغمى عليه ثم أفاق ، فقال صلى الله عليه وسلم : أصلى الناس ؟ قلنا لاهم ينتظرونك يارسول الله ، فقال : ضعوا لى ماء فى المخضب ، قالت : فقعد فاغتسل ثم ذهب لينوء فأغمى عليه ثم أفاق ، فقال أصلى الناس ؟ فقلنا لا هم ينتظرونك يارسول الله ، فقال ضعوا لى ماء فى المخضب فقعدفا غتسل ثم ذهب لينوء فأغمى عليه ثم أفاق فقال أصلى الناس فقلنالا هم ينتظرونك يارسول الله والناس عكوف فى المسجد ينتظرون النبىعليه السلام لصلاة العشاء الآخرة ، فأرسل النبى صلى الله عليه وسلم إلى أبى بكر بأن يصلى بالناس ، فأتاه الرسول فقال :

---

(١) لما ذهب جيش أسامة إلى الشام وغنموا قدم على هرقل موت رسول الله وإغارة أسامة على أرضهفى آن واحد (٢/٣٥٩ سير أعلام النبلاء للذهبى) ... وألبس الرسول أسامة حلة ذى يزن (٣٦٠ / ٢ المرجع السابق) - ومات أسامة عام ٥٩ هـ (٢٥٥ - ٣٦٢ / ٢ المرجع السابق) .

(٢) ص ١٧٣ الشفاء للقاضى عياض .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تصلى بالناس ، فقال أبو بكر : وكان رجلا رقيقا ، ياعمر صل بالناس ، فقال له عمر : أنت أحق بذلك ، فصلى أبو بكر تلك الأيام ، ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم وجد من نفسه خفة فخرج بين رجلين أحدهما العباس لصلاة الظهر وأبو بكر يصلى بالناس ، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر ، فأومأ إليه النبي صلى الله عليه وسلم بأن لايتأخر ، قال : أجلسانى إلى جنبه ، فأجلساه إلى جنب أبى بكر ، قال فجعل أبو بكر يصلى وهو يأتم بصلاة النبي صلى الله عليه وسلم والناس بصلاة أبى بكر والنبي صلى الله عليه وسلم قاعد ، قال عبيد الله : فدخلت على عبد الله بن عباس فقلت له : ألا أعرض عليك ما حدثتنى عائشة عن مرض النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال هات ، فعرضت عليه حديثها ، فما أنكر منه شيئا غير أنه قال : أسمت لك الرجل الذى كان مع العباس ؟ قلت لا ، قال: هو على .

وعن عائشة قالت : لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بلال يؤذنه بالصلاة ، فقال : مروا أبا بكر أن يصلى بالناس ، فقلت يارسول الله إن أبا بكر رجل أسيف ، وإنه متى مايقم مقامك لايسمع الناس ، فلو أمرت عمر ؟ فقال : مروا أبا بكر يصلى بالناس ، فقلت لحفصة : قولى له إن أبا بكر رجل أسيف وإنه متى يقم مقامك لايسمع الناس ، فلو أمرت عمر ؟ قال : إنكن لأنتن صواحب يوسف ، مروا أبابكر أن يصلى بالناس ! فلما دخل فى الصلاة وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفسه خفة فقام يهادى بين رجلين ورجلاه يخطان فى الأرض حتى دخل المسجد فلما سمع أبو بكر حسه ذهب أبو بكر يتأخر . فأومأ إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جلس عن يسار أبى بكر ، فكان أبو بكر يصلى قائما ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى قاعداً ، يقتدى أبو بكر بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والناس مقتدون بصلاة أبى بكر رضى الله عنه .

وعن الزهرى قال أخبرنى أبو سلمة أن عائشة رضى الله عنها زوج النبى صلى الله عليه وسلم أخبرته قالت : أقبل أبو بكر رضى الله عنه على فرسه من مسكنه بالسنح حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة رضى الله عنها فتيمم النبى صلى الله عليه وسلم وهو مسجى ببرد حبرة فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله ثم بكى فقال : بأبى أنت يا نبى الله . لا يجمع الله عليك موتتين . أما الموتة التى كتبت عليك فقد متها . قال أبو سلمة : فأخبرنى ابن عباس رضى الله عنهما أن أبا بكر رضى الله عنه خرج وعمر رضى الله عنه يكلم الناس فقال : اجلس فأبى . فقال اجلس فأبى . فتشهد أبو بكر رضى الله عنه فمال إليه الناس وتركوا عمر . فقال أما بعد : فمن كان منكم يعبد محمداً صلى الله عليه وسلم فإن محمداً صلى الله عليه وسلم قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت . قال الله تعالى : (وما محمد إلا رسول إلى الشاكرين) . والله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزل حتى تلاها أبو بكر رضى الله عنه فتلقاها منه الناس فما يسمع بشر إلا يتلوها .

بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

بلغ عمر وفاة رسول الله ، فقال :

إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد توفى ، وإن رسول الله والله ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل : قد مات ، والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما رجع موسى فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله قد مات .

وأقبل أبو بكر ، حتى نزل على باب المسجد ، حين بلغه الخبر ، وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شىء ، حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت عائشة ، ورسول الله مسجى فى ناحية البيت ، عليه برد حبرة .

فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله ، ثم أقبل عليه فقبله ، ثم قال : بأبي أنت وأمي يارسول الله ، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا . ثم رد البرد على وجه رسول الله .

ثم خرج وعمر يكلم الناس ، فقال : على رسلك ياعمر ، أنصت .

فحمد أبو بكر الله ، وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس : إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لايموت ، ثم تلا هذه الآية: وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ (ـ آل عمران ١٤٤) .

حديث السقيفة

ولما قبض رسول الله انحاز الأنصار إلى سعد بن عبادة (١)، واعتزل علي والزبير وطلحة في بيت فاطمة .

وانحاز بقية المهاجرين إلى أبي بكر وعمر ، ومعهم أسيد بن حضير في بني عبد الأشهل .

فأتى آت إلى أبي بكر وعمر ، فقال : إن هذا الحي من الأنصار مع سعد ابن عبادة في سقيفة بني سعدة قد انحازوا إليه ، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا الناس قبل أن يتفاقم أمرهم .

---

(١) أنصاري خزرجي ، سيد الخزرجي ، كان ملكا شريفا مطاعا في قومه ، وكان يرجع كل ليلة إلى أهله بثمانين من أهل الصفة يأكلون معه وكان يقول : اللهم هب لي حمدا ومجدا ، اللهم لايصلحني القليل ولا أصلح عليه ، مات بحوران الشام سنة ١٤ هـ أو ١٦ هـ (سير أعلام النبلاء للذهبي حـ ١ ص ١٩٦ - ٢٠٢) .

فقال عمر لأبى بكر : انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار حتى ننظر ماهم عليه .

فذهبا فوجدا خطيبا من الأنصار يخطب ويقول : نحن أنصار الله ، وكتيبة الإسلام ، وأنتم يامعشر المهاجرين رهط منا .

فقام أبو بكر فيهم فقال : لن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش ، هو أوسط العرب نسبا ودارا ، وقد وهبت لكم أحد هذين الرجلين ، وأخذ بيد عمر ويد أبى عبيدة (١) ، وقال : فبايعوا أيهما شئت .

فقال قائل من الأنصار : أنا جذيلها المحكك ، وعذيقها المرجب ، منا أمير ومنكم أمير يامعشر قريش .

فكثر اللغط فقال عمر : ابسط يدك يا أبا بكر ، فبسط يده ، فبايعه ، ثم بايعه المهاجرون ، ثم بايعه الأنصار .

ولما بويع أبو بكر فى السقيفة ، وكان الغد جلس أبو بكر على المنبر ، فقام عمر ، فتكلم قبل أبى بكر .

ثم تكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه بالذى هو أهله ، ثم قال :

أما بعد ، أيهاالناس : فانى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى ، الضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له ، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله .

---

(١) ابن الجراح ، مات عام ١٨ هـ ، وكان من السابقين الأولين ، وله مكانته فى الإسلام ، وكان رسول الله ثم صاحباه يجلان منه ، لقى عمر أبا عبيدة فصافحه وقبل يده (٩ / ١ سير أعلام النبلاء) .

جهاز رسول الله ودفنه

فلما بويع أبو بكر رضى الله عنه أقبل الناس على جهاز رسول الله يوم الثلاثاء .

وولى غسله صلى الله عليه وسلم على والعباس (١) والفضل بن العباس وقثم بن العباس وأسامة بن زيد وشقران مولى رسول الله . ومعهم أوس بن خولى الخزرجى ، وكان على يغسله وقد أسنده صلى الله عليه وسلم إلى صدره ، وهو يقول : بأبى أنت وأمى يارسول الله طبت حيا وميتا ، وغسلوا النبى وعليه ثيابه قيصه ، يصبون الماء فوق القميص ، ويدلكونه والقميص دون أيديهم

ودفن رسول الله حيث توفى ، ثم دخل الناس على رسول الله يصلون عليه أرسالا ، ثم النساء ، ثم الصبيان .

ثم دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم من وسط الليل ليلة الأربعاء .

وكان الذين نزلوا فى قبر رسول الله : على والفضل بن عباس ، وقثم بن عباس وشقران مولى رسول الله وأوس بن خولى .

المسلمون بعد رسول الله

— ١ —

لما توفى رسول الله هم أكثر أهل مكة بالرجوع عن الإسلام ، وأرادوا ذلك ، حتى خافهم عتاب بن أسيد ، فتوارى ، فقام سهيل بن عمرو فحمد الله وأثنى عليه ، ثم ذكر وفاة رسول الله ، وقال : إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة ، فمن رابنا ضربنا عنقه ، فتراجع الناس ، وكفوا عما هموا به وظهر عتاب ابن أسيد .

---

(١) عاش العباس بعد رسول الله طويلا ، ومات عام ٣٢ هـ عن ٨٨ سنة .

— ٢ —

وقالت عائشة :

لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ارتدت العرب ، واشرأبت اليهودية والنصرانية ، ونجم النفاق ، وصار المسلمون كالغنم المطيرة فى الليلة الشاتية لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم حتى جمعهم الله على أبى بكر .

— ٣ —

وصار أبو بكر خليفة لرسول الله ، وهو الخليفة الأول رضى الله وأرضاه ، وجزاه عن الإسلام والمسلمون خير الجزاء .

— ٤ —

ويقول الطبرى : اشتكى رسول الله فوثب الأسود(١) باليمن ، ومسيلمة باليمامة ، وجاء الخبر عنهما للنبى ، ثم وثب طليحة فى بلاد أسد بعد ما أفاق النبى ، ثم اشتكى فى المحرم وجعه الذى توفى فيه(٢ / ٤٣٠ الطبرى) .

---

(١) يقول الطبرى : أول ردة كانت على عهد رسول الله على يدى ذوى الحمار عبهلة بن كعب وهو الأسود فى عامة مذحج خرج بعد الوداع ٢- / ٤٣٠ الطبرى .

وفى عهد أبى بكر كتب زيد بن ثابت (المتوفى عام ٤٥ هـ عن ست وخمسين سنة) القرآن بأمر أبى بكر الصديق (راجع ٢ : ٣٠٥ - ٣١٦ سير أعلام النبلاء) وقد جمع القرآن فى زمن النبى خمسة من الأنصار ، هم : معاذ ، وعبادة بن الصامت وأبى ، وأبو أيوب ، وأبو الدرداء عويمر بن زيد (٢ /٢ سير أعلام النبلاء) .

وفى عهد عثمان جمع القرآن اثنا عشر رجلا من قريش والأنصار منهم أبى وزيد بن ثابت (١ : ٢٥٩ المرجع السابق) وتوفى أبى عام ٣٣ هـ فى عهد عثمان (١ : ٢٨٠ - ٢٨٨ المرجع السابق) .

الشعراء يبكون رسول الله

— ١ —

قال حسان بن ثابت يرثى رسول الله قصيدة طويلة منها :

فبوركت ياقبرالرسول وبوركت بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد
وبورك لحد منك ضمن طيبا عليه بناء من صفيح منضد
لقد غيبوا حلما وعلما ورحمة عشية علوه الثرى لايوسد
وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم وقد وهنت منهم ظهور وأعضد
يبكون من تبكى السموات يومه
ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد
وهل عدلت يوما رزية هالك رزية يوم مات فيه محمد
تقطع فيه منزل الوحى عنهم وقد كان ذا نور يغور وينجد
إمام لهم يهديهم الحق جاهدا معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا
عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى
حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
فبيناهم فى ذلك النور إذ غدا إلى نورهم سهم من الموت مقصد
فبكى رسول الله يا عين عبرة ولا أعرفنك الدهر دمعك يجمد
وما فقد الماضون مثل محمد ولا مثله حتى القيامة يفقد
رباه وليدا فاستتم تمامه على أكرم الخيرات رب ممجد

— ٢ —

وقال حسان أيضا يرثى رسول الله :

بأبى وأمى من شهدت وفاته فى يوم الإثنين النبى المهتدى

يا بكر آمنة المبارك بكرها ولدته محصنة بسعد الأسعد
نورا أضاء على البرية كلها من يهد للنور المبارك يهتدى

— ٣ —

وقال حسان :

نب المساكين أن الخير فارقهم مع النبي تولى عنهمو سحرا
كان الضياء وكان النور نتبعه بعد الإله وكان السمع والبصرا

— ٤ —

وقال أيضا (١) :

يا أفضل الناس إنى كنت فى نهر أصبحت منه كمثل المفرد الصادى

— ٥ —

وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب (٢٠ هـ) ، وهو ابن عم الرسول ، وأخوه رضاعا ، وأحد من يشبه الرسول (وهم أبو سفيان ، وجعفر ، والحسن بن على ، وقثم بن العباس) يقول فى رثاء الرسول (١) .

أرقت فبات ليلى لايزول وليل أخى المصيبة فيه طول
وأسعدنى البكاء ، وذاك فيما أصيب المسلمون به قليل
فقد عظمت مصيبتنا وجلت عشية قيل قد قبض الرسول
فقدنا الوحى والتنزيل فينا يروح به ويغدو جبرائيل

(١) عاش حسان نحو مائة وعشرين عاما نصفها فى الجاهلية ، ونصفها فى الإسلام ، ومات عام ٥٤ هـ (٢ : ٣٦٦ - ٣٧٤ سير أعلام النبلاء) .
(١) ١٤٩/١ سير أعلام النبلاء للذهبى .

وذاك أحق ما سالت عليه ... نفوس الخلق أوكادت تسيل
نبي كان يجلو الشك عنا ... بما يوحى إليه وما يقول
ويهدينا فلا نخشى ضلالا ... علينا ، والرسول لنا دليل
فلم نر مثله فى الناس حيا ... وليس له من الموتى عديل
أفاطمة إن جزعت فذاك عذر ... وإن لم تجزعى فهو السبيل
وقولى فى أبيك ولا تملى ... وهل يجزى بفضل أبيك قيل
فقبر أبيك سيد كل قبر ... وفيه سيد الناس الرسول

فاطمة تبكى أباها(١)

لما ثقل النبي جعل يتغشاه ما يتغشاه ، فقالت فاطمة : واكرب أباه .

فقال لها صلى الله عليه وسلم : ليس على أبيك كرب بعد اليوم .

فلما مات قالت :

يا أبتاه ، أجاب ربا دعاه ، (يا أبتاه ، جنة الفردوس مأواه) .

يا أبتاه ، إلى جبريل ننعاه .

فلما دفن قالت فاطمة :

يا أنس ، أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله الترب . . .(٢) .

---

(١) ولدت قبل البعثة بقليل ، وتزوجها على فى ذى القعدة من سنة ٢ ﻫ بعد بدر ـ وتوفيت بعد رسول الله بستة أشهر عن ٢٩ عاما ، وابناها الحسن والحسين (٨٧ - ٩٧ / ٢ سير أعلام النبلاء) .

(٢) حدثت عائشة رضى الله عنها ، قالت :

ما رأيت أحدا من الناس كان أشبه بالنبي كلاما ولا حديثا ولا جلسة ، من فاطمة . وكان إذا رآها قد أقبلت رحب بها ، ثم قام إليها فقبلها ، ثم أخذ بيدها فجاء بها حتى يجلس فى مكانه . وكانت إذا أتاها رحبت به ثم قامت إليه ، فقبلته ،=

وابن عباس يحدث

عن ابن عباس قال :

يوم الخميس !!

وما يوم الخميس ؟ .

ثم جرت دموع ابن عباس تسيل على خديه كأنها نظام اللؤلؤ ، واسترسل في الحديث يقول :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائتونى باللوح والدواة ، أو بالكتف والدواة أكتب لكم كتابا لا تضلون بعده .

فتنازعوا ، ولا ينبغى عند نبى أن يتنازع . فقالوا : ماشأنه ؟ استفهموه ، فذهبوا : يعيدون عليه ، فقال : دعونى ، فما أنا فيه خير مما تدعونى إليه ٢ / ٤٢٦ الطبرى .

وقال أبو ذؤيب الهذلى : بلغنا أن رسول الله عليل ، فأوجس أهل الحى خيفة عليه ، فبت بليلة ثابتة النجوم ، طويلة الأناة ، لا ينجاب ديجورها ، ولا يطلع نورها ، حتى إذا قرب السحر ، غفوت ، فهتفت لى هاتف يقول :

خطب أجل أناخ بالإسلام ‏ ‏ ‏ بين النخيل ومعقد الآطام(١)

= وراجع كتاب « تزويج فاطمة بنت الرسول » ـ تحقيق صلاح الدين المنجد ـ طبع بيروت ١٩٦٢ .

وميلاد فاطمة قبل البعثة بخمس سنين ، أى فى عام بناء الكعبة ، وذلك سنة ١٨ ق ه : وتزوجت وهى بنت خمسة عشر عاما وخمسة أشهر ونصف ، وتوفيت بعد رسول الله بستة أشهر عن ٢٩ عاما (راجع ١ : ٢٧١ العقد الثمين للفاسى) ، وقيل إنها توفيت عن ٢٤ عاما (راجع سير أعلام النبلاء) .

(١) الأطم : القصر وكل حصن مبنى بحجارة وكل بيت مربع السطح جمعه آطام .

قبض النبي محمـــد فعيوننا تذرى الدموع عليه بالتسجام (١)

فوثبت من نومى فزعا ، فنظرت إلى السماء ، فلم أر إلا سعد الذابح ، فتفاءلت به ذبحاً يقع فى العرب ، وعلمت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد مات ، أو هو ميت عن علته .

فركبت ناقتى وسرت ثم قدمت المدينة . ولأهلها ضجيج كضجيج الحجيج أهلوا جميعا بالإحرام . فقلت : مه ؟ قالوا : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجئت المسجد فأصبته خاليا . فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصبت بابه مرتجا(٢) وقد خلا به أهله ، فقلت : أين الناس . فقيل : فى سقيفة بنى ساعدة ، صاروا إلى الأنصار .

فجئت السقيفة فوجدت أبا بكر وعمر رضى الله عنهما وأبا عبيدة وسالما وجماعة من قريش ، ورأيت الأنصار فيهم سعد بن عبادة ومعهم شعراؤهم ، وإمامهم حسان بن ثابت وكعب ، فى ملأ منهم ، فآويت إلى الأنصار ، فتكلموا فأكثروا ، وتكلم أبو بكر ، فلله من رجل لا يطيل الكلام ، ويعلم مواضع الفصل .

والله لقد تكلم بكلام لم يسمعه سامع إلا انقاد له ، ومال إليه ، وتكلم بعده عمر رضى الله عنه بكلام دون كلامه ، ومد يده فبايعه ، ورجع أبو بكر رضى الله عنه ، ورجعت معه ، فشهدت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهدت دفنه .

---

(١) سجم الدمع : قطر وسال قليلا وكثيرا .
(٢) أرتج الباب : أغلقه .

روايات فى يوم وفاة رسول الله

١ — لاخلاف فى أن اليوم الذى مات فيه رسول الله كان يوم الإثنين من شهر ربيع الأول ويقال : بل الأحد.

قيل هو يوم الإثنين لليلتين مضتا من شهر ربيع الأول ، وبويع أبو بكر يوم وفاته .

وقيل : بل يوم الإثنين لثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، ودفن من الغد نحو نصف النهار(١) ، حين زاغت الشمس وذلك يوم الثلاثاء(٢) . وقال بعضهم : إنما دفن بعد وفاته بثلاثة أيام(٣) .

وهكذا توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم لاثنتى عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول فى اليوم الذى قدم فيه المدينة مهاجرا فاستكملت هجرته عشر سنين كوامل(٤) ، وذلك يوافق ٨ يونيو ٦٣٢ م .

٢ — واختلف فى سنه يوم توفى :

(أ) قيل : كان له يومئذ ثلاث وستون سنة ، أقام رسول الله بمكة

---

(١) وقيل : دفن رسول الله من وسط الليل ليلة الأربعاء وكما يذكر ابن هشام .

(٢) ٢/ ٤٤١ و ٤٤٢ الطبرى .

(٣) ٢ / ٤٥٠ الطبرى .

(٤) ٢ / ٤٥٣ المرجع . وذلك يوافق السابع من يونيو ٦٣٢ م ، وفى كتاب « التوفيقات الإلهامية » أن ذلك كان يوم أحد .

ثلاث عشرة سنة يوحى إليه ، وبالمدينة عشرا ، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة(١) .

(ب) وقال سعيد بن المسيب : أنزل على رسول الله وهو ابن ثلاث وأربعين سنة ، وأقام بمكة عشرا ، وبالمدينة عشرا ، وتوفى وهو ابن ثلاث وستين(٢) .

(جـ) وقيل : توفى رسول الله وهو ابن خمس وستين سنة(٢) .

---

(١) ٢ / ٤٥٣ الطبرى .
(٢) ٢ / ٤٥٤ الطبرى .

الفصل الخامس

أمهات رسول الله

أمه هي آمنة بنت وهب وقد توفيت ورسول الله فى السادسة من عمره .

وأرضعت رسول الله ثلاث نسوة هن أمهاته من الرضاع ، وهن :

١ - ثويبة مولاة أبى لهب - أرضعته أياما ، وأرضعت معه أباسلمة المخزومى بلبن ابنها مسروح ، وأرضعت معهما عمه حمزة (١) .

٢ - حليمة السعدية بلبن ابنها (٢) عبد الله وهو أخو أنيسة وجذامة (الشيماء) أولاد الحارث بن عبد العزى بن رفاعة السعدى ، وأرضعت معه أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، الذى كان فيما بعد شاعرا ، وكان شديد العداوة لرسول الله ، ثم أسلم قبل عام الفتح .

٣ - وأرضعت رسول الله كذلك امرأة سعدية أخرى غير حليمة ، وهى التى كانت ترضع حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حواضن رســـول الله

هن مايلى :

١ - أمه آمنة .

٢ - ثويبة مولاة أبى لهب ،

٣ - حليمة السعدية .

٤ - الشيماء ابنة حليمة ، وهى أخته من الرضاع .

٥ - أم أيمن بركة الحبشية التى ورثها رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيه عبد الله ، وكانت دايته . وهى التى زوجها رسول الله لزيد بن حارثة فولدت له أسامة .

---

(١) ١ : ٣٥ و٣٦ زاد المعاد (٢) يروى جلال الدين الرومى فى المثنوى أن حليمة ردت رسول الله وهو فى سن الرابعة خوفا عليه .

أزواج رسول الله

أمهات المؤمنين

١ — خديجة بنت خويلد

أولى أزواجه ، زوجه إياها أبوها خويلد بن أسد ، أو أخوها عمرو ابن خويلد ، وأصدقها رسول الله عشرين بكرة ، كان الرسول فى الخامسة والعشرين وهى فى الأربعين .

فولدت لرسول الله ولده كلهم ، إلا إبراهيم .

وكانت قبل زواجها برسول الله زوجا لأبى هالة بن مالك التيمى ، فولدت له هند بن أبى هالة ، وزينب بنت أبى هالة .

وقبل أبى هـــالة كانت زوجا لعتيق المخزومى ، فولدت له عبد الله وجارية (١) .

---

(١) كانت تدعى فى الجاهلية : الطاهرة - بنى بها الرسول وله خمس وعشرون سنة ولها أربعون سنة - توفيت عام ٥٠ من ميلاد الرسول ، أى قبل الهجرة بثلاث سنوات ، وذلك فى رمضان عن خمس وستين سنة (٨١ - ٢/٨٦ سير أعلام النبلاء للذهبى) .

راجع فضائل خديجة فى صحيح مسلم ٢ : ٢٠٤ مختصر صحيح مسلم للمنذرى .

وراجع كتاب « السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين » للامام الطبرى (٦٩٤ هـ) - طبع حلب - فهو من المراجع المفيدة فى هذا الجانب .

وراجع ص ١١٠ - ١١٣ من كتابنا هذا « سيرة رسول الله » .

٢ – عائشة بنت أبى بكر(١)

تزوجها رسول الله بمكة ، وهى بنت سبع سنين ، وبنى بها بالمدينة ، وهى بنت تسع سنين أو عشر ، ولم يتزوج بكراً غيرها ، زوجه إياها أبوها

---

(١) تزوجها رسول الله قبل الهجرة ببضعة عشر شهرا ، وقيل بعامين ، ودخل بها فى شوال سنة اثنتين بعد بدر وهى ابنة تسع ، قبل زواج على بفاطمة بنت رسول الله بقليل (بأربعة أشهر ونصف - ٢/٩٣ سير) ، وما تزوج رسول الله بكرا سواها - تروى عائشة : لما هاجر رسول الله خلفنا وخلف بناته ، فلما قدم المدينة بعث إلينا زيد بن حارثة وأبا رافع ، وأعطاهم بعيرين وخمسمائة درهم اتخذها من أبى بكر يشتريان بها ما نحتاج إليه من الظهر ، وبعث أبو بكر معهما عبد الله بن أريقط الليثى ببعيرين أو ثلاثة ، وكتب إلى عبـــد الله يأمره أن يحمل أهله : أم رومان وأنا وأختى أسماء فخرجوا ، فلما انتهوا إلى قديد اشترى بتلك الدراهم ثلاثة أبعرة ، ثم دخلوا مكة ، وصادفوا طلحة يريد الهجرة بآل أبى بكر ، فخرجنا جميعا ، وخرج زيد وأبورافع بفاطمة وأم كلثوم وسودة وأم أيمن وأسامة بفاصطحبنا جميعا فقدمنا والمسجد مبنى - ١٠٩ ج٢ سير أعلام النبلاء - وتقول عائشة :أعطيت قسما ما أعطيتها امرأة بعد مريم بنت عمران : نزل جبريل بصورتى فى راحته حتى أمر رسول الله أن يتزوجنى ، ولقد تزوجنى بكرا وما تزوج بكرا غيرى ، ولقد قبض ورأسه فى حجرى ،ولقد قبرته فى بيتى ، ولقد حفت الملائكة بيتى ، وإن كان الوحى أنزل عليه وإنى لمعه فى لحافه ، وإنى لابنة خليفته وصديقه ، ولقد نزل عذرى من السماء ، ولقد خلقت طيبة عند طيب ، ولقد وعدت مغفرة ورزقا كريما - ١٠٢ / ٢ سير أعلام النبلاء - وقالت عائشة : تزوجنى رسول الله فى شوال ، وأعرس بى فى شوال وكانت العرب تستحب لنسائها أن يدخلن على أزواجهن فى شوال ٢/١١٧ =

أبو بكر ، وأصدقها رسول الله أربعمائة درهم(١) .

ومن إخوتها عبد الرحمن بن أبي بكر وتوفى في عام ٥٣ هـ (٢ : ٣٣٨ سير أعلام النبلاء) .

وراجع فضائل عائشة في صحيح مسلم - ٢ : ٢٠٠ - ٢٠٤ مختصر صحيح مسلم للمنذرى .

= سير أعلام النبلاء - وعن أسماء بنت عميس قالت: كنت صاحبة عائشة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله ، ومعي نسوة ، فما وجدنا عنده قرى إلا قدحا من لبن ، فشرب منه ، ثم ناوله عائشة فاستحيت الجارية ، فقلنا : لا تردى يد رسول الله ، خذى منه ، فأخذته على حياء فشربته ، ثم قال: ناولى صواحبك ٢/١٢٢ سير أعلام النبلاء - وكان عروة يقول لعائشة أيا أماه : لا أعجب من فقهك أقول : زوجة نبي الله وابنة أبي بكر ، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس ، أقول : ابنة أبي بكر ، وكان أعلم الناس ، ولكن أعجب من علمك بالطب - ٢/١٢٨ - سيرور بمارويت عائشة القصيدة ستين بيتا أو أكثر ١٣٢ / ٢ المرجع ، وتوفيت في الليلة السابعة عشرة من رمضان سنة خمسين أو ثمان وخمسين ١٣٥ / ٢ - المرجع - ١٩٨ - ٢/١٤٢ سير أعـــلام النبلاء) : وكانت مولاة عائشة هي بريرة (٢١٥- ٢/٢٢١) .

(١) راجع البداية والنهاية لابن كثير ٣/١٣٠ وما بعدها - مكتبة المعارف - بيروت .

سودة بنت زمعة(١)

من عامر بن لؤى

توفيت بالمدينة عام ٥٤ هـ

تزوجها رسول الله ، زوجه إياها سليط بن عمرو ، وقيل : حاطب بن عمرو ، أصدقها رسول الله أربعمائة درهم ، وذلك فى رمضان سنة عشر من النبوة ، وهاجر بها .

وكانت قبل رسول الله زوجا للسكران بن عمرو بن بنى عامر بن لؤى ، وتوفى عنها بعد عودتهما من الحبشة - وقد تزوجها رسول الله بعد موت خديجة بسنة(٢) .

---

(١) قرشية عامرية أول من تزوج بها رسول الله بعد خديجة ، وانفردت به نحوا من ثلاث سنين أو أكثر حتى دخل بعائشة ، وكانت سيدة جليلة ضخمة ، وهى التى وهبت يومها لعائشة ، وكانت أولا عند السكران بن عمرو ، وكانا قد هاجرا إلى الحبشة فلما عادا توفى زوجها ، فخطبها رسول الله . ولما قدم رسول الله المدينة بعث زيدا وبعث معه أبا رافع مولاه ، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم إلى مكة فأتيا بآل رسول الله إلى المدينة (١٩٠ - ١٩٢ / ٢ سير أعلام النبلاء) .

(٢) ١ : ٢٣٠ العقد الثمين للفاسى .

٤ — زينب بنت جحش الأسدية(١)

أم المساكين

زوجه إياها أخوها أبو أحمد بن جحش وأصدقها رسول الله أربعمائة درهم ، وذلك عام خمس من الهجرة فى ذى القعدة ، وهى يومئذ بنت خمس وعشرين .

وكانت قبله عند زيد بن حارثة مولى رسول الله .

وهى بنت عمة الرسول أميمة بنت عبد المطلب .

وكانت فى بيت عز وشرف ،لأنها ذات حسن ونسب وهى من أشراف قريش ، وهى ابنة عمة الرسول ، وأمها — أميمة بنت عبد المطلب — وقد خطبها صلى الله عليه وسلم لمولاه ومتبناه — زيد بن حارثة — فأبت أن تقبل وأبى أخوها عبد الله أن يزوجها لزيد لأنها من الأشراف ، وهو عبد مملوك لا يدانيها فى الشرف والمكانة ، فنزلت الآية الكريمة عتابا لها ولأخيها على هذا الصنيع وهى قوله تعالى : — وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذ قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا — .

---

(١) من المهاجرات الأول ، كانت من سادة النساء ، توفيت فى سنة عشرين ، وفيها قال الرسول : أسرعكن لحوقا بى أطولكن يدا ، على طول يدها بالمعروف ، وعن عائشة : كانت زينب تساميني فى المنزلة عند رسول الله ٢/١٥١ سير أعلام النبلاء . وقالت عائشة : يرحم الله زينبا ، لقد نالت فى الدنيا الشرف الذى لا يبلغه شرف ، إن الله زوجها ، ونطق به القرآن : ٢/١٥٢ سير — (١٤٩ — ١٥٤ ج ٢ سير أعلام النبلاء) — وأخوها عبد الله بن جحش قتل فى أحد ودفن مع حمزة فى قبر واحد وحمزه ابن أخته . وراجع ١ : ٥٨ كتاب زاد المعاد لابن القيم فى حديثه عنها .

لقد أراد الله أن يقضى على عادات الجاهلية ، وتفاخرها بالأحساب والأنساب، وتفريقها بين الناس بسبب الشرف المزعوم فى العرق والجنس، فأمر رسوله أن يزوج ابنة عمته لزيد ، فلما نزلت الآية بشأن زينب وأخيها رضخت للأمر ، واستجابت ، هى وأخوها لأمر الله ورسوله فقبلت الزواج به ، وتم عقد النكاح بينهما ، ولكن أمر هذا الزواج لم يدم طويلا فقد ساءت العلاقات بينهما . ولم تدم الألفة ولذلك طلقها زيد ، ثم بعد تطليقه تزوجها الرسول بأمر من الله العلى الكبير لحكمة فى زواج أحد من أزواجه الطاهرات ، وهى إبطال - بدعة التبنى - التى كانت متبعة فى الجاهلية ، وكانت دينا تقليديا عندهم ، وما كان الإسلام ليقرهم على باطل ، لا سيما وأنهم كانوا يعطون هؤلاء الأبناء الأدعياء ، جميع حقوق الأبناء من النسب ، فى الزواج والميراث ومحرمات النكاح وغيرها من الأمور .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تبنى - زيد بن حارثة - بأمر من الله سبحانه ، وسبب تبنيه له مع كرهه لعادات الجاهلية الباطلة ، هو ما كان يدور فى خلده صلى الله عليه وسلم من إرادة إبطال حكم التبنى .. -وكان قد أسر- فخرج والده وعمه - كعب - إلى مكة من أجل يفدياه ، فسألا عن محمد فقيل لهما إنه فى المسجد ، فدخلا عليه فقالا :

يا ابن عبد المطلب ، يا ابن سيد قومه ، أنتم أهل حرم الله ، تفكون العانى ، وتطعمون الأسير ، جئناك فى ولدنا عندك فامنن علينا ، وأحسن فى فدائه ، فإنا سندفع لك ما تريد .

فقال لهم أو غير ذلك ، أدعوه لكم وأخيره بينكم ، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى فداء . .

ففرح أبوه وفرح عمه ، فدعاه الرسول فقال : هل تعرف هؤلاء ؟

قال نعم هذا أبى وهذا عمى ، فخيره صلى الله عليه وسلم بين أن يبقى عنده أو أن يذهب مع أبيه وعمه ، فقال زيد بعد أن ترقرقت الدمعة فى عينيه : ما أنا بالذى أختار عليك أحدا ، أنت منى بمكانة الأب والعم ، فقالا : ويحك يا زيد : أتختار العبودية على الحرية ؟ وعلى أبيك وعمك ؟ فقال لهم زيد : لقد رأيت من هذا الرجل ـ يعنى محمداً ـ شيئا ما أنا بالذى أختار عليه أحد أبدا ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الموقف منه أخرجه إلى الحجر ثم قال أمام الناس ـ أشهدكم أن زيدا ابنى أرثه ويرثنى ـ .

فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما فدعى منذ ذلك الحين ـ زيد بن محمد ـ وكان ذلك قبل بعثته صلى الله عليه وسلم ، وقبل أن تنزل عليه النبوة .

وكان التبنى أعظم شىء مستطاع فى تكريمه ، وتعظيم قدره ، وذلك لحكمة يريدها الله تعالى .

وقد كان زيد يلقب بـ ـ حب رسول الله ـ أى حبيبه ، وقد ورد أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يبعث سرية قط وفيهم زيد بن حارثة إلا وأمره عليهم ، ثم أمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم أن يزوج زينب لزيد بن حارثة مولاه ، وهو عز وجل يعلم أنهما لا يتفقان على بقاء هذه الزوجية ، لأنها تتكبر عليه بالطبع ، وهو عزيز النفس لا يحمل ذل الكبرياء عليه ، وبعد أن تزوجها بقيت عنده مدة ، ثم ساءت العلاقات بينهما ، فكانت تغلظ له القول ، وتتعظم عليه بالشرف ، فيذهب إلى النبى صلى الله عليه وسلم باكيا منها ، ويستأذنه فى طلاقها فيقول الرسول الكريم : أمسك عليك زوجك . . وهو يعـــلم أنه لا بد له من طلاقها ، وأن الله يأمره بالتزوج بها بعده لإبطاله لتلك البدعة الجاهلية

ـ بدعة التبنى ـ ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يظهر هذا له ولا لغيره ، وكان بمقتضى الشعور الطبيعى يخشى ما يقوله الناس ، ولاسيما المنافقين والمشركين : إن محمداً تزوج امرأة ابنه فأنزل الله تعالى فى ذلك قوله جل وعلا .

وإذ تقول للذى أنعم الله عليه ، وأنعمت عليه ، أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها .لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا . ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له ، سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، وكان أمر الله قدرا مقدورا .

ثم أنزل الله سبحانه تتميما لهذا الحادث العظيم ، ونفيا لتلك المزاعم الجاهلية حينما قال بعض الناس إنه قد تزوج حليلة ابنه ، أنزل الله هذه الآية الكريمة :

ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شىء عليما .

وهذه هى الحكمة الإلهية من تزوج الرسول بزينب رضى الله عنها وهى حكمة جليلة سامية ... وسنتحدث عن بقية زوجاته الطاهرات ..

٥ — أم سلمة المخزومية (١)

اسمها هند ، زوج رسول الله إياها ابنها سلمة بن أبى سلمة(٢) ، وأصدقها رسول الله بعض المتاع .

وكانت قبل رسول الله زوجا لأبى سلمة عبد الله بن عبد الأسد فولدت له سلمى ، وعمر ، وزينب ، ورقية .

٦ — حصفة بنت عمر (٣)

زوج رسول الله إياها أبوها عمر بن الخطاب ، وأصدقها رسول الله أربعمائة درهم ، وذلك فى سنة ثلاث من الهجرة .

وكانت قبل رسول الله زوجا لخنيس بن حذافة السهمى .

---

(١) بنت عم خالد بن الوليد ، من المهاجرات الأول ، كان زوجا قبل رسول الله لأخيه من الرضاعة أبى سلمة المخزومى — دخل بها النبى فى سنة أربع من الهجرة ، وكانت من أجمل النساء وأشرفهن نسبا ، وهى آخر من مات من أمهات المؤمنين ، عاشت نحوا من تسعين سنة ، توفيت سنة تسع وخمسين أو إحدى وستين فى ذى القعده ، وقيل . فى عام ٦٢ كما يذكر ابن القيم ١ : ٥٨ زاد المعاد وتقول عائشة : لما تزوج النبى أم سلمة حزنت حزنا شديداً لما ذكروا لنا من جمالها (١٤٢ — ١٤٨ جـ ٢ سير أعلام النبلاء) .

(٢) قيل : إن الذى زوج رسول الله إياها هو ابنها عمر : ويرجح ابن القيم فى زاد المعاد أنه عمر بن الخطاب ، وهو وأم سلمة يلتقيان فى كعب ، وكان ابنها عمر آنذاك فى الثالثة من عمره .

(٣) قالت عائشة : كانت حفصة هى التى تساميني من أزواج رسول الله .
مولدها عام ٣٥ من ميلاد الرسول دخل بها الرسول ولها نحو من عشرين سنة ، وهى أسبق من أخيها ابن عمر بست سنين .
توفيت عام ٤١ هـ ، وهى عام الجماعة ، وقيل : بل عام ٤٥ هـ ، بالمدينة ، وصلى عليها والى المدينة مروان (١٦٢ — ١٦٤ جـ ٢ سير أعلام النبلاء) .

٧ — أم حبيبة بنت أبى سفيان(١)

اسمها رملة بنت أبى سفيان صخر بن حرب .

زوجه إياها خالد بن سعيد بن العاص ، وهما بأرض الحبشة ، وأصدقها النجاشى(٢) عن رسول الله أربعمائة دينار ، وذلك سنة ست ، ودخل بها سنة سبع .

وكانت قبل رسول الله زوجا لعبيد الله بن جحش الأسدى ، الذى توفى بالحبشة مرتدا متنصرا .

٨ — جويرية بنت الحارث الخزاعية(٣)

توفيت سنة خمسين من الهجرة

كانت فى سبايا بنى المصطلق من خزاعة ، فوقعت فى سهم ثابت بن قيس

---

(١) من بنات عم الرسول ، ليس فى أزواجه من هى أقرب نسبا إليه منها ، ولا فى نسائه من هى أكثر صداقا منها ، ولا من تزوج بها وهى نائية الدار أبعد منها ، ولدت بمكة قبل الهجرة إلى الحبشة ، وماتت فى خلافة أخيها معاوية قيل ٤٩ﻫ وقيل : سنه ٤٤ ﻫ أو ٤٢ ﻫ

ولما قدم أبوها أبوسفيان المدينة والنبي يريد غزو مكة ، فكلمه فى أن يزيد فى الهدنة فلم يقبل عليه ، فقام أبو سفيان فدخل على ابنته أم حبيبة فلما ذهب ليجلس على فراش النبي طوته دونه ، وقالت : هو فراش رسول الله وأنت امرؤ نجس مشرك (١٥٥ - ١٥٩ : ٢ سير أعلام النبلاء) وأسلم أبوسفيان ومعاوية فى فتح مكة سنة ٨ ﻫ

(٢) توفى سنه ٩ ﻫ

(٣) سبيت يوم غزوة المريسيع فى السنة الخامسة ، واسمها برة . وكانت من أجمل النبلاء وتزوجها رسول الله وهى بنت عشرين (١٨٧ - ٢/١٨٩ سير أعلام النساء للذهبي) .

الأنصاري ، فكاتبها على نفسها ، فأتت رسول الله تستعينه فى كتابتها ، فقال : هل لك فى خير من ذلك ؟ قالت : وما هو ؟

قال : أقضى عنك كتابتك وأتزوجك .

قالت : نعم .

فتزوجها صلى الله عليه وسلم ..

وقيل : بل جاء أبوها فأسلم ، ودفعت إليه ابنته فأسلمت ، وخطبها الرسول من أبيها ، فزوجه إياها ، وأصدقها أربعمائة درهم .

وكانت قبل رسول الله زوجا لابن عم لها اسمه عبد الله ، وقيل اسمه: صفوان بن أبي الشعر .

وقيل : بل اشتراها رسول الله من ثابت بن قيس فأعتقها ، وتزوجها ، وأصدقها أربعمائة درهم .

٩ــ صفية بنت حيي بن أخطب(١)

سيدة بنى النضير

كانت بنت حيي بن أخطب ملك خيبر غير المتوج ، وكانت من سبايا خيبر ، فاصطفاها رسول الله لنفسه ، وتزوجها .

---

(١) كانت شريفة عاقلة ، ذات حسب وجمال ودين : وتوفيت سنة ست وثلاثين ، وقيل : سنة خمسين . وكانت صفية ذات حلم ووقار ، وعن عطاء بن يسار قال : لما قدم رسول الله من خيبر ومعه صفية ، أنزلها ، فسمع بجمالها نساء المسلمين ، فجئن ينظرن إليها ، وكانت عائشة منتقبة حتى دخلت ، فعرفها ، فلما خرجت خرج فقال كيف رأيت . قالت : رأيت يهودية بين يهوديات فقال : لا تقولى . هذا فقد أسلمت . وكان سنها سبعة عشر عاما يوم دخلت على رسول الله ، وقبرها بالبقيع وقد أوصت بثلثها لأخ لها يهودي . وكان ثلاثين ألفا (١٦٤ - ١٦٨ : ٢ سير)

وكانت قبل رسول الله زوجا لكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، وقبله عند سلام بن أبي الحقيق ، وكانا من شعراء اليهود .

١٠ - ميمونة بنت الحارث الهلالية (١)

زوج العباس بن عبد المطلب رسول الله إياها ، وكانت أخت أم الفضل زوج العباس ، وأصدقها عن رسول الله أربعمائة درهم .

وكانت قبل رسول الله زوجا لأبي رهم بن عبد العزى من عامر بن لؤى ، ويقال : إنها هي التي وهبت نفسها لرسول الله ، وميمونة هي خالة خالد بن الوليد ، وخالة ابن عباس .

١١ - زينب بنت خزيمة الهلالية وهي أخت أم المؤمنين ميمونة لأمها

كانت تسمى أيضا أم المساكين لرقتها عليهم زوج رسول الله إياها قبيصة ابن عمرو الهلالي ، وأصدقها الرسول أربعمائة درهم .

---

(١) تزوجها أولا مسعود بن عمرو الثقفي قبيل الإسلام ، ففارقها ، وتزوجها أبو رهم بن عبيد العزى ، فمات ، فتزوجها رسول الله سنة سبع في ذي القعدة ، وبنى بها بسرف ، وكانت من سادات النساء ، وعن عكرمة أن ميمونة وهبت نفسها للنبي ، وكان اسمها برة فسماها رسول الله ميمونة ، وتوفيت بسرف ، وقيل: بمكة فحملت إلى سرف ، وماتت في خلافة يزيد سنة ٦١ هـ، ولها ثمانون سنة ، وقيل سنة ٥١ هـ (١٦٩ - ١٧٤ / ٢ سير أعلام النبلاء) ، وهي آخر من تزوج بها رسول الله بمكة في عمرة القضاء ؛ ويقول ابن القيم في زاد المعاد ١ : ٥٨ . إنها ماتت في أيام معاوية .

وكانت قبل رسول الله زوجا لعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب(١) ، وقبل عبيدة زوجا لجهم بن عمرو بن الحارث ، وهو ابن عمها(٢) .

زوجات فى حياة الرسول

وتزوج رسول الله ، فيمن تزوج من أمهات المؤمنين ، عدة نساء ، هن :

١ — العالية وهى امرأة من بنى بكر بن كلاب ، وقيل : من بنى غفار ، وهى بنت ظبيان ، وتزوجها ابن عم لها فولدت له .

يروى أنها لما أدخلت على رسول الله رأى فى كشحها بياضا ، فأمر لها بالصداق وفارقها(٣) .

٢ — أسماء(٤) بنت كعب الجونية الكندية:لم يدخل بها النبى صلى الله عليه وسلم حتى طلقها ، قالت لرسول الله : إنى أعوذ بالله منك ، فقال لها : لقد عذت بمعاذ ، الحقى بأهلك ، وتزوجها الرسول سنة ٩ ﻫ فى ربيع الأول

---

(١) كانت أولا عند الطفيل بن الحارث ثم خلف عليها أخوه الشهيد : عبيدة ابن الحارث ، وهى أخت أم المؤمنين ميمونة لأمها (١٥٤ / ٢ سير أعلام النبلاء

وقيل : كان زوجها هو عبد الله بن جحش ، فقتل عنها يوم أحد ، فتزوجها رسول الله ، ولكن لم تمكث عنده إلا شهرين أو أكثر ، وتوفيت رضى الله عنها (المرجع السابق) ١ : ٥٨ زاد المعاد ، وانظر الاستيعاب ٤ / ١٨١١)

(٢) اختلف فى اسم زوجها الذى استشهد ومات عنها ، فمن ابن حجر (الإصابة ٨ / ٩٤) هو عبد الله بن جحش ، وعن الطبرى (تاريخ الأمم والملوك الجزء الثانى) هو الطفيل بن الحارث بن عبد المطلب ، وعن ابن هشام (سيرة بن هشام ٤ / ٢٩٧) هو عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب .

(٣) ١٨٠ / ٢ سير أعلام النبلاء

(٤) ١٨١ و ١٨٤ و ١٨٥ / ٢ المرجع

وقيل : بل هى أسماء بنت النعمان الغفارية التى دخل بها ، فدعاها ، فقالت : تعالى أنت ، فطلقها وخلف على أسماء بنت النعمان المهاجرين أمية لأن رسول الله لم يضرب عليها حجابا ولا سميت بأم المؤمنين بعد .

٣ — أم شريك النجارية الأنصارية ، واسمها غزية بنت جابر ، وقيل هى : أم شريك بنت عوف بن جابر ، وقيل : هى غزية بنت دودان .

لم يدخل بها . وقيل : إنها كانت فيمن وهبت نفسها للنبي (١) .

٤ — سناء بنت أسماء بن الصلت السلمية . وقيل : هى سناء بنت سفيان الكلابية ، ماتت قبل أن يدخل بها(٢) واختلف على أى حال فى اسم الكلابية التى تزوج بها رسول الله ، وقيل هى التى استعاذت من رسول الله ، وقيل : هى عمرة بنت زيد الكلابية أو بنت حزن .

٥ — قتيلة أخت الأشعث بن قيس تزوجها النبى حين قدم عليه وفد كندة سنة عشر . فتوفى قبل أن تقدم عليه (١٨٦ / ٢ سير أعلام النبلاء) .

٦ — خولة بنت حكيم : أرجأها رسول الله فيمن أرجأ من نسائه (١٨٦ / ٢ سير) .

جملة أزواجه صلوات الله عليه

١ — هن إحدى عشرة ..

٢ — مات قبله منهن اثنتان هما :

(ا) خديجة بنت خويلد .

---

(١) ١٨١ و ١٨٢ / ٢ سير أعلام النبلاء

(٢) ١٨٢ / ٢ المرجع .

(ب) وزينب بنت خزيمة .

٣ — وتوفى عن تسع .

٤ — وثنتان لم يدخل بهما :

(ا) أسماء بنت النعمان الكندية .

(ب) عمرة بنت يزيد الكلابية .

٥ — وسرارى رسول الله هن :

(ا) مارية القبطية أم إبراهيم .

(ب) ريحانة بنت زيد(١) .

(حـ) جارية وهبتها له زينب بنت جحش .

(د) جارية أخرى .

---

(١) ٨ و ٩ حـ ٢ سير أعلام النبلاء توفيت بالكوفة عام ٤٠ هـ . =

موالى رسول الله

١و٢ — زيد بن حارثة وابنه أسامة بن زيد .

٣ — ثوبان مولى رسول الله (٥٤ هـ) .

٤ — شقران الحبشى ، وكان لعبد الرحمن بن عوف فوهبه للنبى .

٥ — رويفع أبو رافع، واسمه أسلم ، كان للعباس فوهبه رسول الله فأعتقه وهو من قبط مصر ، توفى عام ٤٠ هـ (٢ ص ٩ سير أعلام النبلاء للذهبى) .

= و تخرج من جملة ذلك بنتائج كبيرة :

١ — قضى الرسول حياته حتى الهجرة (٥٣ سنة) ليس له إلا زوجة واحدة

٢ — أزواج الرسول ماعدا عائشة كن كلهن أرامل أو مطلقات .

٣ — خمس من أزواجه ارامل مات عنهن أزواجهن المسلمون ، وثلاث من خصومه وأعدائه من القبائل العربية أو من اليهود .

هذا بينما كان لسليمان النبى مثلا مئات الأزواج (٣٠٠ امرأة ، ٣٠٠ جارية) وكان لداود مائة زوجة (٥٣ الشفاء) .

هذا ويروى عن الزهرى : تزوج نبى الله ثنتى عشرة عربية محصنات (٢/١٧٩ سير أعلام النبلاء) .

وعن قتادة : تزوج رسول الله خمس عشرة امرأة : ستا من قريش ، وواحده من حلفاء قريش ، سبعة من نساء العرب ، وواحدة من بنى إسرائيل : وقال أبو عبيد . ثبت أن رسول الله تزوج ثمانى عشرة امرأة : سبعا من قريش، وواحدة من حلفائهم وتسعا من سائر العرب وواحدة من نساء بنى إسرائيل ، فأولهن خديجة ، ثم سودة ، ثم عائشة ثم أم سلمة ، ثم حفصة ، ثم زينب بنت جحش ، ثم جويرية ، ثم أم حبيبة ، فصفية، فيمونة ، ففاطمة بنت شريح ، ثم تزوج زينب بنب خزيمة ، ثم هند بنت يزيد، ثم أسماء بنت النعمان ثم قتيلة أخت الأشعث، ثم سناء بنت أسماء السلمية (٢/١٨٠ سير أعلام النبلاء) .

٦ — سلمان الفارسي .

٧ — سفينة مولى رسول الله وكان لأم سلمة فأعتقته واشترطت عليه خدمة رسول الله حياته .

٨ — أبو كبشة توفى أول يوم استخلف فيه عمر (١٣ ﻫ) .

٩ — أبو مويهبة .

١٠ — رباح الأسود .

١١ — فضالة مولى رسول الله .

١٢ — مدعم مولى رسول الله .

١٣ — أبو ضميرة النوبى .

١٤ — مهرن .

١٥ — كركرة .

١٦ — سلمى مولاة رسول الله — الشفاء ص ٥٣ .

١٧ — عبد أهداه المقوقس له .

١٨ — وكان أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبوه هو أبو أسيد مالك بن ربيعة الأنصارى من بنى ساعدة وقد توفى عام ٤٠ ﻫ ، وكانت مع أبى أسيد راية بنى ساعدة يوم الفتح ، وكان أبو أسيد من كبراء الأنصار شهد بدرا والمشاهد كلها وعاش ثمانيا وسبعين عاما وأخوه البراء بن مالك توفى عام ٢٠ ﻫ (١ : ١٤٣ سير أعلام النبلاء) .

وراجع فضائل أنس بن مالك فى صحيح مسلم ٢ : ٢٠٧ مختصر صحيح مسلم للمنذري .

ومن إماء رسول الله صلى الله عليه وسلم

ربيحة ، ويقال هى ريحانة السرية .

خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم

١ — من الرجال : أنس بن مالك الأنصارى ربيعة بن كعب صاحب وضوئه ـ أبو مسعود صاحب نعليه ـ عقبة بن عامر يقود بغلته ـ بلال مولى أبى بكر ـ أبو ذر ـ أيمن بن أم أيمن صاحب مطهرته .

٢ — ومن النساء : بركة أم أيمن .

كتاب رسول الله

كان عددهم اثنين وأربعين كاتبا ، منهم : الخلفاء الأربعة ـ معاوية ـ زيد بن ثابت

أمراء رسول الله

منهم : معاذ بن جبل الأنصارى ، ولى مكة للنبى صلوات الله عليه لما خرج إلى حنين ـ وهبيرة الثقفى ، استخلف على مكة للنبى لما خرج إلى الطائف .

وعتاب بن أسيد ، ولى مكة للرسول بعد الفتح لما خرج صلوات الله عليه إلى حنين .

حرس رسول الله

كان يحرس رسول الله فى بدر سعد بن معاذ ، وفى أحد محمد بن مسلمة وفى غزوة الخندق الزبير ، والمقبرة بن شعبة فى الحديبية .

وحرسه عباد بن بشر .

ولما نزل قوله تعالى : والله يعصمك من الناس صرف هؤلاء جميعا

وكان قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير (١) .

وكان أبو طلحة الأنصارى يشور نفسه بين يدى رسول الله ، أى يعرضها على القتل ، ولقد كان أبو طلحة يترس على الرسول صيانة له ودفاعا عنه ، ثم يرمى دونه ويرمى ، وقد فعل مثل هذا فى غزوة أحد والرسول مثخن بجراحه ، وكان النبى يسوى له النصال ويجمع السهام ، ويعطيها له حتى يواصل الرمى بها ، وقد جاء فى كتاب « النهاية » لابن الأثير : « كان أبو طلحة يرمى ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقتر بين يديه » أى يسوى له النصال ويجمع السهام .

ويذكر ابن سيد الناس فى كتابه « عيون الأثر » شدة بلاء أبى طلحة يوم أحد ، وكيف ظل يجاهد ويناضل حتى أجهد إجهادا شديدا فوق طاقته فيقول : « وعن أبى طلحة غشينا النعاس ونحن فى مصافنا يوم أحد ، فجعل سيفى يسقط من يدى ، وآخذه ، ويسقط ، وآخذه ، وكان يوم بلاء وتمحيص، أكرم الله فيه من أكرم من المسلمين بالشهادة ، حتى خلص العدو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . » .

وكانت لأبى طلحة زوجة صالحة مجاهدة ، هى أم سليم بنت ملحان وكانت متزوجة قبله والد أنس بن مالك ، ويصفها أبو نعيم فى « الحلية » بقوله عنها : المستسلمة لحكم المحبوب ، الطاعنة بالخناجر فى الوقائع،أسلمت قبل زوجها أبى طلحة ، ولما تقدم إلى خطبتها قالت له : إنى فيك لراغبة ، وما مثلك يرد ، ولكنك رجل كافر ، وأنا امرأة مسلمة ، فإن تسلم فذلك

---

(١) راجع ص ٦٥ ج ١ زاد المعاد لابن القيم .

مهرى ، لا أسألك غيره ، لا أريد منك صفراء ولا بيضاء ، أريد منك الإسلام فإن أسلمت تزوجتك .

وتلبث أبو طلحة قليلا ، ثم انشرح صدره لنور الإسلام وذهب إلى النبي ليعلن إسلامه ، فلما رآه الرسول مقبلا قال لصحابته من حوله « جاءكم أبو طلحة وغرة الإسلام بين يديه » .

ونطق أبو طلحة بالشهادتين : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وصار مسلما ، فكان الإسلام هو مهر زوجته ، وقال بعضهم : « فما بلغنا أن مهرا كان أعظم منه ، إنها رضيت بالإسلام مهرا فتزوجها » ، وعاشت أم سليم مع زوجها أبى طلحة عيشة طويلة ، ولقد جاء فى صحيح البخارى عن رجل من الأنصار قال : رأيت لأبى طلحة تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن .

وكانت أم سليم امرأة عاقلة مؤمنة ، ويروى أنه كان لها طفل من زوجها أبى طلحة ، فمات الطفل وأبو طلحة خارج الدار ، فغطته أمه فى جانب من البيت ، فلما دخل عليها زوجها ليلا سألها عن الطفل ، فقالت : هو أهدأ ما يكون ، ثم قدمت إليه طعامه فأكل . ثم تزينت له فواقعها ، وعند السحر قالت له :

يا أبا طلحة ، ألم تر آل فلان استعاروا عارية فتمتعوا بها ، فلما طلبها أهلها منهم شق عليهم ذلك ، فقال طلحة : ما أنصفوا . فقالت : فان ابنك كان عارية من الله عزوجل ، وإن الله تعالى قد قبضه واسترد عاريته ووديعته ! » . فاسترجع أبو طلحة وصبر .

ولما ذهب أبو طلحة إلى رسول الله عند الصباح قال له الرسول .

يا أبا طلحة ، بارك الله لكما فى ليلتكما ، وحملت أم سليم فى ليلتها بعبد الله .

ولقد اشتركت أم سليم مع زوجها فى غزوة حنين وكانت تمسك بيمينها خنجرا ، وبيسارها بعير زوجها ، ويروى أن أبا طلحة حينما رأى الخنجر فى يدها قال لها : ما هذا يا أم سليم ؟ . قالت : خنجر اتخذته ، إن دنامنى بعض المشركين بعجته به (أى شققت به بطنه) .

فقال أبو طلحة للرسول : يا رسول الله ، أما تسمع ما تقول أم سليم ، تقول كذا وكذا .

فقال النبى : « يا أم سليم ، إن الله عز وجل قد كفى وأحسن » .

وعن أنس بن مالك قال : لما كان يوم أحد رأيت عائشة وأم سليم ، وإنهما مشمرتان ، أرى خدم سوقهما ينقلان القرب على متونهما ، ثم تفرغانها فى أفواه القوم ، وترجعان فتملآنها ، ثم تجيئان فتفرغان فى أفواه القوم .

ولقد روى أبو نعيم فى « الحلية » أن رسول الله صلى عليه وسلم لم يكن يدخل بيتا بالمدينة غير بيت أم سليم ، إلا على أزواجه ، ولما قيل له فى ذلك قال : إنى أرحمها ، قتل أخوها معى » (١) .

---

(١) عن مجلة الحج ـ من مقال لأحمد الشرباصى .

الفصل السادس

أبناء رسول الله صلى الله عليه وسلم

١ — القاسم

ابن الرسول صلى الله عليه وسلم من خديجة ، مات عن سنتين قبل الإسلام . .(١).

٢ — عبد الله الطيب

ابن رسول الله من خديجة ، توفى بمكة .

٣ — فاطمة بنت رسول الله

أم الحسن والحسين . وقد تقدمت ترجمتها . . ؛ وولد لها الحسن فى السنة الثالثة من الهجرة فى نصف رمضان .

وقد توفيت فى الثالث من رمضان عام ١١ هـ بعد وفاة رسول الله بستة أشهر .

وراجع فضائل فاطمة بنت رسول الله فى صحيح مسلم - ٢ : ١٩٨ مختصر صحيح مسلم للمنذرى .

٤ — زينب بنت رسول الله

توفيت عام ٨ هـ

أمها خديجة .

وهى أكبر أخواتها من المهاجرات السيدات .

---

(١) ١ : ٢٧٠ العقد الثمين للفاسى - وقيل : مات فى سن الثالثة (١ : ٤٩ ، ٥٠ زاد المعاد).

تزوجها فى حياة أمها ابن خالتها أبو العاص بن الربيع ، فولدت له أمامة التى تزوجها على بعد وفاة فاطمة بنت رسول الله . كما ولدت لأبى العاص كذلك ابنه على بن أبى العاص ، ومات صبيا .

أسلمت زينب وهاجرت قبل إسلام زوجها بخمس سنين(١) .

ولما أسر زوجها فى بدر افتدته زينب بقلادة لها أهدتها إياها أمها خديجة ، فلما رأى رسول الله القلادة عرفها ، ورق لها ، وقال : إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فعلتم ؟ قالوا : نعم ، فأخذ عليه العهد أن يخلى سبيل زينب لتهاجر إلى أبيها فى المدينة ، ففعل .

ولما خرج أبو العاص إلى الشام فى عير لقريش ، ندب رسول الله لهذه القافلة زيدا فى سبعين ومائة راكب ، فلقوا العير فى سنة ست من الهجرة ، فأخذوها وأسروا رجالا من حراسها ، فسار أبو العاص إلى المدينة ، فدخل على زينب سحرا ، فأجارته . ثم سألت أباها أن يرد متاعه ، ففعل ، وأمرها ألا يقربها مادام مشركا . فرجع إلى مكة فأدى إلى كل ذى حق حقه ثم رجع مسلما مهاجرا فى المحرم سنة سبع ، فعادت إليه زوجته زينب .

ماتت فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم عام ٨ هـ ، وعاشت نحو ثلاثين سنة ، وقد ولدت والرسول فى سن الحادية والثلاثين ، وقيل فى الثلاثين .

ومات أبو العاص فى شهر ذى الحجة من عام ١٢ هـ(٢).

وصلى رسول الله بأمامة ابنة ابنته زينب ، يحملها على عاتقه ، فإذا سجد وضعها ، وإذا قام قام فحملها(٣).

---

(١) يروى : بست سنين (١٧٦ / ٢ سير أعلام النبلاء) .

(٢) ٢٣٩ - ٢٤١ / ١ و ١٧٤ - ١٧٧ / ٢ سير أعلام النبلاء ، ٢ / ١ : ١١ ابن سعد ، ٤ / ٢٦٤ أسد الغابة ، ٧ / ١١٨ الإصابة ، وسيرة ابن هشام ج١ و ٣ و ٤ .

(٣) ٧٥ الشفاء طبعة الحلبي ١٩٥٠ .

٥ — رقية بنت رسول الله

توفيت فى السنة الثانية

أمها خديجة ـ أسلمت مع أمها وأخواتها، تزوجها عتبة بن أبى لهب قبل الهجرة فلما نزل قوله تعالى : « تبت يدا أبى لهب وتب (سورة المسد) ، قال أبو لهب لابنه : رأسى من رأسك حرام إن لم تطلق بنته ، ففارقها قبل الدخول ، ثم تزوجها عثمان .

وقد هاجرت مع عثمان إلى الحبشة الهجرتين، وولدت لعثمان : عبد الله ، وبه كان يكنى ، ومات وهو فى السابعة من عمره .

ثم هاجرت إلى المدينة بعد عثمان ومرضت قبيل بدر ، فخلف رسول الله عليها زوجها عثمان ، فتوفيت والمسلمون ببدر(١).

وتزوج عثمان أختها أم كلثوم ، وهى بكر ، فى ربيع الأول من سنة ثلاث فلم تلد له .

وكانت رقية أسن أولاد رسول الله .

٦ — أم كلثوم بنت رسول الله

توفيت فى شعبان سنة تسع

تزوجها عتيبة بن أبى لهب ، ثم فارقها .

أسلمت وهاجرت بعد النبى .

فلما توفيت أختها رقية ، تزوج بها عثمان بن عفان ، وكانت بكرا ،

---

(١) ١٧٧ و ١٧٨ / ٢ سير أعلام النبلاء للذهبى ، وراجع ٢٧١ : ١ العقد الثمين الفاسى .

وذلك فى ربيع الأول سنة ثلاث ، فلم تلد له . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : لو كن عشرا لزوجتهن عثمان .

ولما ماتت ذرف رسول الله على قبرها الدموع(١) .

٧ — إبراهيم ابن رسول الله

عن أنس بن مالك قال :

كان إبراهيم بن رسول الله مسترضعا له فى عوالى المدينة ، فكان رسول الله ينطلق ونحن معه ، فيدخل البيت ؛ وإنه ـ البيت ـ ليدخن ، وكان ظئره قينا ، فيأخذه فيقبله ، ثم يرجع .

وأم إبراهيم هى أم المؤمنين مارية القبطية أهداها المقوقس إلى رسول الله ، فأحسن إليها إذ بنى بها ، وأنجبت له إبراهيم .

ولما توفى إبراهيم حزن عليه الرسول ، وقال فيه : تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول إلا مايرضى الرب ؛ وإنا يا إبراهيم عليك لمحزونون ، وإنا لله وإنا إليه(٢) راجعون .

وكان ميلاد إبراهيم فى السنة الثامنة من الهجرة فى ذى الحجة ، وتوفى عن سبعين يوما ، وقيل غير ذلك(٣) .

ولما ولد إبراهيم بشر به أبو رافع(٤) فوهب له رسول الله عبدا .

وفى ٢ : ١٧٨ و ١٧٩ مختصر صحيح مسلم للمنذرى : عن أنس بن مالك

---

(١) ١٧٩ / ٢ سير أعلام النبلاء .
(٢) راجع ١ : ٩٥ زاد المعاد لابن القيم .
(٣) ١ : ٢٧١ العقد الثمين للفاسى .
(٤) ١ : ٤٩ و ٥٠ زاد المعاد .

رضى الله عنه ، قال : ما رأيت أحدا كان أرحم الناس بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال :

كان إبراهيم مسترضعا له فى عوالى المدينة . فكان صلى الله عليه وسلم ينطلق ونحن معه ، فيدخل البيت وإنه ليدخن وكان ظئره - زوج مرضعته - قينا ، فيأخذه ، فيقبله ، ثم يرجع .

فلما توفى إبراهيم قال رسول الله : إن إبراهيم ابنى ، وإنه مات فى الثدى ، وإن له لظئرين تكملان رضاعه فى الجنة . . . وكسفت الشمس فى السنة العاشرة الهجرية عند وفاة إبراهيم وورد فى الحديث (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته) ، وقد كان هذا الكسوف فى ٢٩ شوال سنة ١٠ هـ الموافق ٢٧ يناير سنة ٦٣٢ م .

وأم إبراهيم عليه السلام هى مارية القبطية التى أهداها المقوقس لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ويقال : إنها من حفن من أعمال (أنصنا) المندرسة، وهى بصعيد مصر على ضفة النيل الشرقية تجاه الأشمونين ، وهى فى الحقيقة مدينة « أنطينوه » التى أسسها الامبراطور الرومانى أوريان (١١٧ - ١٢٨ م) ، وقد سماها الأقباط « أنصلة » ، وعربها العرب فصارت « أنصنا »(١).

---

(١) راجع مقالا كتبه إبراهيم محمد الفحام : مجلة منبر الإسلام عدد جمادى الأولى ١٣٨٩ هـ ص ١٦٢ بعنوان « مارية القبطية فى موطنها فى مصر » .

أعمام رسول الله

حمزة ـ أبو طالب واسمه عبد مناف ـ أبو لهب واسمه عبد العزى كنى بأبى لهب لجماله ـ العباس وهو أصغر أعمامه ـ الحارث ـ وهو أسن أعمامه ـ المقوم ويجعل بعض العلماء الحارث والمقوم شخصاً واحدا ـ الزبير ـ عبد الكعبة (١) ضرار ـ قثم ـ المغيرة (حجل) ـ الغيداق (٢) (مصعب أو نوفل) .

هذه هى رواية ابن القيم فى زاد المعاد ، وجملة أعمامه صلوات الله عليه عشرة ، وفى أسمائهم بعض الخلاف .

عمات رسول الله

السيدة صفية بنت عبد المطلب

عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم

توفيت سنة عشرين

شقيقة حمزة . وأم الزبير بن العوام ،

تزوجها الحارث ، أخو أبى سفيان بن حرب ، فتوفى عنها .

وتزوجها العوام ، أخو خديجة أم المؤمنين ، فولدت له الزبير .

قيل : وما أسلم من عمات النبي سواها .

وهى من المهاجرات الأول .

---

(١) يقال : هو والمقوم واحد

(٢) يقال : هو والمغيرة واحد .

وجدت على مصرع أخيها حمزة ، وصبرت واحتسبت .

ودفنت بالبقيع .

ولما نزلت الآية الكريمة : « وأنذر عشيرتك الأقربين(١) » قام النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

يافاطمة بنت محمد .

ياصفية بنت عبد المطلب

يابنى عبد المطلب

لا أملك لكم من الله شيئا

سلونى من مالى ماشئتم(٢) .

ومن شعرها فى رثاء الرسول(٣) :

عين جودى بدمعة وسهود ... واندبى خير هالك مفقود

واندبى المصطفى بحزن شديد ... خالط القلب فهو كالمعمود

كدت أقضى الحياة لما أتاه ... قدر خط فى كتاب مجيد

فلقد كان بالعباد رؤوفا ... ولهم رحمة وخير رشيد

رضى الله عنه حيا وميتا ... وجزاه الجنان يوم الخلود

أروى عمة رسول الله(٤)

تزوجها عمير بن وهب

---

(١) الآية ٢١٤ من سورة الشعراء .

(٢) ١٩٣ و ١٩٤ : ٢ سير أعلام النبلاء .

(٣) ١٩٤ : ٢ المرجع .

(٤) ١٩٥ : ٢ - سير أعلام النبلاء - الطبقات ٨ : ٢٨ ، الإصابة ٤ : ٢٢٢ الاستيعاب ٤ : ٢١٩ ، أسد الغابة ٥ : ٣٩١

ولدت له : طليبا

ثم خلف عليها أرطاة

فولدت له : فاطمة

ثم أسلمت أروى وهاجرت

وأسلم ولدها طليب في دار الأرقم

ولم يسمع لها بذكر بعد

عاتكة عمة رسول الله(١)

بنت عبد المطلب

أسلمت وهاجرت

وهي صاحبة الرؤيا في هلاك أهل بدر ، وتلك الرؤيا ثبطت أخاها أبا لهب عن شهود بدر .

ولم يسمع لها بذكر بعد ذلك

وكانت عاتكة زوجة أبي أمية المخزومي ، ولها منه أولاد منهم : عبد الله .

عمات أخر لرسول الله(٢)

١ — البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب ، وهي والدة عثمان بن عفان ما أدركت البعثة .

---

(١) ١٩٥ / ٢ سير أعلام النبلاء ، ٨ / ١٢٩ لطبقات ، ٤ / ٣٤٧ الإصابة ، ٤ / ٢٥٧ الاستيعاب ، ٥ / ٤٩٩ أسد الغابة، ٢ / ٢٥٨ - ٢٦١ سيرة ابن هشام

(٢) ١٩٦ و ١٩٧ / ٢ سير أعلام النبلاء

٢ — برة بنت عبد المطلب والدة أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي - تزوجها عبد الأسد . ثم أبو رهم بن عبد العزى ، لم تدرك البعثة .

٣ — أميمة عمة رسول الله ، والدة أم المؤمنين زينب بنت جحش الأسدى حليف قريش أسلمت وهاجرت - وقيل إنها أميمة بنت ربيعة ، أو ابنة عم رسول الله الحارث بن عبد المطلب . والظاهر أن أميمة الكبرى ، العمة ، ماهاجرت ولا أدركت الإسلام .

نساء من آل الرسول (١)

١ — ضباعة ، بنت عم الرسول الزبير بن عبد المطلب ، كانت زوجة للمقداد بن الأسود ، وقتل ولدها عبد الله بن المقداد يوم الجمل . وعاشت إلى عام ٤٠ هـ

٢ — درة ، بنت أبي لهب بن عبد المطلب عم الرسول ، من المهاجرات تزوج بها دحية الكلبي .

٣ — أم هانىء ، بنت عم رسول الله أبي طالب بن عبد المطلب ، أخت على وجعفر - كانت زوجة هبيرة بن عمرو بن عائذ المخزومي ، فهرب يوم الفتح إلى نجران - أسلمت يوم الفتح ، ولم يذكر أحد أن زوجها أسلم(٢) .

٤ — أم الفضل بنت الحارث الهلالية زوجة العباس عم الرسول . وأخت أم المؤمنين ميمونة . وخالة خالد بن الوليد ، وأختها لأمها أسماء بنت عميس من المهاجرات الأول ماتت بعد عام ٤٠ هـ(٣) . وتوفيت أم الفضل في خلافة عثمان (٤) .

---

(١) ١٩٨ و ١٩٩ / ١٢ المرجع
(٢) ٢٢٧ و ٢٢٨ / ٢ سير أعلام النبلاء
(٣) ٢٠٤ - ٢٠٧ / ٢ المرجع
(٤) ٢٢٨ و ٢٢٩ / ٢ المرجع

٥ — أم عثمان بن أبي العاص وقد شهدت مولد النبي صلى الله عليه وسلم(١).

من أبناء أعمام الرسول

نوفل ابن عم رسول الله

توفى عام ٢٠ هـ (١ : ١٤٤ سير أعلام النبلاء) .

أبو سفيان بن عم رسول الله

هو أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ، وأخوه من الرضاعة ، أرضعتهما حليمة ، وكان أحد الذين يشبهون رسول الله ، وهم جعفر بن أبي طالب ، وقثم بن العباس ، والحسن بن علي ، وأبو سفيان ابن الحارث (١ : ٢٤٨ سير أعلام النبلاء) .

عبد الله بن الزبير ابن عم رسول الله

هو عبدالله بن الزبير بن عبدالمطلب ، قتل فى موقعة أجنادين عام ١٣ هـ كما فى سير أعلام النبلاء للذهبي (١ / ٢٢٨) .

إخوة رسول الله من الرضاع

١ - حمزة عم الرسول قتل عام ٢ هـ فى أحد .
٢ - أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب . ابن عم الرسول .
٣ - عبد الله بن الحارث بن حليمة السعدية .
٤ - أنيسة بنت الحارث .
٥ - الشيماء بنت الحارث .
٦ - مسروح ابن ثويبة مولاة أبي لهب .

---

(١) ٢/٢٦٩ المرجع

زيد بن حارثة

كان مولى لخديجة ، وهبته لرسول الله بعد زواجها منه صلى الله عليه وسلم .

قدم أبوه وعمه إلى مكة فى فدائه فسألا عن رسول الله ، فقيل : هو فى المسجد ، فدخلا عليه ، فقالا :

يا ابن عبد المطلب ، يا ابن هاشم ، يا ابن سيد قومه .

أنتم أهل حرم الله وجيرانه ، تفكون العانى ، وتطعمون الأسير .

جئناك فى ابننا عندك ، فامنن علينا ، وأحسن إلينا فى فدائه .

قال : ومن هو ؟

قالا : زيد بن حارثة .

فقال رسول الله : فهلا غير ذلك ؟

قالا : وما هو ؟

قال : أدعوه ، فأخيره ، فإن اختاركم فهو لكم ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحدا .

قالا : قد رددتنا على النصف ، وأحسنت .

فدعا صلوات الله عليه زيدا ، فقال : تعرف هؤلاء ؟

قال : نعم ، هذا أبى ، وهذا عمى .

قال : فأنا من قدعلمت ورأيت وعرفت صحبتى لك فاخترنى أو اخترهما .

قال : ما أنا بالذى أختار عليك أحـــدا أبدا ، أنت منى مكان الأب والعم .

فقالا : ويحك يازيد، أتختار العبودية عن الحرية ، وعلى أبيك وعمك، وعلى أهل بيتك ؟

قال : نعم ، قد رأيت من هذا الرجل شيئا ما أنا بالذى أختار عليه أحداً أبداً .

فلما رأى رسول الله ذلك أخرجه إلى الحجر ، فقال : أشهد أن زيدا ابنى يرثنى وأرثه . ودعى زيد بن محمد .

فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت نفساهما ، فانصرفا .

ولما نزلت الآية الكريمة « ادعوهم لآبائهم » دعى من يومئذ زيد ابن حارثة ، وهو الذى سماه القرآن الكريم باسمه : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها » - ٣٧ من سورة الأحزاب .

أعلام فى حياة رسول الله

١ - السيدة أم أيمن حاضنة رسول الله .

هى حبشية ، اسمها بركة .

مولاة رسول الله وحاضنته .

ورثها من أبيه ثم أعتقها عند ما تزوج خديجة .

تزوجها عبيد بن الحارث الخزرجى ، فولدت له أيمن ، وقد استشهد أيمن يوم حنين ، وترك ولداً اسمه الحجاج بن أيمن ، وآخر اسمه عبد الواحد .

ثم تزوجها زيد بن حارثة ليالى بعث النبى فولدت له أسامة حب رسول الله .

وكان رسول الله يقول لها : يا أمة ، ويقول : هذه بقية أهل بيتي .

وكانت أم أيمن تلطف بالنبي وتقوم عليه وتخدمه ، وماتت في خلافة عثمان .

قالت حين استشهد عمر : اليوم وهى الإسلام(١) .

وكانت أم أيمن حاضنة رسول الله وتزوجها زيد بن حارثة بعد طلاقه زينب بنت جحش عام خمس من الهجرة ؛ وابنه أسامة منها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى أسامة : من كان يحب الله ورسوله فليحب أسامة ؛ وقال فيه كذلك أحب الناس إلى أسامة ، ماحاشا فاطمة ولا غيرها — وراجع فضائل أم أيمن مولاة النبي فى مسلم ٢ : ٢٠٦ مختصر مسلم للمنذرى .

وكانت أم أيمن تخدم رسول الله ، كما فى الشفاء للقاضى عياض-ص٤١

ويقول الناس فى العقد الثمين (١ : ٢٢٢) : كانت أم أيمن داية رسول الله وحاضنته بعد موت أمه .

٢ — بريرة مولاة أم المؤمنين عائشة

كان زوجها يسمى مغيث بن جحش (٢١٥ — ٢٢١ / ٢ سير أعلام النبلاء) .

٣ أم سليم والدة خادم النبي أنس بن مالك(٢)

هى من الخزرج زوجها مالك بن النضر توفى عنها، فتزوجها أبو طلحة(٣)

---

(١) ١٥٦ — ١٦١/٢ سير أعلام النبلاء

(٢) ٢٢١ — ٢٢٦/٢ المرجع

(٣) توفى عام ٣٤ هـ - ويقول أنس بن مالك : خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لى أف قط ، وما قال لشيء صنعته : لم صنعته ؟ ولا لشيء تركته : ؟ لم تركته . ٧٠و٧١ الشفاء .

زيد بن سهل الأنصارى ، شهدت أحدا وحنينا ، ولم يكن رسول الله يدخل بيتنا غير بيتها راجع ٢ : ٢٠٥ مختصر صحيح مسلم للمنذرى وفيه : يأتى أرحمها قتل أخوها معى .

٤ — أبو اليسر

صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم(١)

٥ — تميم الدارى

صاحب رسول الله توفى عام ٤٠ هـ(٢) .

٦ — ثويبة

هى مولاة أبى لهب — أرضعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بلبانها وهو لبان ابنها « مسروح »(٣) .

---

(١) ٢ ، ١٦٧ مختصر صحيح مسلم للمنذرى ،
(٢) ٢ : ٣١٦ — ٣٢٠ سير أعلام النبلاء
(٣) ١ ، ٢٢١ العقد الثمين لتقى الدين الفاسى

الفصل السابع

حوادث دبرت لاغتيال رسول الله

— ١ —

اليهود وتدبير المؤامرات لاغتيال الرسول :

١ — حاول اليهود قتل رسول الله لما خرج إلى بنى النضير، يستعينهم فى دية العامريين الذين قتلهما عمرو بن أمية ، فقال بعضهم لبعض : لن تجدوا محمدا أقرب منه الآن : فمن يظهر على هذا البيت فيرميه بصخرة فيريحنا منه ؟

فقال رجل منهم : أنا

فنزل الوحى على رسول الله بالأمر ، فانصرف عنهم ، ونزل قول الله عز وجل : يا أيها الذين آمنوا ، اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم ، فكف أيديهم عنكم (١١ - المائدة) .

ويروى أنه : عمرو بن جحاش ، وأنه انبعث ليطارح عليه رحى ، فقام النبي وانصرف إلى المدينة ، وأعلمهم بقصتهم(١) .

ويروى أن حيي بن أخطب قال لرسول الله : اجلس يا أبا القاسم حتى نطعمك ونعطيك ما سألتنا ، فجلس الرسول مع أبى بكر وعمر ، وتآمر حيي معهم على قتله ، فأعلم جبريل رسول الله بذلك ، فقام كأنه يريد حاجته حتى دخل المدينة (١) .

٢ — وقصة اليهودية التى وضعت السم فى شاةمشوية قدمتها لرسول الله ، فأكل منها، وأكل معه بشر بن البراء ، معروفة فأما بشر فاستمر يأكل ويستسيغ

---

(١) ٢٣٢ الشفاء .

ما أكل ، فمات . وأما الرسول الأعظم فلفظ ما أكل فمرض ، واستمر يعاوده المرض ، حتى ليروى أنه مات بسبب ذلك .

وقد اعترفت اليهودية بجريمتها ، فعفا عنها ، فلما مات بشر اقتص رسول الله منها .

وقد سبق تفصيل ذلك ـ وفى حديث مسلم (٢ : ١٧١) أن رسول الله لم يأمر بقتلها ، وأن أثر السم مازال يعرف فى لهوات رسول الله .

وعن أبى هريرة أن يهودية أهدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر شاة مصلية سمتها ، فأكل رسول الله منها ، وأكل القوم ، فقال : ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتنى أنها مسمومة ، فمات بشر بن البراء ، وقال لليهودية : ما حملك على ما صنعت ؟ قالت : إن كنت نبيا لم يضرك الذى منعت ، وإن كنت ملكا أرحت الناس منك ، فأمر بها فقتلت (١) .

وفى حديث أبى هريرة أن رسول الله قال فى رجعه الذى مات فيه : مازالت أكلة خيبر تعاودنى فالآن أوان قطعت أبهرى ، وحكى ابن اسحاق أن كان المسلمون ليرون أن رسول الله مات شهيدا مع ما أكرمه الله به من النبوة (١) .

وفى رواية ابن عباس أن رسـول الله دفعها لأولياء بشر بن البراء فقتلوها (١) .

وهذه اليهودية هى زينب بنت الحارث ابنة أخى مرحب وامرأة سلام ابن مشكم (٢) .

---

(١) ٢٠٩ الشفاء ، وراجع فى ذلك حديث مسلم (٢ : ١٧١ مختصر صحيح مسلم) .

(٢) ٢ : ٣٣٩ زاد المعاد .

وقد لفظ رسول الله ما أكل ، واحتجم بعد الأكل من الشاة المسمومة وأمر من أكل معه منها فاحتجم ، فمات بعضهم (١) .

وقيل : أسلمت المرأة فتركها وعفا عنها ، والناس يقولون : بل قتلها رسول الله (١) ، وعن أبي هريرة لما مات بشر بن البراء بن معرور بعد أكله من الشاة قتلها رسول الله (١) .

— ٢ —

عمير بن وهب وصفوان بن أمية ،

وكذلك حاول عمير بن وهب قتل رسول الله بعد بدر بتحريض من صفوان بن أمية . . ولم تنجح المحاولة لما سبق أن ذكرناه .

— ٣ —

وقال أنس :

هبط ثمانون رجلا من التنعيم صلاة الصبح ، ليقتلوا رسول الله ، فأخذوا ، فأعتقهم رسول الله وعفا عنهم (٢) .

— ٤ —

وحاول غورث بن الحارث الفتك برسول الله ، والرسول منتبذ تحت شجرة وحده قائلا (٣) ، والناس قائلون في غزاة (٤) . فلم ينتبه رسول الله إلا وهو قائم والسيف في يده ، فقال : من يمنعك مني ؟ قال : الله ، فسقط

---

(١) ٢ : ٣٤٠ المرجع .
(٢) ٦٤ الشفاء للقاضي عياض ـ طبعة مصطفى الحلبي ـ القاهرة .
(٣) من القيلولة : وهي النوم عند الظهر وحرارة الشمس .
(٤) أي غزوة .

السيف من يده ، فأخذه النبي ، وقال : من يمنعك منى ، قال : كن خير آخذ .

فعفا عنه رسول الله (١) ، فرجع إلى قومه وقال : جئتكم من عند خير الناس (٢) .

ويروى أن الأعرابى لما سقط سيفه ضرب برأسه الشجرة حتى سال دماغه فنزلت الآية : والله يعصمك من الناس(٣) .

وقد حكيت مثل هذه الحكاية أنها جرت له يوم بدر . وقد انفرد من أصحابه لقضاء حاجته فتبعه رجل من المنافقين وذكر مثله (٤) .

وروى أنه وقع له مثلها فى غزوة غطفان بذى أمر ، مع رجل اسمه دعثور بن الحارث ، وأن الرجل أسلم ، فلما رجع إلى قومه الذين أغروه وكان سيدهم وأشجعهم قالوا له : أين ما كنت تقول وقد أمكنك ؟ فقال : إنى نظرت إلى رجل أبيض طويل دفع فى صدرى فوقعت لظهرى وسقط السيف فعرفت أنه ملك(٣) . وأسلمت (٣) .

— ٥ —

ولما نزلت سورة « تبت يدا أبى لهب » وفيها ذكر امرأته « حمالة الحطب » ، أتت رسول الله وهو جالس فى المسجد ، ومعه أبو بكر ، وفى يدها فهر من حجارة ، فلما وقفت عليهما ـ تريد ضرب رسول الله به ـ لم تر

(١) ٦٢ الشفاء .
(٢) ٢٢٨ المرجع .
(٣) ٢٦٩ المرجع .
(٤) راجع فى ذلك حديث مسلم ٢ : ٨٧١ مختصر صحيح مسلم للمنذرى .

إلا أبا بكر ، وأخذ الله تعالى ببصرها عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا أبا بكر ، أين صاحبك ؟ فقد بلغنى أنه يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه(١) .

— ٦ —

محاولة عند الكعبة :

عن فضالة بن عمرو قال :

أردت قتل النبى عام الفتح وهو يطوف بالبيت ، فلما دنوت منه ، قال : أفضالة ؟ قال : نعم .

قال رسول الله : ما كنت تحدث به نفسك ؟

قلت : لاشى

فضحك واستغفر لى ، ووضع يده على صدرى ، فسكن قلبى ، فوالله مارفعها حتى ماخلق الله شيئا أحب إلى منه(٢) .

— ٧ —

وسحر لبيد بن الأعصم رسول الله فبطل سحره ، وعفا عنه رسول الله(٣) .

وقيل : اختلف فى قتل الذى سحره ، قال الواقدى : وعفوه عنه أثبت عندنا ، وقد روى عنه أنه قتله(٤) .

---

(١) ٢٢٩ و ٢٣٠ الشفاء
(٢) ٢٣٣ الشفاء
(٣) ٦٢ الشفاء
(٤) ٢١٠ المرجع

وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت : سحر رسول الله يهودى من بنى زريق، يقال له : لبيد بن الأعصم ، حتى كان رسول الله يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله(١) .

— ٨ —

وعن الحكم بن أبى العاص قال :

تواعدنا على قتل النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما رأيناه سمعنا صوتا خلفنا ماظننا أنه بقى بتهامة أحد ، فوقعنا مغشيا علينا ، فما أفقنا حتى قضى صلاته ، ورجع إلى أهله .

ثم تواعدنا ليلة أخرى فجئنا حتى إذا رأيناه جاءت الصفا والمروة فحالت بيننا وبينه(٢) .

— ٩ —

وعن عمر رضى الله عنه قال :

تواعدت أنا وأبو جهم بن حذيفة ليلة قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجئنا منزله ، فسمعنا له ، فافتتح ، وقرأ « الحاقة ما الحاقة » - إلى قوله : « فهل ترى لهم من باقية ؟ »

فضرب أبو جهم على عضد عمر ، وقال : انج ؛ وفرا هاربين .

فكانت من مقدمات إسلام عمر(٣) .

---

(١) ٢ : ١٤٠ مختصر صحيح مسلم المنذرى
(٢) ٢٣٠ الشفاء
(٣) ٢٣٠ الشفاء

— ١٠ —

ومؤامرة قريش (١) الكبرى لقتل رسول الله ، وهى مؤامرة ليلة الهجرة ، مشهورة مذكورة عند جميع المؤرخين .

وحين طافوا بغار ثور ، قالوا : ندخله ، فقال لهم أمية بن خلف : ما أرابكم فيه ، وعليه من نسج العنكبوت ما أرى أنه قبل أن يولد محمد (٢)

— ١١ —

وتبع رسول الله بعد الهجرة فى طريقه إلى المدينة سراقة بن مالك بن جعشم ، وقد جعلت قريش فيه وفى أبى بكر الجعائل ، فأنذر به ، فركب فرسه ، واتبعه ، حتى إذا قرب منه دعا عليه النبى صلى الله عليه وسلم ، فساخت قوائم فرسه ، فخر عنها ، واستقسم بالأزلام ، فخرج له مايكره ، ثم ركب ودنا حتى سمع قراءة النبى صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت وأبو بكر رضى الله عنه يلتفت ، وقال للنبى : أتينا ، فقال : لا تحزن إن الله معنا ، فساخت ثانية إلى ركبتها وخر عنها ، فزجرها فنهضت ، ولقوائمها مثل الدخان ، فناداهم بالأمان .

---

(١) لاشك أن بيت عبد شمس كان له دور كبير فى ذلك ، ومن قديم كان يعادى البيت الهاشمى ، يروى أنه أصاب قريشا أزمة فخرج هاشم بن عبد مناف بالإبل تحمل الغرائر من الكعك ـ الخبز اليابس ـ وجمع ذلك فى الجفان وطبخ لحوم الإبل فصبها عليها ، فكان أول خصبهم ، فخرج أمية بن عبد شمس يتكلف بعض ذلك فعجز ، فنافر هاشما فأبى هاشم المنافرة لفضله وسنه حتى زمرته قريش ـ حضته ـ فأبى إلا على أن ينفى المنفر من الحرم عشر سنين فنافره على ذلك (١٩٣ الجمان فى تشبيهات القرآن لابن نافيا البغدادى (٤١٠ — ٤٨٥ هـ)

(٢) ٢٣٠ الشفاء

فكتب له النبي صلى الله عليه وسلم أمانا ، كتبه ابن فهيرة ، وقيل : أبو بكر ، وأخبرهم بالأخبار وأمره النبي ألا يترك أحدا يلحق بهم ، فانصرف يقول للناس : كفيتم ماههنا (١) .

وقال رسول الله لسراقة : كيف بك إذا لبست سوارى كسرى ، فلما أتى بهما عمر ألبسهما إياه ، وقال : الحمـــد لله الذى سلبهما كسرى وألبسهما سراقة (٢) .

وفى خبر آخر أن راعيا عرف رسول الله وأبا بكر فخرج يشتد يعلم قريشا ، فلما ورد مكة ضرب على قلبه ، فما يدرى مايصنع ، وأنسى ماخرج له حتى رجع إلى موضعه (٣) .

— ١٢ —

وجاء أبو جهل بصخرة ورسول الله ساجد ، وقريش ينظرون ليطرحها عليه ، فلزقت بيده ويبست يداه إلى عنقه ، وأقبل يرجع القهقرى إلى خلفه ، ثم سأله أن يدعو له ففعل . فانطلقت يداه ، وكان قد تواعد مع قريش بذلك ، وحلف لئن رآه ليدمغنه ، فسألوه عن شأنه ، فذكر أنه عرض لى دونه فحل مارأيت مثله قط هم بى أن يأكلنى ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ذاك جبريل ، لو دنا لأخذه (٤) .

وهذه الحادثة تروى برواية مقاربة أخرى (٥) .

— ١٣ —

وروى أن رجلا من بنى المغيرة أتى النبي صلى الله عليه وسلم ليقتله ،

---

(١) ٢٣٠ و ٢٣١ الشفاء (٢) ٢٢٦ المرجع
(٣) ٢٣١ المرجع (٤) ٢٣١ الشفاء
(٥) ٢٢٢ المرجع

فطمس الله على بصره ، فلم ير النبي صلى الله عليه وسلم ، وسمع قوله ، فرجع إلى أصحابه ، فلم يرهم حتى نادوه (١)

— ١٤ —

ويروى أن شيبة بن عثمان الحجبي أدرك رسول الله يوم حنين ، وكان حمزة قد قتل أباه وعمه ، فقال : اليوم أدرك ثأرى من محمد . فلما اختلط الناس أتاه من خلفه ، ورفع سيفه ليصبه عليه .

قال شيبة : فلما دنوت منه ارتفع إلى شواظ من نار أسرع من البرق ، فوليت هارباً ، وأحس بي النبي ، فدعاني ، فوضع يده على صدرى ، وهو أبغض الخلق إلى ، فما رفعها إلا وهو أحب الخلق إلى ، وقال لى : أدن ، فقاتل ، فتقدمت أمامه ، أضرب بسيفي ، وأقيه بنفسى ، ولو لقيت أبي تلك الساعة لأوقعت به دونه(٢) . .

— ١٥ —

وخبر عامر بن الطفيل وأربد بن قيس حين وفدا على النبي صلى الله عليه وسلم مشهور .

وكان عامر قال لأربد : أنا أشغل عنك وجه محمد فاضربه أنت .

فلم يره فعل شيئا ، فلما كلمه فى ذلك قال له : والله ماهممت أن أضربه إلا وجدتك بينى وبينه ، أفأضربك ؟(٣)

— ١٦ —

وقد سبق ذكره ما كان قدهم به عمر بن الخطاب قبيل إسلامه من الفتك برسول الله صلوات الله عليه وسلم .

---

(١) ٢٣١ الشفاء (٢) ٢٣٢ و ٢٣٣ الشفاء (٣) راجع ٢٣٣ الشفاء

— ١٧ —

كما سبق أن ذكرنا ماعزم عليه جماعة من المنافقين من الفتك برسول الله صلوات الله عليه وهو فى طريقه من تبوك إلى المدينة المنورة ، ولكن الله عز وجل نجاه من شرهم .

وقد أخبر رسول الله بقصة هؤلاء المنافقين ، الذين تآمروا عليه بعد عودته من تبوك وسمى رسول الله نذكرمنهم : عبد الله بن أبى ، وسعد بن أبى سرح ، وأباخاطر الأعرابى ، وعامرا أوأبا عامر ، والجلاس بن سويد بن الصامت وهو الذى قال : لانتهى حتى نرمى محمداً من العقبة الليلة ، ومجمع بن حارثة ، ومليحا التيمى وهو الذى سرق طيب الكعبة وارتد عن الإسلام ، وانطلق محارباً فى الأرض ، فلايدرى أين ذهب ، وحصن بن نمير ، وطعيمة ابن أبيرق ، وعبد الله بن عيينة وهو الذى قال لأصحابه : «اسهروا هذه الليلة تسلموا الدهر كله فوالله مالكم أمر دون أن تقتلوا هذا الرجل» ، فدعاه رسول الله فقال ، ويحك ماكان ينفعك من قتلى لوأنى قتلت ! فقال : «والله يارسول الله لاتزال بخير ماأعطاك الله النصر على عدوك ، إنما نحن بالله وبك ، فتركه رسول الله ، ومنهم : مرة بن الربيع ، وهو الذى قال : «نقتل الواحد الفرد ، فيكون الناس عامة بقتله مطمئنين ، فدعاه رسول الله فقال : ويحك ماحملك على أن تقول الذى قلت ؟ فقال : يارسول الله إن كنت قلت شيئاً من ذلك إنك لعالم به ، وماقلت شيئاً من ذلك .

فجمعهم رسول الله وهم اثنا عشر رجلا ، ونزل فيهم قوله تعالى : وهموا بما لم ينالوا (٩ : ٧٤) ، وماتوا وهم منافقون .

وكان أبو عامر رأسهم ، وله بنوا مسجد الضرار ، وهو الذى كان يقال له الراهب ، فسماه رسول الله : الفاسق ، وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة ،

فانهارت بهم تلك العقبة فى نار جهنم(١) .

ويلاحظ ابن القيم أن عبد الله بن أبى كان قد تخلف عن تبوك ، وأن ابن أبى سرح لم يعرف له إسلام قط ، وابنه عبد الله أسلم عام الفتح ولم يكن مع هؤلاء الاثنى عشر . وأن أبا عامر كان قد خرج من المدينة بعد هجرة رسول الله إليها - ببضعة عشر رجلا ، فلما فتح رسول الله مكة خرج إلى الطائف ، فلما أسلم أهل الطائف خرج إلى الشام فمات بها طريدا(٢) .

ولعل منهم ثعلبة بن حاطب (٢)

وكان أبو عامر قال لأصحابه : ابنوا مسجدكم - الضرار - واستمدوا ما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم فأخرج محمدا وأصحابه .

فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا قد فرغنا من بناء مسجدنا ، فنحب أن تصلى فيه وتدعو بالبركة ، فأنزل الله تعالى فيه قوله عزوجل : « لا تقم فيه أبدا »(٢) .

---

(١) ٣ : ١٧ و١٨ زاد المعاد .
(٢) ٣ : ١٩ زاد المعاد ،

ملك غسان يكيد للاسلام

نحن نعلم قصة كعب بن مالك الذى تخلف عن غزوة تبوك ، وكان كعب من شعراء الإسلام .

ولما جاء رسول الله من تبوك بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس ؛ فلما فعل ذلك جاءه المخلفون ، فطفقوا يعتذرون إليه ، ويحلفون له ، وكانوا بضعاً وثمانين رجلا ، فقبل منهم رسول الله علانيتهم ، وبايعهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله ، ويقول كعب : جئت ، فلما سلمت تبسم الرسول تبسم المغضب ، فقال لى : ماخلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ قال كعب: والله ما كان لى عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك .

قال رسول الله : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك ، فقمت ، ولقيه رجلان قالا مثل ما قال : مرارة بن ربيعة العامرى وهلال بن أمية .

ونهى رسول الله المسلمين عن كلام هؤلاء الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبهم الناس ، وتغيروا لهم ، قال كعب: حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض فما هى بالأرض التى أعرف ؛ حتى إذا طال على ذلك من جفوة المسلمين ، مشيت ، حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة ، وهو ابن عمى ، وأحب الناس إلى ، فسلمت عليه ، فوالله ما رد على السلام ، ففاضت عيناى ، وتوليت حتى تسورت الجدار .

قال كعب : فبينا أنا أمشى فى سوق المدينة ، فإذا نبطى من نبط أهل الشام ، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة ، يقول : من يدل على كعب بن مالك ، فطفق الناس يشيرون له إلى ، حتى جاءنى ؛ فدفع إلى كتابا من

ملك غسان ، وكنت كاتباً ، فقرأته ، فإذا فيه : « أما بعد ، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك ، فقال كعب حين قرأ هذه الرسالة : وهذا أيضا من البلاء ، فتيامت التنور فسجرتها بها(١) .

(١) راجع ٢ : ٢٦٦ - ٢٨٦ مختصر صحيح مسلم للمنذرى

الفصل الثامن

الرسول فى رأى المفكرين

— ١ —

رسول الله فى القرآن الكريم :

يقول الدكتور عبد الحليم محمود من مقالة له (١) :

يقول الله تعالى فى كتابه العزيز :

« لقد من الله على المؤمنين ، إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم : يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

وآيات القرآن كثيرة فى هذا المعنى تؤكد كلها : أن بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، كانت نعمة عظمى من الله ، سبحانه . على جميع المؤمنين ، وأن هذا الفضل من الله ، سبحانه وتعالى . إنما هو منة كريمة من لدن رب كريم .

ذلك أن هذا الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، إنما هو لسان صدق فى تبليغ آيات الله ، فهو يتلوها على المؤمنين ، وانه يتلوها عليهم بعد أن تلاها على نفسه ، ووعاها ، وتشربتها روحه ، فانطبع بها ، وعاشها ، من أجل ذلك كان هذا الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، مصدر تزكية لهم ، إنه ـ من أجل ذلك ـ أصبح مصدر تزكية بالمثال والقدوة والتأسى للمؤمنين .

---

(١) مجلة الأزهر ـ المحرم ١٣٨٦ هـ .

لقد تزكى بآيات الله ، ولقد زكته آيات الله ، وإنه يتلوها ، ويحياها : فهو يبشر بها بقوله ، أو بتلاوتها ، ويبشر بها بمسلكه ، فهو بقوله يتلوها ، وهو بمسلكه يرسمها .

ويعلمهم الكتاب : إنه لايتلوه فحسب . وإنما يعلم أيضا ، إنه يشرح ويفسر ، ويطبق ، ويقوم تطبيق الآخرين إذا انحرفوا ، إنه يعلم القرآن .

وهو يعلم القرآن بعد أن انطبع به ، وبعد أن أصبح هو قرآنا ، لقد أصبح فكره قرآنا ، وأصبحت عواطفه قرآنا ، وأصبحت إرادته قرآنا ! ! !

ولقد عبرت عن ذلك السيدة عائشة رضوان الله عليها خير تعبير وأخصره حينما سئلت عن خلق رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقالت ، رضوان الله عليها : « كان خلقه القرآن » .

بيد أن هذه الصورة الخالدة للأخلاق ، كما يحب الله سبحانه ، لبنى الإنسان : قد تحققت بالفعل : حققها رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ؛ وحققها فى ذاته ؛ وحققها فى مجتمعه ، حققها سلوكا ، وحققها واقعيا ، حققها هو فى نفسه على أكمل ما يكون التحقيق ، وحققها تطبيقا فى مجتمعه على الصورة التى استطاعها هذا المجتمع .

لقد تحقق الإسلام بالفعل ، فوجد مجتمعا أسلم نفسه لله ، وإن مجتمعا يسلم نفسه لله لايتأتى أن تتمخض الإنسانية عن خير منه .

هذا المجتمع الذى وجد إنما كان ثمرة من ثمار جهاد الرسول صلى الله عليه وسلم وكفاحه فى أن يخرج بالفعل الصورة التى أوحاها الله إليه ؛ لقد كان أثرا لتلاوة الرسول صلى الله عليه وسلم آيات الله ، ولتزكية الرسول صلى الله عليه وسلم لمن حوله ، بمثله القرآنى ، ولتعليمه صلوات الله عليه القرآن لمن حوله .

وتشربت روح رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ، وامتلأت به ، وصفت بصفائه وتزكت به ، واستنارت بنوره ، ففاضت بالحكمة : أثراً من آثار الهداية التامة ، ونتيجة للنـور يغمر القلب ، وللسناء يتلألأ فى الفؤاد ، فكان الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، يعلم الكتاب ، ويعلم الحكمة، وما الحكمة إلا أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ينير بها قلوبا ، ويرشد بها عقولا ، ويقود بها عباد الله إلى الله ، وكما أن الكتاب من عند الله ، فإن الحكمة أيضا من عند الله .

— ٢ —

خاتم الأنبياء :

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد من مقالة له (١) :

محمد رسول الله وخاتم النبيين .

عقيدة يصدقها المسلم تصديقه بعقائد الدين ، ولكنه يفهمها كذلك فهم المرء للحقائق العلمية والقضايا المنطقية ، لأنه إذا فهم النبوة بصفاتها المقررة فى الإسلام ، علم أنها نبوة تختم بها النبوات وتتفتح بها فى التاريخ الإنسانى رسالة الرشد والضمير والإلهام .

إن ختام النبوات خاصة محمدية ، ولكنها خاصة لا يستأثر بها محمد عليه السلام لنفسه ، لأن الخاصة التى يقتضيها تاريخ الأمم جميعا تعم كل مؤمن بالدين وكل مجيب للدعوة ولا تخص صاحب الدعوة فى حياته ولا بعد مماته .

وليس إيمان المسلم بخاتم النبيين على نحو من هذه الغرابة فى التصديق ولا فى التفكير ، لأن النبوة التى ختمت النبوات فى عقيدة المسلم هى الدعوة

---

(١) مجلة الأزهر — ربيع الأول — ١٣٨٠ هـ .

التى تدوم مدى الزمن ؛ لأنها تكل العقيدة إلى العقل وتقيم العقيدة على الإيمان برب واحد هو رب العالمين .

كانت الأمم – قبل البعثة المحمدية – تفهم أن النبوة استطلاع للغيب وكشف للأسرار والخبآت ، يستعينون بها على رد الضائع وإعادة المسروق أو الدلالة عليه ، ويستخبرونها عن طوالع الخير والشر ومقادير السعود والنحوس ، وكان من تلك الأمم من يحسب أن النبوة وساطة بين المعبود وعباده للتشفع وتسليم القرابين ، وكانوا يطلبون وساطة الأنبياء دفعاللنوازل التى يستحقونها أوتنزل بهم لأنها قضاء مبرم يتوقعه الصالحون العارفون ويسألون المعبود فى رفعه قبل نزوله .

فجاءت نبوة الإسلام بجديد باق لم تسبق له سابقة فى الدعوات الدينية ، ولاحاجة بعده إلى جديد ولااستطاعة فيه للتجديد ، لأنه يخاطب فى الإنسان صفته الباقية وخاصته الملازمة ، وهى خاصة النفس الناطقة بين الأحياء ، وخاصة الضمير المسئول الذى يحمل تبعته ولاتغنيه عنها شفاعة ولا كفارة من سواه .

إنها نبوة فهم وهداية وليست نبوة استطلاع وتنجيم ، وإنها نبوة هداية بالتأمل والنظر والتفكير وليست نبوة خوارق وأهوال تروع البصر والبصيرة وتروع الضمائر بالخوف والرهبة حيث يعييها قبول الإقناع .

ولقد تقدمت نبوة الإسلام دعوات كثيرة من أكبر الدعوات شأنا فى تاريخ العقيدة ، ولكنك لو عرضتها على مؤرخ ينظر فى أدوار التاريخ – كائنا ما كان معتقده فى الدين – لم يستطع أن يختتم دور النبوة فى تاريخ الإنسانية بدعوة من تلك الدعوات على جلالة شأنها وبعد أثرها فى العصور اللاحقة بعصرها ؛ لأنها جميعا قد بدأت وانتهت قبل أن توجد فى أذهان الناس فكرة الإنسانية العامة وفكرة الإنسان المسئول المحاسب على أمانة العقل والضمير .

إن اختتام محمد للنبوات عقيدة يصدقها المسلم بوحي إيمانه ، ولكنها كذلك حقيقة علمية يفهمها بفكره ويشهد دلائلها في العصور الغابرة كما يشهدها في عصره مؤتمراً بأوامر دينه .

وإنه ليطيب للكثيرين من أبناء العصر الحاضر المفخورين بعلومهم ومخترعاتهم أن يهتفوا قائلين : (نحن في عصر العلم .. نحن في عصر العقل .. نحن في عصر الحقائق الواقعة . . نحن في عصر آيات الطبيعة) .

فليهتفوا بذلك ماطاب لهم أن يهتفوا ، وليذكروه ويعيدوه تحديا لما شاءوا من النبوات ، إلا النبوة التي ختمت جميع النبوات ، لأنها هي قالت للناس قبل أربعة عشر قرنا ما يقولونه الآن .

- ٣ -

محمـــد :

يقول الأديب المهجري ميخائيل نعيمة من مقالة له (١) :

كان يوما محجلا في الزمان ، ذلك اليوم الذي شهدت فيه مكة ولادة الطفل محمد بن عبد الله القرشي.. إن يوما نحن فيه ، ليختلف أفدح الاختلاف عن اليوم الذي شهد ولادة الطفل محمد في مكة ، فلم تأبه به مكة ، ولا الجزيرة ولا غيرها من أقطار الأرض ، إذ أن أحدا لم يكن على علم بمعنى الرسالة التي كانت مطوية في أحشائه .

وها نحن نجتمع هنا ، ويجتمع الملايين غيرنا في شتى بقاع المعمورة ، لنستعيد ذكرى ذلك اليوم ، وتلك الرسالة ، فهل يعني اجتماعنا أننا فهمنا معنى اليوم ، ومعنى الرسالة ، وأن فهمنا لها قد بدل ظلماتنا أنوارا ، ومخاوفنا طمأنينة ، وشكوكنا يقينا ، صداقة ، وأحقادنا غفرانا ، ومطامعنا قناعة ،

---

(١) العرفان - بصيدا - شعبان ١٣٨٦ هـ .

وخساساتنا رفعة ، ومذلاتنا عزة : وكبرياءنا دعة ، وتناحرنا تسامحا وتعاطفا ؟ .

ألا ليته كان لى أن أجيب بالإيجاب .

أيكفيكم فهما لمعنى مولد الرسول ، ومعنى رسالته ، أن تمجدوا المولد والمولود ؟ ، إنه لأحب إلى قلب الرسول بكثير أن تتمجدوا برسالته بدلا من أن نمجد اليوم الذى ولد فيه .

— ٤ —

مستشرق يتحدث عن الرسول :

يقول نيكلسون المستشرق الإنجليزى المشهور (ت ١٩٤٦) فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » متحدثا عن الرسول :

لم يكن محمد خيالياً دون أن يكون عمليا ، ففى دينه من الشعائر والفروض ما فيه مشقة للنفوس والأجسام كالصوم والحج والجهاد وما إلى ذلك ، غير أنه أضفى بروحه وروحانيته على كل هذه الأنواع من المشاق روحانية عظيمة عليها مسحة من الزهد والخضوع والنظام لا تزال رغم القرون تحتفظ بها إلى يومنا هذا .

إن محمداً بما أظهره من أول عهده من آيات العظمة النفسية ليدعونا إلى الإعجاب العظيم به ، إذ هو مؤمن بيقينه مدفوع بأسمى فكرة يستطيع الإنسان أن يبشر بها بالحق الذى أوحى إليه به .

على أن محمدا كاد يكون فى تلك الحال منفردا ، ولكنه شجاع لا يعرف الخور ولا الخوف ولا الوجل أمام أقوى صرح للخرافات والمعتقدات الباطلة فلم يستسلم أبدا للتهديد والوعيد والاستهزاء . . . بل أوعد وهدد وهزىء هو من أعدائه ، وتحداهم فى صميم عقائدهم رابط الجأش هادىء البال لايبالى بما يفعلون .

ذلك ما كان من عهد محمد فى مكة ، فلما هاجر منها إلى المدينة كان قد خلص من مهمة إرساء القواعد الأساسية للدعوة ، وصار الرجل السياسى .

ومما لاشك فيه أن هجرة محمد أفادت الإسلام فائدة عظمى ، وكانت أكبر عامل فى انتشاره وعلو كلمته وتوطيد دعائمه ـ ذلك أن محمداً لجأ إلى قوم ليس بينه وبينهم قرابة،وإنما تربطه بهم جامعة الدين ووحدة العقيدة ، وقد قام بذلك خير قيام فى كياسة عظيمة وحذق كبير . .

وليس من شخص آخر على الطلاق كان أكثر من محمد قدرة على التأثير فى أمته وتكييف أحوالها ، ففى عشرين عاما زرع كل بذور التطور السياسى والعقلى التى يمكن أن يمر بها العرب عبر القرون .

وقال نيكلسون نقلا عن أحد الكتاب قوله : إننا نرى فى محمد ذلك الإدراك الذى تكسوه الرزانة المعهودة فى عشيرته ، كما نرى فيه الشرف وعزة النفس والحصافة وصحة التقدير والتغلب على النفس ـ تلك الصفات التى لايختص بها إلا أولو العزم وأرباب القوة فى العقل السليم والجسم السليم .

ولقد نقلته ظروف الحوادث ومقتضيات الأحوال من نبى إلى مشرع إلى حاكم غير أنه لم يعبأ لنفسه بشىء من ذلك بل هو لايبغى ولا يريد إلا أن يكون رسول الله رب العالمين إذ فى هذا التعريف شمول للإسلام كله .

— ٥ —

مؤرخ غربى يتحدث عن رسول الله :

يقول و . ل ديورانت فى كتابه « قصة الحضارة فى العالم » يتحدث عن الرسول صلى الله عليه وسلم :

« إذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر فى الناس ، قلنا إن محمدا كان من أعظم عظماء التاريخ ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحى والأخلاقى لشعب عاش فى دياجير الهمجية وحرارة الجو وجدب الصحراء. وقد نجح فى هذا الغرض نجاحا لم يدانه فيه أى مصلح آخر فى التاريخ كله ، وقد وصل إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدين ، ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه شديد التمسك بالدين وكفى ، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب إلى سلوك الطريق الذى سلكوه .

كانت بلاد العرب لما بدأ دعوته صحراء جرداء ، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان ، قليل عديدها ، متفرقة كلمتها ، وصارت عند وفاته أمة موحدة متماسكة . وقد كبح جماح التعصب والخرافات ، وأقام فوق اليهودية والمسيحية ودين بلاده القديم دينا سهلا واضحا ، وصرحا قوامه البسالة والعزة القومية ، واستطاع فى جيل واحد أن ينتصر فى مائة معركة وفى قرن واحد أن ينشىء دولة عظيمة ، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم فى العالم .

ويقول « و. ل ديورانت » عن حياة محمد .. لقد كانت غاية فى البساطة فقد كانت المساكن التى أقام بها كلها واحدا بعد واحد من اللبن ، أما الفراش فلم يكن أكثر من حشية تفرش على الأرض ، ووسادة من ليف ، وكثيرا ما كان يشاهد وهو يخصف نعليه ، أو يرقع ثوبه ، أو ينفخ فى النار ، أو يكنس أرض الدار ، أو يحلب عنزة البيت فى فنائه ، أو يبتاع طعامه من السوق ، وكان يأكل طعامه بيده ويلعق أصابعه ، وكان طعامه الأساسى التمر وخبز الشعير ، وكان اللبن وعسل النحل هما كل ما يستمتع به من الترف فى بعض الأحيان .

وكان لطيفا مع العظماء ، بشوشا فى وجه الضعفاء ، عظيما مهيبا أمام المتعاظمين المتكبرين ، متسامحا مع أصحابه ومع الناس جميعا ، يشترك فى

تشييع كل جنازة تمر به ، ولم يتظاهر قط بأبهة السلطان ، وكان يرفض أن يوجه إليه شيء من التعظيم الخاص ، يقبل دعوة العبد الرقيق إلى الطعام ولا يطلب إلى عبد أن يقوم له بعمل يجد لديه من الوقت والقوة ما يمكنه من القيام به بنفسه .

ولم يكن ينفق على أسرته إلا القليل من المال رغم ما كان يرد إليه من الفيء وغيره من الموارد ، أما ما كان ينفقه على نفسه فقد كان أقل من القليل ! .

وكان صوته موسيقيا حلوا يأسر القلوب ، وكان مرهف الحس إلى أقصى حد . لا يطيق الروائح الكريهة ، ولا صلصلة الأجراس ، ولا الأصوات العالية .

الفصل التاسع

الشعر فى مدح الرسول

— ١ —

قال أبو دهبل الجمحى يمدح رسول الله :

إن البيوت معادن فنجاره ذهب وكل بيوته ضخم
عقم النساء فما يلدن شبيهه إن النساء بمثله عقم
متهلل بنعم ، بلا متباعد سيان منه الوفر والعدم

— ٢ —

ومن أشرف شعر النابغة الجعدى قصيدته التى مدح بها رسول الله وهى طويلة تبلغ مائتى بيت :

خليلى عوجا ساعة وتهجرا ولوما على ما أحدث الدهر أوذرا
ولا تجزعا إن الحياة ذميمة فخفا لروعات الحوادث أوقرا
وإن جاء أمر لا تطيقان دفعه فلا تجزعا مما قضى الله واصبرا
ألم تريا أن الملامة نفعها قليل إذا ما الشىء ولى وأدبرا
تهيج البكاء والندامة ثم لا تغير شيئاً غير ما كان قدرا
خليلى قد لاقيت مالم تلاقيا وسيرت فى الأحياء مالم تسيرا
تذكرت والذكرى تهيج لذى الهوى
ومن عادة المحزون أن يتذكرا
وإنا لقوم ما تعود خيلنا إذا ما التقينا أن تحيد وتنفرا
وننكر يوم الروع ألوان خيلنا
من الطعن حتى نحسب الجون أشقرا

وليس بمعروف لنا أن نردها ... صحاحاً ولا مستنكراً أن تعقرا
بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال له النبي : فأين المظهر يا أبا ليلى ؟ فقال : الجنة يا رسول الله ، فقال: إن شاء ، إن شاء الله .

ثم استمر في إنشاده ، فقال:

أتينا رسول الله إذ جاء بالهدى ... ويتلو كتاباً كالمجرة نيرا
وجاهدت حتى ما أحس ومن معى ... سهيلا إذا ما لاح ثمت غورا
أقيم على التقوى وأرضى بفعلها ... وكنت من النار المخوفة أحذرا
ولا خير فى حلم إذا لم يكن له ... بوادر تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال له النبي : لا يفضض الله فاك ، فأتت عليه مائة سنة ولم تسقط له سن، ثم كان إذا سقطت له سن نبت غيرها ، وكان فوه يبرق ويتلألأ .

— ٣ —

وقال حسان يفتخر بيوم بدر ويعير الحارث بن هشام بفراره عن أخيه أبي جهل بن هشام :

تبلت فؤادك فى المنام خريدة ... تسقى الضجيع ببارد بسام
كالمسك تخلطه بماء سحابة ... أو عاتق كدم الذبيح مدام
وتكاد تكسل أن تجيء فراشها ... فى لين خرعبة وحسن قوام
أما النهار فلا أفتر ذكرها ... والليل توزعنى بها أحلامى
أقسمت أنساها وأترك ذكرها ... حتى تغيب فى الضريح عظامى
يا من لعاذلة تلوم سفاهة ... ولقد عصيت إلى الهوى لوامى
بكرت على بسحرة بعد الكرى ... وتقارب من حادث الأيام

زعمت بأن المرء يكرب يومه | عدم لمعتكر من الاصرام
إن كنت كاذبة الذى حدثتنى | فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم | ونجا برأس طمرة ولجام
جرداء تمزع فى الغبار كأنها | سرحان غاب على ظلال غمام
لولا الإله وجريها لتركنه | جزر السباع ودسنه بحوامى
طحنتهم والله ينفــذ أمره | حرب يشب سعيرها بضرام

— ٤ —

ومن قصيدة له أولها فى الجاهلية وآخرها فى الإسلام ، يصف فى أولها الخمر ويهجو فى آخرها أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان هجا النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم ؛ وكان إسلامه قبيل الفتح قبل دخول مكة :

عفت ذات الأصابع فالجواء | إلى عــذراء منزلها خلاء
ديار من بنى الحسحاس قفر | تعفيها الروامس والسماء
وكانت لايزال بها أنيس | خلال مروجها نعم وشاء
فدع هذا ولكن من لطيف | يؤرقنى إذا ذهب العشاء
لشعثاء التى قــد تيمته | فليس لقلبه منها شفاء
عدمنا خيلنا إن لم تروها | تثير النقع موعدها كدا
يبارين الأسنة مصغيات | على أكتافها الأسل الظماء
تظل جيادنا متمطرات | تلطمهن بالخــمر النساء
فإما تعرضوا عنا اعتمرنا | وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلاد يوم | يعين الله فيه من يشاء
وقال الله قد يسرت جندا | هم الأنصار عرضتها اللقاء
لنا فى كل يوم من معد | سباب أو قتال أو هجاء
فنحكم بالقوافى من هجانا | ونضرب حين تختلط الدماء

وقال الله قد أرسلت عبدا   يقول الحق إن نفع البلاء
شهدت به وقومى صدقوه   فقلتم ما نجيب وما نشاء
وجبريل أمين الله فينا   وروح القدس ليس له كفاء
ألا أبلغ أبا سفيان عنى   مغلغلة إذا برح الخفاء
بأن سيوفنا تركتك عبدا   وعبد الدار سادتها الإماء
هجوت محمداً فأجبت عنه   وعند الله فى ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء   فشركما لخيركما الفداء
هجوت محمداً براً حنيفا   أمين الله شيمته الوفاء
أمن يهجو رسول الله منكم   ويمدحه وينصره سواء؟
فإن أبي ووالده وعرضي   لعرض محمد منكم وقاء

— ٥ —

وقال حسان أيضاً فى وقعة بدر يصف انتصار المسلمين على المشركين :

عرفت ديار زينب بالكثيب   كخط الوحى فى الورق القشيب
تداولها الرياح وكل جون   من الوسمى منهمر سكوب
فأمسى رسمها خلقا وأمست   يبابا بعد ساكنها الحبيب
فدع عنك التذكر كل يوم   ورد حزازة الصدر الكئيب
وخبر بالذى لا عيب فيه   بصدق غير أخبار الكذوب
بما صنع المليك غداة بدر   لنا فى المشركين من النصيب
غداة كأن جمعهم حراء   بدت أركانه جنح الغروب
فلاقيناهم منا بجمع   كأسد الغاب مردان وشيب
أمام محمد قد آزروه   على الأعداء فى لفح الحروب
بأيديهم صوارم مرهفات   وكل مجرب خاظى الكعوب
بنو الأوس الغطارف آزرتها   بنو النجار فى الدين الصليب
فغادرنا أبا جهل صريعاً   وعتبة قد تركنا بالجبوب

وشيبة قد تركنا في رجال ذوى حسب إذا نسبوا حسيب
يناديهم رسول الله لما قذفناهم كباكب في القليب
ألم تجدوا كلامى كان حقا وأمر الله يأخذ بالقلوب
فما نطقوا، ولو نطقوا لقالوا صدقت وكنت ذا رأى مصيب

— ٦ —

وقال زهير بن صرد يستعطف النبي صلى الله عليه وسلم في فك سبى هوازن :

امنن علينا رسول الله في كرم فإنك المرء نرجوه وننتظر
امنن على بيضة قد عاقها قدر ممزق شملها في دهرها غير
امنن على نسوة قدكنت ترضعها إذ فوك يملؤه من محضها الدرر
لاتجعلنا كمن شالت نعامته واستبق منا فإنا معشر زهر
إنا لنشكر آلاء وإن كفرت وعندنا بعد هذا اليوم مدخر

— ٧ —

وقال عبد الله بن الزبعرى يعتذر مما فرط منه قبل إسلامه:

منع الرقاد بلابل وهموم والليل معتلج الرواق بهيم
مما أتانى أن أحمد لامنى فيه فبت كأننى محموم
إنى لمعتذر إليك من التى أسديت إذ إنا في الضلال أهيم
أيام تأمرنى بأغوى خطة سهم وتأمرنى بها مخزوم
وأمد أسباب الهوى ويقودنى أمر الغواة وأمرهم مشئوم
فاليوم آمن بالنبى محمد قلبى ومخطىء هذه محروم
فاغفر فدى لك والداى كلاهما ذنبى فإنك راحم مرحوم
وعليك من أثر المليك علامة نور أضاء وخاتم مختوم
مضت العداوة وانقضت أسبابها ودعت أو أصر بيننا وحلوم

— ٨ —

وقال النعمان بن العجلان من ألسنة الأنصار وشعرائهم مفتخرا بإكرام المهاجرين :

فقل لقريش نحن أصحاب مكة ... ويوم حنين والفوارس فى بدر
نصرنا وآوينا النبى ولم نخف ... صروف الليالى والعظيم من الأمر
وقلنا لقوم هاجروا مرحبا بكم ... وأهلا وسهلا قد أمنتم من الفقر
نقاسمكم أموالنا وديارنا ... كقسمة أيسار الجزور على الشطر

— ٩ —

وقال كعب بن مالك يرثى حمزة عم الرسول ؛ وهو من شهداء مؤتة :

ولقد هددت لفقد حمزة هدة ... ظلت بنات الجوف منها ترعد
قرم تمكن فى ذؤابة هاشم ... حيث النبوة والندى والسؤدد
والتارك القرن الكمى مجدلا ... يوم الكريهة والقنا يتقصد
وتراه يرفل فى الحديد كأنه ... ذو لبدة شثن البراثن أربد
عم النبى محمد وصفيه ... ورد الحمام فطاب ذاك المورد
شتان من هو فى جهنم ثاويا ... أبدا ومن هو فى الجنان مخلد

— ١٠ —

وقال حسان يبكى سعد بن معاذ ورجالا من شهداء الصحابة :

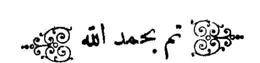
ألا يا لقومى هل لما حم دافع ... وهل ما مضى من صالح العيش راجع
تذكرت عصرا قد مضى فتهافتت ... بنات الحشا وانهل منها المدامع
صبابة وجد ذكرتنى إخوة ... وقتلى مضى فيهم طفيل ورافع

وسعد فاضحوا فى الجنان وأوحشت منازلهم فالأرض منهم بلاقع
وفوا يوم بدر للرسول وفوقهم ظلال المنايا والسيوف اللوامع
دعا فأجابوه بحق وكلهم مطيع له فى كل أمر وسامع

— ١١ —

ابن رواحة :

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع


تم بحمد الله

فهرست الجزء الرابع

للمؤلف :

١) الخفاجيون في التاريخ
٢) قصص من الحياة
٣) أحلام السراب (شعر)
٤) سيرة رسول الله - ٤ أجزاء

رقم الإيداع ٤٩٢٢ – ١٩٧١